



لَدَيْكُمْ شَوْقٌ ضَائِقٌ

عصر الرواية والرواية

الأنجلو

تاريخ
الأدب
العربي



عصر
الدول والإمارات
الآنندلس

تاريخ
الأدب العربي

عصر
الدول والإمارات
الأندلس

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٨)
المؤلف :	شوقى الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٨ :	٦ - ١٩١ - ٥١٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٩٨٢٥١ +

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسي منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م مع عرض لتكوين مجتمعيها وظواهره وما تسرب إليه من تشيع وسري فيه من زهد وتصوف. ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م - ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هي أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضُم عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى في تلك الحضارة قواعدا المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون في هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلي الوافد على قرطبة في أول عهد عبد الرحمن إذ سُنَّ للمجتمع الأندلسي سُننًا ظلت راسخة فيه، سُننًا عمت المأكل والملبس وما يتصل بها من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين. وأرسى عبد الرحمن قواعد الحكم متخذاً له مجلس وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة. وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قوية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع في الموسيقى الإسبانية والأوربية. وحظيت المرأة في هذا المجتمع الأندلسي بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثاني كيف أن إيبيريا - قبل الفتح العربي - لم يكن لها دور حضارى بارز في الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم في هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية

وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس في مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البَطْرُوجِي وهو - لاكبلر (Kepler) الألماني - الأب الحقيقي لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوي في الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر في الطب الإكلينيكي وابن البيطار في الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة في الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذي ظل يُدرّس قرونًا متعاقبة في جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكان أثره العميق في الفكر الأوربي حاسمًا، وخاصة في حركة التحرر والإصلاح الديني.

وأوضح الحديث عن النشاط اللغوي بالأندلس اكتشاف ابن جزم وابن سيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة. وتبين في الفصل ما لعلماء مصر من أستاذية لغير عالم أندلسي في اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحمل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصري، وحملهم لقتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين في الفقه. وأشار الحديث في الفصل إلى التقاء المبدئين الأساسيين في فلسفة ديكارت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود، مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعًا: مَنْ أسلم منهم وأبنائهم المولدين وَمَنْ ظل على دينه المسيحي ولم يدخل في الإسلام. وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس البرُّو المشهورة التي يتحسر فيها على إهمال الشبان المسيحيين في إيبيريا لغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدراوتهم لما ألف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون في شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثرًا وشعرًا. ويؤكد بالنتيجة في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي تلك الصيحة ويدعم دلائلها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضًا بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية. وفي ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الإسباني ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب في حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون في تلك الحياة عامة عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نظمت باللاتينية الدارجة

وهي إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تُروى في المشرق وتتداول به وتحاكي فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدي - كتباً مختلفة. وامتازت الأندلس بكثرة الشعراء فيها كثرة مفرطة، ويدل على ذلك وفرة ما وُضع فيهم هناك من كتب، وخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام بجلداته المقصورة على عصر أمراء الطوائف، وقد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسي في هذا العصر القصير الذي لا يكاد يتجاوز ثمانين عاماً، فما بالنا بمن وراءهم من الشعراء في قرون الأندلس الثانية. ومن يرجع إلى كتاب نفع الطيب يجد المقرئ يترجم فيه لعشرين شاعراً كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن. ونفذت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الجم إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وذهب غير مستشرق إسباني إلى أن هذا الفن نشأ في الأندلس من المزج بين الشعر العربي وبعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الدارجة، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دعوهم في هذا المزج المزعوم. والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسططات المشرقية المعروفة في الشعر العربي، وهي تتألف من أذوار، وكل دور فيها يُحتم بشطر تغاير قافيته قوافي الشطور السابقة له في الدور بينما تتحد مع قوافي جميع الشطور الأخيرة في الأذوار المختلفة، وكل ما بين المسططات والموشحات من خلاف أن الشطر الأخير المتحد القافية في أذوار المسططات تعدد في الموشحات مما يقطع - دون أدنى ريب - بأنها تطورت تطوراً طبيعياً عن المسططات. ويؤكد ذلك أن من أنشأوها وطوّروها في الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة فقد أنشأها عربي في أواخر القرن الثالث الهجري هو مقدم بن معاني، وطوّرها في القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس عريان هما يوسف بن هرّون الرمادي الكندي وعبادة بن ماء الساء الخزرجي الأنصاري. وألم هذا الفصل الثالث بكبار الوشاحين وترجم لنفر منهم، كما ألم بالأزجال التي نظمت بالعامية على غرار الموشحات مع الترجمة لناظمها الأندلسي المشهور: ابن قزمان. واستعرض الفصل - بعد ذلك - روائع شعراء المديح في الأندلس على مر العصور مع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرض الفصل الرابع روائع الأغراض في بقية الشعر الأندلسي مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - في رأينا -

على جميع البلدان العربية بما بثت فيه من لوعات وَجَدَ لُحِبْ عَذْرَى ظَلَّتْ جَذْوَتَها تتقد وتتهج في أشعار الغزلين الأندلسيين قرونًا متوالية، وبلغ من توهج تلك اللوعات أن امتد شررها الساطع إلى الأدبين الإسباني والفرنسي وبالتالي إلى الآداب الأوربية، ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الإسبان في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وكأنها قصة محب عذرى عربى فتن بحبوبته حتى جُنَّ أو كادُجُنَّ، وسرفانتس في سطورها الأولى ينسبها إلى عربى حدثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين، ونغضى معه في القصة فنرى الحب العنيف يخرج منه دائمًا عن طوره إذ يعيش هائلاً على وجهه والجنون يصيبه أحياناً وكلما أفاق منه تغنى بحبه مفتوناً بصاحبته مثله الأعلى في الجمال البارع. ويعم شرر هذا الحب عند شعراء الروبادور الفرنسيين في القرن الثاني عشر الميلادى. إذ نراهم مفتونين بحبوباتهم فتنة تدفعهم إلى التذلل لها وتمجيدها لما تستشعره من عفة وجمال مثل قرينتها الأندلسية. وما أثر به الغزل الأندلسى العفيف في هؤلاء الشعراء ترداد ذكرهم للوشاة والرقباء، وأيضاً ظهور القافية في أشعارهم لأول مرة في الشعر الأوربى. وللمرأة الأندلسية في هذا الغزل العفيف المتنازع مشاركة واضحة، وتغزلت أحياناً في أختها الأندلسية الفاتنة، وكانت لبعضهن ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر. وعكس غير شاعر عواطفه في عناصر الطبيعة من حوله، مدوناً في شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحوّل الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وبنوّه البحث دائماً يتفوق الأندلس على البلدان العربية في شعر الطبيعة، لما كان يتملّ به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجرى فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلاً، وكان أهل الأندلس كانوا في عُرسٍ دائم ليلاً ونهاراً. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضى وما يسكب في النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجؤنا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس في كل الأغراض الشعرية - صور في منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد في التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، وبلغ التأثر بالقارئ مُنتهاه في مراثيمهم للشهداء الأبرار في حروب أعدائهم من حملة الصليب الشماليين، ومن أروعها مرثية لابن الزقاق يكى فيها شاباً استشهد في عنفوان شبابه بعد أن أبلى في حرب أعداء دينه بلاء عظيمًا.

ولا تقل عنها روعةً موشحةً على بن حزمون في بكاء بطل بلنسية أبي الحملات قائد الأعنة حين استشهد في معركة ضارية مع حَمَلَة الصليب بعد أن مرَّق كثيرين منهم تمزيقاً. ويتميز ابن وهبون في مرائيه بتأملات عميقة في حقائق الموت والحياة. وبجانب مرائي الأفراد مراث للدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مرائي ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بإشبيلية ونفاه إلى أغمات بالمغرب، ولابن عبيدون مرثية طويلة لدولة المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبيدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الدائرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطير جارح فإن كل ذلك إلى فناء. وأنشد الفصل خواطر شق في الزهد وخاصة لأبي إسحق الإلبيري كما أنشد. خوالج وجدانية متنوعة في التصوف الفلسفي الإسلامي عند ابن عربي وغيره. وتكاثرت المادائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جابر الأندلسي. ومنذ سقوط طليطلة في حجر حَمَلَة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجري حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها في حجور النصارى الشهابيين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبي البقاء الرُنْدِي.

والفصل الخامس خاص بالنثر وكتابه، ويبتدى بعرض روائع الأندلسيين في الرسائل الديوانية مع الترجمة لأهم كتابها الرسميين، وجعلهم جهادهم الدائب للنصارى الشهابيين ونزالهم الضارى لهم يكثر في تلك الرسائل من تصوير مواقعهم معهم والتحول بتلك الرسائل أحياناً إلى ما يشبه منشورات حربية تستثير حمية أهل الأندلس والمغرب لسحق أعداء الدين الخفيف سحقاً لا يبقى منهم ولا يذر، ومن أروع تلك الرسائل المنشور الذي وجهه أبو محمد بن عبد البر إلى أهل الأندلس لحمل السلاح والأخذ بثأر مدينة «بَرْبَشْتَر» حين نكل بها النورمانديون ونصارى الشمال على حين غفلة من أهلها سنة ٤٥٦هـ وتوالت مثل هذه الصيحات، ومُرَّق المغيرون شر ممزق. ولابن القصيرة رسالة ديوانية بديعة بصور فيها انتصار ابن تاشفين والأندلسيين في موقعة الزلاقة وقد بلغ من كثرة قتلى النصارى فيها أن كان الناس يصنعون من رؤسهم صوامع يؤذنون عليها. ولابن أبي الخصال منشور حرى ملتهب للحض على خوض معركة حامية الوطيس، ولابن الخطيب تصوير حماسي لمنازلة أمير غرناطة الغنى باقة النصارى في جيان. وحرى بالعرب في كل عصر أن يرفعوا هذه الرسائل الديوانية الأندلسية وما يانلها شعارات

لمجدهم الحربى على توالى العصور. وتلى الرسائل الديوانية فى الفصل الرسائل الشخصية مع الترجمة لأهم كتبها النابيين وقد استطاعوا أن يتحولوا بها من باب المناسبات وما يتصل به من مثل التهنة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستمناح إلى لوحات أدبية لوصف البطولة الحربية فى جهاد النصارى. وأكثروا من وصف الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن خفاجة فى وصف نزهة، وأبى القاسم بن الجدد فى وصف مطر بعد جذب شديد، وابن أبى الحصال فى وصف ليلة قاسية البرد. وعقدوا فى بعض رسائلهم مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين، عقدها ابن برد وحبيب وأبو عمر الباجى وابن حسداى وحول الفقيه ابن سراج رسالة له فى الشفاعة لشخص يسمى الرزيريز إلى دعاة مرحلة أودعها كل ما يميز طائر الرزورز مما يتصل بريشه وأجنحته وهيبته وأفراخه وأعشاشه، وطارث الرسالة فى الأندلس وحكاها كثير من الكتاب أمثال أبى القاسم بن الجدد وأبى بكر عبدالعزيز بن القبطورنه. وبذلك كله استعالت الرسائل الشخصية فى الأندلس على أبهى كتبها المجلىين - فى بعض جوانبها - إلى لوحات أدبية بارعة.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها فى مقدمتها رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبى العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بديع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيها وراء الطبيعة فى عالم الجن وأن يضمها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة. ويُلَمّ الفصل برسائل ابن برد الأدبية فى المناظرة بين السيف والقلم وفى وصف بخيل صاحب نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضيله لأهب الشاء - أو بعبارة أخرى جلود المَقرز - على البسط صيفا وشتاء. وقد استوحاها من رسالة سهل بن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشح النفس على الجود والكرم. وتحدث الفصل عن رسالتى ابن زيدون الهزلية والجديدة، وأولاهما فى السخرية - على لسان ولادة مهوى بفؤاده - بغريمه فى حبها: ابن عيدوس، وتانيتهما فى استعطاف أبى الحزم جهور حين رَجَّ به فى غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان. ويُلَمّ الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود المفجعة عليها، كما يُلَمّ بالرسائل النبوية التى ضمَّها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنان شوقا حاراً إلى زيارة الرسول ﷺ وطلب الشفاعة. وتكاثرَت المواعظ على نحو ما هو معروف عن منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

ويعرض الفصل أعمالاً نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفى مقدمتهم ابن حزم

وكتابه «طوق المهامة» والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العنرى العنيف وتجارب ابن حزم فيه وتجارب معاصريه في غير موارد بل في صراحة مستحبة، صراحة تسمح فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صفات الفريضة النوعية. والكتاب ترجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتى في كتابه «الحياة المتجددة» وبالمثل تأثر به بعض شعراء الإسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حيان في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد في كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصرية لأمثل لها عند العرب قبله ولاحقه، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة. ومن الطرف النثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبدالله ابن بلقين آخر أمراء غرناطة من بنى زيري، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفى يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال النثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حى بن يقطان لابن طفيل الوادى آشى القيسى وهى قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ في جزيرة مهجورة غما فيها وحده وغما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقا وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد. وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكرى المحض، كالإيمان الحقيقى الصادق عن طريق الأنبياء، يؤدى مثله إلى الاتصال بالله والاتحاد به، وإذن فلا تعارض ولا تناقض بين الفلسفة والدين. وتصادف أن عثر غرسية غوميس في مخطوطة موريسكية بمكتبة الإسكوريال في مدريد كتبت في القرن السادس عشر على قصة تسمى قصة الصنم والملك وابنته تشابه في إطارها الخارجى مع قصة ابن طفيل التى كتبها في القرن الثانى عشر، وبدلا من أن يستنتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حى بن يقطان أو استلهمها إما في أصلها العربى وإما في ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذى استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذى كان شائعا في زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهمية. وتنبه جوتييه في مقدمة ترجمته الثانية لقصة حى بن يقطان لما وقع فيه غرسية من خطأ. وبالمثل أخطأ پالنشيا في توهه تأثر ابن طفيل بالمسيحية في القصة وأن يقطان فيها رمز الله وبالنالى «حى» رمز المسيح ابن الله، والقصة تكتظ بالآيات

والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية. وهي بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لاسابقة له في الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الإسباني كما يتضح في قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التي ذكرها غرسية وأيضاً في قصة النائد (الكريتيكون) الإسبانية لجراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر والتي يقول منتدث بيلايو عنها إنها تتطابق مع قصة حمى بن يقظان تطابقاً واضحاً. وقد كتب على هُداها في سنة ١٧٠٩ الكاتب الإنجليزي دانييل ديفو قصته المعروفة: «روبسن كروزو».

وتحدث الفصل بعد ذلك عن فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريري المعتمدة على الكدبة أو الشحادة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطي وخصائصها في الأسلوب والمضمون، ومع بيان تأثير هذا الفن في الأدب الإسباني خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نشأ عند الإسبان - على هده - ما سُمي بالقصص البيكارسية أو قصص الشطارة والسطار، وبطلها «البيكارو» يعيش - كبطل المقامات - على التسول والشحادة مستخدماً لذلك حيلة وخُدعا شتى.

وألم الفصل برحلات الأندلسيين مبينا أنها تعددت عندهم بسبب أدايمهم لفريضة الحج سنويا، وللإلمام بمراكز الثقافة في المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصرى الشالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ماوراء البلدان العربية في آسيا وشرقى أوربا، ولمرافقة أمراء غرناطة في عهد الأندلس الأخير في رحلاتهم وكذلك في مرافقة بعض سلاطين المغرب في رحلاتهم. ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولا - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التى من شأنها الفُض من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذى أثر به فى الأدب الإسباني والآداب الأوربية. واقه - وحده - ولى الهدى والتوفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٨٩م.

شوقى ضيف

الفصل الأول السياسة والمجتمع

١

التكوين الجغرافي والبشرى^(١)

تقع شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هي جبال البرينيه التي تكوّن حاجزا منيعا بينها وبين أوروبا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يفترقاها في الشرق والغرب، وبينهما ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سبهاها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسي، وهو يطوّق شاليها الغربي في خليج بسكاي ويتصل في جنوبها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق. وتقتد في هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعب التواصل بين أجزائها في الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة في الغرب حيث تصب في المحيط، وهي من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دؤيرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجه وتقع عليه مدريد وطليلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر أنه وتقع عليه بطليوس، فنه الوادي الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرّع نهر شنيل مادّا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نهر لكة ويصب في المحيط بالقرب من قادس. وتصب في البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو في

الأول من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس
وكتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله
عنان وكتاب الإسلام في إسبانيا للدكتور لطفى
عبد الهديع.

(١) انظر في التكوين الجغرافي لإيبيريا كتب
الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافي
الأندلسي والتعريف به في كتاب الجغرافية
والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس.
وراجع في التكوين البشري لإيبيريا الصفحات

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه. وينبع من شرقى إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون بإقليم سرقسطة في النهر الأعلى بإقليم فطالونية ويصب عند طرطوشة جنوبي برشلونة. ويليهِ جنوباً نهر الوادى الأبيض ويصب عند بلنسية، فنهر شُفر بأوديته وفروعه الخصبة ويصب شمالى دانية، ثم نهر شُقورة وعليه تقع مرسية، ويليهِ نهر أندَرش ويصب عند المرية، فنهر البُشَرات ويصب عند شَلُوبينيه.

والمناخ في إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو في الجبال وشمالى البلاد بارد، وهو دافئ في الوديان بالوسط وفي الجنوب. ومناخ الأقاليم في الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم في نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم في الغرب لمناخ المحيط الأطلسى ونباتاته وحيواناته وغياباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن وبسفوحها مراعى، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراعى، وأحواض أنهار بها حبوب وبقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون في تلك الأحواض وما بها من زرع وضَّرع تجرى حياتهم سهلة هَيئة، ومن يعيشون في الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون في سفوحها والقفار ومراعيتها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادرى. وعلى هذه الشاكلة بينا نجد في إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف في أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف في العناصر والأجناس البشرية التى كوَّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تغد عليها، وكان أول الوافدين الفينيقيين، وفدوا عليها في القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة برشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا في شرقها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما في أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها في النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادي وأقبلت معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وسُميَ باسمهم: «فاندالوسيا» وعُرب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسما به جميع إيبريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلوا في عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل أليسانة قرب قرطبة وكثروا في البيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربي إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة في المجتمع الإيبيري عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب في الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسما باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربي نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القشيري، وكان تعدادهم عشرة آلاف وسما باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلوا في سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي فوج عربي ثان، وسمعت العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. وبجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسح له حكام الدولة الأموية في الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكيم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربي كان يُخَصَّى ويبيع، وأصل نشأته في بلغاريا شرقي أوروبا، ولذلك قيل له صقلي، وعم الاسم في الأندلس الرقيق الأوربي جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شبانا ويدخلونهم في الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسي ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخداما في قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا في عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية في عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت في التكوين البشري لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوي والإفريقي والأوربي، وبذلك أصبحت في دمايتها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطةها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منهما نظامها السياسي الخاص.

الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح^(١)

أنتم موسى بن نصير وإلى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ/٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسي غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعاً، وأسّس في بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسّس في بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولّى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبّعة شرقيها على الزقاق لواليتها الرومي البيزنطي يوليان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ/٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبيريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفي سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلستوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا بيوليان حاكم سبّعة البيزنطي حليف أبيهم، ورأى أنه لا قبل له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغري موسى بن نصير - حين لقيه في طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هي عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته في قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبيريا ففي رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمقول أن يكون الباعث الحقيقي لموسى بن نصير على غزوها

وما بعدها وزهرة المشائخ للإدريسي بتحقيق دى جويه وهورى (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروفتسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عتار وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن المحمى ص ٤٣ وما بعدها.

(١) انظر في الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضاً لابن القوطية والمجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى والروض المطار لابن عبد النعم الحميري وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفع الطبعة إحسان عباس) ٢١٥/١ - ٢٢٠، ٢٢١

أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأن ليس بها جيش حقيقى بحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور في ذلك الخليفة، وكان الوليد بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تنغلغل في أقصى الشرق: في أواسط آسيا وفي الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطئ الإيبيرى في سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م ونزل في موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبي إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد وإلى طنجة، فعبر في سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداة سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمى فيها بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطئ إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس. وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلا بد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكلمة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لفريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. وما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيتها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم واه إلا الصديق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربى تعرب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعاد الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطئ الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسئولياته وتبعاته. وما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم تروى فى كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غربا ماراً برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيها بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن للزريق يمدّ جيشا للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق في سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع للزريق في السهول المنبسطة شرقى قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيرا من مدن إيبيريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرّ للزريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتقادى طارق في الفتح حتى طليطلة عاصمة للزريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كتيبة عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مطلسم عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه للزريق، فوجده فارغا إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجة رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفي أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستقلب على الأندلس حين تكسر أقفال هذا البيت، وواضح أنها أسطورة مختلفة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة في وسط إيبيريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه في قوة كبيرة ليشد أزره ويثبت فتحه ويكمن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجدا، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتا من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معاريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في إيبيريا ما اتبعه في المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبيريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتم فتح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ إنه كان قد امتلأ غيظا وحقدا على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلا من تهنئته بانتصاراته - شدّ وثاقه وهمّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقا ظل الساعد الأيمن في استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق في طليطلة طوال الشتاء في سنتي ٩٤، ٩٥ هـ/ ٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربي حكم قطرا أوريبا، وجاءه نبأ بانتفاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخذ الانتفاضة، واستولى غربيها على ثبلة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحشر ولكنها الجنة». وخرج في ربيع سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادي نهر إرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعاقلها في الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقاً أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقي فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربي، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى في طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى في مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أبيط في أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بسقاية (بشكاي) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطلونيا في الشرق وأراجون والبشكس وقشتالة وجليقية في الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبي مع طارق أمر الخليفة بوفودها عليه، وأتاب عنه في حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظها أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما، ويقال إن موسى حجَّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وإنه توفي بالطريق في المدينة أو في وادي القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكتفياً بما أدى في سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان في إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لها، فأخضعها ابنه عبد العزيز في ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة وبابرة وسنترين وقلمرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لا تزال في الجنوب الشرقي جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بالقة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نه حو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيها بعد، وكانت أربولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطي تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع في مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق في قوس صبره منزح لجأ إلى حيلة، هي نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضبان إيهاماً للمسلمين بأنه لا يزال في المدينة عدد

ضخم من الرجال البواسل المتهينين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفي رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعدُّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التي كانت تتداول في إيبيريا. إذ يكفي أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلدته ويطلب الأمان له ولبلدته فيجانب إلى طلبه كما حدث كثيرا في الفتوح الإسلامية.

(ب) عصر^(١) الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات في هذا العصر، منها كثرة العناصر التي تكون منها الشعب في الأندلس، إذ كان منه أسبابا مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحل به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حل به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية، وكانت بينها خصومات قديمة أشعلتها في العصر الأموي حروب قيس المضرية وكنب اليمينية في موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية في الأندلس هذه الخصومات سريرا. وكان البربر البتر يأخذون صفَّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفَّ القحطانية وكنب اليمينية، وكان الوالي على الأندلس إذا كان يمينا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أو قيسيا مماهيا لكثرة الاضطرابات والفتنة في تلك البلاد. وعامل ثان هيا لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا في نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالي يشعر بشيء من الاستقرار. وعامل ثالث هيا بدوره لكثرة الاضطرابات في الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية في دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولايتها إلى ولايتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة في الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذي تنبه إلى

وما بعدها ١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس الحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن المحبى ص ١٣١ وما بعدها.

(١) انظر في ولاية الأندلس بعد الفتح كتاب الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذاري وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفع الطيب ٢٣٤/١

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمع بن مالك، فطبق سياسة عمر في إنصاف الإسبان المغلوبين والمساواة في الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد في سبيل الله وراء جبال البرينية في غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبت أقدام المسلمين في ولاية سبتانية جنوبي فرنسا وعاصمتها أربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث أن استشهد في آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفي قبل السمع فعاتت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنبسة الكلبي، واقتدى بالسمع في متابعة الجهاد وراء جبال البرينية واستولى على قرقشونة في داخل سبتانية، وتوغل في وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو متراً من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبي وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبسة الوالى قبله - لقبيلته كلب البمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدها ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أصهم الهيثم الكلابى وله بلاء حسن في الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالى ليون. وولياها عبد الرحمن الفاققى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشاً كبيراً لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهري جرون وودردوني، ومضى في اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشاً كثيفاً من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربي، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م بين تور وبواتيه على بعد مائتي كيلو متراً من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعداداً ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن في المعركة فانسحبوا. وولّى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبة بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط في جليقية بأقصى الشمال الغربي من إيبيريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج يسكاى لوعورة الطريق إليه، وتغطى جبال البرينية إلى سبتانية وعسكر بجيشه في عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد في قرقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربي الإسلامى وراء جبال البرينية في غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة في إيبيريا.

وإنما عاق العرب عن المضى في هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه في الأندلس - منذ أول العقد الثالث في القرن الثاني - من عصبيات عنيفة أخذت تضطرم

اضطرابا شديدا لا بين العرب المضرية واليمنية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينها في المغرب، واضطر هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عباض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكتاب بلج بن بشر والى الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم في الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا في بلدان كثيرة هناك وخشى الوالى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة. وتعاون مع الوالى في القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة في شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم في المغرب. وكانت من البربر كثرة في جليقية وحوض نهر الدويرة وفي الأراضى الواقعة شمالى نهر تاجه، فتركوا تلك الديار جميعا تنعى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا في الأندلس وحدها بل أيضا في ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرنيه في غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفنا على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمره ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين في حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسما أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئين. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفى وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين في الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتها. وهاجت الفتن والحروب بين الفتنين، وولى - من قبل والى المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط في التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية وأيضاً بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمنيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهري، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشاراً له ووزيراً، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد في غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُولاً ما زالت تناضل المسلمين قروناً متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

٣

الدولة الأموية^(١)

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية في المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين في مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. في هذه الأثناء فرّ شاب أموي في التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقيا هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمّي عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثياً في أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت في المشرق فقد قامت في الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقيا ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان يأحدي قرى العراق مع أختين له وأخ صغير في الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكّلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

والقنيس من أبناء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالمنا ومعه رفهقان. وراجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عتّان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى.

(١) انظر في الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام في خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفع الطيب في مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ١١٦/٤ وما بعدها

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أخته أن يرسلوا إليه بوضع عينه لها في الشام مولاه بدرا ومولاها سالما. وحين كان بهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتها جنود العباسيين وعرضت عليهما الأمان، وكان الشعب قد أخذ يخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه في الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيوف الجند العباسي تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذي عينه لأخته بالشام فوجد بدرا وسالما في انتظاره ومعهما مال وجواهر. ومضى معهما مسرعاً إلى إفريقية وأخذ يتنقل فيها بين قبائل البربر، واستقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياه طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتساق مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والي المغرب أحسّ بخطر عبد الرحمن فأرسل في طلبه، وكاد أن يقع في يد طالبه، لولا أن خبأته امرأة من قبيلة نفزة في ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيتحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شيء من العلم بالنجوم، إنما هي أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبد الرحمن وجميعها وضعها قصاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبد الرحمن وبيته في الأندلس. وتساق أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية في الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمنية التي طالما أيدت أسرته في صفين وفي مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكوّن سريعاً جيشاً للقاء والي يوسف الفهري ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندحر جيشها وأسر الصميل ومات في السجن خنقاً، أما يوسف ففرّ إلى طليطلة وفي إحدى قراها لقي حتفه.

وفي مساء هذا الانتصار في اليوم العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصلى بالناس وخطب في الجند معلناً ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، وأخذ يحاول جاداً أن تكون دولته في قرطبة امتداداً لدولة آبائه في دمشق، وكان أول ما مهّد به لذلك قطعه الخطة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه في الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به في أول أمره، فقبض عليهم وحزّ رهوسهم، وقيل إنه وضعها في جوالق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والي العباسيين في القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن صقر قريش بحراً. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس في بيته وأن يكون وراثياً في أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث في القرن الخامس الهجري لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثي حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين في دمشق، وكانوا - مثلهم - حكاماً مستبدين لا يشركون في حكمهم أحداً، فكل أزمة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل في الأندلس تطف هذا الحكم الاستبدادي وتخففه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامة يأبون في أحوال كثيرة إلا أن يُسمع لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ في الأندلس نظاماً للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون في دمشق يتخذون لأبنائهم المؤيدين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤيدين لأبنائهم في قرطبة، وكان لذلك أثره في رعاية الأمويين في الأندلس للأدب وأهله وأيضاً للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم في دمشق يرعونهم. واستنوا سنة أسلافهم في بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصراً بعيداً عن دمشق في البوادي ساء الرصافة أو منية الرصافة، وحاكاه في قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصراً شامى قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذ للتنزه ولسكنائه في كثير من أوقاته، وتيمه أبناؤه ببنون لأنفسهم قصوراً خارج قرطبة، وكانوا كذلك يبنون دوراً لأبنائهم يعلمون فيها ويؤدون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه في بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموي الكبير في دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبني مسجدًا في إشبيلية وفي بلدان أخرى متعددة. وعنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإداري والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون في دمشق. ومن تنمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخاذه داراً للسكة وضرب العملة فيها باسمه، واتخاذه مذهب الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساساً للفتوى والقضاء في الأندلس، ومن تنمة ذلك أيضاً أن نجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الفسافي حاجباً بالضبط كما كان يسمى أسلافه في دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شغل أسلافهم في دمشق بثورة ابن الأشعث في العراق وثورات الخوارج والشيعية، وكانت ثورات الأندلس دائماً حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبيات - تحدثنا عنها - بين اليمينية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصبية جديدة هي عصبية المؤلدين من أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان وانضم إليهم المسألة (المسلمون الجدد من الإسبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد تنادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثرون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات في الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليلة وأخدها عبد الرحمن جميعاً. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب في الشمال مع الإمارات الإسبانية، وعلى نحو ما حوّل أسلافه في دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهي حملات صيفية كانت توجه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه في قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التي رأيناها في عصر الولاة والتي كانت قد توغلت في جنوبي فرنسا الغربي حتى بواتيه ونهر الرون، إذ أدخل عبد الرحمن كل ما كان بأيدي العرب من أرض شمال جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان ينفس عليه سلطانه واليان عربيان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قطلونيا وبلغا من خيانتها أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦٦ هـ / ٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلاً واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية في قطلونيا مهدت لاستقلال تلك المنطقة. وفي أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكنس بنقضون على مؤخرته ومزقوها تمزيقاً هي وقائدها رولان الذي تكونت حوله - فيها بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفي عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموي هناك كان يضع في اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم في تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضى قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرني بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموى في قرطبة الرعية التي كان يخشاها والقضاة والفقهاء أو علماء الدين، وظل ذلك مرعياً طوال أيام الأمويين في الأندلس حرصاً على طلب السمعة وحسن الأحدث بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين في الشمال إلى أن توفي سنة ١٨٠ للهجرة.

وولى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان في السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثر من الصقالة، إذ بلغوا في عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشيء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامة، وكثر تعرض الناس له في الطريق بالسباب، فصلب في سنة ١٩٠ نفرا من الفقهاء، مما جعل مراحل الغضب عليه تفل في قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده في جنوبها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشملت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسلط عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم في دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الرهض الجنوبي منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثائرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب في الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفا، وأنزلهم عبيد الله بن طاهر وإلى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأوا فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم مانتى غادية راثعة لحرب المسيحيين في الشمال، واستطاع البشكنس بقيادة ونفة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم ببارة وظلت وراثية في أبناء ونفة. وحاصرت في سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدي العرب في الشمال الشرقي إقليم قطلونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع في عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد في المغرب إن الحكم كان من أشد بني أمية في الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسي في شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفي سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفي عهده تكاملت أسس الحضارة العربية في الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت في الاستقرار هناك هي الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأتائها ورياشها الفاخرة وحكاها الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيها اكتمل للمجتمع من تكوين فني وحضاري عن طريق وفود زرياب المغني تلميذ إسحق الموصلي على قرطبة في أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للفن والموسيقى وبثه في المجتمع الأندلسي

جوانب حضارية جديدة في الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير المال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعُدَّ ابن حيان وزراره وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسائله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فيها وإلا رُدَّ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عُنى عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ولبه خطة صاحب الرد فيها استرايه المحاكم وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدي أصحاب المناصب والجاه فى الظلمات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامه، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لا يصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لايحيد عن مشورتهم، وبذلك كله أرسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لآيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله ببنائها جواريه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمنية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخذت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطئ الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة هدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبي يحيى الغزال هدية ماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله هدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أوالوفادتين جميعا، وعن عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة النفور على المحيط الأطلسي وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يذكر له بنيانه ثغر مُرسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفي أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأناروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق في قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقد مجمع كنسى في قرطبة للنظر في هذه المحنة، وعقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لبى نداء ربه في سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بم عهد منه، وطالت إمارته في الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة. وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة. وزاد في ترتيب الأداة الحكومية مستكثرًا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين في عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم من اتخذوا العربية لسانا لهم في مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتينان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتبا له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويذكر أنه استعفى الأمير محمدا أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عامًا في الأندلس. وفي سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطئ الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدهم الأسطول ونكل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب في عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفي مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس بالقرب سنة ٢٦٠ وثورة عمر بن حفصون في مالقة سنة ٢٦٧ ودخل في هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلبًا على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين في الشمال. وكان مشغولا بالبنيان فزاد قصور آبائه فخامة، وبني لنفسه قصرا أنيقا في الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمدا في حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيها بحرب عمر بن حفصون في قلعة بيشتر بين مدينتي رنדה ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل آفاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة في صفر سنة ٢٧٥ وولى الإمارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتعهد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للامة بابا في قصره لأخذ رقاعهم والنظر في ظلاماتهم، وبذلك انتعشت الرعية في عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقما شديدا في أيامه، حتى لقد كادت تعم كُور الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسألة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورق عبد الرحمن بن مروان الجليقي وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبي الجواد في باجة وابن وضاح في لورقة بكورة مرسية وغيرها كثيرون، سوى من نار من البربر أمثال بنى ذى النون في شنتيرة. وفي أثناء هذه الفتن والثورات التي امتدت في عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجلالة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهري الدويرة والتاجه وأنشأ به عددا كبيرا من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضى الجديدة المستعربين من نصارى الإيبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لابد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبد الله شعر بذلك في عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبد الرحمن، اتخذها وليا لعهد، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والهند، وكان شابا له اثنان وعشرون سنة، وهاله مارأى في الأندلس من كثرة الثورات، وفي مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسألة والعجم، فقاد إليه جيشا في أول سنة من سنى حكمه، واستولى في طريقه إلى مركز ثورته في بيشتر بالقرب من مالقة على سبعين حصنا، وأعاد الكرة إليه في السنة التالية ورد إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفرأ في السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفي سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن في كنيسة بيشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائيا سنة ٣١٤ وحول كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى غربي الأندلس وعبد الرحمن بن مروان الجليقي، ولم تكد تدخل سنة ٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان في إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة في الأندلس وعاشت في أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيئته على من جاوره من المسيحيين الإسبان في الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتنا الجلالة والقشتاليين واتخذنا منه الحكم المطاع فيها ينشأ بينها من خلاف، وفزع إلى سُدته ملوكها وأمرأؤها يلتصون رضاه، وطار صيته في أوروبا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا في روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذي أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا، وكانت تعقد لهذه السفارات في قصره حفلات فخمة^(١). وكانت الدولة الفاطمية قد قامت في القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية في المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة في المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف في وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بشاقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدي الخلافة الفاطمية في القيروان ولم يعد للعباسيين وجود في المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين في أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربي بعد أن ظلت طويلا تخضع لسلطان العباسيين الروحي قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص في إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر في ذلك منشورا قرىء على الناس في مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ أى بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج في عقيدته بين مبادئ المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبيه الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق في قصره بها وأبهانه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعُني بالمسجد الجامع في قرطبة، فأضاف إليه في اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم في الثغر الأوسط بمواجهة مملكتي نبالغة والجلالفة في الشمال لتكون مركزا للجيش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المريّة على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. وبعده عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

(١) ٢٧٢/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤.

١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢.

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانه على ذلك حنكته في السياسة وتدبير الحكم وخبرته الدقيقة في اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامي عربي كريم من التسامح والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدّد أيام السرور التي صَفَتْ له في هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوماً.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان في السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس في عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها في الداخل والخارج، وأخذت سفارات^(١) ممالك النصارى في الشمال وممالك أوروبا تغد على قرطبة. وحاول البشكنس في بنبلونة والجلالقة في ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ في أراضيها، وأرغمتهما على العودة إلى إعلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه في إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفي عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية في المحيط والشرقية في البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غرباً وشرقاً. وكان قد تمهده العلماء في شبابه فشغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهد إلى جامعة كبرى، وعُنى عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفي قبل إتمامه للزيادة في الجامع فأتمها. ووقع في خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرّض الدولة للحكم المحجّاب الأوصياء وبالتالي لزلزلة لا بد أن تنزل بها سريعاً.

وقام بأمر المؤيد في أول خلافته جعفر المصحفي حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبي عامر المعافري صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها في عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإدارة، وأخذ يُعدّ سريعاً لتفرده بالحجابة، فأغرى المصحفي بالصقالية وأخذ ما في أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك في سجنه، ثم بجعفر بن علي الأندلسي أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبي على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفاً شديد

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها.

وأزهار الرياض ٣٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق في الحكم، ونقل الأموال المخترنة في قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم في رسالته نقط العروس أنه فكر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نفرًا من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك راکف، بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف في أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشًا من البربر، فاستقدم منهم آلافًا أعانوه في غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارّه والجلالة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى في إحداها سنة ٣٧٧ على برشلونة.

وقد أخطأ ابن أبي عامر في تكوينه الجيش البربري الذي أنزله في قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سيء في فتنها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبي عامر ستًا وعشرين سنة إذ توفي سنة ٣٩٢ بمدينة سالم في النهر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده هشام المؤيد ابنة عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا في المكاسب والرفاهية وارتفعت نفاس الأغلاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه في الجهاد وكثرة الغزو للجلالة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الأخيرين سنة ٣٩٧ وتوفي في غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحسًا على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - باب الفتنة العظمى وفسد الناموس، لما انهمك فيه شربًا وزندقة وطعنًا في الدين الحنيف قولًا وفعلًا، وطلب من هشام أن يوليّه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين في الشمال، فنارت عليه الأسرة الأموية، وكان في طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فقتلناه جند سفكوا دمه في جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بنى عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيبه بالمهدى، وكان طائشًا: فرأى - بغير روية - مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دُق في ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجوع الجلالة قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرُّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالة - مثل المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشامًا إلى خلافته، وحجبه واضح الصقلي، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التي استولى عليها المنصور بن أبي عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتحوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود واخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل في الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شدة مشنومات، ويكفي دولته ذلاً وذلماً أن أنشأها وثبَّتْها الجلالة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقلي قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامة خيران إلى المريّة ومُرسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه في سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان والياً لسبتة واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفر المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرَّب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يوماً من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفي بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفي أيامه استوصلت بقية قصور جده الناصر في الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفي ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد في الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتد، وفي سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية في الأندلس.

أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر في غرناطة

(أ) أمراء الطوائف^(١)

تقوُّض الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الوسطى والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافساً أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة في الأدب والعلم. وفي الوقت نفسه أخذت تتخارب فيما بينها، بل أدهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى المجزية صاغراً لمسيحيي الشمال مما قوى في نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. وتقف قليلاً عند أهم المدن التي تكوَّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نقف عندها قرطبة وقد اجتمع الملاء فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختيارهم على أبي الحزم جهور ليكون أميناً على حكمها، وبذلك تأسس فيها نظام جمهوريٍ ارستقراطي يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم في المسائل المهمة، وخلفه في الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملاء، وقوِّض

أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادى (طبع مدريد) والإسلام في المغرب والأندلس لبروفيسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعال تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت).

(١) انظر في هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد في بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيرة لابن الأبار في تراجمها، وكذلك التكملة والجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثاني من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د.إحسان عباس (طبع بيروت) ونفع الطب للمقرئ (بتحقيق إحسان) في مواضع مختلفة والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر

التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمتعمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ في عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيش في الجنوب الغربى للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المتعمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المتعمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتعدُّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفي سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمتعضد وكان جباراً سفاكاً للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهب المسيحيين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبذلك كان مولعاً كبيراً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس. وتوفي سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المتعمد وفي عهده بلغت الإمارة الذروة في السلطان إذ دان له كثير من البلدان في غربي الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفي شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً للملك ليون وقشتالة، وكان شاعراً واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسي، وكان مولعاً بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين في عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغات في المغرب، وبها توفي سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هي إمارة غرناطة تملكها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زيرى الذى اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المرواني بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمته لزهر صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وظل على غرناطة، إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت في النغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى بمدوح ابن درّاج، وتوفي سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تُطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بني هود وكان فارساً مغواراً وله غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وكان شاعراً ومُدحاً للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشاً ضخماً للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق النريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ التورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو متراً في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن في الأسواق بيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشي الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزَّق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة في الشمال الغربي من بربشتر وطُرطوشة في الجنوب الشرقي من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها في إمارته، وتوفي سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤتمن يوسف وكان شجاعاً بأسلاً وحامياً للعلماء والشعراء وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزاً بينه وبين المسيحيين في الشمال، وتوفي شهيداً في حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عباد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتلقاها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا في تملك بلاد الثغر الشمالى الأعلى إلى أن ملكوها جميعاً.

ومن الإمارات المهمة في مَوْسطة الأندلس إمارة طُلَيْطلة نار فيها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضياً ابن يعيش، وتوفي سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ذى النون وأسرتة البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفي سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدراً، اجتمع عنده جُلَّة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قَصْر له تأتق فيه غاية التأتق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون في وصفه، وتوفي سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيء التدبير، وفقر ألفونس السادس فاه على تنفوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده في أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقليان هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد المنصور بن أبي عامر يسمى عبدالعزيز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحاف، وأخذ فارس نصراني يغير عليها هو السيد القبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حياً، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر في مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلي منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقتر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مباشر الصقلي وآلت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة في الشرق مُرْسِيَّة، وهي - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها في زمن أمراء الطوائف المرتضى الرواني وبابيه الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزمهم زاوى بن زبرى وقُتل المرتضى في المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن البسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهي من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صاهد إلى أن توفي سنة ٤٤٣ وورثها ابنه المعتمد، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفي سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفطس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وأدبهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجي كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب أطماعهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون^(١)

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على نفور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينها تؤدي الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارة وبرشلونة، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرها. وأحسُ أمراء الأندلس وفي مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين في الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم في وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضية، وهاله الأمر، فجهز سريعا جيشا جرارا وأعد له أسطولا. عبر به في سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها توا، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس. وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصارى في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان في الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سُحق فيها جيش ألفونس، وفرَّ على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفى ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاستردَّ طليطلة، وكأنه اكتفى بتقليم أطراف العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقى الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثانى سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به في الزلاقة،

للناصرى وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لمبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لمبد الرحمن المحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لمحسن مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفسسال براجعة د. لطفى عبدالبديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

(١) انظر في المرابطين: الجزء الثالث من البهان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفع الطب للمقرئ وتاريخ ابن خلدون والحلة السيرة والتكملة لابن الأثير والمعجب للمراكشى ونظم الجمان لابن القطان (تحقيق د. مكي - طبع الرباط) والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك في الأندلس حامية. وسرعان ما دُبّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٨٤٣ مصمماً - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعاً أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصره سير بن أبي بكر تنفيذ الخطة، فاستنزهم جميعاً ومن أبي أخذه أسيراً مثل المعتمد بن عباد الذي نُفي إلى أغات بالمغرب، أو قُتل بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظل حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبني هود لتكون حاجزاً بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه على وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه في الجهاد فعبّر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تيمناً بجيش إلى أقلش شرقي طليطلة، والتقى بالفرنس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولي عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفي متأثراً بفقده، واستولى تيمم على أقلش وسُنْتِريّة. وفي سنة ٥٠٣ غزا جيش للمرابطين أراضي طليطلة واستولى على طَلْبيرة غربيها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان على بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بني هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون في معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفي سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردّه المرابطون على أعقابهم، وأجلّوا عن غرناطة من كانوا سبباً في استدعائه من النصارى إلى سلا ومكناسة براكش. وفي سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشاً بقيادة يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقي سرقسطة، ولقى جيشاً لألفونس ملك أراجون فمزقه شر ممزق. وتوفي على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفاً مما آذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين في مقدمتهم دوزي وبروكتسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بمسقط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم في مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم في حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبادية بإشبيلية، حتى إذا توفي سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجدد، وتوفي سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسي البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعا كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت في عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين في الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيهما سلطان المرابطين: علي ولابن تيفلوليت حاكم سرقسطة راعى ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبي عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبي بكر. وتبرز من نسلهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سير بن أبي بكر حاكم إشبيلية مددا متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلي، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمثقفين، وتجاوزهم في الشعر ونقده على نحو ما حدث فيها بعد بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأديات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس الناهيون.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة في عصر المرابطين، وهي سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد في الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاعراً، يكاد يلتهمهم جميعا، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كي ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار هو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيعياً أن يعظم شأنهم في هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفتوا بأن الغزالي مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هي حركة الموحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفي هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن في الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضي قرطبة وتبعه في بطليوس ابن قسي وفي المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميي وفي مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بنى غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

(ج) الموحدون^(١)

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق وتلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون في دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سباها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشاً ضخماً وأقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفي سريعاً فخلفه عبد المؤمن بن علي حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة، إذ استطاع القضاء نهائياً على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرنك صاحب قلعة شالية نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشبونة وشترين وقصر أبي دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقي الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلها الموحدون وقضوا عليها في الستينيات، وكان النصارى قد استولوا على المرية من يد ابن الرميى فاستعادوها. وتوفي عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان متقفاً ثقافة واسعة أتيت له في أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت نائراً على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتقاً لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ لجهاد النصارى، وأعاد عليهم الكرة في سنة ٥٨٠ وهي سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصباً للمذهب الظاهري تعصباً شديداً، وفي السنة الثانية من حكمه توفي ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب في السنة التالية ومعها قصر أبي دانس في الجنوب الشرقي لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ في جيش

والثالث من الاستنفا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحسي ومعال تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع.

(١) انظر في الموحدين بالأندلس الجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفع الطب وتاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية للزركشي (طبع تونس) والجزءين الثاني

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعاً كثيرة تزيد على مائتي ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقىا عند حصن الأرك في وسط الطريق بين قرطبة وطليلة، ومُنِيَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجياً بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مهتجاً بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبني منذنته التي عرفت باسم الخيرالدا، وكان حرياً أن يتبع ألفونس إلى طليلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بمقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفي سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفاً وشغلته ثورات مختلفة في المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بني غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدین وأعان ملوك النصارى في الشمال والبابا والأساقفة في جنوبي فرنسا واعدین مساعديه بالغفران وجاءه عبّاد الصليب من كل فجّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدین في حصن العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرك، وهُزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تدر السنة حتى توفي وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفي أيامه أعلن استقلاله ابن أبي حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفي عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفي أيامه عظم شأن بني مرين في المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضاً على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدین.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض الثائرين في الأندلس يعلنون استقلالهم، وفي مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الثائر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَك قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصارى في ماردة شرقي بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميى غيلة في المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعلم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزم في وقعة مع النصارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،

فعدت لبني هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يفاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر^(١) في غرناطة

تنتمي هذه الأسرة إلى حفيد الصحابي الجليل سعد بن عبادَة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب باقه، وكان فارساً مقداماً، رأس في قريته أرجونة شمالي جِيَّان واستولى على جِيَّان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بَسْطَة ووادي آش شمالي غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتدُّ سلطانه في الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلي عن جيان سنة ٦٤٣ للملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له في استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطانه شمالي مالقة والمرية حتى لورقة وجنوبياً حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبله وشريش وشذونة في الجنوب الغربي لفرناطة، ومكَّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبي قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بني مرين على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مريني يسمى شيخ الغزاة يدخل في عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المريني مراراً وظل يشتبك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه، وتوفي سنة ٧٠٨ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل في إقامة بعض منشآت قصر الحمراء واغتيل سنة

الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفع الطب للمقرئ (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ومعال تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

(١) انظر في بني الأحمر بغرناطة أو بني نصر كتاب اللوحة البديرة في الدولة النصرية والإحاطة في أخبار غرناطة (في تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونهضة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع (طبع

٧٢٥ وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الأول، وفي أيامه استولى القشتاليون على طرف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولاين خاتمة الشاعر رسالة في وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الفنى باقه وله القسط الأوفر من منشئات قصور الحمراء، وتوفى سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونوا على القضاء على الإمارة، وقدموا بقوات ضخمة استولوا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصروا غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم ويمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الأسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينا سموا من تنصر منهم ظاهرا الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمراً بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الدينى المقيت الذى أخرج المسلمين من الأندلس هو الذى أتاح لأوروبا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذى ساعد أرسطوف كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثراً - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين تارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون في اكتشافهم لطريق الهند.

المجتمع^(١)

رأينا - فيما مر بنا - كيف كان التكوين البشرى لسكان إيبيريا مزيجاً معقداً من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديماً قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجermanية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العربُ والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرون من الصقالبة المنتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسي مشتركةً في تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا في الإسلام وكانوا يُسمَّون: «مسألة» وُسِّمَ أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وُسِّموا باسم المستربين.

وأخذت تعمل عوامل في المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون في الجيش الفاتح من الإشبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإشبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموي يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضاً روح التسامح الديني الذي بثه الإسلام في أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا في غير هذا الموضع فترة دينية لعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى وrehبانهم، وسرعان

ومقدمته وصفة الأندلس (من نزعة المشتاق) للإدريسي نشر دوزي ودی جوبه (طبع ليدن) ونفع الطب وكتاب ورقات عن المضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاسي عن ابن سعيد نصاً منها عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعة المتجددة في الكويت وبحثاً قجها عن المجتمع القرطبي للدكتور الطاهر مكي في كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحماة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

(١) انظر في المجتمع الأندلسي مواضع مختلفة من المقفيس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السيرة والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليجي بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصري بمريد: المجلد الرابع، والبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسية لابن عبدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقطة العروس في نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثاني من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون

ما انتهت وحل محلها تعصب وطني استشره المسألة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجنب، مما هيا لثورات عبد الرحمن بن الجليقي في بطليوس وعمر بن حفصون في بُشْتَر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. وتوقف قليلا بإزاء الحضارة والفناء والمرأة في الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربي أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون في القسم الجبلي بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعاً يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا في التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفي ذلك يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب: «في أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه، ووافق زمنه انتهاب الذخائر التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس في العناية بالفرش والرياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيفة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحل والحقاق والتحف والأواني والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبي يتحضر في المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها في المأكول والملبس والتزين وكان من أهم العوامل في ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلي في أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذي احتفل به احتفالاً عظيماً وقد علم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألواناً جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن في تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آداباً مختلفة في اغخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأحكام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضاً كيف يتأنقون في فرشهم وتأنيث بيوتهم.^(١)

(١) انظر في هذا الدور الحضاري لزرياب المعتمد وما بعدها.

للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة في الحضارة المادية، وساعدها على ذلك تراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضُرْع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهياً هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتفنن في بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا في عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبنى قصراً أو قصوراً متعددة فحسب، بل يبنى مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون ببنائها لمدة خمسة وعشرين عاماً، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفي الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفي الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليها الذهبية وجوهرية كبيرة تتلألأ في وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل الحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً في نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضاً في نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموي وأبهته في بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة في كتاب الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون^(١) شك. وبنى المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموي في بناء الجامع الكبير الذي ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والانتساع به ولا في بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التي ذكر ابن حيان أن عبد الرحمن الناصر^(٢) كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبي العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البُرّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون في ترجمته للناصر هدية^(٣) وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندي والمسك الذكي والعنبر والكافور والثياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخيول والأبسطة، وأيضاً سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفاً، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى
(٢) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار
الرياض ٢٦١/٢.
(٣) طبع دار المعارف ص ٢٢.
(٤) المقتبس ٢٣٨/٥.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع مائلاً في عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح في تنافسهم في بناء القصور والتفنن في كل ما يتصل بها من أناقة وتنسيق على نحو ما يصور ابن بسام ذلك في وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر المحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور الحيوانات وأطياف وأشجار وثمار، سوى بحيرتين في القصر صُفَّتْ عليها تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة - وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة - هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى في خزائنه ما لا يشتري به سلاحاً للقاء أعدائه، وما هي إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى في حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون في طليطلة إسرافاً في بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكثيرة وكان مشغولاً بزواجه اعتياد الرميكية وفي نفح الطيب أنها رأت يوماً بإشبيلية نساء البادية حولها يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات - في الطين - نياهن عن سوقهن، فقالت له: أُنْتَهَى أَنْ أَفْعَلَ مِثْلَهُنَّ أَنَا وَجَوَارِي فَأَمْرٌ بَعْبَرٌ وَمَسْكٌ وَكَافُورٌ وَمَاءٌ وَرَدٌ، وَصَبْرٌ كُلُّ ذَلِكَ طِينًا فِي الْقَصْرِ وَمَعَهُ قَرَبٌ وَحَبَالٌ مِنْ حَرِيرٍ، وَخَرَجَتْ - هِيَ وَجَوَارِيهَا - يَخْضَعْنَ فِي ذَلِكَ الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفْطٌ ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقداً نفيساً. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف يتمتعون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقاً كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزيينة الحياة.

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف في الحياة أو بؤس لكثرة ما كان في الأندلس من طيبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لهدهى المرابطين الموحيدين ونرى آثاره في بناء السلطان يعقوب الموحدي للجامع إشبيلية ومثذته «الخير الداء» التي لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفاً - على مر الزمن - يعرض مهارة الفنان الأندلسي في المهار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافي البشرة، ومن عيدانه اتخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزنبق في شبالى قرطبة، ويقول الإدريسي في القرن السادس الهجرى إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأواني والحفائق والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسي إنه رأى في المرية ثمانمائة دار طراز للحريز تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبسط. ويقول ابن خلدون في مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها في أواخر القرن الثامن الهجرى: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الفناء واللهم من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التى يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»^(١). ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية في الأندلس قصر الحمراء الذى شاده بغرناطة أمراؤها في الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلأها لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهى حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فُرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته ورداته وغرفته بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود فى قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته فى كتاب «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ فى روحه الأحلام المكبوتة وتحيا الآمال الضائعة»^(٢).

(٢) انظر الفن العربى فى إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ٩٨٢.

(١) المقدمة (تحقيق د. على عبد الواحد وافي) ص ٩٣٨ وما بعدها.

الفناء

وكان الفناء يشيع في الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلي على الأمير هبب الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتي دينار في الشهر وأقطعه من الدور والضياح ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلات سنية. وأقام زرياب في قرطبة معهداً يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الفناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترّاً خامساً اخترع له مضرباً من قوادم النسر^(١)، وجعل للفناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختتم بالمحركات والأهازيج^(٢)، وينقل التيفاشي عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُداة العرب وترانيم الكتانس دون قانون^(٣) فيها أى دون رقم (نوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتتح حركة الفناء والموسيقى في الأندلس. وخرج زرياب كثيرين من الشباب والجواري منهن منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الفناء في الأندلس يزدهر بعده ومن أتقنوه عباس بن فرّناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبي شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالدين في مقدمة شرحه أنه بات ليلة في سنة ٤٠٦ بالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيذان والطناير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء. واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة في إشبيلية وطليطلة. ومن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذى أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم في الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحبارة وكان يصنع عود الفناء بيده وينظم الشعر ويلحنه عليه ويفنى^(٤) به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويفنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالفناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقى حتى لنجد ابن كسرى المالحى المتوفى سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط^(٥):

(٤) المغرب ١٢٠/٢.

(١) النفع ١٢٦/٣.

(٥) تحفة القامد نشر الفريد البستاني بمجلة

(٢) النفع ١٢٨/٣.

المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧م رقم

(٣) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية

٥٧.

بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/٢.

إذا رقصت أبصرت كل بديمة تُرى ألفا حيناً، وحيناً هي النونُ

فهى تتحرك في رقصها حركات شتى، تارة تُرى معتدلة، وتارة تنثنى وتبالغ في الثنى حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبي نفس الصورة فيقول في راقص ولعلها راقصة^(١):

ومنوع الحركات يلعب بالنهاي لیس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه متلاعياً كالظبي عند كناسه^(٢)
بالعقل يلعب مُقبلاً أو مُدبراً كالذهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمُّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمَّ ذهابه لرأسه^(٣)

واشتهر في القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب في شعر متأخر فهو من صناعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجري يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات ويقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد في نشأة الموسيقى عند الأسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربي وما صاحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات في اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة في رُقم (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة في المجتمع الأندلسي، وكانت تحظى فيه بشيء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها في المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير في موكبهِ إذ نرى ابن حيان يروى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يوماً وكان قد طال عليه المرض والمكث في قصره دون خروج:

(٣) ذهاب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف:

مقبضه.

(١) المغرب ١/١٣٧.

(٢) متأوداً: مثباً - كناس الظبي: مأواه في

الشجر.

«إن بعض كرائمتنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للزهوة على مقتضى العادة. فآخِرجُ من فورِكَ فانظر في إقامة ما يحتاج إليه للزهوة على مقتضى العادة واعجلْ بذلك فإنما متحركون صبيحة^(١) غد» ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم في رسالته: «نقط العروس» من أن رَسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يُركبها في موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقُّ بها الرِبط الغربي كله بقرطبة إلى مدينته الزهراء^(٢). وما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمرء والخلفاء مثل مُرْنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب^(٣) الصلة، وأيضاً كاتبة كتمان^(٤) كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل لبنى^(٥) كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما في الصلة. واشتهرت في الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرئ لعشرين منهن، وسنلم بذلك في الفصل التالي. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة في البيت الأموي كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمهن للشعر مما أعدَّ لظهور ولادة بنت الخليفة المستكفي واتخاذها في قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك في الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولادة في اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى في عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هي السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر - الذي مهَّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكمًا على إشبيلية اثنين وعشرين عامًا - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولادة، وسنعرض لها في ترجمتنا للأعشى التطيلي ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية في عصر الموحدين وسنترجم لها مع أبي جعفر بن سعيد في حديثنا عن الغزل.

(١) انظر المقابس (بتحقيق د. مكى - طبع

بيروت) ص ٢١.

(٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.

(٤) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.

(٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية المنن رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الخط نحوية عروضية شاعرة.

التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع^(١)

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا في صفين كانت ثورة شيعية كما حدث في عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - في أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في القيروان ولم يكن اتصال ولاء إنما كان اتصالا سياسياً كيدياً للأمير عبد الله بن محمد. ودعا ثائر أموى لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظن خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبدربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث في كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعياً، فقد كان متشيعاً للأمويين متعصباً لهم.

وحاول آسین بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة في القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى في غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقاً أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بباطل، إذا استثنينا تشيع ابن هاني الشاعر الأندلسي وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعاة السريين في الأندلس.

ووجدت في الأندلس زمن الفتنة الأموية فرصة للشيعة كي ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة في المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلمانهم قتلوه - كما أسلفنا - في السنة التالية، وولى

الفريد لابن عبدربه والمغرب في مواضع مختلفة والتشيع في الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

(١) انظر في التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التفاسير للمقدسى والعقد

بعده أخوه القاسم، وتنازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بالمقتلة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا في الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة في عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة في غرناطة وبين ما كان في أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنما للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن التغريلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعائه، حتى ليقول المقدسى في أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين في الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع في الأندلس إنما هو بعض الأصداء في مدائح الشعراء للحموديين في قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن. وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء في شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسنرى في حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين في نظم بعض مرثى له، بل لقد أقاموا له أحيانا مآتم يندبونه فيها، وكأنما كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم في الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر في الأندلس موجة حادة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد ينتشعرون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

(ب) الزهد^(١) والتصوف

أخذت تنمو في الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزيكها في نفوس الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم

لابن حيان والإحاطة في أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهي والطبقات الكبرى للشمراني وتاريخ الفكر الأندلسى لباتنيا

(١) انظر في الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفيض في الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمفتيس

دانبا ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربه يوم القيامة فلما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بأداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تغنى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكُنْ يقفن بعض أموالهن للجهاد في سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجدا في الرض الغربي من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدا ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها في مسجد لها بين مساجد الرض الغربي.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعُبادها أيوب البلوطي، ويروى أن السماء سُحَّتْ بظورها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وفزع الناس إلى قاضيه سرور بن محمد كى يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطي! عزمت عليك حيث كنت لتقومن، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه في الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتنى أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا، وألح بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة المطر. وطلب أيوب بعد ذلك فلم يوقَّفْ له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن في النساك الزهاد. ومن كان يفرط في زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام في المذهب المالكي هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان في الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسي المتوفى سنة ٣٤٤ وسنمعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا في زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعي المتوفى سنة ٤١٣ نسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازع التي كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رهوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صوام النهار قوام الليل راضيا بالقليل من كسبه، ولم ينحط يوما إلى مسألة أحد. ومن الزهاد في عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقي المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووثقه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتابا في زهاد الأندلس وأئمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطوّف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولا بد أن سمع بمحنة العلاج وصَلَّبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة في الأندلس منشورا يندد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتآلف حولها فرقة. وتماذى الطلب لأفرادها بقية عهد الناصر وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاخفاء حتى إذا أظلم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط في الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضي محمد ابن يقي بن زُرْب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم في كتابه «الفصل» من معتنقيها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري إسماعيل بن عبدالله الرُّعَيْنِي، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفي وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية في الأندلس لعهده أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع في قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية.

وأخذ التصوف ينشط في عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدا أبو العباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله في التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسبن بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقته على الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التي يمن الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقته هي طريقة الخواص التي تقف عند الفناء في محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء في المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السني، وكأنه يتعد عن مراتب التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه في الأندلس ابن برّجان الإشبيلي عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قسّ أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذي قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يترغم في ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. ويلقانا في عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبداقه الشوذى وتلميذه ابن دهاق الملقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى بمحى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجموا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. ويلقانا فى القرن الثامن ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكانما وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.

الفصل الثمانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبيريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة. وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مملكة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومته من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخبراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية، وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سميتها بإسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو ولدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هديران. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعد بقوة لهذا الازدهار، كما أعد لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجيء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلمها نبرون، وله مسرحيات اتخذها كورنى ورأسين مثلها المسرحى الأعلى، وحكم عليه نبرون بالموت لاتهامه باشتراكه فى مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسباني هو كوتيليان ليتعلم فن الخطابة، ويرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولا يزال - المرجع الأساسى للأوربيين فى التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنیکا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر ويومى، واتهمه نبرون باشتراكه مع عمه فى مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين^(١).

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما فى الأدب اللاتينى أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا، بل أنتجوه فى روما، وهو لذلك أدب لاتينى رومانى خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال فى العهد الرومانى كما كانت فى العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسما، بل ظلت روما ترعاها وتتمهدها فى الحضارة كما تمهدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت فى القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابها من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٤٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصوره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت فى قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء فى الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا فى عهد القوط بإسبانيا من الجهالة^(٢)، وليس لهذه المجموعة أى ذكر فى كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق ما يقوله صاعد فى كتابه طبقات الأمم من أن هذا القطر لم يُعرف فى

(١) انظر فى سنیکا وأسرته وكوتيليان ولوكان

قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١٦٣/١٠ وما بعدها وكذلك ١٧٤

وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٩٤/١٢

وما بعدها.

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا في وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب^(١). وكان فيه - كما مر في الفصل الماضي - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمي، وأيضاً لم يكن لهم دور في الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على نقل العلم العربي ثم على المساهمة في ترجمته إلى اللاتينية فيها بعد حين جَدُّ الغرب في طلب العلم الأندلسي والوقوف عليه. ومثل اليهود - في ذلك - الصقالبة الذين مر ذكرهم في غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرُبُعي، وكانوا يتعلمون العربية ويتقنون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور في الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكماً لإحدى المدن في عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية في الأندلس تراناً لاتينياً، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولدين أسهموا في تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذي استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضاً - إلى أنها أسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرُّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائماً مع الجيوش فقهاء يعلمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفظونهم بعض القرآن ويصرونهم بالدين الخفيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعاراً من شعارات الدين أخذ به المسلمون في جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة^(٢)، واطرد ذلك طوال الحقب التالية، ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتاباً في عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقي في أماكن مختلفة من أحياء قرطبة.^(٣) وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلم الكتاتيب يسمى مؤدِّباً، وكان يأخذ أجراً على تعليمه الناشئة^(٤)، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوي بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

(٣) البيان المغرب لابن عذاري (طبع بيروت) ٢٤٠/٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبع القاهرة) ص ٢٧٨.

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة) ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) ص ٤٠.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، ويتوّه ابن خلدون بتعليم الناشئة في الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأغادهم التفتن في التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي»^(١). وابن خلدون يثنى - بذلك - على مؤدبي الأندلس وأنهم استطاعوا أن يفرسوا في الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مروّهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يُؤدّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدّب أبناء العامة في المساجد أو في دور ملحقة بها أو في دور مستقلة بهم أو في دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنهي هذا التعليم الأول على أيدي المؤدّبين يتحول إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتسع في دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوي، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم في أي علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى ينابيعه الأساسية في المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تُذكر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودي^(٢) النحوى المتوفى سنة ١٩٨ والغازي^(٣) بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة في طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحببها إلى الشباب القرطبي وتشجيعهم عليها، ورحل في عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطئه. وتصبح الرحلة في طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرئ لمشاهيرهم فصولا طويلة في نقحه، وهي تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الرضوى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهد كثره مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الربض القبلى عليه بقرطبة، فقد ألّهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤيّدوهم عن قرطبة،

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي.

وبلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد في المغرب، كما مر بنا: «عنى أبوه بتعليمه وتخريجيه في العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم في فنه»^(١) ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا في علوم الدين والفلسفة»^(٢) ويقول ابن القوطية: «الزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته وإسعافهم في مطالبهم كلها»^(٣) وسنرى في غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعمده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالئات - في المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمه بعد يحيى الليثي تضم ثلاثمائة طالب^(٤). وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن خيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف في زرايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»^(٥) ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له^(٦)، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلب أولها كتاب مصنف ابن أبى شيبة في الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنموه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماه منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملأه الكتاب على الطلاب في المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا في فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلفاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ٤٥/١.

(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٤.

(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.

(٤) الدياج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة

دار التراث بالقاهرة) ٨/٢.

(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع

بيروت) ص ٢٤٥.

(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

العلم والفقه باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة^(١) « وفي ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس في عهده الذروة المنتظرة في قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية في أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستن له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي بالفسطاط - وهو أندلسي الأصل - عشرة آلاف دينار^(٢) ليفرقها على شيوخ المالكية بمصر لتتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلماؤها من كل صنف، واستن لابنه الحكم أيضا إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا في الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى^(٣) سنة ٣٣٠ فبالغ في الحفاوة به، وقاد أبو على في الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عُنى الناصر بعلماء الدين واللغة عُنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه هدية بينها كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باليونانية، ولم يكن في قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعا، وألف الناصر لجنة لمساعدته في ترجمة الكتاب إلى العربية^(٤).

واقتدى الحكم بأبيه منذ كان وليا لعهده وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها في أيامه، حتى إذا خلفه في الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عُنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرئ القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوه بها طويلا في مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين في الأندلس وفي المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب^(٥) في فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبد الله وتفريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر في وقادة أبي على القالى على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٠٤ وإنباه الرواة ١/٢٠٤ ومعجم الأدباء لهاوت ٧/٣٠ وبغية المنس للضى ص ٢١٦

وجنوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل

تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى

بالقاهرة) ص ٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(طبعة دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجياني الذي ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وكان ابن داود ذكر في كتابه مائة باب في كل باب مائة بيت فجعل الجياني كتابه مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئاً^(١)، وسمع الحكم بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فأرسل إليه ألف دينار ذهباً ليعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقحة، وأرفقه بكتاب في أنساب أسرته الأموية موشحاً بمناقبهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضي الأبهري المالكي حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم في الفقه المالكي^(٢).

ويقول ابن الأثير: «لم يُسَمَّع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها^(٣)» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهد خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده^(٤)». وكان له ورّاقون أو يعابرة أخرى جُلاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته في القصر كانت أربعاً وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون^(٥) ورقة - وفي رواية خمسون ورقة - وكانت الدار التي اتخذها لمكتبته أشبه بجمع علمي، وكانت تزرخ بالهذاق في صناعة النسخ والتجليد^(٦) وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخاً منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى في الجذوة أن الحكم مرّ يوماً بأبي على القالي ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوي ابن ولاد، ومكث معهم قليلاً يسألهم عن نسخ الكتاب^(٧). ويقول ابن الأثير منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته في الحلة السيرة وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠٠.
(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعاً ألف كتاب.
(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص ٤٧ وما بعدها.

(١) انظر الجذوة ص ٩٧ وبغية المنس ص ٤٠ وابن دحية في المطرب ص ٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.
(٣) انظر ترجمة الحكم في الحلة السيرة لابن الأثير (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.
(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

لفوائدها، ولما تجدد له كتابا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو في آخره أو في تضايفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأنعمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به^(١)». وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس في عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب في العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضا بفضل ما أعقد عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب في المساجد، بل كان يعممها في المؤيدين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين في الكتاتيب^(٢) ومراً بنا أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين كتاباً، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوّه بأهله ورفع ذكرهم، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان الثانية عن بلده^(٣).

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبي عامر، لا ينازعه في ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى في الشمال انتصر فيها دائماً واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حجب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم في كل أسبوع يوماً يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه^(٤)، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادي اللغوي، وألف له في اللغة كتباً مختلفة نال بها منه أموالاً جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأملال لأبي على القالى، وحين قدمه إليه أمر له تواباً بخمسة آلاف دينار^(٥). وكان يعنى بالفقهاء

(١) ترجمة الحكم في ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض في كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم من طالع الكتب ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان الغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

للفنطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

(٣) ابن الأبار في الحلة السراء ٢٠١/١.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والمحمدي ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنهاء الرواة

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يحمى بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح - كما مرُّ بنا في الفصل الماضى - إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى - تقرباً للعامة - أن يتكل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى^(١)، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم^(٢) حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاماً وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مخترنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعد ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخوانها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هيباً لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية مسجداً حاكمها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقاً كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سهاها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولا بد أن كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبلانثيا (الترجمة العربية)

ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص ١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٤٣٧/٢.

نحو مائة مجلد^(١). وبث بنو ذى النون في طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء^(٢)». ونهضت سرقسطة في أقصى الشمال بحركة علمية نشطة في الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت في دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بنى هود وله في العلوم الرياضية تأليف مثل الاستهلال والمناظر^(٣) وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت في المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبي أول أمرائها، وكان كاتباً مبدعاً وشغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربع مائة ألف مجلد^(٤). وصارت الإمارة سريعاً إلى بنى صُباح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة في عهد أميرها المعتصم وكان شاعراً مجيداً كما كان ممدّحاً أكثر الشعراء من مديحه^(٥). وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون في مرسية وبلنسية في شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلغله^(٦). وكان لغرناطة في جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر في الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة. واستقر في نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا ببيوس بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة في وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين في الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

(٥) انظر ابن الأثير في الحلة السيرة ٨٢/٢
ويقول كان يجلس يوماً في كل أسبوع للفقهاء
والخواص فيتناظرون بين يديه في التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين
ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان
المغرب ١٥٧/٣

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع
عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبداه بن خليفة
المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادي الأديب.

(٢) المغرب ١٢/٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.

(٤) المغرب ٢٠٦/٢.

الفقهاء في هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه^(١)، واحتذاء في ذلك ابنه على خليفته في الحكم. ولا تلبث دولة الموحيدين أن تحل في المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالما مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية^(٢) وكان مؤثراً لأهل العلم ويجري عليهم الرواتب الواسعة^(٣) وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) وكان قد درس في إشبيلية على فقهاءها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حَفَظَةً حتى ليقولون إنه حفظ البخاري بأسانيده، وشُغِفَ بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر^(٤)، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفاً مثله ثقافة واسعة وكان يعتقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة^(٥) وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو في الأندلس طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط في أيدي المسيحيين الشاليين منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس في غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة في حجر النصاري أن تستم نخضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر في الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقيه (٦٧١ - ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقيه لدراسته الفقه أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفاً بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطي كي يدرسا للطلاب في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية^(٦) ولعل أكبر أمير من بني الأحمر نشطت دراسة العلوم في عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

(٥) انظر كتابنا الرد على النحلة (طبع دار المعارف) ص ١٥.

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان - طبع القاهرة) ٦٧/٣ - ٦٨.

(١) روض القرباس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٧٣٣ - ٧٥٥) الذى أنشأ لأول مرة في غرناطة - بل ربما أيضا في الأندلس - مدرسة سهاها المدرسة^(١) النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا في المساجد أو في دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب في منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء في المساجد أو في منازل العلماء التى كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة في هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يلزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروع دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجوارهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب القراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤديات كن يتفرغن لتأديب الصبيان في الصغر مثل ابنة حزم التى كانت تشترك مع أبيها وأخيها في تأديب الناشئة بدار واحدة^(٢) وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم في أى فرع من فروع العلم إلا يأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشيء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كن يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الرضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد^(٣) وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم في الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية الملكة المغربية - تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

(١) راجع هذه المدرسة في ترجمة رضوان النصرى في الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها سنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس^(١). ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديبا شاعرا وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها^(٢). ومر بنا في الفصل الماضي ثلاث من جواري القصر الأموي كانت اثنتان منهن: مزنة وكتبان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة لُبي تكتب للمستنصر، وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحرير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التي عزى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبي عامر عن أبيه وجدُّه له العهد بالحجابة^(٣) سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجواري في قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهن اللاتي كن يقمن على تربية النشء في تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء في العهد الأموي إذ يقول عن نشأته في أواخر القرن الرابع الهجري بكتابه طوق الهامة: «إنني رُبيت في حجور الجواري ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين بَقُل^(٤) وجهي وهن علمني القرآن ورؤيتي كثيرا من الأشعار»^(٥). وتلقانا في كتب التراجم من حين لآخر عالِمات متعمقات في العلم مثل ابنة فائز زوجة أبي عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبي عمرو الداني المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبي داود بن نجاح في آخر سنة ٤٤٤ للهجرة^(٦). وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت في العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها في علم العروض وعنها أخذ أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالي^(٧) واشتهرت في تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتاني بحسن الفناء وإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة^(٨). وتلقانا في القرن السادس أم العز^(٩) راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

(١) المراكشي ٤٨١/٢/٨.

(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.

(٣) المراكشي ٤٩٣/٢/٨.

(٤) يقال يقل وجه الغلام حين يثبت شعر خده ولحيته.

(٥) طوق الهامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر

أحمد مكي طبع دار المعارف) ص ٧٩.

(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشي ٤٩٤/٢/٨.

(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشي ٤٨٠/٢/٨.

(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة

لابن بسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.

(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشي ٤٨٣/٢/٨.

أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحق الطب مثل أخيها وكثيرين من أسرتها، وكانت الطيبة لنساء الأمراء من بنى عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجوارحهم، وكانت تُستفَى في الطب لرجاهم فتزيد حظوة^(١) عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ هـ وتعد بحق - جدة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللاتي كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول في بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة^(٢). ويذكرون عن محيي الدين بن عربي الصوفي المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها في دفعه إلى التصوف نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسلم في موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التثقف بالشعر، مما هيا لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل

لم يكن في إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل في الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربيضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عُني بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث في الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها، إذ يمضى ابن سعيد في ترجمته قائلا إنه: وجّه عباس بن ناصح إلى العراق في

ابن زهر، وكانت انتهت طيبة مثلها.

(٢) انظر المراكشي ٤٨٥/٢/٨.

(١) انظرها في الدليل والتكملة للمراكشي

٤٨٣/٢/٨ وراجع طبقات الأطباء

لاين أبي أصيبعة في ترجمة أخيها الطبيب أبي بكر

التناس الكتب القديمة، فأناء بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعُرف أهلها بها، ونظر هو فيها»^(١). وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد في الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا في زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشَّمر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجرى عليه راتبا للتعرف وراتب للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهد، وله معه في التنجيم أخبار طريفة^(٢).

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين في القرن الثالث الهجري منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بها من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس^(٣) بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة في أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مقلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نُسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان في المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وتلفس وأغرب في غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصَوَّغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع في بيته قبة على هيئة السماء ترمى للناظر فيها النجوم والقيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سَرَق (شقق) الحرير فتهيا له أن طار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل في الهواء فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة. وتأخذ علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة في النمو منذ عصر الأمير محمد

والجذوة للحمدي رقم ٥٠٥ وبغية المتنس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع في ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣٦ والبغية رقم ١٢٤٧.

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) في ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر في ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضي رقم ٦٨٩ والزبيدي ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذاري ٨٥ وما بعدها والقضاء للشنقي ص ٨٣.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم في علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا لجلب وأكب العلماء عليه يدرسونه. وطبيعى لذلك أن يظهر في عهد المستنصر مسلمة^(١) المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد تُرجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سبعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركاتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة في الأسطرلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمي أو جداوله الفلكية وقد حوّلها من التاريخ الفارسي إلى التاريخ العربي وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتاني سماء تعديل الكواكب. وخلفه في الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمر المنصور بن أبي عامر في زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطها في بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم^(٢) أصبغ بن محمد بن السمع الفرناطى المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا في الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة في الحساب، وكتابان في الأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعتها والآخر في العمل به، وله أيضا زيج فلكي انتفع به وبكتابه الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابن الصّفار^(٣) أحمد بن عبدالله الغافقى، وله زيج جيد ورسالة في العمل بالأسطرلاب، وكان يعلم في قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة في أوائل القرن الخامس الهجرى - إلى دانية لمعهد صاحبها بمجاهد العامرى وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى^(٤) عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

(٢) راجع طبقات صاعد ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ وبالنسبة ص ٤٤٩ والدوميل ص ٣٥١.

(٣) انظر في ابن الصّفار طبقات صاعد ص ١٠٨ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنسبة ص ٤٥٠ والدوميل ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع في الكرمانى طبقات صاعد ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٤ وبالنسبة ص ٤٥٥ والدوميل ص ٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

(١) انظر في مسلمة المجريطى طبقات الأهم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص ١٠٧ وابن أبي أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنسبة (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدوميل (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص ٣٥١ وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٢٣/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود في رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفي سنة ٤٧٨ هـ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال في الفلك^(١).

ولعل في التلامذة السابقين لسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولا يثبت أن يظهر في عصرهم علَمُ الرياضيات الزُّرقالى^(٢) القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢ هـ وهو من أعظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأسطرلاب وابتكر له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفحة. وابتكر في الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماءه من مؤلفاته رسالة في العمل بأسطرلاب الصفحة، وكما تُرجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة في عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس في حوزة المرابطين منذ سنة ٥٨٤ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير في عهدهم ولكنه لا يعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون في الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع في عصرهم اسم جابر^(٣) بن أفلح الإشبيلي وله كتاب في حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه في علم النجوم الذى ساه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كرىمونا المتوفى بطليلة سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. وتختلف دولة الموحدين دولة المرابطين في الأندلس منذ العقد الخامس في القرن السادس الهجرى، ويتألق في عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلي عربى يُعَدُّ في طليعة الرياضيين

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالتنبا ص ٤٥٥.
وعاش في بلاط بنى هود من تلامذة سلمة
المجريطى ابن البونش انظر فيه طبقات صاعد
ص ١٢٧ وابن أبى أصبحة ص ٤٩٥ وبالتنبا
ص ٤٥٣.

(٢) انظر الزرقالى في طبقات صاعد ص ١١٧
وبالتنبا ص ٤٥١ وألدوميل ص ٣٥٩ (انظر
الفهرس).
(٣) انظر في جابر بالتنبا ص ٤٥٦ وألدوميل
ص ٣٨٣.

العالميين، ونقصد البَطْرُوجِي^(١) أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهيمته إلى كتابه الفلكي في علم الهيئة، إذ قَوَّض فيه نظرية بطليموس في كتابه المجسطي عن الكواكب السيارة قائلا إنها تتحرك في مدارات إهليلجية أو بيضاوية حول الشمس، وترَجَّم هذا الكتاب الفلكي سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة وأطلع عليه حوالى سنة ٦٦٤ هـ/١٢١٧ م وبذلك أدخل نظرية البَطْرُوجِي الفلكية مبكرا إلى العالم الغربي وترجمها إلى العبرية موسى بن طَبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية كالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ م ونشرت ترجمته في البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١ م. وبدون ريب اطلع كلير^(٢) الألماني (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كلير أبا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعي، فأبوه الشرعي الحقيقي هو البَطْرُوجِي الإشبيلي العربي. وتوقف هذا النشاط في الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت في يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها في أيدي المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة في الأندلس، وأخذ النشاط في علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التي ظلت للعرب في الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرُّقُوطِي^(٣) محمد بن أحمد وتوفي بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤ م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات في مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب في حضرته، ولَبَّاه سريعا، ويختتم الرياضيين الأندلسيين في نهاية القرن التاسع الهجري القَلَّاصِدِي^(٤) على بن محمد القرشي وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفي ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦ م وظلت كتبه تدارس في المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

(٤) راجع في القلصادي ترجمة واسعة في نفع الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء الاعم للسخاوي ١٤/٥ وبالنتيا ص ٤٥٧ وما بعدها وألدوميل ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

(١) راجع في البَطْرُوجِي ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنتيا ص ٤٥٦ وألدوميل ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) راجع بالنتيا ص ٥٣٥.

(٣) انظر في الرقوتي بالنتيا ص ٤٥٧ والاحاطة

٦٧/٣ وما بعدها.

وازدهر الطب في الأندلس - مثل علوم الرياضة والفلك - ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصْرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط^(١) (٢٠٦-٢٣٨) ويمكن أن نعمم ذلك في الأندلسيين بعامه، كما مرُّ بنا آنفاً، فإنهم انظروا في ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته في الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين^(٢) بن أبان وكان - كما يقول ابن جلجل - طبيباً حاذقاً، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحراني^(٣) اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سباه المغيث، ويذكر ابن جلجل في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) طبيباً يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة^(٤). ثم أخذ علم الطب في الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) إذ كثّر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا في صدر دولته يحيى^(٥) بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله في الطب كتاب في خمسة أسفار. ومن أطباء العمون حينئذ سليمان^(٦) بن باج، وكان يعاصره سعيد^(٧) بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفي سنة ٣٤٢ وكان حاذقاً في علاج الحميات، وله كتاب في الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أحمد^(٨) بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتعلّما لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرأ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحراني وأخذاه عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصها المستنصر لنفسه، وتوفي عمر، وظل المستنصر حفياً بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهراً في علاج أمراض

وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٨.

(٦) راجع في ابن باج ابن جلجل ص ١٠٢ وابن

أبي أصيبعة ص ٤٨٩

(٧) انظر في سعيد ابن جلجل ص ١٠٤ وابن أبي

أصيبعة ص ٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١٢٠/١

والتكسلة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنشأ ص ٤٦٢.

(٨) راجع في أحمد وأخيه عمر ابن جلجل

ص ١١٢ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٧ وبالنشأ

ص ٤٦٤

(١) طبقات الأطباء والحكباء لابن جلجل ص ٩٢.

(٢) انظر فيه ابن جلجل ص ٩٣ وبالنشأ

ص ٤٦١.

(٣) انظر في الحراني ابن جلجل ص ٩٤ وابن أبي

أصيبعة ص ٤٨٦.

(٤) راجع في ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل

ص ٩٧ وابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ ويقول ابن

جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيًا

لعود الناس.

(٥) انظر في يحيى بن إسحق ابن جلجل ص ١٠٠

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد^(١) بن عبدون الجبلي وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبر مارساتها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ). وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وتتوَّج النهضة الطبية حينئذ بالزهراوى^(٢) أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيها يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسا فى الطب العام والأمراض وقسا فى الصيدلة وقسا فى الجراحة، وعنى جيراردى الكريمنى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزائه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوروبية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوروبيون يعدُّون الزهراوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصى فى المثانة والمهبل والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البطرُوجى السالف الذكر أبا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيلية، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبد الملك^(٣) جدهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارث شهرته بها فى عصر أمراء

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥ . وألدومبيل ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره فى طبقات الأمم لماعد ص ١٢٩

والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧

والذيل والتكملة للمراكسى تحقيق د. إحسان

عباس ٣٧/١/٥.

وإبن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهراوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨

وإبن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى

لبروكلمان ٣٠٠/٤ ومابعدها وبالنسبة ص ٤٦٥

الطوائف إلى أن توفي سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء^(١) طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه علي إلى أن توفي سنة ٥٢٥ للهجرة، وله في الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها في السنة التالية لوفاته، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحياناً باسم كتاب النكت) وقد نشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلذذ ابنه عبد الملك^(٢) طبيب المرابطين ثم الموحدين إلى أن توفي سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن يزمانه من يمثله في صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقي منها ثلاثة إلى اليوم، هي: كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد وهو في الطب الباطني، وكتاب الأغذية والأدوية وهو في الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو في الطب العملي، وترجم إلى اللاتينية، وطُبعت الترجمة في البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلي: «يُعَد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربي عمل (كلينيكي) بعد الرازي». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذي انفرد بالإمامة في الطب لزمته إلى أن توفي سنة ٥٩٥ ومُرُّ بنا في غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب في هذا البيت، فكان عبد الله^(٣) بن أبي بكر بن زهر طبيباً حاذقاً وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفي سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبي الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات في الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر وطُبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبي العلاء زهر، وتلقن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد^(٤) عبد الله وخدم بها الناصر

(١) طبعة كوديرا بمديرد) رقم ١٧١٧ وبالنسبة
ص ٤٧١ وألدوميلي ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب
كولان عن حياته ومؤلفاته.

(٢) راجع ابن أبي أصيبعة في ترجمة أبيه
ص ٥٢٩.

(٣) انظر أيضاً ابن أبي أصيبعة بعد ترجمة أبيه
ص ٥٣٣.

(١) راجع أبا العلاء في التكملة رقم ٢٥٥ وابن
أبي أصيبعة ص ٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع
القاهرة) ص ٢٠٣ وفيه أنه تطلب زماناً طويلاً
بالمشرق وتولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم
بالقبروان وعاد إلى الأندلس وبُذِّ بها أهل زمانه.
(٢) انظر في عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر
ابن أبي أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار

الموحدى. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بنى الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة في وصف وباء الطاعون الذى اجتاحت مدينة المرية سنتى ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبييا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب فى الطب كتابا فى جزئين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرُّ بنا، وكان له تأثير بعيد فى نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا فى صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل فى ترجمته إنه تولى خزانة الطب فى قصر المستنصر، ورتب لها اثنى عشر صَبِيًّا صقالية طبَّاحين للأشربة صانعين للمعجونات. وتلتقى فى عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبى أصيبعة^(١) كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام فى الأدوية المسهلة والمقيئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل^(٢) مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره فى الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرهما فى الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة فى ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب، ومقالة ثانية فى أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن^(٣) سَمَجُون وله كتاب فى الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيدلة فى عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى فى عصرهم ابن^(٤) وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تَمَهَّرَ فى علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان فى الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر فى ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتبس للضبي (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنتيا ص ٤٦٥ وألدوميل ص ٣٥٤.

(٣) انظر فى ابن سمجون ابن أبى أصيبعة

ص ٥٠٠ وبالنتيا ص ٤٦٧

(٤) راجع فى ابن وافد طبقات الأمم لصاعد

ص ١٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنتيا

ص ٤٦٧.

نوادير محفوظة في الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها - حتى وفاته - لأمرها المأمون بن ذي النون. وتُسند كتب الصيدلة حينئذ كتب ألفت في الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع في الفلاحة لابن^(١) حجاج الإشبيلي المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردني. وهو يفيض في بيان الزراعة والفراصة لمختلف يقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الافات والامراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب في الفلاحة كتاب لأبي عبيد البكري الجغرافي المتوفى سنة ٤٨٧ وهو في نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصص والبيان».

ونغضى إلى القرن السادس الهجري، وملتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد^(٢) بن محمد القافى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة في العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ في كتبه بنحو مائتي نقل عنه، وأيضاً فإن ابن العبري المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصراً ونشره جورج صبحي وماكس مايرهوف بالقاهرة. وملتقى بعده بابن^(٣) العوام أبي زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمجريد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة في علم النبات، وقد عدّ منه ٥٨٥ نوعاً منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. ومن تعمقوا في دراسة النباتات في الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية^(٤) الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر في طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوّل في الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار^(٥) أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبد الله بن أحمد، وقد تجول في نواحي المغرب والشام وآسيا الصغرى، وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

(٤) انظر في ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبي أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنسبة ص ٤٧٨ وألدوميل ص ٤١٤.
(٥) راجع في ابن البيطار ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ ونفوس الوفيات لابن شاعر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالنسبة ص ٤٧٨ وألدوميل ص ٤١٤.

(٦) انظر ابن حجاج في المغرب ٢٥٦/١ وبالنسبة ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع في الفلاحة.
(٢) راجع في القافى ابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنسبة ص ٤٧٢ وألدوميل ص ٤٠١.
(٣) راجع في ابن العوام بالنسبة ص ٤٧٥ وألدوميل ص ٤٠١ وأعمال مؤخر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٩م) ٢١٥/٢ - ٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

رئيسا على العشابين بمصر، وظل يرأسهم في عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: أوحّد زمنه في معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق في أربعة مجلدات وهو معجم أبجدي للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثاني المعنى في الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعي. وأخذت كتبه تدرس بعده في العالم الإسلامي دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو يعق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلي في الأندلس بعده محمد بن^(١) السراج القرناطي المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع في الأدوية والأعشاب كتبا كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها في الأندلس، وأول شخص نضاف إليه محمد بن^(٢) عبيد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه في عقيدته، وكأنما خشي على نفسه، فرحل في سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واختلف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته، وأمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحرية في إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

الحامس من المنهس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها
وكتاب الناصر في التنديد بمنهجه ص ٢٥ والفصل
في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة)
١٩٨/٤ وبالنسبة ص ٣٦٦.

(١) انظر في ابن السراج بالنسبة ص ٤٨٢.
(٢) راجع في ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس
لابن الغرضي (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار
الحكام للقفطي (طبع لبيزج) ص ١٦ والمجزء

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأ إلى إنبازوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقل المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذي النون المصري الذي كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وأُلف في ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح في أحاديث الشفاعة ومؤول آيات القرآن. وكان يَسْتَعِدُّ دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلاميذه يتناقلون آراءه سرا، ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتْلَى على الناس في قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضح فيه نعلتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآي القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأمر من يتولون الأحكام بتبعيةهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور في عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمته من التسامح الفكري حتى إذا توفي وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبي عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضي قرطبة محمد بن يقي بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وأُلف ابن يقي ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه في ذلك الزبيدي اللغوي. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم في كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره في القرن الخامس الهجري، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فلما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعيثي، وكان يقول إن العالم لا يفتى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرهون منه^(١). وظلت تعاليم ابن مسرة حية في الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربي، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا في اتجاهاه أو بعبارة أخرى في اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسططاليس.

وكثر هذا الاتجاه في عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطلى المتوفى سنة ٤٦٢ في كتابه طبقات الأسم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبي الوليد الوقيشي الطليطلى وابن الجلاب السرقسطى وابن سيده المرسى، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقي ومتفلسف، ويلقانا بمن عكفوا على دراسة المنطق أبو البصلى أمية^(١) بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة ٥٢٩ وله في المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمطبعة مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن^(٢) السيد البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوى وله في الفلسفة رسالة مطبوعة في القاهرة بعنوان: «كتاب الحدائق في المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تقف - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد في الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاوره تهاوس ونقل بالنشأ عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليوناني المعروف لتلك المحاور.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن^(٣) باجة المتوفى سنة ٥٢٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة في سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التي عنيت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكب مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكب على علم الألمان والفناء، وبلغ فيه كما بلغ في الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليفا، مما جعل أبا بكر^(٤) بن تيفلويت حين حكم سرقسطة من قبل

القلاند ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفع الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والواقى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والخريفة للهاد الأصهباني (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالنشأ ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة ٥٠٤/١.

(١) انظر في مصادر أمية ترجمته في الفصل الرابع.
(٢) راجع في ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلاند العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالنشأ ص ٣٣٤.

(٣) انظر في ابن باجة القفطى ص ٤٠٦ وابن أبي أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح في

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذها كتاباً له ووزيراً، حتى إذا توفي هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مرانته وتفتى بها في ألحان ميكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين في المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبي أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان في أقاويله، وقد عني عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السباع الطبيعي أو سمع الكيان، وجزءاً من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءاً من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابي والأدوية المفردة للجالينوس وأيضاً لابن وافد. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله في الفلسفة كتاب في البرهان وكتاب في النفس وكتاب في العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمجريد وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أي رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض في بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوي الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصل بين التأمل العقلي وبين عَوْنِ علوي، محالوا الوصل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد^(١)، فبلفا بالفلسفة الإسلامية في موطنها الغاية التي ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل^(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسي، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة في بُرْشانة من أعمال المرية، وقيل في وادي آش من أعمال غرناطة، وقيل بل في تاجلة من أعمال جيان، وقد أكب على كتب الفلسفة والطب مبكراً، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف في زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف في الفلسفة مثل كتاب له في النفس، واشتغل بالطب في غرناطة

وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ ونحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالنسبة ٣٤٨ والمناقب في فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقي. (طبع دار المعارف).

(١) انظر في تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للراكني (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفي تلمذة ابن رشد له ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع في ابن طفيل المعجب ص ٣١١

وبعض الأعمال الإدارية فيها وفي سبته وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذته مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، ومن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيبا به إلى أن توفي قبله بقليل في مراكش سنة ٥٨٠هـ، بينما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١هـ وكانت له في الطب والفلك مؤلفات سقطت في يد الزمن، ويقول البطروحي أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله في الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر في عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخصصها بحديث مفرد في الفصل الأخير.

وابن رشد^(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد لها في العقد الثاني من القرن السادس الهجري، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا في إشبيلية سنة ٥٦٥هـ وفي قرطبة سنة ٥٦٧هـ، مما يدل على أنه أكْبُ على دراسة الفقه في بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعا مهما في الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وتُرجم في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٤٨٢ وتُرجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب طبع أيضا في البندقية بعد كتابه الكليات بستين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو في كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى قو عنه في دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابى د. عاطف العراقي عن النزعة العقلية والمنهج النقدي في فلسفة ابن رشد. (طبع دارالمعرف).

(١) راجع في ابن رشد ابن أبى أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار في كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والواقى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ١١٤/١ وابن فرحون في الديباج المذهب ٢٥٧/٢ والمغرب ١٠٤/١ وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ١٥٤/٦ وابن العماد في الشذرات ٣٢٠/٤ والثنا ص ٣٥٣ وترات الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر

ينهى بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر في موقعة الأرك المشهورة ضد نصارى الإسبان سنة ٥٩١ أخذته الحمى للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول يقدم العالم بالقوة موافقا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه في سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراکش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منها أن لبى نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو في جزء واحد في نحو مائة وخمسين ورقة لخص فيه كتبه: سمع الكيان، والسواء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخصها وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء» ويقول بالثنيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب المساع الطبيعى وكتاب السواء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصلية في الفلسفة وفي مقدمتها تهافت التهافت الذى يرد فيه على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسططاليس. وله شروح على كتابي الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتان بالجواهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل في قصة حمى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيها دونة إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفي كل إنسان قيس منه، وإذا ازداد اتصاله به ساء إلى حالة الكشف الصوفى. وأدته محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل في النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الفزالي وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجد وتشكل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلي أو جزئي، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريموني (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزي (١٢٣٥ م) وهرمان الألاني (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدرس في الجامعات الأوروبية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبت الكنيسة لعنائها على سيجر البرابنتي الأستاذ بجامعة باريس وطردته من رحابها في سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشدياً، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكاني الألاني ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكويني هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه في التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه في طريق واحدة متبعين خطاه فيها قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقبصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس في الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوي قرّر سنة ١٥٠٢ لَعْن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس في الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الديني في النهضة الأوروبية، ويقول بالنتيجة إن تأثير ابن رشد في تاريخ الفكر الأوربي كان حاسماً، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعَدُّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام في الأندلس.

(جـ) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشاركة في الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربي والإسلامي، وقد يصفون أنحاء من أوروبا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك في جاهليتهم حين كانوا يكتثرون من الرحلة وراء الكلاّ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءاً لا يتجزأ من عبادتهم ومنسكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقاً

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوه ورحالته، وأن تشارك الأندلس في ذلك بخط أو حظوظ، وأول جغرافي مهم نلتقى به فيها أحمد^(١) بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافي. ولم يبق من أعماله سوى قطعة في جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها في قسميها الغربي والشرقي وأنها رها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان في كتابه - وكذلك ابن سميذ في كتاب المغرب - بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو^(٢) عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس في عصر المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك. ويلقانا في عصر أمراء الطوائف أحمد^(٣) بن عمر بن أنس العنزي الدلائي المزي المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك وفيه يعرض كُور الأندلس وأجزائها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكري^(٤)، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان أباه أمراء ولبة وشلطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذها منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريّة، وأرسله ابن صُباح صاحبها في رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فأثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفى. وله في الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

(١) راجع في أبي عبيد البكري الذخيرة لابن بسم، المجلد الأول من القسم الثاني (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٢٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٢٨٢ وابن أبي أصيبعة ص ٥٠٠ والمغرب ١/٣٤٧ والملة البراء (طبع القاهرة ١٨٠/٢) ومؤنس ص ١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسي لبلاتيا ص ٣٠٩ وما بعدها والدوميل ص ٣٦٠.

(١) انظر في الرزي جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الرضى رقم ١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص ٥٦.
(٢) راجع في أبي عبد الله التاريخي الحميدى رقم ٩٠ وبنية المتنس للضبي رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.
(٣) انظر في الدلائي الحميدى رقم ٢٣٦ والضبي رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع فى جزيرة العرب، طبعه وستنفذ قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدّدة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة» واستهله بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد^(١) بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سواه «المخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليتمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب^(٢) من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورته ومحرايه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرئ احتفظ بها فى النفع، وله فى الجغرافيا كتاب يحمل ساء «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة^(٣)» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السيلى أى اليابان.

المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د. مؤنس ص ٤٥٢ وما بعدها.
(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بنطوان.

(١) انظر فى الزهرى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية في وصف غرناطة لكتابه: الإحاطة في تاريخ غرناطة واللمحة البدرية في الدولة النصرية. وحرى بنا أن نذكر محمد^(١) بن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو معجم جغرافي نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبعياً أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سوراً منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا في الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعاً النطق بالفصحى وبعض آيات القرآن الكريم في صلاتهم. وملتقى في القرنين الثاني والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات في كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ومن أوائهم الغازي^(٢) بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٢٨ للهجرة وتوفى الغازي سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعي ونظرانه في اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ في الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس في القرن الثاني والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين في القراءات والفقه والحديث النبوي. وعلى شاكلته في الرحلة والأخذ عن الأصمعي ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى^(٣) الهواري، وله كتاب في القراءات وكتاب ثان في التفسير. ومن معاصريها جودي الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائي إمام النحو الكوفي وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف في النحو، وكان يعاصره محمد^(٤) بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الرضي الراحل بدوره إلى المشرق.

أبى الفضل إبراهيم (طبع ونشر الحانجي) ص ٢٧٦.

(٢) انظر في الهواري الزبيدي ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدي ص ٣٠٦.

(١) راجع في الحميري كراشكوفسكي ص ٢٩٥ وبالشيا ص ٣١١ ود. مؤنس ص ٥٢٩.

(٣) انظر في الغازي كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي بتحقيق الأستاذ محمد

ويذكر الزبيدي في طبقاته عشرات من لغويي الأندلس في القرن الثالث الهجري، منهم عثمان^(١) بن المثنى القيسي تلميذ ابن الأعرابي، لقي أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد^(٢) بن الفرج وكان من أقوم العلماء في زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبيد الله حفيد الغازي السالف ذكره، تتلمذ للغويي العراق من أمثال الرياشي وأبي حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت^(٣) بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضي منذر بن سعيد بسماحه من أبي العباس بن ولاد المصري المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط^(٤).

وينزل قرطبة أبو علي^(٥) القالي اللغوي الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوي عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة وضاحتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالى» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالى والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والمدود والمهموز وكتابه في الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والتقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبياني وعلقمة والأعشى والحطينة والشاهخ والنابغة الجعدي وأويس بن حجر والقطامي

(١) إبراهيم) ٢٦٢/١.

(٤) الحميدى ص ٤٧.

(٥) راجع في القالي الزبيدي ص ٢٠٢ وابن
الفرضى ٨٣/١ والقفطى ٢٠٤/١ وبقية المتن
٢١٦ ومعجم الأدياء ٢٥/٧ والأنساب للسماعى
٤٣٧ ب وابن خلكان ٢٦٦/١ والحميدى في الجفوة
١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفي مواضع
مختلفة وشنرات الذهب ١٨/٣.

(١) انظر في ابن المثنى الزبيدي ص ٢٨٨ وابن
الفرضى ٨٨/١ والمغرب ١١٢/١.

(٢) راجع في الرشاش الزبيدي ص ٢٨٤ وابن
الفرضى ص ١٤١ والحميدى ص ٢١١ والمغرب
١١٤/١.

(٣) انظر في ثابت وابنه قاسم الزبيدي ص ٣٠٩
وابن الفرصى ٨٨/١ وبقية المتن للضمى ٢٣٨
وابناء الرواة للقفطى (تحقيق محمد أبى الفضل

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت في النمو أثناء القرن الرابع الهجري على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى في اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريف الأفعال طبعه حويدى في ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة في هذا الموضوع، وله كتاب في المقصور والمدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحصى ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية في القرن الرابع الزبيدي^(١) محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره في حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخير أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال في عهدها دنيا عريضة، وفي مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزاداته فيه كثيراً من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لا يمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله في لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالنواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى في ألسنتهم من أخطاء. ومن لغوى القرن الرابع السرقسطى^(٢) سعيد المعافرى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه في كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية في أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدي ابن الإفليلي^(٣) إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

(٢) راجع في السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر في ابن الإفليلى النخبة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباء ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

(١) انظر في الزبيدي ابن الفرضى ٩٢/٢ والمحمدي ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية المنتسب رقم ٨٠ وإنباء الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا في الهوامش.

شرح جيد على ديوان المنتهى. ومن لغوى القرن الخامس ابن سيده^(١) على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفي المغرب لابن سعيد: «لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثانى المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعاني فى سبعة عشر مجلدا، ويذكر فى مقدمته مصادره، وهى تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى اللغة كتاب لعالم لغوى قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده فى هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية»^(٢) وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة - مثل العربية - من أم واحدة. ونجد ابن حزم معاصره ينتبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات فى لغة واحدة، يقول فى كتابه الأحكام فى أصول الأحكام: «إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة - لا لغة حمر - هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذى يحدث من الأندلسى إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيروانى إذا رام نغمة الأندلسى.. وهكذا فى كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبدا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة فى الأصل»^(٣). وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة، ويتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شمالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين - بذلك - إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

٣/٣٠٥ والديهاج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢/٢٥٩.

(٢) انظر المخصص لابن سيده ١٣/١٦٧.

(٣) راجع الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (طبع القاهرة) ١/٣٠١.

(١) راجع فى ابن سيده الحميدى وبخية المنص رقم ٢٠٥ والمطبع ٦٠ والمصلة ص ٤١٠ ومعجم الأدباء ١٢/٢٣١ وابن خلكان ٣/٣٣٠ والإنباء ٢/٢٢٥ ونكت الهميان ٢٠٤ وشفرات الذهب

اللغات المقارن بين اللغات السامية التي ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوروبيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم في ذلك نفس شأنهم الذي مر بنا في قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلام الشنتمرى^(١) يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين^(٢) لأعلام الشعر الجاهلي: امرئ القيس والناطقة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ في شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم^(٣) بن أيوب البطليوسي المتوفى سنة ٤٩٤ شرحا لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكري المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويي الأندلس المهين ابن السيد^(٤) البطليوسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبي العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضاً شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشركوني أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل في الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا في أوائل القرن السابع الشرشبي أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحه لمقامات الحريري منشور بمصر.

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون في القرنين الثاني والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومراً بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسانى، وله تأليف في النحو، ويروى أن للفتية عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتاباً في إعراب القرآن، وثلثت في أواخر القرن الثالث الهجرى بالأقشيش^(٥)

(٣) انظر مصادره في ص ٨٤ وكتابتها المدارس

النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.

(٤) انظر في الأقشيش الزبيدي ص ٣٠٥ وابن

الفرضى ٣٢٩/١ والإنباء ٢١٦/٣.

(١) انظر في الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١

والمطبع ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء

٦٠/٢٠ ونكت الهيمان ٣١٣ وكتابتها المدارس

النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع في عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينورى كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. وملتقى بعده بمحمد^(١) بن يحيى الرباحى المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفى دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدى، وهو أستاذ في النحو وعليه درسه وقتله وألف فيه كتابه الواضح الذى نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلى المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه - مع ما يهتم به من شرح الشعر - كتاب سيبويه رواية عن العاصمى عن الرباحى. ولابن سيده الذى تحدثنا عنه أنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، وينوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيها مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا على الفارسى وابن جنى، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون - بجانب تعمقهم في نحو المدرستين البصرية والكوفية - في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمرى الذى عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلل النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلى وأقرأه لطلابه مذلا لهم صغابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون - بفضل نسخة الرباحى من كتاب سيبويه التى ذكرناها آنفا - على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوى أندلسى كان مجاورا بها هو عبدا^(٢) بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. وملتقى بابن السيد البطليوسى المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجى، وله كتاب في النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية ببغدادى الاتجاه. يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن^(٣) الباذش

تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة ١٨٢/٥).

(٣) راجع في ابن الباذش بنية المنسح ص ٤٠٦

والإنهاء ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى

٥١٨/١ والديباج المنع ١٠٧/٢ وكتابتها المدارس

النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

(١) راجع في الرباحى الزبيدى ص ٣٣٥ وابن

انفرضى ٣١٤/١ والإنهاء ٢٢٩/٣ وابن خلكان

٣٧٢/٤.

(٢) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط

لأبي حيان ٣٧٢/٤ وبغية الرواة للسيوطى ص

٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والمقد النمين في

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلته صاحبه ابن الطراوة^(١) سليمان بن محمد معاصرها المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه في النحو الأندلسي من انتخاب أقداد النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلي^(٢) عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ في كتابه «ناتج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى^(٣) الجزولي المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة في النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجي، ومثله ابن خروف^(٤) على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجي، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد^(٥) بن عبد الرحمن القرطبي قاضي قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذي نشرته مع تحليل لآرائه التي هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليقات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين^(٦) عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولي المسماة بالجزولية وكتاب في النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور^(٧) على بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية في زمنه بالأندلس، وله المتع في التصريف والمقرب في النحو وهما منشوران.

المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٥) انظر في ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبقية المتنص ص ١٩٢ والديباج الذهب لابن فرحون ٢٠٨/١ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٦) راجع في الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ١٢٩/٢ والإنباء ٣٣٢/٢ وابن فرحون في الديباج ٧٨/٢ وابن خلكان ٤٥١/٣ وكتابتنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

(٧) انظر في ابن عصفور بقية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه في كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦.

(١) انظر في ابن الطراوة بقية المتنص ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأثير ص ٧٠٤ والمغرب ٢٠٨/٢ وكتابتنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.

(٢) راجع في السهيلي بقية المتنص ص ٣٥٤ والإنباء ١٦٢/٢ وطبقات القراء ٣٧١/١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.

(٣) انظر في الجزولي الإنباء ٣٧٨/٢ وابن خلكان ٤٨٨/٣ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٤) راجع في ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ وابن خلكان ٣٣٥/٣ والذيل والتكملة للراكنشي ٣١٩/٥ والقوات ١٦٠/٢ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابتنا

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. وولتقى بعده بابن^(١) مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصري وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخاري سوى مصنفات أخرى في النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع^(٢) على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي علي الفارسي والجمل للزجاجي، وخاتمة أئمة النحو في الأندلس أبو حيان^(٣) محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابي ابن عصفور: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا في النحو كتاب ارتشاف الضرب أي عسل النحل في ستة مجلدات، وصنع له مختصراً في مجلدين، ويقول السيوطي في البغية: «لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُتبت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجري تعتمد في ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشاركة في البيان العربي، واستطاع المؤيدون في أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهل والإسلامي والعباسي بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثل كثيرون خصائص البيان العربي، وأصبحوا شعراء وكتابا ناهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربي في البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحي الاتجاه البلاغي المجدد العالي في التجديد^(٤) والذي كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

(٣) راجع في أبي حيان طبقات الشافعية لسبكي ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدور الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر في هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢-٦٦.

(١) راجع في ابن مالك طبقات الشافعية لسبكي ٢٨/٥ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزري ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفي كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لأرائه النحوية.

(٢) انظر في ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

ويلقانا في مطالع القرن الخامس الهجري كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعل^(١) بن محمد بن أبي الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثاني علي شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتاني^(٢) أبي عبد الله محمد المتطرب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبغا المشرقي المتوفى سنة ٣٣٢ في كتاب «عيار^(٣) الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهني ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، وإنما عني بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهي موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب في وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب في وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنساني والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المغاور والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان في الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتعرض في كل ذلك التشبيهات الطريفة في رأى ابن الكتاني لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن حبيب الحميري الملقب بحبيب^(٤) المتوفى بعد ابن الكتاني بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع في العنوان لا تعني البديع بمعنى البلاغى الاصطلاحي، وإنما تعني المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول في مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة في وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

لكتابه (طبع دار الثقافة بيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحدثنا عن التشبيه في كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر في حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر في الرباط بتحقيق هنري بريس وفي السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(١) راجع في ابن أبي الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبنية المنسرق رقم ١١٩٣ والحلة السراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر في ابن الكتاني طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جليل ص ١٠٩ وابن أبي أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه

فيهما على المشاركة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفى المشاركة أن يكون من بينهم ابن الرومي أكبر مبدع في وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميري في كتابه مختاراته الشعرية والنثرية في ثلاثة أبواب: باب جعله في وصف الربيع ورباعينه وباب ثان في وصف أزهاره، وباب ثالث في وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع يمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف في عجب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المتحل والكلام المتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة في البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أكتت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت في أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نقل إليها من كتابات المشاركة في البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهي تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكتاية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد^(١) بن عبد الملك الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي^(٢) أبي القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه في مقدمة تحدث في فصولها عن صور من محاماته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول في بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بهديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعاني، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشاركة منذ بدر^(٣) الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث في الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

(١) كتاب إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد

رضوان الدابة.

(٢) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

(٣) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٤) انظر في الكلاعي الطمح ص ٢٩ وابن الأبار

في التكملة ص ١٨٧ والغرب ٢٤٢/٦ ومقدمة

قُلتُ بحثنا عند المشاركة وأيضاً عند ابن رشيقي، فأفرد فصولاً لأنواع الأسلوب في الكتابة وهي عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالي من الأسجاع، والحالي وهو المحلى بالسمع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشع بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلّ بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمفصّل وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعاً داخلية تتقابل في كل سبعة طويلة مع قريبتها في السبعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين في الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهره»، ومن الكلام كلام وإن فاح عنبره» والمفصّل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجملة النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبي العلاء ولبيد الزمان الهمداني رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهي صورة من التعميد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيق والمؤلفات، وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعيني محمد^(١) بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ربحان الأبواب وربعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج إليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها في سبعة مراتب وتهتمنا في حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب في بيان شروط الفصاحة مستمداً من كتابات المشاركة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ في حديثه عن عيوب الكلام من المعاطلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثراً فيها بقدامة في كتابه نقد الشعر والهاقي في كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونغض في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فنرى البلاغة تلتحم في الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدى لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصها ويشرحها بفكره العبقري الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصاً، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوحه مورداً لكل مبدأ بلاغي فيه أمثلة من الشعر العربي على نحو ما يتضح في قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع في المواعيني ابن الأبار في التكملة

وهو فيه يفصل الحديث في أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية. أما التشبيه^(١) فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذر من التشبيهات النابية ملاحظاً أن التشبيه ينبغي أن يتعدى بين أشياء متجانسة، ولم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثراً بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صوراً مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسناً وقبحاً كقول القائل في وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فستان - في رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضاً تفاوت البيان في التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الإيجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل في الشعر ولا تقبل في النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصاً لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله في هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوي بمحسوس ملاحظاً أنه ينبغي أن لا يكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبي تمام، ويهاجم متأثراً بالأمدى في كتابه الموازنة بين الطائنين أبي تمام والبحتري. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة في بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكتابة وللجناس التام والناقص وللطباق وللمراعاة النظير، وهاجم المبالغة في الشعر التي تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التي تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويحيى بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء^(٢) صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط في المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافي في نظم القوافي» وهو في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(٢) انظر في مصادر أبي البقاء الرندي ترجمته في الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافي في كتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الدابة (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق في كتابه المعدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

(١) انظر في آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد في الجزء الثاني والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع في الحركة النقدية وأعلامها التاليين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

وأدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق في كتابه العمدة، والجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث في سرقات الشعراء، والرابع في حد الشعر والعروض. والجزء الثاني في الكتاب يلتقى في وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشاركة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرها، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف إليها نحو ثلاثين محسناً. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتستيم والتسهم والترصيع والمبالغة، وفي كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقبلنا نلتقى بعد الرندى في الأندلس بكتب مستقلة في علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشاركة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري على نحو ما يتضح في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وستفصل القول في هذه الرسالة^(١) في الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم وصاحم في رسالته شيخهم ابن الإفليلي، لأنهم يفقدون في رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبي، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنساباً وقرايات تبدو في الكلمات فإذا جاور النسب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحة». ويلاحظ على أبي تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يفرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعاني الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البينة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعاني بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائماً عنده رهاقة الذوق الأدبي ودقة الإحساس بالجمال الفني. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة في الشعر ويقصد بها إيراد المعاني الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونغضى إلى القرن السادس الهجري وملتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها ينوّه

(١) ١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٤٧٥.

(١) انظر في الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته في الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس)

بالتخييل في الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى في الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ في شعر عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشركونى الذى مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها في غير هذا الموضع ونراه في مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقى حتى زمن مهيار، وهى أحكام منثورة في كتب النقد عند المشاركة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعاني الماثورة في أشعار المشاركة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعاني الشعر المشرقى وصوره وأخيلته، ونراه يحمل^(١) على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنئى أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبي العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعتة المحافظة. ويلقانا عند الكلاعى الذى تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبى الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعينى في كتابه ربحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدى كان يركز على نقد المشاركة، وقلما التحم منه شيء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان في كتابي الشعر والخطابة لأرسطو. وكأنما احتفظ النقد الأندلسى بذلك لناقد متأخر هو حازم^(٢) القرطاجنى المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى وهو في النقد الأندلسى يقابل ابن رشد في البلاغة الأندلسية الذى سبقه بنحو قرن، وقد وُلد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقي الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت في حجر الروم - إلى المغرب وعاش في ظل الدولة الحفصية. وله في النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققة - القول وأجزائه والأداء وطرقه وأثر الكلام في السامعين، وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمته وتنمق في بحث المعاني والمباني والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

النقدية مقدمة محققة الدكتور محمد الحبيب بن الحوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص ٥٠٣ وما بعدها.
(٢) انظر في كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه

اسم معلّم أو معرف، ويعنى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختم بملاحظات سهاها مأمّا أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضامة وتتوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتتوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعول فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يمد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة؛ أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخيل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لابد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، ويؤثر بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعراضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لابد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشهد بالمتنبى وصنيمه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قسّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحدث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بآمن المعز والبحتري والمنتبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازته وتفردته الواضح. وحازم يحتتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك، ومر بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلبا للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرئ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله^(١) بن محمد القضاعى الذى كان يقرئ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشاركة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفا كبيرا فى القراءات هو أبو عمر^(٢) الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

لابن الجزرى ٧١/١ وكتابه طبقات القراء

(١) طبقات القراء ٤٥٦/١.

١٢٠/١.

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات المشرقية.

ومصر، وخاصة عن عبدالمنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد في القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعني بدراستها حتى توفى سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى^(١) بن أبي طالب المعروف بحموش القيرواني منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبدالمنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعد له ابن خلكان في القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب في أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه في جزئين وكتاب في تصحيح المد لورث في ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني^(٢) المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة في الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفى سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة في قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير في القراءات السبع وعليه عول الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان في قراءة ورش عن نافع، ونشر له في دمشق كتاب المحكم في نقط المصاحف. وبلغنا بعد محمد^(٣) بن شريح الإشبيلي المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافي في القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الداني الإمام الشاطبي^(٤) الضرير القاسم بن فيره نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمرسته متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حز الأمانى وجه التهاني في القراءات» وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عول القراء في زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبي ما دونه

(٣) راجع النشر في القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر في الشاطبي التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢٠/٢ والنهل والتكملة للراكتي ٥٤٨/٥ ومجمع الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهيمان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٠/٧ ونفع الطيب ٤٥/٢.

(١) راجع في مكى طبقات القراء ٣٠٩/٢ وبغية المنس ٤٥٥ ومجمع الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباء الرواة ٣١٣/٣ وابن خلكان ٢٧٤/٥.

(٢) انظر في الداني طبقات القراء ٥٠٣/١ والصلة رقم ٨٧٣ ومجمع الأدباء ١٢١/١٢ وبغية المنس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٢٩٨/٣ وطبقات المفسرين للسيوطي ١٥٩ وإنباء الرواة ٣٤١/٢ والنفع ١٣٥/٢.

الداني في القراءات بقصيدته وعنى الناس بحفظها وتلقيها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس^(١). وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الفرائضي الذي مر ذكره بين النحاة، ويقول في مقدمة تفسيره إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجعوا له أن له كتابا في كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا في قراءة زيد بن علي إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسومه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئ: الداني ومكي في ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشاركة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم في تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما ألف فيه هناك كتاب بقي^(٢) بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذي أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره» وابن حزم يضمه فوق تفسير الطبري أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وندلقت بعد بقي بمحمد^(٣) بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر في التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكي المذكور آفا تفسير ضخم ساه: «الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان في سبعين جزءا، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقي التفسير الكبير لابن عطية^(٤) أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضي المريّة المتوفى سنة ٥٤٢، وولي أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيها ناهيا عارفا بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز في التفسير من أحسن التأليف فيه وأبدع التصنيف على مر الأزمنة، وساه الوجيز تواضعا، وهو في مجلدات ضخمة، وفيه لخص - كما يقول

بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبنية ٧٧ وطبقات
المفسرين للسيوطي رقم ١٠٢ والواق للصفي
٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.
(٤) راجع في ابن عطية الفتح في القلائد
ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهي ص ١٠٩ والصلة
رقم ٨٢٥ وابن فرحون في الديباج ٥٧/٢ والمغرب
١١٧/٢.

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافي
١٠٣٠/٣
(٢) راجع في بقي ابن الفرضي ١٠٧/١ والمحيدي
١٦٧ ونفع الطب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣
والصلة رقم ٢٧٧ والبنية للضي ٢٢٩ ومعجم
الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبي ٦٢٩.
(٣) انظر في ابن أبي زمنين المحمدي ٥٣ وابن

ابن خلدون - التفاسير المأثورة كلها وتحجى الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس^(١). وينسب لمحيى الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبه له غير صحيحة، وتلتقى بعده بالقرطبي^(٢) محمد بن أحمد نزير مصر الذي اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفى سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو فى عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية فى تفسيره^(٣). ويختتم نشاط الأندلسيين فى تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذى مر بنا ذكره بين النحاة وهو فى ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر فى مقدمته مصادره فى اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية مواطنه وتفسير الزمخشري، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنها والمراجعة لها فى تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وبيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

وتنشطت الأندلس فى علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيه معاوية^(٤) بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء فى روايته أو فى التصنيف فيه وفى رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، وتلتقى فيه ببقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله فى الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومستند» أى أنه مصنف فى الفقه وأحكامه ومستند على طريقة مستند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سند، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدف لابن الأبار
ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١
وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة
للخشنى (طبعة ريبان) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب
لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.
(٢) انظر فى القرطبى طبقات المفسرين للسوطى
ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوفاى للصفدى
١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.
(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.
(٤) راجع فى معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣

فإنه روى أحاديثه في المصنف عن مائتي رجل وأربعة وثلاثين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير^(١) ويقول ابن حبان في المقتبس به انتشار الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاء محمد^(٢) بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - في نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس في الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»^(٣) ونحنا لم يدفعا الأندلس إلى السعة في المائتين: وروايته فحسب، بل دفعاها أيضا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقي وابن وضاح تلميذها ثابت^(٤) بن عبدالعزيز السرقسطي المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق في طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب في غريب الحديث ساء «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم في زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين في القرن الرابع قاسم^(٥) بن أصبغ تلميذ بقي بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له في الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد^(٦) بن عبد الملك بن أين (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رقيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من كتب المصنفات. ويلقانا في آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وبنوه ابن بشكوال في كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأساء الرواة: المعدلين منهم والمجرحين^(٧). ونلتقى في القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي^(٨) صاحب جذوة المقتبس التي ترجع إليها في الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوي في القرن السادس الهجري، ومنهم رزين^(٩) السرقسطي المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحيح الخمس: البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وقد

(١) نفع الطب ١٦٨/٣.

(٢) انظر في ابن وضاح ابن الفرضي رقم ١١٣٤

والحميدي رقم ١٥٢ والضيبي رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكي - نشر

بيروت) ص ٢٦٤

(٤) راجع في ثابت وقاسم ابنه مراجعتهما في هامش

ص ٩٢ وأيضاً النفع ١٧٠/٣ والحميدي رقم ٣٤٥.

٧٧١

(٥) انظر في ابن أصبغ النفع ١٦٩/٣ وابن

الفرضي رقم ١٠٦٨

(٦) راجع في ابن أين النفع ١٦٩/٣ والحميدي

رقم ٩٨ وابن الفرضي رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع في الحميدي الصلة رقم ١١١٤ ومجم

الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من

مصادر والواق للصفدي ٣١٧/٤.

(٩) انظر في رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضيبي ٧٤١.

دوت شهرته في المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطي^(١) عبداقه بن علي المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب في أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعاني.

وجاء بعده ابن قرقول^(٢): إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض في غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق^(٣) الإشبيلي المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، وله أيضا كتاب في الجمع بين الصحاح الستة وكتاب في المعتل من الحديث وكتاب في غريب القرآن والحديث ضاهى به الفريسيين للهروي وثلاث نسخ من كتاب له في الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن القطان^(٤) علي بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلمه ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطية، ويذكر ابن الأبار أن له تأليف مختلفة في الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن^(٥) فرح الإشبيلي نزيل دمشق وبجامعها حدث إلى أن توفي سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضمن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة في رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطي المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ^(٦) يوسف بن عبدالعزيز الأندلي المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بطبقات الرواة وضعفانهم.

وللأندلس نشاط خصب في الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاضلين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفي مقدمتهم صمصمة^(٧) بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذي أفتى الناس هناك - أخذا برأى

(٤) راجع ابن القطان في التكملة رقم ١٩٢٠

(٥) انظر ابن فرح في طبقات الشافعية (الطبعة

المجددة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤

وشفوات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة

١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ في الصلة رقم ١٣٩٥

(٧) انظر في صمصمة ابن الفرضي رقم ٦٠٥

والحميدى رقم ٥١٠.

(١) راجع في الرشاطي الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة

الحفاظ للذهبي ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع

القاهرة) ٦١. ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣

(٢) راجع في ابن قرقول بقية التكملة رقم ٣٩٤

وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر في ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم

١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشي في

المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

أستاذه - بفرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل في المساجد الجامعة بالأندلس^(١) بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك^(٢) بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون في كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فجّ، فكان طبيعيا أن يكون بن هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان للمالك سمعة مدوّية في العالم الإسلامي، وأيضا فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مئتك لأنه كان مغاضبا للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجردّه وضربه بالسياط عقابا له على فتواه^(٣). وهو ما جعل - في رأينا - عبد الرحمن الداخل وابنه هشام يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهي نصره له ضد العباسيين وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وتحمّل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازي بن قيس الذي مر بنا بين المؤيدين والقراء، يقول ابن القوطية: «في أيام عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقرأة نافع، وكان له مكرما ومتكررا عليه بالصلة في منزله»^(٤) ويقول الحميدي: كانت تدور الفتيا على الغازي بن قيس في عهد هشام إذ كان مشاورا مع مصعب بن عمران^(٥). ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضا إلى الأندلس شبطون^(٦): زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفي بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

(٣) راجع ترجمة مالك في ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد، ص ٣٥).

(٥) الحميدي ص ٣٠٥.

(٦) راجع في شبطون ابن الفرضي رقم ٤٥٦ والحميدي رقم ٤٣٩ والقضاء للغنشي ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

(١) انظر في هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت في الأندلس بقية لمذهب الأوزاعي في الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فتبها على مذهبه. انظر الحميدي ص ٢٠٥ وابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسي مالكي يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى^(١) بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان في المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت في الفقه المالكي طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذي علّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لا يُعَدُّ في الأندلس أفقه منه في نظرائه» وله في الفقه المالكي كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها في معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم^(٢). وتأتى في الفقه المالكي بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى^(٣) اللبني المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ في أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل في الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها في الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الرضي (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكرمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولّى قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكي وبذلك انتشر مذهب مالك في الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير في الفقه المالكي وفقهائه في الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرّج في الفقه المالكي على يد عبد^(٤) الرحمن بن القاسم، وتخرّج مثله على يده سحنون

(١) يُذكر كثيرا في النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بأراء عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشافعي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس واحتفظ بها القرى في النفع (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأحوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يحل في أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

(٢) انظر في ابن دينار ابن الفرضي رقم ٩٧٣ والمحمدي ص ٢٧٩ والذهبي ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٣) النفع ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض (طبعة الرباط) ١٧/١.

(٤) راجع في يحيى المقتبس ص ٤٢ و ٨٣ وما بعدها وابن الفرضي رقم ١٥٥٤ والمحمدي رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لمعاض (طبعة بيروت) ٥٣٤/١.

فقيه القيروان الذي حمل عنه مدونته^(١) وأذاعها بموطنه، فُسِّت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته^(٢) على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك في كتب الفقه المالكي الأندلسي، وغفل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكا في فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا في تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفي سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفي سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذي قال فيه الشافعي: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحمي الليثي عميد الفقهاء المالكيين في الأندلس المذكور آنفا والذي كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه في الفتوى في الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه في الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث في إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث^(٣) التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المعيزة كأن يكون لرجل في غنم مائة وعشر ولآخر في نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعهما فيكون عليها ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منها شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التي خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف في مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومررنا أنهم أخذوا بذهب الأوزاعي في غرس الشجر في المساجد مخالفين في ذلك رأى مالك. وخلف يحمي الليثي في رئاسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد^(٤) الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

(٣) راجع في هذه المسائل التي خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهي ص ٥١.

(٤) انظر في عبد الملك بن حبيب ابن الفرضي رقم ٨١٤ والزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ والمحمدي رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطبع لابن خاقان ص ٣٦ وابن فرحون في الديهاج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فمرضاها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص ٨٤.

الواضحة في الفقه المالكي الذي اشتهر في الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبح بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها في الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى^(٢) بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب في تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعاني الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له في رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى^(٣) بن عبد الله حفيد يحيى الليثي المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يمل على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة^(٤) جده يحيى الليثي. وفي ذلك ما يدل على أن كتابا في الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون في القيروان، كما كان يروى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبي زمنين^(٥) المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب في اختصار مدونة سحنون وكتاب في الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى في زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكي الأندلسي الكبير ابن عبد^(٦) البر يوسف النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيها تضمن الموطأ من معاني الرأي والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» رتبته على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده في القرن الخامس أبو الوليد^(٧) الباجي

ص ١٠٨

(٦) راجع في ابن عبد البر المطمع ص ٦١ والمحمدي رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.
(٧) انظر في ابن مزين ابن الغرضي رقم ١٥٥٦ والمحمدي رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع ١٦٨/٣.
(٨) ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٩) انظر في أبي الوليد الباجي الصلة رقم ٤٤٩ وقلاند العقيان ص ١٨٨ والتباي ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدياء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثاني ص ٩٤.

(١) راجع ابن عتبة في ابن الغرضي رقم ١١٠٢ والمحمدي رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.

(٢) انظر في ابن مزين ابن الغرضي رقم ١٥٥٦ والمحمدي رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفع ١٦٨/٣.

(٣) راجع في يحيى بن عبد الله ابن الغرضي رقم ١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جده كتب عشرة له كان يروى عن شيوخه وخاصة شبطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبي زمنين بين المفسرين

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتقى مختصره، والإيماة مختصر المنتقى، وكتاب في الأصول باسم إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب في اختصار مدونة سحنون. ويلقانا في القرن السادس ابن^(١) رشد المجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية في زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل» لما في المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت في المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو^(٢) بكر بن العربي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة في شرح كتب الصحاح في الحديث وفي أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بـابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله في الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعلل ووجه فأفاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا^(٣). ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية في المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية في ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة في الفقه المالكي في نحو ١٦٩٠ بيتا وهي منشورة في باريس منذ القرن الماضي، وكان الطلاب يدرسونها في جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيها سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكي في الأندلس، وكان من أهم الأسباب في ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب^(٤) أبي حنيفة، إذ عُدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين في الأندلس، ومثله المذهب

فروحون ٢/٢٥٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفي محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين في عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفريسي رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

(١) انظر في ابن رشد المجلد الصلة رقم ١١٥٤

والنهاى ص ٩٨ والدباج ٢/٢٤٨

(٢) راجع في ابن العربي الضى رقم ١٧٩

والنهاى ص ١٠٥ والمغرب ١/٢٥٤ والصلة رقم

١١٨١ وابن خلكان ٢٩٦/٤ وتذكرة الحفاظ

رقم ١٢٩٤ وأزهار الرياض ٣/٨٦ - ٩٥ وابن

الحنبل البغدادي، أما المذهب الشافعي فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبع ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعي من مثل المزني ومحمد بن عباد بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبي الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحاتر بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعي ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعي يلقانا بقرطبة هو قاسم^(١) بن محمد بن سيار المتوفى سنة ٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعي بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عباد بن عبدالحكم للفتنة والمناظرة وصحبه وتحقيق به، وعاد إلى الأندلس فعنى بنشر مذهب الشافعي عن طريق التأليف والتدريس، وما ألف كتاب الإيضاح في الرد على ابن عتبة وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما في ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتف حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقي بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعي مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضى من فقهاء الشافعية يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز^(٢) المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عباد بن عبدالحكم أصحاب الشافعي وليونس بن عبد الأعلى، وما سمعه من ابن عبدالحكم مختصر المزني ورسالة الشافعي. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الحنبار هرون^(٣) بن نصر القرطبي المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعي. ومن فقهاء الشافعية في القرن الرابع الهجري أسلم^(٤) بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتلمذ للمزني والربيع بن سليمان ومحمد بن عباد بن عبدالحكم أصحاب الشافعي، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين في أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

فرحون ٣٦٠/٢ وابن

(٤) انظر في أسلم ابن الفرضى رقم ٢٧٨ والحميدى رقم ٣٢٢ والقضاة للخشنى ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٧٧/١.

(١) راجع ابن سيار في الحميدى ٣١٠ وابن الفرضى ٣٩٧/١ والسبكي في طبقات الشافعية (طبعة الحلبي الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع في يحيى ابن الفرضى رقم ١٥٦٨. (٣) انظر في هرون ابن الفرضى رقم ١٠٤٧ وابن

وكان عبده بن عبد الرحمن الناصر شافعيًا، وثبت لأبيه أنه يدير مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعي في الأندلس. ووفد في عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعي فأكرمهم وتوسع لهم في العطاء والرواتب مثل عبده^(١) الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إمامًا في الفقه على مذهب الشافعي. كتب التصنيف فيه وفي القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين في القرن الرابع الأصلي^(٢) عبده الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة ساه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية في القرن الرابع ابن^(٣) أمية الحجاري وله كتاب في أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلا إنه كان بصيرًا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بني أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية في الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسي هو عبده الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد في نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقي معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكي. ونمضى إلى القرن الرابع الهجري، وملتقى بمنذر^(٤) بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصري واختلاف العلماء رواية عن ابن المنذر النيسابوري، كما يحمل مذهب داود الظاهري، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليها في عهد ابنه الحكم وكان شديدًا في دينه لا تأخذه في الله لومة لائم، وله مع الناصر عظمت محمودة، وكان مذهبه الفقهي المذهب الظاهري وكان محتج له ويحامي عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذي عليه العمل في بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًا على الانتصار للمذهب الظاهري، وله كتاب في أحكام القرآن غاية في بابه، ويلقانا في القرن

(٣) راجع في ابن أمية الحميدي ص ٣٨٠ وقد

ساه ابن أمية وانظر في كلمة ابن حزم عنه النفع

١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر في ترجمته بالفصل الخامس.

(١) راجع في عبده الله بن عمر ابن الغرضي رقم

٧٦٩.

(٢) انظر في الأصلي ابن الغرضي رقم ٧٨٥ وابن

فرحون ٤٣٣/١

الخامس إمام مذهب الظاهرية في الأندلس على^(١) بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ، وكان من أسرة ناهية، إذ كان أبوه وزيراً للمنصور بن أبي عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠هـ فخرج من قرطبة وعاد إليها مراراً وأقامه المستظهر وزيراً سنة ٤١٤هـ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكي، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعي ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهري على أبي الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦هـ واعتنقه مؤمناً به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يطل الأصول الخمسة التي أخذ بها الأحناف والشافعية، وهي القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغي إبطاله والاكْتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب في أصول المذهب المالكي القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهري ازدهر في عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهباً فقهياً لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة في عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعياً لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهري يتقدمهم قاضي القضاة ابن مضاء^(٢) أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢هـ وابن^(٣) حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢هـ وكان قد ولي القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن^(٤) خطاب الإشبيلي على بن عبد الله قاضي إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩هـ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكي بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهري، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهرياً ثم تحول إلى المذهب الشافعي.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين في الأندلس لأن لهم كتباً متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاء للخشني ولابن عبد البر كتاب مائل وكذلك للنباهي، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية في الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب

(٣) راجع في ابن حوط الله النباهي ص ١١٢ والكلمة ٨٣٨/٢.

(٤) انظر في ابن خطاب الكلمة رقم ١٩٠١.

(١) راجع في مصادر ابن حزم ترجمته في الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء في ص ٩٧.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغي أن أشير إلى أن النظام القضائي بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره في المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية^(١) من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد في القضايا المشكلة، وهي تشبه ما نعرف في قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها في القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف في قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محامياً يثبث ذلك في عقد بينه وبين المحامى^(٢) وكان للمحامى الحق في أن ينيب من يترافع عنه في القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضاً في عقد بينها^(٣). والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهي كتب باللغة الأهمية في بيان الأحوال الاجتماعية في الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات في المزارعات وغيرها من الاستثمارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستئجار الخيل والسلاح للحرب واستئجار الثياب والحلى والكتب^(٤)، وكان لابد لإسلام نصراني أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فاراً من شيء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل إله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق^(٥).

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصاراً فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة في مقتبس ابن حبان لمعهد بنى أمية ويسمىهم المشاورين.
(٢) انظر في ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن المطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن المطار في الديباج

المذهب ٢/٢٣١.

(٣) ابن المطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن المطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن المطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة^(١) للإنسان، وكان يعاصره معتزلي مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان^(٢) في أفعاله، وتابعه في اتجاهاه الاعتزالي ابن السمينة^(٣) يحمي المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزلياً. وأول معتزلي أندلسي دعا إلى الاعتزال بمضاهي الكامل ابن مسرة الذي ألغى به في أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتاب أمر الناصر في سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الإنسان حر في إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - في عهد الناصر وعادوا إلى الظهور في عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبي عامر الذي أظهر التشدد في كل ما يخالف آراء أهل الأندلس، ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد في عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول^(٤) ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية في عهد ابن أبي عامر وعادت إلى شيء من النشاط في عصر أمراء الطوائف على نحو ما مر بنا - في حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إساعيل الرعيثي. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالي أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيراً من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيا لقيام التأليف العلمي في أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيا لقيام التفكير الفلسفي فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة في التفكير الأوربي أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠ م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على ميدانين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك في حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام في كتابه الحيوان مستشهداً بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حرياً بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ في أوائل كتابه «في الأدب الجاهلي»

الفرضي رقم ٥٧٨، والنفع ٣/٣٧٥ وبالنسبة
ص ٣٢٥.

(٤) طرق الحماية (تحقيق د. الطاهر مكي) ص
٧٢.

(١) انظر ترجمته في ابن الفرضي رقم ٨٣٥ وابن
فرحون ٥٥/٢ وبالنسبة ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضي رقم ٤١٧
وبالنسبة ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأمم لصاعد ص ١٠١ وابن

وأضافه إلى ديكارت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالي أو الكلامي الثاني أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكارت أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفي: «أنا أفكر فأنا موجود»^(١) مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدأ أو الأصول الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبها ديكارت اجتلاباً مما ترجم في اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرئ في^(٢) النفع عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلماً متحققاً برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين في مديح إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج في الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثاً خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام في الإسلام، وفيه ينقض نقضاً دقيقاً مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءة والربانية والعيسوية أتباع أبي عيسى الأصبهاني، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعاً من صنع البشر. ويرى أن الكلمات في التوراة وفي الإنجيل بعده - القديم والجديد - حُرِّفت عن مواضعها على أيدي أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهي من دراساته المتعمقة في التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل - ببراهين قاطعة - على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهي، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بني إسرائيل بما فهم عيسى، إذ يعده - كما يعده المسلمون عامة - نبياً مرسلًا.

للكثوريين أحمد أمين وزكي نجيب محمود/١٠٠٠.
(٢) النفع ٣/٣٥٣.

(١) بالنسبة ص ٥٣٤. وانظر في مبدأ ديكارت
الفلسفي ترجمته في قصة الفلسفة الحديثة

التاريخ

نشط الأندلس - منذ القرن الثالث الهجري - في الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أو بالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أو بالسيرة النبوية العطرة أو بكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد في هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح في كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثي الذي مر بنا ذكره بين فقهاءها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معها وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وافتتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه في عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا في أوكسفورد^(١). وملتقى بعده بغير^(٢) المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبري وهو مثله على السنوات بادئاً بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له في الفصل الأخير رسالة تدخل في التاريخ العام سهاها نقط العروس في تواريخ الخلفاء ونوادير أخبارهم نشرتها في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتاب كتاب إعلام الأعلام في تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفي مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد^(٣) بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب المواعظ لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. وملتقى بكتاب الأخبار المجموعة، مؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف في أيامه. كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض في الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي
ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.
(٣) انظر مصادر ترجمة الرازي بين الجغرافيين
ص ٨٩.

(١) راجع مقال د. مكي عن هذا المخطوط في
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس
ص ٢٢١، ١٩٨٩.
(٢) انظر في ترجمة عريب القسم الأول من الجزء

(٣٧٥-٣٠٠هـ). وملتقى في عصر أمراء الطوائف بأبن حيان كبير مؤرخي الأندلس المتوفى سنة ٤٦٩ وموسوعيته التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بها في الفصل الأخير. وليمحي^(١) بن الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب في تاريخ دولة لمثونة (المرايطين) وجاء بعده ابن صاحب^(٢) الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله في تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد^(٣) المراكشي المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربي درس في الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسي^(٤) يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له في الفصل الأخير وله كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية، وهو تاريخ لبني الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة في السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصري المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولابن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سبقي، وأولى لذلك أن نذكره في الجزء الخاص بالمغرب، وللکلاعي^(٥) سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ ومغازي الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولابن^(٦) سيد الناس الإشبيلي المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ في السيرة النبوية «عيون الأثر في فتون المغازي والشهائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم في مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

واختصار القدر الممل (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإيباري ص ٩٤.

(٥) انظر في الكلاعي التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع في ابن سيد الناس الدرر الكامنة للوسطي ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

(١) راجع في ترجمة ابن الصيرفي التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة في التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع في ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعد الريان.

(٤) انظر في ترجمة البياسي المغرب ٧٣/٢.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد في تراجم الأندلسيين والكتّاب منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي^(١) عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد^(٢) المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المفتيس للحميدي^(٣) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ ويتتبع به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال^(٤) المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتبس للضبي أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدي في جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأهار المترجم له في الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيرة في تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر في الأندلس والمغرب وله أيضاً معجم الصديق وشيوخه وأصحابه، وللملاح^(٥) محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب في علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير^(٦) أحمد بن إبراهيم الفرناطي المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتنمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيراً كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو في أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشني^(٧) المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهي^(٨) المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جليل المتوفى سنة ٣٧٧ ومر ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المار ذكره، وألفت في أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، وبلغنا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

(٦) راجع في ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للراشدي ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والنبل الصافي ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(٧) انظر في الخشني ابن الفرضي رقم ١٣٩٨ والضبي رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٠٠.

(٨) راجع في النهاية الجزء الثاني من أزهار الرياض وتبيل الانتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥. وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(١) انظر في ابن الفرضي كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدي ٢٣٧ والمغرب ١٠٣/١ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع في صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدي بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال في التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصديق لابن الأهار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر في الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(الأندلس) لابن دحية^(١) المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفي مقدمتها قلاند العقيان والمطمح للفتح^(٢) بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهي في ثمانية مجلدات. وسنلم بها في الفصل الأخير. ولابن الأهار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيرة المذكورة آنفاً وكتاب تحفة القادم في تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق في العديدين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن^(٣) سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية في جزءين بدار المعارف، وله الفصول الياضة في محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضاً، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدر الممل وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن^(٤) الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين في كتابة التاريخ ينبغي أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمانهم وأدبانهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة في نفع الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما تحمل عنهم من الكتب مثل فهرسة^(٥) ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

دار المعارف).

(٤) انظر في ابن الأحمر درة المجال لابن القاضي

(طبع الرباط) ١١٦/١ وجنوة الاقتباس ٦٩ ونيل

الابتهاج ٩٩.

(٥) راجع في ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضئى

٦٥ والذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. محمد بن

شريعة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى

١٣٩/٢.

(١) انظر في ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة

الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.

(٢) انظر في الفتح بن خاقان معجم الصدق:

٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦

والذيل والتكملة للمراكشي ٥٢٩/٥ وابن خلكان

٢٣/٤.

(٣) راجع في ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١

والقوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر

القسم الأندلسي من كتابه المغرب (طبع

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرُّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربي من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والقانдал والقوط، ومنها الآسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضربون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُرُّ وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، ويرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالية، وبذلك كله كانت الأندلس مجعما لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيها أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا في الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا في موطنهم بالأندلس، وإنما في روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع في تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من القندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العسف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا في البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلي المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها في الفصل الماضى وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمثل بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل في مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذي لا تطيب حياة أى شعب بدونها بل إنها تصبح نُكْرًا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التمس.

وكأنما كُتِبَ للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدممة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السماح في معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية في عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَعَ عنهم ثقل الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغيضة من البؤس والظلم والمهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التي حررت أهل الأندلس من جُور القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتي ملأت الأندلس بالعدل الذي يعطى لصاحب الحق حقه دون أى خِيف، والذي يسوى بين الناس في مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا في أن يعتنق كثيرون من مسيحيي الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثُلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة في الدين المسيحي، مع ما يتبع لمعتقه من سعادة في دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتنق الدين الخفيف منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهياً ذلك سريعا في الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة في الإسلام وكانوا يسمون المسألة، وُسِّمِي أبنائهم باسم المولدين. وينبغي أن نذكر أنه لم يحدث في تاريخ العرب بالأندلس أن أكره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين في قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك في وثيقة يُشْهَد عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فارٍّ من شيء ولا مكراه، وأنه يحمدا لله على أن هداه للإسلام شاكرًا له نعمته على هدايته له»^(١).

وطبيعى أن يُقبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التي تُعَدُّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعلموا تعربا كاملا: دينا ولغة.

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيتته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانية لغةً في تخاطبه اليومي، غير أنه شعر سريعاً بما ذكرناه أنفاً من أنها لغة مجذبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبي كثرات العربية، وأيضاً ليس لها مثلها تراث ثقافي ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلاً عما لأهل العربية في البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائماً يحاول أن يحاكي الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيي الأندلس ويهودها ثقافياً وأدبياً وحضارياً لا قرناً ولا قرنين بل قروناً متعاقبة من القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربي الباهر في العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» في مقاله بترات الإسلام قاتلاً: «كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت في ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونيابره وبرشلونة كانوا يقصدون إليها كلما مستهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معماري أو مطرب كبير»^(١). ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التي استولت عليها الإمارات المسيحية الشمالية إلى مؤسسات^(٢) ترجمة ضخمة لكل ما هو عربي من علم وفلسفة وأدب، ويؤم طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلاً عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباساً عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل في نهضة أوروبا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين في الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذي اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضاً بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة في التخاطب «اليومي» للمسيحيين في الأندلس وفي شمال إيبيريا فقيرة فقراً شديداً، بحيث لا نستطيع أن نجد مبرراً كافياً لما ذهب إليه المستشرق الإسباني ريبيرا في نظريته^(٣) الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصحى لغة رسمية يتعلمونها في

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ص ١٧.

(٢) انظر في ذلك تاريخ الفكر الأندلسي لباتنيا

ص ٥٣٦ وما بعدها وفي مواضع مختلفة.

(٣) راجع هذه النظرية في بالنتيا ص ١٤٢

وما بعدها.

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانشية، ويقول: إن هذا الازدواج في اللغة كان الأصل في نشوء طراز شعرى مختلط تميز فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفي رأينا أن ريبيرا بالغ في كل ذلك بمبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملاة والسامة^(١). وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك في الدلالة على معرفة بعض القضاة لللاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى فى مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشنى - لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار^(٢). وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم^(٣). وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب في لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، ويمكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأمين أعجميتين، فتلفظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا في حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة فى قضاياهم عن حسن فقه بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب فى قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. وبما يدل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص ٩٦. (٢) الخشنى ص ٨٤.

(٣) الخشنى ص ١١٨.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التي دخلت في الإسلام، وهو شيء طبيعي أن يظل اللقب اللاتيني القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سميد المتوفى سنة ٢٦٧ لقب زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي الشاعر بلقب النذل كما في المقتبس لابن حيان^(١)، وفي التكملة لابن الأبار أنه لقبه بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أي النذل^(٢)، وكأنما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قدر الثياب دانا، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلقاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكي - لفضارة ثيابه. وكان سميد بن عثمان المرواني شاعر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع يُنَبِّز بلقب البُلْبُنة^(٣) Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سميد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب في قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح في دلالاته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذ دليلًا على شيوع اللاتينية الدارجة في مخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن في أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بَلْ بالأندلس، إذ قال: «دارهم في الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (في القرن الخامس الهجري) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»^(٤)، ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بَلْ وحدها في الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتخطب في فئتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بَلْ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما في نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

(٣) راجع المغرب ١/١١١.

(٤) المغرب ١/١٩٧.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكي طبع بيروت)

ص ٩٨ وقابل بالمغرب ١/١١٣.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع في ذلك تعليق د. مكي في المقتبس ص ٥٠٤.

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع في كتابه معجم البلدان عن أهل شلب إذ يقول: «قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»^(١). ويقول ابن الخطيب في الإحاطة^(٢) إن أهل غرناطة - في زمنه بالقرن الثامن الهجرى - ألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها إعراب كثير. وفي الروض المطار للعميرى المتوفى سنة ٩٠٠: «مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس» ويقول: «إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهد متأخرة»^(٣). وكأنما ظل يعيش في الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيراً منهم - هناك زابت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة في مخاطبتهم اليومى، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب؟!

وما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة البربر القرطبي الشهورة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م وفيها يأسى لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالناس يولع المسلمون من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والمهرة تقطع نياط قلبه: «إن إخوانى في الدين يجحدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقولون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وأثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن المهووبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فيهم، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرغوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أنيسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظّمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»^(٤).

(١) انظر مدينة شلب في معجم البلدان لياقوت.

(٢) الإحاطة (الطبعة الأولى) ١ / ١٣٥.

(٣) الروض المطار للعميرى (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ص ١٠٦.

(٤) راجع نص هذه الصيحة في بالنها ص ٤٨٥

وما بعدها.

وَالْبُرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصارى فى الأندلس لزمته أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هم يملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يحفون عليها قارئین متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالثبنا تلك الصيحة لألبرو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قس يسمى بِنَجْنِسِس، والكتاب مُهْدَى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفرق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالثبنا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائهم وينسجون بأساء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلفها لنا مستعربو طليطلة»^(١).

ويشهد لبالثبنا وألبرو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عُنُوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أنتينان الذى مر ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان ألبرو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستعربون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرّبت - فى ظلنا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها وشاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النخيلة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سبى السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولعاصرها حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيها شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتباً عند بنى هود قبله، وعين

(١) انظر بالثبنا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسَدَى كاتبا في دواوينه. ومن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدُود الطبيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الفناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأثمة في دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد في القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي الذى أثر الإسلام ديناً وعقيدة، وكان شاعراً نابهاً ووشاحاً مجيداً. ومما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسايتهم شاعرات مجيدات مثل قَسْمُونَة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها - كما يقول المقرئ - شاعراً واعتنى بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسماً من موشحة، فأثمتها هى بقسم آخر. ومما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعرباً كاملاً أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم، سوى ما تملوه من تلك الثقافة في لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنتيجة: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»^(١).

ولعل في ذلك كله ما ينقض - بوضوح - نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن في ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضاً فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان في الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون في مخاطبتهم اليومى العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قروناً متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى في الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت في نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى في جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها في الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية في نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضاً أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تترأى فيها أحياناً ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية. إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت في جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود في ترجمة الثقافة الأندلسية عند بالنتها ص ٤٨٨ و ٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها في كل بلد عربي بعض خصائص تلك اللغات في النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث في الأندلس على نحو ما يتضح في أزجالها، فهي منظومة يعربية عامة تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانشية التي كانت مستقرة في الأندلس قبل الفتح العربي وظلت حية فيها وراءها من الإمارات المسيحية في الشمال، وبالمثل في الأندلس على ألسنة بعض النصارى والبحارى الإسبانيات والمسترقين من الإسبان في الحروب، وانزلت منها بعض ألفاظ في الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامة، وليس فيها أى نص مكتوب أو منظوم باللهجة الرومانشية الدارجة في الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبييرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أو يلمون بشيء منها بجانب الفصحى والعامة العربية الأندلسية المتداولة في الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامة أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربي، على نحو ما يلقانا عند أبي عبد الله أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليس، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى، إذ ذكر صفى الدين الحللى في كتابه: «العاطل الحال» أنه قرأ له في ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامة على أوزان الشعر العربي، وقد سُمى أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنان من وزن الرمل، وآخران من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخمّل البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامة^(١). ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامة تنظم على أوزان الشعر العربي كما سيتضح - فيما بعد - في تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب في ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبييرا، إنما تداولوا فيها عامة عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس في مخاطبتهم اليومي بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وأدائها الرفيعة، يستوى في ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم الأبرو أنفاً. والشعب الأندلسى - في هذا الصنيع - يلتقى

المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

(١) راجع كتاب العاطل الحال والمرخص الغال لصفى الدين الحللى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة

بجميع الشعوب الإسلامية في البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعاً تتمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفي الوقت نفسه تحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها في ذلك مثل العامة من حولها، وهي لغة أهل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التي كانت سائدة في تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطاناً جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدلت في بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة في حركاتها وانزلت من كلماتها السوقية والعامية بعض ألفاظ إلى كتابات الكتاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين في المشرق يؤلف كتباً في لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائي البغدادي المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألف الزبيدي القرطبي الذي مر ذكره بين اللغويين الأندلسيين في القرن الرابع الهجري كتاباً في لحن العوام حتى ينه الكتاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحياناً في كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبينوه ويجتنبوه^(١).

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية في الأندلس على السنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانشية، كما ظن ريبيرا، وهي عامية كانت تحمل الإعراب وتفسد أحياناً النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التي نشأت في البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدي كتباً، ونظم فيها زجالون أزجالاً كثيرة، وأحياناً دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربي أندلسي عامي ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافي وأدبي وعلمي وفلسفي، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا في الأندلس شعباً عربياً كبيراً ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربى اللغة فصيحاً وعاميةً، وظل عربى الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعياً أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدوداً زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نظمت أشعار في تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضري مبكر في عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعُونَةُ الكلابي كان مَدَاحاً لِلصَّمِيلِ بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهري وإلى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعاراً لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضي. ويظل الرواة ينشدون أشعاراً لأمرء البيت الأموي. وقد أخذ هذا البيت القرشي في رعاية الشعر منذ أول ولايته في الأندلس، ويذكرون من الشعراء في عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المرواني الداخل إلى الأندلس في صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المرواني وكانت له عند الداخل مكانة عليّة. واشتهر من الشعراء في عهد الأمير هشام أبوالمخشيّ عاصم بن زيد المتوفى في دولة ابنه الحكم الربضي، واشتهر لزمن الحكم غريب بن عبد الله الثقفى الطليطلي المتوفى في أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وعهده يُعَدُّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضاري والثقافي بالأندلس، وأيضاً بدء الازدهار الأدبي، وحظي بنزول زرياب في قرطبة لأول حكمه، ودفعه لهضة غنائية وموسيقية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهورهم عباس بن ناصح قاضي الحكم الربضي على شنونة والجزيرة، ومُرُّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجه به إلى العراق في التماس الكتب القديمة التي تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزاً كثيرة أكبَّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم في إساعة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضاً في هذا العهد يحيى الغزال الذي بدأ ظهوره في عهد الحكم الربضي وعاش طويلاً حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم في عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرها عبد الله بن الشعر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديه وعثمان بن المنثي مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلها أبو عثمان سعيد بن الفرج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس في زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم النقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتيبي وله مدائح كثيرة في الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار في المغرب والمقتبس. ومن تدور أسأؤهم من الشعراء في المقتبس لعهد الأمير محمد طاهر بن حزم وقام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المورورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم في المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسبحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحها له حتى وفاتها لعهد، وعِدَاد ابن عبد ربه في بيوتات المولدين ومثله عِدَاد ابن إدريس في بيوتات المولدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنحرف فيها بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلي وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيد بن محمود، وكان كانبا في القصر وله مدائح كثيرة في الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشالية النائر بجيان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله النائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلقاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح في الأمير عبد الله وأيضا في كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا في الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله في ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالمة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة إلبرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيها حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته وهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى وإلى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولد من أبناء المسالمة هو العجلي عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منها عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا في عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذي امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حلبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوا في تقريبه وتوسعوا في ذكر عدالته وسباحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه ونقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيها تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خنازير^(١) مقدمهم معلّم في الصبا ابن عبد ربّه ، ويليّه من غطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادي وإساعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السّناط وغيرهم من كبار الطّائرين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادي ومحمد بن الحسين الطّنبّي الإفريقي^(٢). ويذكر ابن حيان في الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مداخل كثيرة كانوا يمتنون فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربّه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفي ومحمد بن أضحي صاحب الحامّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازي الذي مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون في عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفي مقدمتهم جعفر المصحفي مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطّنبّي ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجبائي صاحب كتاب الهدائق. وكان الحكم يمثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيه محمد بن عبد الملك بن الناصر. وخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور بن أبي عامر ثم ابنه المظفر والناصر. وتصيح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقضى فيها على الحكم الأموي قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء في الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التّوابع والزّوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبليني سعيد بن عثمان المرواني وهو من مداح المنصور بن أبي عامر، والقائد يعلّى بن أحمد بن يعلّى وعبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور وابن النّظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهشيمي وعبد الله بن أبي الحسن

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد) ص ٤٠ وما بعدها.

(١) الخنازير جمع خنزير، وهو من الشعراء: المجيد الحسن.

ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادى المتوفى سنة ٤١٣
ومحمد بن الحسين الطَّبَّي وجعفر بن أبي على القالى، وعيسى بن الحسن، وعُبادَة بن ماء
السَّاء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتانى محمد بن الحسن المذحجى المَطَّي وابن دراج
القسطلى وأمة^(١) بن غالب المورورى.

وما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد
كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجرى، على
نحو ما. نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء
بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التى تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعَرَّضَ
أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكتانى المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء
الأندلس لمحمد بن هشام الأموى فى زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء
الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرءوف
الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء البيرة لمطرف بن عيسى الفسافى المتوفى سنة ٣٥٧
وكتاب المدايق لأحمد بن فرج الجبائى، ومرء بنا فى الفصل الماضى أنه ألفه للحكم
المستنصر معارضاً به كتاب الزهرة لابن داود البغدادى وكان ابن داود وزع كتابه على
مائه باب وأودع فى كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - فى مائتى
باب وفى كل باب مائتا بيت، افتخاراً بذلك لأهل موطنه وبياناً لتفوقهم فى الشعر
وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ كتاباً فى أخبار شعراء الأندلس،
وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السَّاء كتاباً مماثلاً، وألف ابن الكتانى «كتاب
التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو غاذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء
الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألمنا به فى حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية فى
الفصل الماضى. وفى سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء
الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله
كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعَنَّ بجذب الشعراء إليها كما عُتِنَت إمارة بنى عباد
بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء فى المغرب
وخاصة فى كتاب مدينة الزاهرة ١٩٧/١-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم في الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. وترجم ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها في عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح في وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع في وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأهار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزني وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلي وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبي الذي اتخذ وزيراً ومدبراً لشتون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكتابه وأبو القاسم بن الجدد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المرعزي النصراني الإشبيلي. وكاد أن لا ينجم في بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا وقد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبي الذي وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صفة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقيه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البشراة في البيرة ابن القزاز محمد بن عبادة، ومن المربة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وهبون الذي تفتى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذي تفتح على دولته فتجما مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغيات براكش. ومن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل في هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور - من بعض الوجوه - كثرة الشعراء في عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولناخذ مثلا المربة، فقد كان من أمرائها راع كبير للشعر هو المعتصم بن صُباح الذي ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبنائوه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد في إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركى يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيرى الذي كان يقد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بليطة الطليلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا في أن تتعدد بالأندلس المراكز التي تتعق على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفا زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هي التي تنثر الدنانير، أما في هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل برزتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمرية ومُرُسية ودانية وبطلبوس وطليلطة وسرقطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة في هذا العصر هي ظاهرة الشعراء الجوالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير في طلب النوال والمال مثل أسعد بن بليطة الطليلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبى عامر بن الأصيل وكان جواب آفاق وعيد الرحمن بين مقانا الأشبوني المبدع، ورأى أن يرجع أخيرا إلى موطنه «القُبْداق» ويشغل فيها بالزراعة بعد أن كُتت قدماء وأضاءه التطواف على الإمارات والأمراء^(١). وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هي ظاهرة المداحين المسؤولين من أهل الكذبة الذين يسميهم ابن بسام في الذخيرة باسم القوالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائد على الأبواب وفي الأسواق يستجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مقانا:

البرقي لائح من أندرين ذرفت عيناك بالدمع الميعين^(٢)

ويقول إن طائفة القوالين في الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عنوبة في اللفظ وسلاسة^(٣).

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس في عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى في الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم في الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبعي أن ظل يعيش في عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا في عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء في هذا العصر غبطة بن سارة وابن أبي

(٣) الذخيرة ٧٩١/٢.

(١) الذخيرة ٧٨٧/٢.

(٢) أندرين: قرية بالنام.

الحصائل الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطونة وعلى بن الإمام
ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى
تاريخ الدولة اللتونية أو دولة الملتين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن
الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب
الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنان وابن عائشة الكاتب
وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية
وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار
الأصولى المالقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيل ويحيى بن بلى
واليكى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى
الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين
والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضا فإنه ترجم لابن قزمان
الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة
٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاما، وهو لذلك حرى بأن يلحق بمصرهم.

وغضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من
أربعين شاعرا نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن
الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والحراز
البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن المحارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن
عبد الواحد الملاهى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عنزة وأحمد بن
عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكندى محمد بن
عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصاصى محمد بن غالب
وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن يئق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى.
وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده
لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى
الفيلسوف وعلى بن المربى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق
وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبى. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع
إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبلى والبلاراج القرموف وابن
الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. وبما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى
الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرُّ بنا عن أهل شلب بما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا برزت فيه أخواتها في البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرئ في النفع لأكثر من عشرين شاعرة، منهن في القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشئ عاصم بن زيد، ومنهن في القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجارية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجائية، ومنهن في القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستنفي ومهجة بنت النيثاني القرطبية ومريم بنت أبي يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتقاد المعروفة باسم الرُّمَيْكِيَّة زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صراح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطي سيربن أبي بكر وإلى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدي بعض انتقادات على ما تسمع. ومن ترجم لمن المقرئ في القرن السادس نزھون بنت القليعي وحمدة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الفرناطية وورقاء بنت بنتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسما العامرية، وترجم المقرئ في أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى في نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تتلظى شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة في التقلص والنحول، إذ أخذ كثير من منابع الحياة التى كان يستمد منها في الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت المواضر الكبرى في وسط الأندلس وشرقها وغربها في حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لصاعت الأندلس نهائيا من أيدي العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشالبيين وأن يكون دولة في غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبنائه وأحفاده يقومون عليها حتى غلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسُّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يترامى لهم سريعا، وكان ذلك سببا في أن يفادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التي أثروا بها تأثيرا عميقا في البلاد المغربية خاصة في مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتابٌ نُشرَ بجعل له باسم اختصار القُدَح المَعْلُ وهو يعرض فيه شعراء الأندلس في المائة السابعة ممن جالسهم في الأندلس وقيدَ عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم في البلدان المغربية وخاصة تونس أو في البلدان المشرقية في الإسكندرية أو في القاهرة أو في دمشق، وقد بلغوا في كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وترجمهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته في كتاب المغرب، ومن يذكره بينهم أبو الوليد الشَّقْنَدِي صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس وتفوقها الثقافي والأدبي، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجبائي ويقول إن أباه ممدوح مدغليس في أزجاله. ويتوسع في الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عنى بالحديث عن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيرة وتحفة القادِم ومعجم الصدق وبها توفي سنة ٦٥٨ ومثل أبي المطرف أحمد بن عميرة وأبي الحجاج يوسف البياسي وابن قُشْك محمد بن يحيى. ومن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلي المُطَبِّب وقد عيَّنه المصريون في مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دُحْيَة الذي أسند إليه السلطان الكامل رئاسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذي جعله رئيسا للعشائين أو الصيادلة في القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربي المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفي سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القُدَح المَعْلُ مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس في المائة السابعة. وتلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاههم بالمقرنين والمدرسين من الشعراء مثل أبي حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر في إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين في شعراء الأندلس في المائة الثامنة كتاب تثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه في طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة للسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل في كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء في الأندلس منذ اكتمل تعريبها في القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حيا بل مزدهرا في الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلموا وجدوا تقنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك في ذلك علماءهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالحراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلها مرج الكحل الشاعر البلبسى فقد نشأ ينادى في الأسواق ويتمشئ من بيع السمك، وأخذت همته تترقى قليلا قليلا في حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاح الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الفصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويُظن أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مرُ بنا فى الفصل

الأول أثر كبير في نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفترة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سميذ: «ذكر المجارى في كتاب المسهب في غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معاذ القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها»^(١). ويسمى ابن بسام في ترجمته لعبادة بن ماء السماء بخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبري الضري، ويقول: «كان يضمها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملّة غير المستعملة»^(٢) وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم في نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربي وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربي^(٣). وهو خطأ في الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملّة غير المستعملة» عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما رده العروضيون المشاركة والمقاربة من أن الدوائر الخمس التي ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريض الشعر العربي تفسح لأوزان مهملّة لا تنحصر لم يستخدمها العرب في أشعارها، واستخدمها في عصره - كما يقول صاحب الأغاني - تلميذه عبد الله بن هرون بن السّميدع البصري، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْنُ العروضي وأتى فيه بهدائع جمة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس^(٤) وقد أنشد ياقوت قصيدة له في مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربي وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملّة، وهو - في رأينا - عكس وزن المنسرح. وبعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسي ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملّة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسي الأول»^(٥).

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملّة غير المستعملة التي أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

مكي في كتاب أثر العرب في النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

(١) راجع كتاب المقتطف من أزهار الطرف لابن

سعيد بتحقيق د. سيد حنفي حسين (نشر الهيئة

المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنسبة في تاريخ الفكر الأندلسي

ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهمة التي لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - في رأيه - محمد بن حمود القبري الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذي يأتي في الحاتمة. وربما كان ذلك مادعا «رييرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعري يمزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانسية في الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بقص من الجواهر الكريمة، وليس في يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصح منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية في نهاية الموشحة على سبيل النظر، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين^(١). وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن في القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانية إلى أغنية رومانية كانت متداولة في الأندلس أو تفتى، فالقول بذلك إنما هو - في رأينا - مجرد ظن لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يجنحون أحيانا في بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط في المجون) من قبل السخف، قرمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللحن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويجعلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستمرا على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكري والسكران، ولا بد في البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»^(٢). وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

المصر العباسي الأول ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق

الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٣٠.

(١) انظر في ذلك فصلا فتحه الجاحظ في البيان والتهيين (طبعة هرون) ١٤١/٨ - ١٤٤ لمن كان يتطلع بإدخال ألفاظ فارسية في شعره من الأعراب فضلا عن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا

عن الحمد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب في استخدام الوشاح الأندلسي أحيانا للخرجات الرومانسية فراراً من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهواني من خرجات الموشحات في كتابه - الزجل الأندلسي - يلاحظ أن كثيراً من المخرجات المعجمة التي ذكرها تشكو فيها الفتاة لأنها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذلة لعاشقها تذلاً شديداً، وقد يصاغ ذلك في خرجات عامية ولكن في تلميح غالباً دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه في عبارة لاتينية دارجة أو رومانسية. وهذا - في رأينا - هو الباعث على وجود المخرجات الأعجمية في بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغاني الرومانسية الأعجمية. وما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسططات العباسية التي ظهرت منذ القرن الثاني الهجري على لسان أبي نواس وأضرابه يلاحظ تواً أن المسططات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان في الموشحة وكل دور - مثل الفصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تنفق في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في كل دور من أدوار المسقط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسقط فهو القطب الذي يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركز أو القفل في الموشحة، وكل ما بينها من فروق أن الشطر في نهاية أدوار المسقط واحد بينما هو في مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان في الموشحات الأولى شطراً واحداً. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشكلة الشديدة بين الموشحة والمسقط كما يتبين من الاسم الذي اختاروه لها اشتقاقاً من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسقط من السقط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعاً عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور في المسقط مع الأدوار الأخرى في قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أي الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذي يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالف بينها ويُعطَف أحدها على صاحبه. وهي تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسقط أن القري وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجمع اللفظ العامي أو العجمي مركزاً أو كما سُمي فيها بعد قفلاً ويضع عليه أشطاراً، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطراً واحداً بالضبط كما كان في المسقط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار.

وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهي الأعاريض التى أشار إليها الخليل بن أحمد فى دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التبادل والتوافق الرياضية^(١) بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكان الوشاح الأول فى الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميد ووزن العروضى وأبى العتاهية فى بغداد، من عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذى ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادى الكندى المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام فى نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر فى الموشحة من التضمن فى المراكز» يريد أنه أول من أحدث فى الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور فى المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعة. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجى، الأنصارى المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديدا هو تضمينه مواقع الوقف فى الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة فى أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التى حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التشريح التى نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منادها، وقوم ميلها وسينادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاعر الكتي احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيها أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء فى كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعة فى هذا الفصن متفرلا^(٢)

لَيْلِيَّةُ الذَوَائِبِ	وَوَجَّهَهَا نَهَارُ ^(٣)
مَصْقُولَةُ التَّرَائِبِ	وَرَشَفَهَا عُقَارُ ^(٤)
أَصْدَاغُهَا عَقَارِبُ	وَالْحَدَّ جُلُنَارُ ^(٥)

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها فى القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا فى الموشحات بعده. والوزن فى هذا

(٣) الذوائب = الضفائر.

(٤) العقار = الحصر.

(٥) جلنار: زهر الرمان.

(١) راجع فى ذلك ترجمة الخليل فى كتابها المدارس

النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.

(٢) راجع الموشحة فى الفوات ٤٢٨/١.

الفن والأغصان بعده مستعملن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى
الى أنشدها ابن شاعر من وزن الرمل أقفاها وغصونها، ومطلعها:
مَنْ وَلِيَ فِي أُمَةِ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يَعْزَلْ
إِلَّا لِحَاطِ الرُّشْيَا الْأَكْهَلْ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تنظم إما على أعاريض الشعر العربي المستعملة
وإما على أعاريضه المهمة، وموشحاته تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب في
الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال
والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بفنن ويسمى - حينئذ -
أفرع، وقد يتألف القفل من جزئين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الفنن.
ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا،
ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قريبا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزاز
محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن
ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لُبُون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان
هو والقزاز فرسي رهان في العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر
كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح في المعتمد بن عباد أمير إشبيلية
وأبنائه، وهو يستهلها دائما بفزل رقيق من مثل قوله في موشحة مدح^(١) بها المعتمد:

يَفْرُ عَنْ لَوْلُو فِي نَسَقٍ مِنْ الْأَقَاخِ بِنَسِيمِ الْعَبْقِ
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لَرَشَفِ الْقُبُلِ
هِيَهَاتَ مِنْ نَيْلِ ذَاكَ الْأَمَلِ
كَمْ دُونَهُ مِنْ سُيُوفِ الْمُقَلِ
سُلْتُ بِلَحْظِ وَقَاحِ خَجَلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستعملن فَعْلُنْ مُسْتَعْلِن. والثاني على
زنة: مُتَفَعْلَاتٍ والثالث على زنة: متفاعِلن. والرابع على زنة فَعْلُنْ. واجتماع هذه التفاعيل
تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهمة، أما الفنن

(١) انظر الموشحة في دار الطراز ص ٥٤ وفي
المغرب ٤١٤/٢.

فيطرد على زنة: مستعمل فاعلن مستعملن، وهو وزن عربي مستعمل بكثرة ونقص وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة في موشحاته مرارا لعذوبته.

وتتسع موجة الوشاحين في عصر المرابطين، ومن أهمهم في عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلي المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِيّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخسه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلي يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفي لبیان مهارته في صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم في مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بَقِيّ والأعمى التطيلي، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

صاحكُ عن بَقِيٍّ سافرُ عن بَنَرٍ
ضاقُ عنه الزمانُ وحَواه صَدْرِي

مَرَّقَ ابن بَقِيّ موشحته وتبعه الباقر^(١) لما فجأهم به التطيلي في موشحته من عذوبة في اللفظ وروعة في التصوير، والقليل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثاني والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلُن، وتغضى جميع الأفعال بهذه الزنة بينما تغضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله في الفصن الأول:

أَوْ مِمَّا أَجِدُ شَفْنِي مَا أَجِدُ
قَامَ بِي وَقَعْدُ بَاطِنُ مَتْنِدُ

وكان التطيلي تعمد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهمة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الفصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أفعالا وأغصانا من وزن عربي مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة في موشحات التطيلي الملحقة بديوانه كقوله في موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُتَّ الكُتُوسُ رَوِيَّةٌ عَلَى رُؤَايَ البَاسِئِينَ مِنْ قَهْوَةٍ بِأَبْلِيَّةٍ
أَرَقُّ مِنْ دَمْعٍ مَحْزُونٍ
خَلَعْتُ عِزِّي وَدِينِي فِي أَهْبَفِ الْقَدِّ لَذِينِ

يَسْطُو بِسَيْفِ النُّونِ مَا جَفَنهُ غَيْرُ جَفْنِهِ
بِاقْسَوَةِ الْحَبِّ لِيَنِي وَلَوْ بِرُّمَانِ غُضْنِهِ

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا على وزن المجث: مستفعلن فاعلان. وعاصر التطيل من الوشاحين الناهين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره في الفصل الماضي وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشعا في مديح ابن تيفلوت المراهطي الوالي على شرقي الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابن تيفلوت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشی ابن باجة في طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين في عصر المراهطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري وأبو بكر بن رُحيم ويحيى بن الصيرفي المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشع بناء من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثاني من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة في الجزء الأول على هذا النمط^(١):

يَا رُبَّةَ الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ مِيلِ
رَأَيْتُ فِي وَجْهِكَ السَّعْدِ عِمْدِي

وتظل الموشحات مزدهرة في عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤ هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثان بن عبد المؤمن والي غرناطة كما يتضح في موشع له بديع^(٢) مستخرجا الجزء الثاني من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله في مطلعته:

يَا لَيْلَةَ الْوَقْلِ وَالسُّعُودِ بَاقَهُ عُوْدِي

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثاني مستفعلن، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المريثي وفي المغرب له موشحة^(٣) بارعة. وسابق الحلبية - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنقصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس في إحدى موشحاته:

(٣) المغرب ٢/٢١٨.

(١) المغرب ٢/١٤٧.

(٢) المغرب ٢/٢١٥.

ورداً الأصيل تطويه كف الظلام

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء^(١)؟ وهي صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحِّلُ الدُّجَى يَجْرَى مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ عَلَى الصُّبْحِ
وَمِقْصَمُ النَّهْرِ فِي حُلَلِ خُضْرٍ مِنْ الْبِطَاحِ

طرب لهذا القفل منها طرباً شديداً^(٢) لعدوية ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجاء، وله موشحة^(٣) بدعية يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة بيلنسية، وقد استشهد في الدفاع عنها في إحدى معاركه المحترمة مع النصارى وسنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٢٧، وله في إحدى موشحاته^(٤):

وَأَقْرَدْتُ بِالرُّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبِتُّ عَلَى جَمَرَاتِ الْقَضَا
أَعَانَتْ بِالْفَكْرِ تِلْكَ الطُّلُولُ وَأَلَيْتُمُ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومُ

وأغصان الموشحة وأقفاؤها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدين إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى في حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا في عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأشهر موشحاته^(٥):

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْحِمَى أَنْ قَدْ جَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسٍ
فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفِيَ مِثْلَهَا لَعِبَتْ رِيحُ الصُّبَا بِالْقَبَسِ

وقد صاغه أقفاً وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات وبهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربي والششتري. ولتلقى في غرناطة بآبن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

(١) المتقطف ص ٢٦٠.

(٢) المتقطف ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) المغرب ٢/٢١٧.

(٤) المغرب ٢/٢٨٩ والنضا: من أشجار نجد.

يسوقه بخشبه.

(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلي (طبع بيروت)

ص ٢٨٣ ومكس الظبي: مأواه في الشجر ليستتر

به. القبس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله^(١):

جارك الفَيْتُ إِذَا الْفَيْتُ هَمِي يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكُرَى أَوْ خِلْسَةِ الْمُخْتَلَسِ

وكانها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القرزاز وابن بقي وابن زهر.

ابن عبادة^(٢) القرزاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القرزاز، ترجم له ابن سعيد في المغرب وقال إنه من حصن بلّور من إقليم غرناطة وظنه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صراح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبدًا لآل صُراح وفي أَرْضِهِمْ أَصْلِي وَعَيْشِي وَمَوْلَدِي
لَمَا كَانَ لِي إِلَّا إِلَيْهِمْ تَرْحَلُ وَفِي ظِلِّهِمْ أُنْسِي وَأَضْحَى وَأَغْتَدِي

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحُفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات في كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلي ويحيى بن بقي من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلي يتكون قفله من ستة أجزاء بينها يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بخصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

٢٥٢/٢ والذخيرة: ٨٠١/١ وما بعدها والخريدة
(طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء
الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢١٣/٢ وهي: سقط مدرارا.
(٢) انظر في ابن عبادة القرزاز القلائد للفتح بن خاقان: ١٤ و المغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض

قال: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيها اتفاق له من قوله:

بَنَفَرِيْكُمْ شَفْسُ ضَحَى غُضْنُ نَقَا بِسُكُ شَمُ
مَا أَنْتُمْ مَا أَوْضَا مَا أَوْزَا مَا أَنْتُمْ
لا جَرَمَ مِنْ لَمَا قَدْ عَشِفَا قَدْ حُرِمَ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدِّدُ، رشاقة كأنما تطير بها في خفة فتحدث عبقًا، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هي مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء في كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فمروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستعلن فاعلن مستعلن فاعلن، وقدم القزاز في الجزمين الأولين فاعلن على مستعلنن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداهما من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرُّ بنا في قفل موشحتين للتطيلي وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجري على الأعاريض المهملّة غير المستعملة فظن «ريبر» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملّة غير المستعملة عند العرب التي نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع في دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدّمًا ومؤخرًا في أسبائها وأوتادها ومستخدمًا إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث في التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهلها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئًا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهملّة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدؤوا في نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبري الوشاح الأول أنبأها مفصلة في كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التي أنشدناها. والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عَرَضٍ لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التي رأيناها في الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول في أحد الأغصان:

وَجَنَارِيَاتٍ تَجُولُ مِثْلَ الْجِيَادِ السَّابِقَةِ
إِنْشَاءً مَنْ فِي الْمَحُولِ يَنْشِئُ السَّحَابَ الْوَادِقَةَ^(١)

(١) المحول: الجذب. الوادقة: المطرة. وهو يشهد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سَمْتُ عَلَى النِّجْمِ طَوْلٌ مِنْهَا فَرَوْعٌ بِاسِقَةٍ^(١)

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافات. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسياح بين مديح المعتصم بن صامح والمعتد بن عباد ، وفي أحد أقفاها يقول فيها:
بَحْرًا نَعَمَ لِمَنْ وَرَدَ ظَمَانٌ سَيْفًا يَنْقُمُ لِمَنْ مَرَدٌ^(٢) أَوْ خَانٌ

ولعل فيها قدما ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والفصن حتى يتبع لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعمق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى^(٣) بن يحيى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القهسي المشهور باسم ابن يحيى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح في القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتمريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيه طائفة، إذا نظم أُرْزَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقَم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قميد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهّم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهي الجُبان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَعَلْتُ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فَأَعْجَزَنِي نَيْلُ الرِّغَائِبِ حَتَّى أَهْتُ بِالْئُدْمِ

ولم يلبث أن فُتِحَ له باب كبير هو باب بني عُشْرَةَ قضاة سَلا بالقرب من الرباط

ومعجم السلفى ٥٠ والمريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢
ونفع الطيب في الجزمين الثالث والرابع (انظر
الفهرس) ولزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز
أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩،
٣٣ وله موشحة في المغرب وثانية في معجم الأدباء
وافتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح»
بطائفة من موشحاته.

(١) باسقة: عالية. يقصد الصواري وما يرفع عليها ويمتد من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر في يحيى بن يحيى القلائد ٢٧٩ والذخيرة
٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم
٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢
والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بهارا فهاضة في الجود فغمروه بجودهم وخاصة
 يحيى بن علي بن القاسم وأخاه أحمد قاضى سلا، فمكث في رحابها طويلا، وأضفى عليها
 من شعره وموشحاته دُورا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي
 مدح بها القاضى أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمها أبو بكر بن زهر: ما حسدت
 وشاحا على قول إلا ابن بقی حين وقع له:

أما ترى أحمد في تجده الصالح لا يلحق
 أطلمه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وهو لم يحسده في رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره
 في الفقرة الثانية إذ جعل القاضى أحمد كوكبا يبرز في المغرب ولا مثيل له في المشرق.
 ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متزلا بصاحبه:

عطا بليته ومر كالظبي ليبيده^(١)
 فدل عليه تكسر الحلى بجيدة
 تفتير عنيته يسرع في برى عميده

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصورا بذلك جمال
 جيدها، ويقول إنه إنما رآها لحا أو كاللمح إذ مرّت سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء
 فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الأطباء بل هي من النساء إذ سمع صوت
 الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع في ضنا محبوها، ولا يزال يأمل من
 البهد والفلوات ردها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقی
 لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد في كتابه «رايات
 المرزبن» والمقرى في أزهار الرياض ومع ذلك نجد في ديوان التطيلي خطأ^(٢) كما نجد
 اختلافا في ديوانه أيضا وهي في مديح يحيى بن القاسم مدوح ابن بقی الذي تفتيا ظلاله،

(١) اللت: صفحة الجيد وجعلها تطوبها وقدها، (٢) انظر ديوان التطيلي ص ٢٧٠ وقارن برايات
 المرزبن ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢٠٩/٢. كتابة عن طولها.

وينصّ ابن سناء الملك في مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه^(١) وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صَبْرْتُ والصَّبْرُ شِيْمَةُ العاني . ولم أَقُلْ للمطيل هجراني معنًى كَفَانِي
لَمَّا جَفَى الوَرْدُ يَلْءُ كَفْيِهِ تَشَوَّقْتُ ورددان إِلَيْهِ
فَحَلَلْنَا فِي رِياضِ خَدْيِهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معنًى كَفَانِي» لأن وزنه مستعملن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد في خدود صاحبه تنقلنا إلى عالم شمرى حالم مكتظ بروى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

يَا وَتَيْحَ صَبُّ إِلَى الْبَرِّقِ لَهُ نَظْرُ . وَفِي الْبِكَاءِ مَعَ الْوُرْقِ لَهُ وَطْرُ

من وزن البسيط أفعالا وأغصانا، وهو يضم في الوزن الجزءين الأولين والتالين بعضهما إلى بعض، ويقول من موشحة:

إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَيْكَ سَبِيلُ . فَالصَّبْرُ بِالْجَمِيلِ جَمِيلُ

والوزن في أفعالها وأغصانها مستعملن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة في كثير من أغصان ابن بقی وخرجاته كقوله في موشحة من وزن الرجز:

لَيْلٌ طَوِيلٌ . وَلَا مُعِينٌ . يَا قَلْبَ بَعْضِ النَّاسِ . أَمَا تَلِينُ

وقوله في خرجة موشحة ثانية مستخدما لفة عامة كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

اختلطت بموشحات التطيل وخاصة في كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ في نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيل وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حقيقه مع إشارته إلى ذلك

(١) راجع ديوان التطيل ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعاد في المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما التوق إلا زناد إلى ابن بقی وقد أضيفت إلى التطيل في ديوانه ص ٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقی

سَافِرٌ حَبِيبِي سَحَرٌ وَمَا دَوَّعْتُ بِمَا وَحَشَ قَلْبِي فِي اللَّيْلِ إِذَا افْتَكَرْتُ

وكلمة وحش حذف منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتين. وهذه الألفاظ الفزلة المفرطة في السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقي من صور بديعة طارت شهرته في عصره وبعد عصره، وقد لبى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر^(١) بن زُهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية أئمتنا بها بين الأطباء في الفصل الماضي، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخاري أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفي في آخر سنة ٥٩٥ وصل عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضه الأمراء في مراكش. ويقول صاحب المطرب إن الذي انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه:

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَنَدِيمٍ هُمْتُ فِي غُرَّتِهِ
وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ
كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوفاء للصفدي
٢٩/٤ وراجع في موشحاته المغرب ومعجم الأدباء
وابن أبي أصهبة وتوشيع التوشيع للصفدي (انظر
الفهرس) وبالمثل جيش التوشيع لابن الخطيب.

(١) انظر في أبي بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥
والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣
وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبي أصهبة
ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر

والموشحة من وزن الرمل، وهى تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذاً بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحة هذا الفصن وقفه:

مل تستأذ	أيامنا بالخليج	أو ليالينا
إذ يُستفاد	من النسيم الأريج	بسك دارينا ^(١)
وإذ يكاد	حُسن المكان البهيج	أن يحمينا
نهر أظله	دوخ عليه أنيق	مورق فينان ^(٢)
والماء يجرى	وعائث وغريق	من جنا الرياح

والفصن والقفل جيما يزخران بشجى يثير فى القلب حنيناً بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهام بالتحيات والبسات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحنهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظله، والرياحين والزهر بين سايح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو موله مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتزع منه انتزاعاً. وزنة الجزء الأول فى القفل والفصن مستعملتان، وزنة الجزء الثانى مستعملن فاعلان، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلان وفى الفصن قفلن، وبذلك يرد وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائماً وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة. وهذه التغيرات فى تفاعل هذه الموشحة وما مائلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحياناً على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مراراً لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قلبي من الحب غير صاح	صاح
وإن لحاني على الملاح	لاح
وإن درى قصتى وشبانى	شأنى

والجزء الأول فى الفصن والقفل من مخلص البسيط، والجزء الثانى على زنة فعلن تفعيلة

(١) دارين: قرينة كانت على الخليج العربى بنسب
إليها المسك والطيب.

(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللانم، وشانى الأولى: مخففة من شأنى والثانية: الميقض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارنه ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارنه بصور طريفة كقوله فى الموشحة التى أنشدنا له ياقوت فى معجم الأدباء:

طرقت الليل ممدود الجناح مرحباً بالشمس من غير صباح

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبتة فأضاءت فى هذا الليل كأنها شمس تطلع دون صباح مما يلقى فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دحية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشُّعُورِ عَلَى أَوْجِهِ كَالْبَدُورِ
سَفَرْنَ فَلَاحَ الصُّبْحِ
ضَحِكْنَ ابْتِسَامَ الْأَقَاحِ
كَأَنَّ الذِّى فِي النُّحُورِ تَخَيَّرْنَ مِنْهُ النُّفُورِ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحيه ظلام الشعور وبدور أو أقمار الوجوه ويضيف أنهم سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور لنساعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ ينتقل بصره بين ثغورهن وعقود اللآلى التى تزدان بها نعورهن فيخال كأنهن تخيرون ثغورهن من تلك اللآلى البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقمى وابن عبادة القزاز وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شيء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرقى الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان، حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وفرة، بل إنها لتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يم من الأنغام تفرق الأذن في خضمه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وضعت في نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانشية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربي المهمة التي حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فنظروا في دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك في موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب في بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك في الموشحة، بحيث تدخل بدقة في أعاريض الشعر العربي وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثيرها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربي وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل^(١)، وهو في اللغة التطريب، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشرى العامى المقابل للموشحة. وفي اسمه الذى اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك في بعض أزجاله^(٢)، وولتقى بعده هابن عبد الرؤوف ورسالته في الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغي أن يمنع الذين يمشون في الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا للحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز^(٣). وحين رأى المستشرق الإسباني «ريبير» أن صورتها لا تختلف في شيء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنها بها في نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شرى شعبي تمتاز فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذًا صورتين هما

وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ في ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرؤوف في

ثلاث رسائل نشر بروقتال.

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني (نشر معهد الدراسات العربية العالية في الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمراطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢

الموشحة الفصيحة والزجل السوقي الدارج^(١)، وبسيط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدم براهين جلية على وجود لغة رومانية كان يتكلمها أهل الأندلس وهي اللغة التي كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثاني عشر الميلادي أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن في قرطبة»^(٢). والشعبتان جميعا كما يراها ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقيني، أما أنه كانت تشيع في الأندلس لغة دارجة رومانية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقصها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبروا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب^(٣). ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول مَنْ بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها المروضية واللغوية ببغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ في كتابه «العاطل الحالى والمرخص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانية أو لاتينية كانت دارجة في الأندلس ما استطاع فهمها ولا درسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ في كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يبن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا في المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها في لغات الشعوب التي فتحها العرب والتي استحدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى في حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شيء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما يمنعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

المتوفى في منتصف القرن السادس يحددنا في مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا في زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهي أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاضح بالألفاظ العربية المجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساساً للزجل أخطأ بن غماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائياً قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن غمار تفاصحه ببعض الألفاظ التي لا تجرى في العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقته إلا في زمانه^(١). ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلفتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»^(٢).

ومعنى ذلك أن تصور «ريبر» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكراً مع الموشحة وأنه نظم بلغة رومانسية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانسية، ونظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت في عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخصص ابن قزمان بكلمة. وينبغي أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجمالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربي، وكان كثير منه ينشد في الحث على جهاد النصارى وفي المناسبات الدينية. وأكبر زجال في الجيل التالي لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مدغليس^(٣)، وهو من أهل المريّة، وله أزجال كثيرة في مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرئ في نفح

(١) المختطف ص ٢٦٣.

(٢) أنظر في مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتلحقنا

على ترجمته في المامش.

(٣) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. علي

عبد الواحد وافي) ص ١٣٥٠.

الطبيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قرمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قرمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قرمان (يريد أنها كانا ينظران الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه^(١) وكان ديوانه يُروى في المشرق وحصل صفى الدين الحلبي على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قرمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسي وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربي، وذكر له قطعاً من أزجاله وأروعها الزجل الذي أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:^(٢)

ثلاث أشيا فإلبساتين	لَسْ تُجِدْ في كُلِّ موضع
النسيم والمخضرة والطير	شِمٌّ وانتَرة وإسْمَع
ورداً ذاق دق ينزل	وشعاع الشمس يضرب
فقرى الواحد يفرض	وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويشكر	والفصون ترقص وتطرب

ويشيد في نهاية الزجل بفناء أم الحسن. والزجل مغمم بالسلاسة والعذوبة والتساوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحد القوافي بين الأجزاء الأولى المتقابلة في قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها في الأجزاء الثانية أسوة بابن قرمان في بعض أزجاله يوج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتغ النفس لدقته في اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه في انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد العامية التي أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياساً على الموشحة صاغ القصائد العامية قياساً على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مر بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبوه الحسن على بن محمد الشاطبي، وقد أنشد له صاحب العاقل الحاملي قطعة من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفاً حال العدو^(٣):

(٣) انظر العاقل الحاملي ص ٣٤ و ٨٠.

(١) النفع ٣٨٥/٣.

(٢) المغرب ٢٢٠/٢.

كَلَمَارَا السِّوْفُ إِلَيْهِ تَنْجَرِدُ صَاحُ وَيَشْكُو وَتَمَّ لَمْ يَرْتَفِدُ^(١)
يُنْجِحُ الْكَلْبُ إِذْ يَرَى الْأَسَدَ وَالْأَسَدُ لَسَّ يَهْرُؤُ ذَلِكَ النَّبَاحَ

وَرَجَاعَتْ عَلَيْهِ جُنُودُ وَوَبَالَ وَمَالَ النُّخَسُ مَا عَوَّ كَفَّ مَامَالَ
لَمْ تَنْجِيْهِ وَصِيَّةُ الْكَرْدِنَالِ وَلَ فَاِدَتْ نَصِيحَةُ النَّصَّاحِ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد في المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقي، ومنهم زجالو إشبيلية: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خابط وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن^(٢) ناجية اللورقي. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالي القرن السابع أمثال البُلَّارِجِ القرموني ويحيى بن عبد الله بن البهضة، وترجم لابن الدباغ^(٣) المذكور أنفاً وقال إنه لقيه بالقة وأنه إمام في الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشعة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششتري المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاقل من زجل قوله^(٤):

يَا حَبِيبَ قَلْبِي تَصْطَفُ بَعْضُ هَذَا الْمَجْرِ يَكْفَا
فَدَمَوْغٌ عَيْنِي مَا تَرَقَّا وَلَهْبٌ قَلْبِي مَا يَطْفَا

والزجل من وزن الرمل. ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس في المغرب ونظم لهم نوعاً من الشعر الملحون في أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض^(٥) البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين في عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام في الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلًا لدغليس استهله بقوله:

حَلُّ الْمَجُونِ يَا أَهْلَ الشُّطَارَا مَذْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسي ونتحدث عن بعض أزجاله.

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمد من قومه.

(٢) انظر في هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.

(٣) المقدمة ص ١٣٥٧.

(٤) المغرب ١/٤٣٨.

(٥) العاقل الحال ص ٥٦.

ابن قزمان^(١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش في عصر المرابطين إلى أن توفي بعده سنة ٥٥٥ للهجرة في صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفي المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزلوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه في قرطبة نشأة علمية أدبية، وهي نشأة أهلته ليكون أديباً وكاتباً وثائق كما يكون شاعراً ووشاحاً^(٢)، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات في كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة في مديح يحيى بن غانية وإلى غربي الأندلس من قبل علي بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص في مجلس شراب، فأطفا فيه السراج بأكامه. ولعل في ذلك ما يدل على أنه اتجه ميكراً للمتناع بالخمر واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاقل الحالى موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً^(٣). وفي المغرب أنه «كان في أول شأنه مشتغلاً بالنظم العرب (شعراً وتوشيحاً) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها، بل في كل مدن الأندلس، وأيضاً في المغرب والشرق، حتى تحتفظ العصور بخطوطه من ديوانه كتبها نساخ بمدينة صدد في فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصورة في لوحات، وعُنى في سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكي «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة في مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ في رأينا خطأ كبيراً حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربي القائمة على التبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسباني بحجة أن الزجل نظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهي حجة لا دليل

(١) الفهرس) والوفى للصفي ٣٠٠/٤.
(٢) راجع الزجل السابع في الديوان.
(٣) العاقل الحالى ص ٨٢.

(١) انظر في ابن قزمان المغرب ١٠٠/١ و ١٦٧ وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار في مجلة المشرق عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥. والإحاطة ٤٩٤/٢ والعاقل الحالى لصفي الدين الحل (انظر

عليها أى دليل، بل كل شىء ينقضها نقضاً فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتتها ابن عبد ربّه فى العقد الفريد وتأتى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعاً لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صفد قديماً أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاقل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب^(١). ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غنية عن سواء لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، ويترامى لنا فيه ابن قزمان ماجناً عاكفاً على اللذات من الخمر والنساء والفلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مراراً مجاهراً به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحياناً إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى بأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المرفقة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداً كبيراً للأمرء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح، وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصوراً فى تضاعيف ذلك يؤسه وحرمانه وما هو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب تنكره عنده كما تنكر إسراره فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحننا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامة

الأقفال والأغصان من غير أن يتحسروا فى الميزان.

(١) العاقل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلاً إنهم خالفوا أحياناً بين الأوزان فى

الثامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يجلب الألهاب بخفته ورشاقتة من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ في الديوان:

لَأَنْسَيْتَ إِذْ زَارَنِي جِئْتِي وَأَنْجَلِي هُمَى وَزَادَ كَرْهِي قُلْتُ لَهُ وَقَفَا أَخَذْ قَلْبِي
قَالَ مَتَى تَجِئِينَ قُلْ غَدَا وَغَدَا لِلنَّاطِرِينَ قَرِيبُ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف في جزئى القفل. والجزء الثانى فى الفصن:
«وأنجلي همى وزاد كرهى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فعين زال همه زاد كربه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفه العشق. ويقتطف صفى الدين الحل هذا المطلع من أحد أزجاله^(١):

قَالُوا عَنِّي بِأَنِّي فَيْكُ عَاشِقُ إِيشْ نَقْلُ يَصْدُقُوا
يَا حَبِيبِي لَقِيتُ كَثِيرَ فِى النَّاسِ بِالصَّوَابِ يَنْطِقُوا
هَذَا شَيْءٌ وَالنَّبِيُّ يَا نَوَازِ عَيْنِي مَا تَحْدُثُ بِهِ
وَلْ بَاقِهِ خَطَرٌ عَلَى بَالِي لَا وَلَا خُضْتُ فِيهِ

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستعملن قعلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتخللها أحيانا قطع أو فقر بدعية فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الرَّبِيعُ يَنْشُرُ غِلَامُ مِثْلُ سُلْطَانَا مُؤَيَّدُ
وَالثَّمَارُ تَنْشُرُ حَلِيَّةُ بِشِيَابِ بِحَلِّ زَبَرْجَدُ
وَالرِّيَاضُ تَلْبَسُ غِلَالَا مِنْ نَهَاتِ فِجَلِ زَمْرَدُ
وَالْبَهَارُ مَعَ الْبِنْفَسِجِ بِأَجْمَالِ ابْيَضَ فِى أَرْزَقُ

واستمر يذكر الندى يترقق على الفصون وأزهار الخيزرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانية فإنها جاءت من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تخرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانية كما ظن «ريبيرا»

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة في أزجاله صياغة عامية عربية هي عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيها أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية المجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.^(١) ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها في كتاب العاقل الحالى، إذ لم يتصد أحد لدراستها دراسة علمية خصة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا في الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنتيجة حديثنا مفصلا عن مدى تأثيره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأبضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنتيجة في الحديث عن تأثير الزجل في الأغاني الإسبانية بطرازه الشعري وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها في قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سباه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعمئة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثمئة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا في القرن الرابع عشر الميلادى الذى سباه: «الحب الطيب» ويقول بالنتيجة إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

شعراء المديح

طبيعى أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون في التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). كما مرُّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش في عصره من الشعراء يديج القصائد في مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس^(١) بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وبنوه ابن حيان بإبداعه في التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله في تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنيلونة في نبأة بأقصى الشال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول^(٢):

إِنَّ الْقُفُولَ الَّذِي أَوْقَى بِمِيدَيْنِ مَكْرُمِينَ عَلَى الدُّنْيَا عَزِيزَيْنِ
قُدُومُ أَكْرَمٍ مَنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةٌ قُدُومُ فِطْرٍ فَكَانَا خَيْرَ عِيدَيْنِ
طَابَا كَفْأَحْتِي خَدَّتِي مُنْعَمَةٌ تَوَرَّدَا فِي بَيَاضٍ بَيْنَ صُدُغَيْنِ^(٣)
أَوْ مَقْلَتِي رَشَاءٌ فِي طَرْفِهِ حَوْرٌ مَكْحُولَتَيْنِ بِسَحَرِ الْبَاهِلِيَيْنِ^(٤)

ونلتقى بمدحه بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفي مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد^(٥) الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيونات الشرف في المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان في قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيد الله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لك:

(٤) الباهليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر في ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضى رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان في الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن في مسجده وهو وزير.

(١) انظر في عباس بن فرناس المقتبس لأبي حيان (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدي ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية المنتسب رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة في المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

قد جاءك الفتح في العبد الكبير فما رأيت مثلها في اليوم عبيدين
بافرحته من رأى في الفزو طالها وشاهد الفتح لم بأسف على البين
ألد في السمع من بشرى الحميم إذا وأفى ومن منظر المعشوق في العين

ومدح البيت الأموي الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذي أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة في أوروبا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التي تفككت في عهد جده عبد الله، ودان حكام نبارة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومرر بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء في زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفي مقدمتهم ابن عديده وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول في مدحة ميمية: ^(١)

يَهْنَأُ الْخَلَاةَ سَعَى خَيْرِ إِمَامٍ اللَّهُ مَسْمَعُهُ وَلِإِسْلَامٍ
لِيُزْ دِينَ اللَّهِ فِي كَنْفِ الْعُلَا وَيَذُبُّ عَنْ حَرَمِ الْهَدَى وَيُحَامِي
مُسْتَجِرًا وَعَدَ الْإِلَهِ بِنَصْرِهِ فِي شَيْعَةِ الْإِشْرَاكِ وَالْإِجْرَامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال في شهر رمضان وأدركه عيد الفطر في بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزق جموعه تمزيقا. ولا بن إدريس يذكر زيادته في جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها ^(٢):

سَيَشْهَدُ مَا شَيْدَتْ أَنْكَ لَمْ نَكُنْ مُضِيْعًا وَقَدْ مَكَّنَتْ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا
فِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالْتَقَى وَبِالْزُهْرَةِ الزُّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعَلْيَا

وقد استحال جامع قرطبة في عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس في مدائحهم لأمراء البيت الأموي الذين الحنيف شعارا لهم في غزواتهم للمسيحيين في الشمال، فهم يحامون ويصولون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زلفى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب في الأندلس، بل في جميع العالم العربي، لمصره، غير أنه لم يكن داهية في السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية في تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويعدده بالسلاح

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمي، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبي العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه في تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده في الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية في حروبه مع نصارى الإسبان. وفي هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن علي أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن مَعَد الفاطمي ودعوته وولاءهما له، وهُلِّل شعراؤه بوفادتهما طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص^(١):

بِأَيِّمِ إِقْبَالٍ وَإِسْمَاعِدٍ طَائِرٍ تَبَاشِيرُ مَحْتَوٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقِعٍ
تَوَافَتْ بِمُلْكٍ مِنْ مَعَدٍ مَقْوُضٍ لِمُلْكٍ إِلَى مَهْدَى مِرْوَانَ رَاجِعٍ
فِهَالِكُ مِنْ بُشْرَى سُرُورٍ تَضَمَّنَتْ بِلَوْغِ الْأَمَانِيِّ عَنْ سُعُودِ الطَّوَالِغِ
فَجَعَفَرُ يُغْنِي عَنْ جُنُودٍ بِرَأْيِهِ وَيَخْصِي يَلَاقِي حَاسِرًا أَلْفَ دَارِعٍ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمي تقوض من أساسه للملك المرواني: الحكم، ويصفه بأنه مهدي منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنِي وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام في الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبي عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابنه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى في الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة في صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغني بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد^(٢):

الْيَوْمَ عَاشَ الدِّينُ وَابْتَدَأَ الْهَدْيُ غَضًا وَعَادَ الْمَلِكُ عَذَبَ الْمَوْرِدِ
مَنْ فَاتَهُ بَدْرٌ وَأَدْرَكَ عُصْرُهُ جَرِيرَ فَهْوٍ مِنَ الرُّعِيلِ الْأَسْعِدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التي أعزاه بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

(٢) انظر أعيال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢-٧٣. ومرو صاعد الخندادي اللخوي الشاعر الواقف على المنصور بن أبي عامر، وراجع ترجمته في الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والهميدى: ٢٣٣ والبلية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ٢٨١/١١ وإنهاء الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشي ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر في ترجمة ابن شخيص الهميدى في الجندوة ص ٨٤ وبغية الملتصق ص ١١٩ واليتيمة للشمالي (تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبي في البنية: له على لسان رجل يعرف بأبي الفوت أشعار مشهورة في أنواع المزمل.

مبالغة في تمجيد لا تنصار ابن أبي عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن دراج القسطلی
وسنخسه بكلمة. ويقول فيه وفي حجابته عبادة بن ماء السماء^(١):

لنا حاجبٌ حاز المعالي بأسرها فأصبح في أخلاقه واحد الخَلقي
فلا يفتَرز منه الجهول ببشره فمعظم هول الرعد في أثر البرقي

وعاصر عبادة زمن الفتنة بقرطبة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد
الخلافة على بن حمود العلوي من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه
متحزبا له متشيعا يمثل قوله^(٢):

أطاعتك القلوبُ ومن عَصِي وحزبُ الله حزبُك يا علي
وإن قال الفُخورُ أبي فلان فحسبك أن تقول أبي النبی

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى
ابن أخيه. ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود
بجنود من البربر إلى قرطبة ويسترد الحكم من يحيى سريعا، ويقادر قرطبة إلى الجزيرة
المختصاء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فها أنا ذا يابن النبوة نافث من القول أريا غير ما ينفث الصل^(٣)
وعندي صريع في ولائك مُمَرَّق تشيعه محض ويتبعه بئل^(٤)

وهو يقول إن ولاء لآل البيت عريق ويمضي فيذكر أن جده كان مواليا لعل مما جعل
معاوية يفضيه بفضا شديدا. وكان ابن الحنات الكفيف القرطبي يتشيع مثله للحموديين وله
مدائح متعددة فيهم وخاصة في علي بن حمود وفيه يقول^(٥):

إمام أقام الدين حد حسابه طريرا ومنه في يد الله قائم^(٦)

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسباع الحموديين في الأندلس، إذ لم يكونوا

(١) راجع ترجمة عبادة في الذخيرة ٤٧٥/١
وسنخسه بكلمة بين شعراء الطبيعة والحمر.

(٢) انظر في هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة
عبادة في الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: عمل النحل. الصل: الحية.

(٤) بئل: حق.

(٥) انظر القصيدة في ترجمة ابن الحنات بالذخيرة

٤٣٧/١ وراجع ترجمته في المجنونة ص ٥٣ والبيئة

رقم ١٢٤ والصلوة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١

والتكلمة رقم ٤٢٩ والواق ١٢٤/٣.

(٦) طريرا: له رؤاء وجهه.

هم ولا أبأؤهم الأدارسة في المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا في عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتُدبج فيه المدائح، إذ تكاثر الحب في تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحال قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث في الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة في هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحة أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني لإدريس بن يحيى الحمودى أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخرماً وسنعرض لذلك في ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشداً^(١):

وَكأنَّ الشَّمْسَ لما أَشرقتْ فَانْتَنَّتْ عنها عيونُ الناظرينَ
وَجَهْ إدريسَ بن يحيى بن عليٍّ بن خُمودٍ أمير المؤمنين
كتب الجودَ على أبوابِهِ ادْخُلوها بِسلام آمنينَ
انظرونا نَقْبَسَ من نوركم إِنَّه من نورِ ربِّ العالمينَ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك في مؤامرة ضدهم وزجوا به في غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله^(٢):

بنى جَهْوَراً أَحرقتمْ بهجفانكمْ جَنَانِي فَمَا بِأَلْ المدائح تعيقُ
تظنوننى كَالْعَبْرِ الوَرْدِ إِنما تطيبُ لكم أنفاسُهُ وهو يُعْرِقُ

ورُدَّتْ إليه حرите، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذته وزيراً له وأجزل له في الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون في إحدى مدائحه^(٣):

سيد كيلاني ص ٦٠ والمغرب ٦٩/١.
(٣) الديوان ص ١١٢.

(١) انظر القصيدة في ترجمة ابن مقانا بالذخيرة.
٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد

هَمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ
يَتَبُهُ بِرَقَاءِ سَرِيرٍ وَمُنْبَرٍ وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حَسَامٌ وَمُضَحَفٌ
جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةٌ عَنِ الْمَطْمَعِينَ تَزْلَفُ^(١)

ومر بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفاذا، والذخيرة تكتظ بما قدموه لها من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له في الفصل التالي، ومن قصيدة له في مديح المعتمد^(٢) :

مَلِكٌ إِذَا عَقَدَ الْمَغَافِرَ لِلْوَعْيِ حَلَّ الْمُلُوكُ مَعَاقِدَ التَّيْجَانِ^(٣)
وَإِذَا غَدَتْ رَايَاتُهُ مَنشُورَةٌ فَالْخَافِقَانِ لَهْنٌ فِي خَفَقَانِ^(٤)
بِأَمْنِشَى الْعَلِيَاءِ بَعْدَ مَازِيهَا تَفْنَى النُّجُومُ وَمَا تَنَازُوكُ فَإِنْ
الْأَرْضُ حَاجَتَهَا إِلَيْكَ بِطَبْعِهَا كَالْعَيْنِ حَاجَتَهَا إِلَى الْإِنْسَانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية في عهد أميرها المعتصم بن معن بن ضاح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعرا، فهتفت باسمه الشعراء في إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يفتق عليهم من أمواله، ولموطنه أبي حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله^(٥) :

وَأَحْسَنُ مِنْ رَوْضٍ تَحُلِي بَنُورِهِ مُحِيًّا ابْنَ مَعْنٍ فِي حُلِيِّ الْفَضَائِلِ
جَوَادٌ كَأَنَّ الْأَرْضَ جَمْعَاءَ رَاحَةٍ لَهُ وَبَحُورُ الْأَرْضِ خَمْسُ أَنْامِلِ
جَلَلَتْ فَجَلَّ الْقَوْلُ فِيكَ وَإِنَّمَا يَقْدُرُ لِقَدْرِ السِّيفِ قَدْرُ الْحَمَائِلِ

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقل عن المعتصم والمعتمد جودا وشعرا وَلَسْنَا وفصاحة المتوكل بن المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، ولأبيه كتاب المظفرى في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس في عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتتلى فيها مدائحهم، وتقى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

(١) تزلف: تقمّ ويصح زلفى ومنزلة

(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣

(٣) المغافر: جمع يَفْرِة: زرد من الدروع على قدر الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوعى: الحرب

(٤) الخافقان: الشرق والغرب. الخفقان: سرعة نبضات القلب.

(٥) انظر في الأبيات ترجمة أبي حفص بن الشهيد

في الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره في الحمدي

ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية المتلئس

ص ٣٩٤ وقال ابن حميد: شاعر المرية في زمانه

وكان مقتصرًا على أمير بلده المعتصم بن ضاح.

عبد المجيد بن عبدون موطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة في الفصل التالي، وفيه يقول^(١):

طَبَقْتُ آفَاقَ الْكَلَامِ فَلَمْ أَذْغِ زَهْرًا يَرْفُ وَلَا جُمَانًا يُنْظَمُ
قَهْ تَرُكْ هَلْ لِمَجْدِكَ غَايَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ بِهَا مَعْنَى مُفْسَرَمُ
هَزْنُكَ أَرْوَاهُ السَّمَاةَ بِأَنَّهُ وَمِنَ الرَّجَاحَةِ فِي جَعَاكَ يَلْمَمُ
وَتَلَمَّتْ مِنْكَ الْقَمَامَةُ شَيْمَةً تَهْمِي وَفِيهَا لِلْبُرُوقِ تَهْسَمُ

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التي يشبه بها الشعراء محبوباتهم في الحسن سباحة وجودا، ومثل جبل يللم في رجاحة العقل وحلمه ورزاقته، والصورة الأخيرة بديدة إذ جعله يضل أمواله على الشعراء والمجتندين وهو يبتسم وكأنه غامة تهطل والبروق فيها مائتي تلمع كبساته التي ترتسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة في أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا في الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمرأ عاشوا للترف واللهم، وإن سُدُّوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم في الإمارات وإخوانهم في الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين في الشمال، وسقطت طليطلة في حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأبراء المترفين المفككين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفي مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين في المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية في غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس في الزلاقة بالقرب من بطليوس في اليوم الثاني من رجب سنة ٤٧٩ وصُدِّقَ - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - في وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقاً ذريعاً، وكأنما استوصل جيشهم استصلا، إذ لم ينبج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولاً مقهوراً، وفرَّ على وجهه ألفونس يتسّم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنا الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح في تهنئة له^(٢):

في الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن

القزاز

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت

تَسَاوُكٌ لَيْسَ تَسْبِيحُ الرِّيَّاحِ يَطِيرُ وَمِنْ تَذَاكُ لَهُ جَنَاحُ
تَطِيبُ بِذِكْرِكَ الْأَفْوَاحُ حَتَّى كَانَ رُضَاهَا مِسْكُ وَرَاحُ^(١)
جَلِبَتْ إِلَى الْأَعَادَى أَسَدٌ غَابَ بَرَأَتُهَا الْأَسْنَةُ وَالصَّفَاحُ^(٢)

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب في حمير وكان بنو عباد من قبيلة لحم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون في قصيدة يهجو فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشدا^(٣):

نَبِيٌّ فِي جَنِيٍّ وَنَمَتْكَ لَحْمٌ وَتِلْكَ وَشَانِجٌ فِيهَا التَّحَامُ
فِيُوسُفُ يَوْسُفُ إِذْ أَنْتَ مِنْهُ كِيَامِنَ، لَا وَهَى لَكُمَا نِظَامُ
فَبِإِنْ يَنْجُ اللَّيْمُ فَلَا كُحْرٌ وَلَكِنْ مِثْلَمَا يَنْجُو اللَّسَامُ
وَصَارُوا فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَرْضَا كَأَنْ وَهَادَهَا مِنْهُمْ إِكَامُ

وهو يجعل يوسف نفس سميهِ الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالَت من جثث الأعداء إكاما أو أكمات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنته بديعة^(٤) للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولُقِّبَ بعد تلك الموقعة المظفرة بأمر المسلمين، وبني ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية في موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجه قواته إلى حصن لبيط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانقياد في الخلافات وفي الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بهوتهم وبهوت المسلمين في الأندلس بأيديهم. وغير يوسف الزقاق في رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبي بكر، فاستسلم طواعية عبداقه بن بلقين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد في إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهُلِّلَ

المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة في الفصل التالي.

(٤) انظر في هذه التهنتة الذخيرة ٨١٤/٣.

(١) الرضاب: الريق الرشوف. راح: خمر.

(٢) البرائن: جمع برن: مخلب السبع. الصفاح: السوف.

(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجدد في مدحة لابن تاشفين متشفياً فيهم قائلاً^(١):

ناموا وأسرَى لهم تحت الدُّجَى قدرٌ هوى بأنجمهم خَسَفَا وما شُصروا
وكيف يشمرُ مَنْ في كَفِّهِ قَدَحٌ تحدو به مَذَلَّاتُ النَّارِ والْوَرْدُ^(٢)
فَقُلْ لِمَنْ نَامَ أَصْبَحَتْ أَنتَبُهُ فَلَقَدْ مضى لك الليل جِرْفًا وانقضى السَّحَرُ
وانظُرْ إلى الصَّبحِ سَيِّفًا في يَدَيِّ مَلِكٍ في الله من جُنْدِهِ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ
يَرَعَى الرِّعَايَا بِطَرْفٍ سَاهٍ يَقِظُ كَمَارِعَاهَا بِطَرْفٍ سَاهٍ عُمَرُ^(٣)

وَيُظَلُّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا في قتال النصارى ما أخر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويوج ديوان الأعمى التطيلي بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يوج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتيم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تيم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُقْتَنَعٌ بمدحة بدعية فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول^(٤):

وَأَبْلَجَ مَنْصُورِ اللِّوَاءِ إِذَا سَرَى أَظَلَّتْ عُقَابُ النَّصْرِ أَجْنَعَةَ النَّسْرِ
له فِتْكَةٌ لو زاحم الدهرَ تحتها لَعُدَّتْ به دُفْمُ اللَّيَالِي مِنَ الشُّقْرِ
وعِزُّمٌ يَرُدُّ الطَّوَدَ هَذَا وَنَجْدَةٌ تَهَزُّ قُدُودَ السُّنْرِ فِي الحُلَلِ الحُمْرِ
تَقْسِمُهُ جُودٌ يَفِيضُ وَهْمَةٌ فَمَنْ مَتَهَلَّ غَمْرٌ وَمِنْ جَبَلٍ وَغَرٍ

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات في معاني الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالي شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلال الأعداء حمرا بما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمة لا تبارى كجبل وعمر لا يساميه جبل في وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بدعية في مديح زوجة تيم مريم، وكانت سيدة أدبية

(٣) يريد بمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازي) ص ٢٥ وما بعدها.

(١) راجع القصيدة في الذخيرة ٢/٢٥٦ وانظر في ترجمة ابن الجدد المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجدد إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والفناء وكأنهم يمشون في دور ملاه لا في دور حكم وسياسة.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتشبههم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة^(١):

مشهورة في الفضل قَدَمًا والنَهْيُ والحدود شُهْرَةً غُرَّةً في أَدَمٍ
تُولِي الأيادي عن يد نَزَلِ النَّدَى منها بمنزلة المحبِّ المُكْرَمِ
حمل الثناء بها القريض وإنما حمل الحديث رواية عن مسلم

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عطرًا عطر الحديث المروى عن مسلم في صحيحه مبالغة منه في بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطربين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة في الفصل الثاني. وفي ابن تيفلويت والمراطين يقول ابن باجة ملعلا لاسمهم «الملثمين» إذ كانوا يضعون لثامًا على وجوههم^(٢):

قَسُومٌ إِذَا انْتَقَبُوا رَأَيْتَ أَهْلَهُ وَإِذَا هُمْ سَفَرُوا رَأَيْتَ بُدُورًا
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ النَّوَالِ عُفَاتَهُمْ شُكْرًا وَلَا يَحْمُونَ مِنْهُ نَقِيرًا^(٣)
لو أنهم مسحوا على جَدْبِ الرُّبَى بَأَكْفِهِمْ نَبَتَ الْأَقْحَاحِ نَضِيرًا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويحفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويحدهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والمهاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا يبقون منه لأنفسهم أى شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجذبة بأكفهم لاهترت وربت وأنبت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعني المار ذكره بين البلاغيين في الفصل الماضي مدحة في الزهير بن عمر المثلثم والى قرطبة يقول في تضاعيفها مخاطبا للمثلثين أو المرابطين^(٤):

جُولُوا وَصُولُوا فَالْمُنَاسِبُ جَمِيرٌ أَهْلُ الْمَفَاخِرِ وَالنَّدَى وَالنَادِي
لِلْقَوْمِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ رِيَاةٌ تَحْكِي بَنَى الْعَبَّاسِ فِي بَقْدَادِ
أَضَحَّتْ مَجَالِسُهُمْ سُرُوجَ جِيَادِهِمْ إِنْ السُّرُوجَ مَجَالِسُ الْأَمْجَادِ

المعروف .. النقر: الشيء المتناهي في الصغر.

(٤) انظر الأبيات في ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

(١) الديوان ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) النفع ٤١٧/٣.

(٣) النوال: العطاء. الضافة: السائلون طلاب

والصورة في البيت الأخير بديعة، ولليكن يحيى بن سهل هجاء الأندلس في المرابطين
معللاً لتسميتهم بالملثمين بالغا بهم الغاية من المديح^(١):
قَوْمٌ لَهُمْ شَرَفُ الْعَلَا فِي حَمِيرٍ وَإِذَا انْتَمَوْا صَنَاجِدُ فَهْمٌ هُمْ
لَمَّا حَوَوْا إِخْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلْتَمَوْا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب ورعاية للشعر والشعراء،
وهي أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء في مدينة «سلا» على شاطئ المحيط،
وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضي على بن
القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقي وعيسى بن وكيل
الفرناطى ومحمد بن سوار الأشبوني المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من
أسره عند النصرارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله^(٢):

لَوْ أَنَّ رِفْقَكَ فِي الْقُلُوبِ مَرْكَبٌ لَمْ يَلْتَقِمْ فِي الْبَحْرِ يُونُسَ حَوْثٌ
وَلَقَدْ حَمَلَتْ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةً لَمْ يَحْتَمِلْهَا قَبْلَكَ التَّابُوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ
مُלِيمٌ﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلَكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وخلف علياً في القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام في ترجمته بالذخيرة مدحه
لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى مونتلاً لشعراء الأندلس، وبني أحمد قصراً، هنأته به
الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبو عامر محمد بن المهارة حاضراً ولم يكن أعدى شيئا
ففكر قليلاً، ثم أنشد^(٣):

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شِدِدْتَ وَاحِدَةً فَحُلْ فِيهَا حُلُولَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ^(٤)
فَمَا كِدَارَكَ فِي الدُّنْيَا لَذَى أَمَلٍ وَلَا كِدَارَكَ فِي الْآخِرَى لَذَى عَمَلٍ
ومرُّ بنا في ترجمة يحيى بن بقي بين الوشاحين أنه خصَّ القاضي أحمد وأخاه يحيى
بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينها كانا يواليان إغداق نوالها عليه، مما جعل لسانه

وقد دعه أبا الحسين علي بن المهارة وراجع ترجمته
في المغرب ١٢٠/٢ وفي البقية ص ٥١٧.

(٤) الحمل: من منازل الشمس.

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وستفرد له ترجمة في
الفصل التالي بين الهجائين.

(٢) البهتان في ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.

(٣) انظر ترجمة أبي عامر في النفع ١٣/٤ و ١٤٠.

يلهج بمدحها والثناء عليها طويلا، من مثل قوله في يحيى من مدحة طويلة^(١) :
 نَدَبَ عليه من الوقار سَكِينَةً فيها حَفِظَةٌ كُلُّ لَيْثٍ مُخْبِرٌ^(٢)
 مثل الحسام إذا انطوى في غِمدِهِ ألقى المهابة في نفوس الحُضِرِ
 أَرَزَى على البحر الخِصْمَ لأنه في كل كَفٍّ منه خَمْسَةُ آبِهرِ
 أقبَلْتُ مرئادًا لجودك إنه صَوَّبَ القمامة بل زَلَالُ الكَوثرِ^(٣)

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيس حتى توفي سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده في حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وساء جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاموه من كل مدينة لاستقباله ومدحهم، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفي مقدمتهم الأصم الرواني القرطبي الشاعر حفيد الشريف الطليقي والرفاعي البُلنسي محمد بن غالب، وسفرد له ترجمة عما قليل وأحد بن سيد الإشبيلي وأخيل الرندى وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد القرناطى، وأنشده مدحة يقول في تضاعفها^(٤) :

دعانا نحو وجهك طِيبٌ ذِكْرٌ ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ
 وكنت كساهرٍ ليلًا طويلاً ترنح حين بُشر بالصباحِ

ورتب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاية لمدها الموالية له، وولى مدينة إشبيلية وأعاليها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين في الأندلس، وولى ابنه عثمان غرناطة وأعاليها، وكان محبا للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مداحه أبو محمد المالقي وهو يستهل مدحة قدمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمته تسنده سُورُ الحواميم القرآنية السبع التي يردددها هي وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

(١) ابن خلكان ٢٠٤/٦.

(٣) صوب: مطر. الكثر: نهر في الفردوس.

(٤) انظر مدحته في المغرب ١٦٤/٢ ونسخه

(٢) حفيظة : حبة. لث مخدر: أسد في خدره

بكلمة في الفصل التالى.

وغيلة.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسند وتنتصره السبع المثاني وهي آيات سورة الفاتحة السبع التي يرددها كل يوم في صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينها في المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسي. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحدِيث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذى نبّهه - كما مرّ في الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ). وفى أيامه شرع فى بِناء مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ بعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأرك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرانصهم ترمعد رعبا وفرعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكفى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور^(١):

حَيْثُكَ مَعْطَرَةَ النَّفْسِ	نَفَحَاتُ الْفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ
فَنَرِ الْكُفَّارَ وَمَأْتَهُمُ	إِنْ الْإِسْلَامَ لَفَى عُرْسُ
أَمَامَ الْحَقِّ وَنَاصِرُهُ	طَهَّرَتِ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنَسِ
وَصَدَعَتْ رِداءَ الْكُفْرِ كَمَا	صَدَعَتِ الدَّيْجُورُ سَنًا قَبَسُ ^(٢)

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سُبِّحت به الوهاد والتلال من دمانهم، وعلموهم هُلعا قاتلا إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنتها وأغار بها روح

(٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

(١) القصيدة بنماها فى المَجْلب ص ٣٧٠ وما بعدها.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تص. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفي عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشراء بمثل قول أحمد بن شطرية القرطبي^(١):

كذا يشرفُ الطالعُ الأشعدُ ويسمو لأملاكه السيّد
ويزرعُ أقاصيَ أقطاره قريبٌ له عزمةٌ تبعُدُ

وأخذ الناصر يعدُّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوروبا وقد منحهم البابا الفران. ولم تلبث رحى هذه الموقعة الصليبية أن دارت في سهل يقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة وجنوب قلعة رباح، ومضى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيراً لانتهاه دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعاً على قلعة رباح وبهاسه وأبدته. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهنا على وهن، مما هياً للملك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط في حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شيء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها إلى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمتنون أنفسهم بأنهم سيمودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التي ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجني الذي اتجه إلى أبي زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها^(٢):

أَمِيرُ الْهُدَى مِنْ يَدْنِ مَنْكَ فَلَبَّاهُ بِقُرْبِكَ عَنْ صَرْفِ الْحَوَادِثِ قَدْ أَقْصَى
عَسَى أَهْ أَنْ يَنْتَاشَ أَتْدَلُّسَا بِكُمْ وَيَأْخُذُ فِيهَا لِلْهُدَى أَخْذٌ مَقْتَصٌ

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمي. وكان قد قيَّض للأندلس منذ الثلاثينيات في القرن السابع ابن الأحمر فأقام بفرنطة دولة أسرته التي استمرت نحو قرنين ونصف،

(٢) ديوان حازم القرطاجني (طبع بيروت) ص ٦٦.

(١) انظر البيهقي في ترجمته بالمغرب ١/ ١٣٩ وله ترجمة في تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ وسماها بعض شعراء.

وطبيعي أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعي أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقاد الجيوش الجحافل وتذخر أبناء القنا والقنايل»^(١)

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبنائه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفي سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصاري الشماليين، وأرغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالي سنة ٧١٨ في مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، وبهنته أبو عبداقه اللوشى بمثل قوله^(٢):

قصودوا الرين ليغلبوا آساده ففضى عليهم بأسك الفلاب

وقويت شوكة المسلمين في عهد أبي الوليد وعهد ابنه أبي عبداقه محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعادته بعد موقعة بحرية عنيفة سحق فيها أسطول ملك أراجون وبهنته بهذا الفتح المين أبو العلاء محمد بن سالك العامل منشدا^(٣):

فتح قضاء لملكك الرحمن لم تأت قط بمثله الأزمان
فلائي يوم سعادة أولأك ذلت بعزة نصره الصلبان

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للأدب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوي الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وفي ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيين بها قبة العرض المطلة على مجلسه في الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة^(٤):

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٣) راجع ترجمة ابن سالك العامل في الكتيبة الكاتبة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصب والجهل والماضي والكلام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

(٢) انظر ترجمة أبي عبداقه اللوشى في الكتيبة الكاتبة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع في ترجمة اللوشى الإحاطة ١١٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

أَبْصَرْتُ مِنِّي فِي الْمَصَانِعِ قُبَّةً تَأْتِقُ فِي السُّعْدِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَتَلِي سَطُورَ الْكُتُبِ فَوْقَ دَائِمَا وَتَعْرِضُ مِنْ تَحْتِ سَطُورِ الْكُتَابِ

والقطعة بديعة، ولا ين جَزَى الفَرْنَاطِي مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة في أبي
الحجاج من مثل قوله^(١)؛

إِنْ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالنَّدَى وَالْبَاسَ طَوْعُ يَدَيَّ أَبِي الْحَجَّاجِ^(٢)
مَاضِي الْعَزِيمَةِ وَالسُّيُوفِ كَلِيلَةٌ طَلَقَ الْمُحِبَّاتِ وَالْخُطُوبِ دَوَاجِي
لَيْثُ الْوَعْيِ وَالْخَيْلِ تَرْجَى بِالْقَنَا وَالْبَيْضِ تَتَهَلُّ مِنْ دَمِ الْأَوْدَاجِ^(٣)

وخلفه ابنه محمد الخامس الفنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) مكمل منشآت قصر الحمراء،
وكان مبدعا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمر، وسنفر له ترجمة عما قليل. وكان
حفيد الفنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) شاعرا، ولزمه ابن فركون الشاعر
يُدْحِه واتخذ كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة
ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم
للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلد السلطة^(٤):

إِلَيْكَ تَبَاشِيرُ الْبَشَائِرِ مُقْبِلَةٌ تَلُوحُ بِأَفَاقِ الْهَدَى مَتَهَلِّلَةٌ
فَهَنَّتْ مَا اسْتَقْبَلَتْ بِأَمْلِكِ الْهَدَى مِنْ الْعَزْ لَا زَالَتْ سَعُودُكَ مُقْبِلَةٌ
لَقَدْ قَلَّدَ الرَّحْمَنُ أَمْرَ عِبَادِهِ إِمَامًا لَهُ فِي الْعَدْلِ أَرْفَعُ مَنْزِلُهُ

ويُعَدُّ يوسف الثالث آخر أمراء بني الأحمر المهمين، ويفضون بعده في القرن التاسع
المهجري إلى خلافت، تقضى على الإمارة قضاء مبرما، وحرى بنا أن نتوقف قليلا
لتتحدث عن أهم شعراء المديح في الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطلی وابن
عمار وابن الحداد والرصاصی وابن زمر.

(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق في
العتق إذا قطعه الذابح لم يبق في الإنسان حياة.
(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن
شريف (طبع أكاديمية الملكة المغربية) ص ١٠٣.

(١) انظر هذه القصيدة في ترجمة ابن جزي
الضافية في أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن
الأحرر إسماعيل بن يوسف في كتابه تنوير فرائد
البيان وابن الخطيب في الكتيبة الكائنة ص ٤٦.
(٢) العوال: الرماح.

ابن عبد ربه^(١)

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، في أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتائب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ في جامع قرطبة الكبير، فأخذ يكتلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضاح والخشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - في الغزل والخمر، وقلما يقع له فيها شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيها عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيها عن محاكاة أئداده، ومن خير ما له في الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدٍ يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لى يأمّن كلفت به من رحمة فهما سهماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجراً عليه ذلك اشتباكه مع القفاط الشاعر معاصره في الهجاء، ونراه في كثير من أشعاره شامها وشيخا ميالا إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادرا في ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية في شابهة بمقطوعة في ذم الدنيا والتفكير منها، وسمى تلك المقطوعات المحصّات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدّ شعره في شابهة ذنوبها وآثامها وهو إنما كان في رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافا حقيقيا للآثام، لأنه لم يكن مهتما لذلك بحكم روحه المحافظة. وبدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مرارا في عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أديبه بلده وشعرائه إلا ما كان من تثقله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

مكي (بيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر
لمشور بهانس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن
الناصر والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفع الطيب
للمقرئ. انظر في كل ذلك الفهارس وتاريخ الأدب
الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان
عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسي للدكتور مهكل
ص ٢٢٢.

(١) انظر في ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى
٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبقية رقم ٣٢٧
والهتمة للتالى (طبعة بحى الذين عبد الحميد)
٥/٢٧، ١٠ - ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١
ومعجم الأدياء ٢١١/٤ والمطبع ص ٥١ وابن
خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حبان الجزء الخاص
بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال صاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بهضعتنا رُدَّتْ إلينا، وهو رمز واضح لروحه المسرفة في المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياتة وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى في مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بِالْمُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ شَرُفَتْ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ
فَالطَّيْرُ فِيهَا سَاكِنٌ وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدْ أُنْسِ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ويعدّه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد في المبالغة على عادة الشعراء:

إِذَا فُتِحَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأُزْلِفَتْ فَأَنْتَ بِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ رَفِيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الناصر في إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهنأه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائبة وجيمية، وفي الثانية يقول:

هَذِي الْفَتْوحَاتُ الَّتِي أَذَكَّتْ لَنَا فِي ظُلْمَةِ الْأَفَاقِ نَوْرَ سِرَاجِ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عهده أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتنقى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على النافرين في الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم في الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتي حصن من حصون التوار وهنئة ابن عهده بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فِي غَزْوَةِ مَائِنَا حِصْنٌ ظَفَرَتْ بِهَا فِي كُلِّ حِصْنٍ غَوَاةٌ لِلْعَنَاجِيحِ^(١)
مَا كَانَ مَلِكُ سُلَيْمَانَ لِيُدْرِكَهَا وَالْمُهْتَبَى سَدُّ يَأْجُوجٍ وَمَاجُوجٍ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذي القرنين باني سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عهده في حروب الناصر من سنة ٣٠٠

إلى سنة ٣٢٢ منظومة^(١) تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذي نقرؤه في حديثه عن غزوة المُنْتَلون بجيآن:

أَرْجَفَتِ الْقِلَاعُ وَالْحَصُونُ كَأَنَّمَا سَاوَرَهَا الْمَنُونُ^(٢)
وَأَقْبَلَتْ رَجَالُهَا وَفُودًا تَبْخَى لَدَى إِمَامِهَا السُّعُودَا
قُلُوبُهُمْ بِاخْعَةٍ بِالطَّاعَةِ قَدْ أَجْمَعُوا الدُّخُولَ فِي الْجَمَاعَةِ

وأسلوب ابن عبد ربه في المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها في دوائر الشعر التاريخي التعليمي كمنظومة علي بن الجهم التاريخية التي أَلَمَتَا بها في كتاب العصر العباسي الثاني، وفي الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يخلق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن^(٣) دراج القسطلي

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ في بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جِيَان تسمى قسطلة دراج، وفي نسبتها إلى جده ما يدل على عراقة أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيآن فانسجت ثقافته اللغوية والأدبية، ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلدته، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٨٥ والبهان المغرب لابن عذارى ٢٧٤/٢ و ٩/٣ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن المنطبيب ص ١٢٢-١٢٤ وأيضاً في مواضع مختلفة وابن خلكان ١٣٥/١ ومقدمة ديوانه المنشور بمشق تحقيق د. محمود مكى وكتابتها الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسي للدكتور هبكل ص ٣٠٢.

(١) أنظر في هذه المنظومة العقد الفريد لأبن عبد ربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ وما بعدها وستلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أُرْجِفَت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع في ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والمحمدي ١٠٢ والتهمة للتحالي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية المتنس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجبائي صاحب كتاب الحقائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبي عامر حاجب المؤيد هشام في الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم وروايتهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة في المنصور أعجبته فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته في نظم الشعر وهو يوفق فنيا يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له في مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس في رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم في معارضتها قصيدة بديعة صور فيها امرأته متلهفة عليه في وداعه مشفقة ورضيعها في المهد وهي تتجرع مرارة الفراق وتنتحب .. يقول:

ولما تداثت للوداع وقد هفا بصيرى منها أنسة وزفير
تناشدني عهد العود والهوى وفي العهد مغموم النداء صغير^(١)
تسوأ ممنوع القلوب ومهدت له أنزع مصطوفة ونحور

ويطيل في تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومدحه، ويشيد بجهاده للنصارى في الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مازالون يفدون عليه في قرطبة مطلين خضوعهم له وطاعته، ووفد في أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نجارة ملنا ولامه ومحكما له في نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فلنيسم للمجد من سما ويخمي زمار الملك والدين من حامي^(٢)
فهذا عظيم الشوك قد جاء خاضعا وألقى بكفيه إليك محكما

ووفد في نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف في لامية له مثوله خانقا بين يدي المنصور والعرض العسكري الرهيب الذي أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ومدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يفرزها ينشده مدحة بديعة كان بحق أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب في جليقية بأقصى الشمال الغربي

(٢) زمار الملك: ما ينهى حياضه والدفاع عنه.

(١) مغموم النداء: رقيقه ولينه.

إسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفي كنيستها، وتُعَدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفي تلك الوقعة يقول ابن دراج في مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرى دين الضلالة من رأس القواعد ممنوع الحمى أشبه^(١)
وسُتِّه جاحما للنار مابقيت نفس من الكفر إلا وهى من خطبه
فأللّه جازيك يا منصور غزوته بسيف ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبِه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستن سنة أبيه في غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن في المجابة لمدة شهرين إذ قُتل في إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعاني منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدي، ثم للخليفة الناصر عليه المستعين ولوزير القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سبّته لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر في مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرم بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى في الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا في أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبي، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله لك الخير قد أوفى بمعهدك خيران وبُشراك قد آواك عز وسلطان

ويقصّر خيران في جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجيبين في سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنا بها في رعاية منذر بن يحيى التحيبي ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى في عينيه، يهنئه فيها بجهاده في شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمته، مطعمها دُعاف سُم لمن حاربته ناقه^(٢)
مواصل بالندى ما أقه وأصله وقاطعا بالطبى ما أقه قاطعه

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

(١) أشب: ملف الشجر، ويقصد الكيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

فى جيش عز ونصر أنت غرته وشمل دين ودنيا أنت جامع

وتوفى منذ سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وقد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:
إلى أى ذكرٍ غير ذكرك أرتاحُ ومن أى بحرٍ بعد بهرك أمتاحُ
واحتفل بمجاهد بقدمه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد باهن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبي يقول عنه فى البيّمة:
«كان بصقّ الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سباق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد «بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحوك الكلام وتلاعبه بالمعاني وإطالته فيها» ويقول ابن بسلام عنه:
«لسان الجزيرة شاعرا وآخر حامل لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحظ بحق كثرة اقتراضه للمعاني من المتنبي، ويلاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكي فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. وما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشاركة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانى فى العناية باللفظ الطنان وقمعاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبي فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضياح سنين عديدة.

ابن عمار^(١)

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محرائه قرض شيء من الشعر قرضه له توا في أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعيا أن تهدي إلى الأندلس شاعرا فذا من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلا لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الهجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأديبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضحك العيش ويؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى^(٢) أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحل^(٣) دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به في بعض مدن الأندلس مسترفدا، لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفرائه على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحا في رجل من أهل السوق ظننا منه أنه يعطيه النوال الوفير، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخلاة شعير، وفكر في دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الفضاضة. ومضى يتقلب في بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدِر الرُّجَاجَةَ فالنسيمُ قد أنبرَى والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنان عن السُّرى^(٤)

واستحسنها المعتضد وأمر له ببال وثياب ومركب وأن يُكْتَبَ في ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتضد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتضد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتضد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره في تلك الولاية وساءت السمعة عنها لمكوفها على الخمر والغناء، فأمر

خلكان ٤٢٥/٤ ونفع الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحل: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: السر ليل.

(١) انظر في ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والفلاذ ٨٣ والحلة السراء (طبع القاهرة) ١٣١/٢ والمغرب ٣٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والحريرة ٧١/٢ وبغية المنتسب رقم ٢٢٧ وابن

المتعضد بالتفريق بينها وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المتعضم بن صُباح أمير المِرية وفترة عند أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مَرْسِيَّة، وفترات أخرى عند غيرها، إلى أن توفي المتعضد فاستدعاه المتعمد وقرَّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المتعمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذَه وزيره ومستشاره.

وطمح المتعمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزين له ذلك ابن عمار، فأعدَّ جيشاً جزاراً بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراعاة له حرمة برِّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتنادى في إنكاره للجميل إذ سَوَّلت له نفسه أن يستلبها من المتعمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هي وأعمالها، وجلس مجلس التهنة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خُساس عبَّيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعيناً حاول المتعمد بن عباد أن يرده عن غيِّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلاً من أن يطلب الصفح هجاء وهجا زوجته الرِّمِيكيَّة قرَّة عينيه بقصيدة طارت شهرتها في الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يا زَيْدَها منعتَ القرى وأباحتَ العِيالاً^(١)

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر في العواقب، وبينما كان سادراً في خمره ولهو أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببني إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها في يده، حينئذ انتهاز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية في وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولَّى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ). واستقبله على مضض منه لما فعل بالمتعمد ولَّى نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علَّيْ وإلا ما نَواحِ الحِمامِ وفقَّ وإلا ما بكاء الغمامِ

وأخذ يذكره بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيماً. ولم يلبث أن رَغِبَ المؤتمن في الاستيلاء على حصن شقورة شالي مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبداقه بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المتعمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة في شراء هذا الخائن الآثم الكتود؟ فأرسل إليه

المعتمد ابنه الراضى بال و خيل، وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ و حاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصح إليه، ونظم في طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجايك - إن عافيت - أندى وأسمحُ وعذرك - إن عاقبت - أجلى وأوضحُ

ولم ينفعه عند المعتمد تذللّه فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفاً في قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استشارته عليه زوجته الريمكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون ببيت مفرد هو قوله:

عجباً لمن أهيكه ملء مدامعى وأقول: لاشلتُ يمينُ القاتلِ

وبدون رب كان ابن عمار انتهازياً وصولياً لا يرعى صداقة ولا عهداً، أما شعره ففي الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح في القلاند: «مقذف حصا القريض وجماره ومطلع شمسه وأقباره» ويقول ابن بسام: «شعره غرُب وشرق، وأشأم في نغم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويطلق في الإشادة به، ويقول ابن الأبار في ترجمته: «من بديع صنيعة إتلاف أشعاره المقولة في الامتياح وقصائده المصوغة في الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شيء سوى أمداحه في المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» وينتميه - بحق - وفريده مدحته الرائية في المعتضد عباد التي ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضاً كأنه حسناء تكسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادُ المخضِرُّ نائلُ كُفهِهِ وَالْجَوْ قَدْ لَيْسَ الرِداءُ الْأَغْبَرُ^(١)
أَنْدَى عَلَى الْإِكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النُّدى وَالَّذِى الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكُرَى^(٢)
أَيَقُنْتُ أَنبَى مِنْ ذِراءِ بَعْجَنِي لِمَا سَقَانِي مِنْ نَدَاهِ الْكُوْثَرِ^(٣)
فَاحِ الثُّرى مَتَعَطِّراً بِنَنائِهِ حَتَّى حَسْبُنَا كُلُّ تُرْبٍ غَنَمِهَا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعاني البديعة، وما يفجأ قارئه به بصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقه لأعتاق كُهاتهم وشجعانهم إذ يقول:

(١) الجو قد ليس الرداء الأغبر: كناية عن الجذب.
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة في أوله.
(٣) ذراه: كفه. الكوثر: نهر في الجنة.

أَثَرَتْ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مَلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْقُصْنَ يَشْقَى مُثْمِرًا
وَصَبَفَتْ بِرِذْعِكَ مِنْ بِمَاءِ كُمَائِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحَسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرًا

وابن عمار لا يبارى في روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكان مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافي البديع.

ابن الحداد القيسي^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسي من مدينة وادي آش في البيرة موطن بني عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف في صباه - كما يقول ابن بسام - بصية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لفزله بها في حديثنا عن شعراء الفزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضاً في الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء في موطنه، ويذكر مترجموه أن له في العروض كتاب «المستنبط في علم الأعاريض المهملّة عند العرب» ولا أرتاب في أنه لو وصل إلينا لكان دليلاً قوياً على ما قلته في حديثي عن الموشحات من أن الأعاريض المهملّة التي يُنظم فيها والتي أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هي أعاريض العرب المهملّة التي نصّ عليها الخليل في دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبيرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له في العروض كتاباً ثانياً باسم: «قيد الأبواب وصيد الشوارد» وكتاباً ثالثاً باسم: «الامتعاظ للخليل» ردّ فيه على السرقسطي المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب في أن كتبه جميعاً تؤكد ما ذهبت إليه في فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات في الأوزان المهملّة التي أشار إليها الخليل في وضعه لدوائره العروضية، وهي مرسومة بدقة في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن ضاحح التجيبى أمير المريّة التي بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقي للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ١٠/٦ والواق للصفي (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

(١) انظر ترجمة ابن الحداد في الذخيرة ٦٩١/١ والمطبع ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والمحرّدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميراً لها في الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التي امتدت إلى أكثر من أربعين عاماً، وكان يخصص يوماً في كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بليطة الطليطلي والقزاز محمد بن عبادة الإلبيري المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركي ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذي عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله في إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمداً لما كانت الأيامُ عندى ذخائراً
يحجُّ ذَرَاهُ الدهرَ عافٍ وخائفٌ جُموعاً كما وافى الحبيجُ المشاعراً^(١)
فزر مَكَّةَ مهما اقترفت مآتماً وزُرَ أفقُهُ مهما شكوتَ مفاقيراً^(٢)
نهيهم بمرآةِ العصورِ جلالَةً وتحسدُ أولاهَا عليه الأواخرَا

والصورة في البيت الثاني رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله في مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشداً.

ويا لك من نَهرٍ صَوَّلٍ مُجَلِّجٍ كأن الثرى مُزَنٌ به دائمُ الرُّعْدِ^(٣)
كأن يدَ المَلِكِ ابنِ معنٍ محمداً تُفجِّرُهُ من مَنبَعِ الجودِ والرُّفْدِ^(٤)
فمن جوده ما فى الغمامة من حَيَا ومن نوره ما فى الغزالة من وَقْدِ^(٥)
ومنك أخذنا القول فبك جلالَةً وما طاب ماءُ الوَرْدِ إلا من الوَرْدِ

وَقَرَنُ جلجلة ماء النهر في حصاء الثرى بصلصلة الرعد الدائم في السحاب المطر في منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور في البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخاه اقتترف ذنباً اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشئ من - خط المعتصم عليه، فغادر المرية مولياً وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ.) بسرقسطة، وكان شاعراً يقدر الشعر وأهله كما كان بطلاً مجاهداً

(١) ذراه: حماه وكنته عاف: طالب معروف.

المطر.

(٤) الرُّفْد: المطاء.

(٢) مفاقر: وجوه فقر.

(٥) الهيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

(٣) صَوَّل: شديد الهياج. المزن: السحاب

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التفنى بانتصاراته على ابن رديم حاكم أراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدور في نحر العدو:

مساعيك في نحر العدو سيهام ورأيك في هام الضلال حسام^(١)
ولنحك يردى القرن وهو مدجج وذكرك ينني الجيش وهو هام^(٢)
كانك لا ترضى البسيطة منزلا إذا لم يطئنه عليك قتام^(٣)
كانك خلت الشمس خوفا فلم يزل يقنمها بالنقع منك لثام^(٤)

وواضح أنه أبدع في تصوير غزوات المقتدر المستمرة التي لا يزال يشنها على العدو حربا في إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا في الأرض إلا ساحات القتال وقد شددت عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويبعد في الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذاً منه لها لثاما أو حجابا. وحن إلى المتصم بن صاهد، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردد.

واصل أخاك وإن أذاك بجفوة فخلوص شيء قلما يتمكن
في كل شيء آفة موجودة إن السراج على سناه يذخن

وذكرنا في صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سهاها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيها ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناس فانفرادي أنيسي وكتابي محدثي وجليسي
صاحب قد أنت منه ملالا واختلالا وكل خلي بئسي

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشهم طويلا دون محاولة لسيخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبى ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠هـ.

(٣) يطنه: يخطئه كالخبة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحناء. النقع: غبار الحروب.

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهام: الجيش الجرار.

الأعمى التَّطِيلُ الْقَيْسِيُّ^(١)

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة التطيلي القيسي، فهو عربي الأرومة، أما نسبته إلى تطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فولد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد في كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مرباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضيق باستيطانها، يقول عنها:

فَتَأْتِي مَا اسْتَوْطِنْتُهَا قَانَمًا بِهَا وَلَكِنِّي سَيْفٌ حَوَاهُ قِرَابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لا بد أن يسكن لها راضيا أو راغبا. وربما بعثه على إعلان ذلك برمٍ وقلق كانت تنطوي عليها نفسه، بسبب فقد لبعصره، إذ كان ضريرا، وبكر إليه - فيها يبدو - شيء من الصلع أو بعض الشرات البيض في رأسه، مما جعله يصرخ:

أَمَا اسْتَفْتِ مَنَى الْأَيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تَضَاقِقَ فِيمَا عَنُ مِنْ وَطَرٍ^(٢)
وَلَا قَصْتُ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكْرُرَ عَلَى مَا كَانَ فِي الشَّعْرِ^(٣)

وكان يلتقي في إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشاحين المجيدين في مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقي وكان يقدمه على نفسه معترفا له بالتفوق والسبق في التوشيح كما مر بنا في حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلي هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي بمرافقته في روحانه وغدوانه. وليس في ديوانه مدائح لأمراء الطوائف ولا ليوסף بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت في القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفي سنة ٥٢٥. بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتبط (مات) شابا (أو قريبا من

الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرر: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل والنهار.

(١) انظر في ترجمة الأعمى التطيل وأشعاره
الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلاند ص ٢٧٣
والحريرة ٥١١/٣ وبنية المنلس رقم ٤٢٩
والغرب ٤٥١/٢ ونكت المهيان للصفدي ص ٤١٠
ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس في دار

الشهاب) عندما به اغبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها
 فإلى سنوات معدودات. وفي ديوانه مرثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن
 بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر في بعض شعره أنها كانت تغنقه لعوده عن التماس
 الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثرى في إشبيلية من مثل بنى
 الحضرمي وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبى العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء
 طائلا من مهنته وحل من السلطان محلا لم يحط به أحد من أهل الأندلس في وقته وله
 ينشد:

خَشُنْتَ فلم تترك وأنت منازعُ ولِئْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ
 من المَجِيدِ دَانٍ دونه متعرضُ إلى الهول سباقُ عليه جَسُورُ
 كفيلُ بأرواحِ الأنعام موكلُ عليهم بأسرارِ الجِمامِ خيرُ

وهو يشير في البيت الأخير إلى مهارة أبى العلاء في الطب وعلاج الأنعام أو الناس
 ومعرفة أسرار الجِمام أو الموت. ونظم في أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث
 قصائد ويتوسل في إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف موطنه، الذى اتخذه
 الأمير المرابطى جلساء له ومستشاراء، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفي
 إحداها يتقى عليه بمثل قوله:

جَنَاهُكَ لِلْعَلا حِصْنُ حَصِينُ وَذِكْرُكَ لِلْمَنَى دُنْيَا وَدِينُ
 طَلِيْعَةُ جَيْشِكَ الظَّفَرُ الْمَوَاتِي وَظِلُّ لَوَائِكَ الْفَتْحُ الْمَبِينُ
 جَوَادُ بِالْدِهَارِ وَمَا حَوَتْهُ وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ بِهَا ضَبْنُ
 قَدْ اهْتَزَّتْ بِأَتْعَمِكَ اللَّيَالِي كَمَا تَهْتَزُّ بِالثَّمَرِ النُّصُونُ

وله فى على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة،
 وإحدى فقراتها تمضى على هذه الشاكلة:

لِإِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ	سَمَا عَلِيُّ
رَاقٍ، النَّهْيُ وَالْعِيُونُ ^(١)	صَبَحَ جَلِيُّ
يَرْضِيكَ شَدًّا وَلِينًا	سَمَحَ أَبِي
وَفَقُّ الْأَمَانِي	وَكَالْفُغَامِ الْهَتَانِي
وَيْلُهُ عَيْنِ الزَّمَانِ	

ومن أكثر من مديحهم ابن حمد بن أبو القاسم أحمد بن محمد التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بديعته إليه، وفي أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أَسَدٌ يَمْلَأُ الصَّرِيْنَ مِنَ الْبَأْسِ وَطَوْدٌ يَحْمِي مِنَ الْإِمْلَاقِ^(١)
زُهَيْتَ خَطَّةَ الْقَضَاءِ بِهِ زَهْدٌ حَوْ حَمَامِ الْفَصُونِ بِالْأَطْوَاقِ
أُرِيحِي تَرَاهُ يَهْتَزُّ لَلْبُذْ لِي اهْتَزَّزَ الْقَضِيبُ لِلْإِيرَاقِ^(٢)

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقی وراءه يطرق أبواب بني عشرة قضاة سلا رعاة الشعر لزمانه كما مر بنا في ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضي بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقی يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قَضَائِهِ تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهِيَ سَوَامِكُ^(٣)
إِذَا سَمِعْتَ أَذْنَاهُ حَتَّى عَلَى الْعُلَا فَلَا الْجُودُ مَتْرُوكٌ وَلَا الْبَأْسُ تَارِكُ
رَفَعْتُمْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ أَعْلَامَ دِينِهِمْ فَأَبْصُرْ مَا فَوْكُ وَأَقْصِرْ آفَكُ^(٤)

وقد أضيفت إلى الشاعر في الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها بمحقق الديوان مع إشارته إلى أن العباد الأصبهاني في الخريدة ذكر أنها في مديح أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وفي رأينا أن الصواب ما ذكره العباد، لأن القاضي المذكور توفي سنة ٥٠٢ وكان التطيلي لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له في الأمير علي بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه في بني عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا في ترجمة يحيى بن بقی أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقی، فنسبتها إلى التطيلي مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و ١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن علي بن القاسم حري بها أن تنسبا أيضا إلى ابن بقی مثل أختها رقم ١١ في ملحق الديوان إذ هو الذي تنفيا ظلالة كما نص القدماء وتنفى به في غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ في مديح من يسمى

(١) العرين: الغيل أوبيت الأسد. البأس: منه.

(٣) سوامك: جمع سمالك: عال.

(٤) مأفوك: ضعف العقل. آفك: كذاب مقتر.

القوة: طود: جبل. الإملاق: الفقر.

(٢) القضيب: الفصن: الإبراق: خروج الورقة

يوسف بن القاسم، فهي التي يمكن أن تضاف إلى التظليل، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ^(١) المتصوف في القرن السابع الهجري، وفيها يقول:

إن جنت أرض سلا وافاك بالمكانم فتيان
هم سطور العلا ويوسف بن القاسم عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر الذي مهد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا - سبعة وعشرين عاما فيها يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم في الشعر وتشارك في نقد بعض الأبيات، ومن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاثبان أبو بكر بن القصيرة وابن المُرْخِي محمد بن عهد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التظليل عليها في قصيدته:

مليكَة لا يوازي قَدرَها ملكُ كالشمس تَصْغُرُ عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنيَا ولا تَرْفُ، دِينُ ولا قَشْفُ مُلْكُ ولا سَرْفُ دَرْكُ ولا طَلْبُ
بِرُّ ولا سَقَمُ غَيْشُ ولا هِرَمُ جَدُّ ولا نَصَبُ وِرْدُ ولا قَرَبُ^(٢)

ويفيض التظليل في وصف جودها وما تفقد من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشهد بإخوتها بحبي إلى قرطبة ومحمد محمّر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفي منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التظليل اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء في ذلك بالنادر المعجز، في الطويل منه والموجز».

الطاء لهذه السيدة في تناول الأبدى ولا يكلف
عناء ولا مشقة.

(١) انظر أزهار الرياض للمقري
٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد القد يعنى أن ورد

الرّصافي محمد بن غالب^(١)

وُلد محمد بن غالب في رصافة بطنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة. إذ كان أبوه رفاء، وكأنما كان مولده في تلك الرصافة بشيرا بأنه سيكون من شعراء الطبيعة في الأندلس لجهاها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد في ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياهها جارية، وفي بطنسية يقول: «خصّها الله بأحسن مكان، وحفها بالأثمار والجنان». وفي هذه اللجنة الفخية نشأ الطفل المرحف غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيرا في نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأثير في ترجمته بالتمكلة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفي ذلك يقول عنها:

بلادی التي ریشْت قُوئِمْتی بها فَرِیْحًا وآوِئْتی قَرَارَتُها وَكُرا^(٢)
میهادی وَلَئِنْ القَیْش فی رَیْق الصُّبا أُمی الله أن أنسی لها أبداً ذِکْرا

وطار الطفل صغيرا من وكره مع أبيه إلى عُش متواضع في مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رَفو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكّنه من الاختلاف إلى كُتاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيها بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والتزود من علوم الدين الحنيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُروى أنه خرج مع بعض رفاقه في الدراسة إلى نزهة في مالقة، وارتجل في تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبا له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُستدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله في جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مر بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافي، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعا كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصور شاعرية

(١) ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها في دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافي البنسي مع مقدمة عن حياته وشعره.
(٢) قويمدة الطائر: الرهشات في مقدم الجناح

(١) انظر في ترجمة الرصافي وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشي ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتمكلة لابن الأثير رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادِم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والواقي

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدى الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبت في جانب جبل الفتح كالنار التي جاء في القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فَقَالَ لَهُلَهُ امْكُوتَا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَطْلَى آتِيَكُمْ مِنْهَا بِقُوسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَدَى فَلَمَّا أَنَاهَا نُوْدِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمَقْدِسِ طَوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ وتمثل الرصافي الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحاً قصيدته بقوله:

لو جثت نَارُ الْهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ	قَبَسْتُ مَا شَتَّ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ
فَقِصَّةُ الْقَدَحِ مِنْ نَوْرِ النُّوَّةِ أَوْ	نُورِ الْهَدَايَةِ تَجْلُو ظِلْمَةَ الزُّورِ
مَا زَالَ يُقْضِمُهَا التَّقْوَى بِمَوْقِيعِهَا	صَوَامُ هَاجِرَةٍ قَوَامُ دَهْجُورِ ^(١)
نُورُ طَوًى أَقْبَى زَنْدَ الْكُونِ مِنْهُ عَلَى	سَقَطَ إِلَى زَمَنِ الْمَهْدِيِّ مَذْخُورِ ^(٢)
حَتَّى أَضَاءَتْ مِنَ الْإِيمَانِ عَنْ قَبَسِ	قَدْ كَانَ تَحْتَ رَمَادِ الْكُفْرِ مَكْفُورِ ^(٣)

ويشيد الرصافي بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدي إمام الموحدين ابن تومرت وأصواتها التي طبقت البلاد الغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تهادي بين أيدي مجاذفها وكأنها تفرق في ماء الورد الأرجواني الصافي، وتسرع خائضة التيارات في الزقاق فيخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافي في تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد في عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقة بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيد الخطو غير أنه جوال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيها جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكاً، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به ويهدي دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله في جبل طارق والمهدي ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبل الطور وموسى وفتاه يوشع قانع الجبايرة الذي تأخرت له الشمس عن مغربها، وكان عبد المؤمن يوشع جديداً.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافي أن يقدرها عبد المؤمن

السط: شرر النار. مذكور: محبوه.

(٣) مكفور: محبوب مستور.

(١) يقضمها: يطمعها. الهاجرة: نصف النهار عند

اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.

(٢) الزند: الحجر الأعلى الذي تفتح به النار.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمي للموحدين أو يسبق عليه ولاية صغيرة أو جاهاً، وفوجيء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثرين الذين زفوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفي مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصحاً أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفياً بصنعة زفو الملابس. وسكن غرناطة وقتاً وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرهما أبي جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألح عليه في امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها بحاملة لأبي جعفر. وفي بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة في المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحداً، وراجع بعض الشعراء في ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجع:

يقول أناس لو رفعت قصيدة لأدركت حتماً في الزمان بها أمراً
ومن دون هذا غيرة جاهلية وإن هي لم تلزم فقد تلزم الحرأ

وهي ليست غيرة جاهلية، بل هي غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره في تلقى الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجراً زهيدا تأباه النفوس المحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقيشي الشاعر وزير ابن هشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش التائر على الموحدين بمرسية وشرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ). فأخذ يرسل إليه بهدايا نفيسة، ولم ير الرصافي بدا من أن يشكره، ووالى الوقيشي هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجال له	كثر العديدُ وأعوزَ الندُّ ^(١)
من معشرٍ نجمَ العلاء بهم	زُهرٌ كما يتناسقُ العقدُ ^(٢)
وكانما فاسق الأنام بهم	نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وليدَهُم المنام على	غير المجرة أنه سُهْدُ
هيهات يذهب عنك موضعه	هطل الغمام وجَلجل الرُعْدُ

وظل الرصافي بالاقة قائماً بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا في المديح ولكن في الطبيعة وفي بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرماً على نفسه أن ينتجع أحداً بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالي لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفي سنة ٥٧٢ وهو في نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأثير - يدون بأيدي الناس متنافس فيه.

ابن زمرَك^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد يحيى البيازين في غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقى الأندلس، وهي أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه في الفقه أبا سعيد بن لب وفي الحديث النبوي أبا البركات ابن الحاج وفي الأصول أبا علي منصور الزاوي وفي التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفي العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الفرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفي الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخريججه وصنيعته، وعُني به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتها حسنا. ونراه حين خلع السلطان محمد الخامس الفنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبي سالم المربني يلتحق به في منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التماون مع أخيه أبي الوليد إسماعيل مدير المؤامرة ضده، ولم يمتأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وقتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقباً له الغالب بأهله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الفنى بالله إلى إمارته في جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرَك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرَك يردد لأستاذه دائما في رسائل وقصائد ولائه له وحده وشكره

بكتاب ضخم ساء البقية والمذكور من كلام ابن زمرَك واطلع المقرئ على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثاني من كتابه أزهار الرياض وهي تشغل في هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

(١) انظر في ترجمة ابن زمرَك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكنية الكاشفة في شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الإتيهاج للتبكي (طبع فارس) ص ٢٨٢ وجيزة الاقتباس فمن حل من الأعلام بمدينة فارس لابن القاضي (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكاشفة لابن حجر ٤/١١٢ وخصة السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ).

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يرامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المرينى عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الفنى باقه. ويرسل الفنى باقه إلى السلطان المرينى أبا الحسن النباهى قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متبها بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حتمى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الفنى باقه للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتقدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متبها له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحلب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، وبأحدى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته ووورى التراب مأسوقا عليه لتهمة زائفة دُبِّرَت له كيدا آنها. ونعم ابن زمرك بوزارة الفنى باقه عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفارته الموفقة للفنى باقه إلى الملوك وأنه فوَّضَ له فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضَ فى الصلح مع التصارى تسع مرات. ويتوفى الفنى باقه سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهبوى به من حالق إلى غياهب السجون ويردُّ إليه بعد نحو عام ونصف حرية ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنن له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجعوته لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمآرب دينوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته نقرؤها وجدناه ينزل فيها منزلا عليا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الفنى باقه سبعاً وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الفنى باقه من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقات والنياب السلطانية فهو له. وينشد المقرئ له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرک» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة في مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة في مديح ابن الخطيب ولّى نعمته وسوى قصيدة في مديح أبى سالم المربى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مرات في الغنى بالله ومرثية في أستاذة الشريف الفرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله ياتية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بـ «يذل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريب والبعيد والغيث الذى يهطل على العفاة دائما والباسل الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ في وصف مبانيه في قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنَاكَ الْجَمِيلُ فَلِإِنَّهُ يَفُوقُ عَلَى حُكْمِ السُّعُودِ الْمَبْنَا
بَنَيْتَ لَهُ كَفَّ الثَّرِيَا بِمِعْدَةٍ وَيَصْبِحُ مَعْتَلًى النِّوَاسِمِ رَاقِيَا
وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَّتَتْ بِهِ وَلَمْ تَكْ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُودَةً له وتجمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقْبَةُ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى في قنوات مثبتة في الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ومضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرية يحملها اثنا عشر أسدا تجم الماء من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك في وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

بِهِ الْبَهْوُ قَدْ حَازَ الْبَهَاءَ وَقَدْ غَدَا بِهِ الْقَصْرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَا
بِهِ الْمُرْمَرُ الْمَجْلُو قَدْ شَفَّ نَوْرُهُ فَيَجْلُو مِنَ الظُّلُمَاءِ مَا كَانَ دَاجِيَا
وَرَاقِصَةٌ فِي الْبَهْوِ طَوَّعَ عِنَانُهَا تَرَاجِعُ أَلْحَانَ الْقِيَانِ الْقَوَانِيَا
إِذَا مَا عَلَتْ فِي الْجَوِّ تَمَّ تَحَلُّرَتْ تَحْلَى بِمَرْقُضِ الْجَمَانِ التَّوَاصِيَا^(١)
يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالٌ بَيْنَ جَوَاهِرٍ غَدَا مِثْلَهَا فِي الْحَسَنِ أَبْيَضَ صَافِيَا^(٢)
تَشَابَهَ جَارٍ لِلْمَيُونِ بِجَامِدٍ فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا كَانَ جَارِيَا

وتصويره للنافورة في الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

إذ لم يعد يدرى أيها السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما في البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. وبلغت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرض البهيجة وما يطولها من برج قبارش المصعد في السماء وينشد:

وطامحة في الجو غير مُطالِة يردُّ مداها الطُرفَ أخسرَ عانِيا^(١)
تعدُّ لها الجوزاءُ كَفَّ مصافح ويدنو لها يَدُّ السماء مناجيا
ولا عجب أن فاتت الشهب بالعلأ وأن جاوزت منها المدى المتناها

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك في نفس القصيدة جنة العريف القائمة في مدخل القصر، وهي من عجائب البساتين والرياض في الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل المرس البهيج الذي لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشعة أكثرها في مديح الفنى باقه، وإحداها في مديح الرسول ﷺ، وجهورها من مغلغ البسيط. واشتهرت له موشحات صريحة يُذكر فيها وداع صاحبه في الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبي ربيعة وسنمرض لذلك في حديثنا عن الفزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخر الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربي التي رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتفننون به طوال العصور الإسلامية مجسدين فيه دائما مثالياتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتفننون عصباتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التي يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر في الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

الثاني المجرى وخاصة على لسان الحكم الرضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضانه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرضى الجنوبى بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الواقعة^(١):

رَأَيْتُ صُدُوعَ الْأَرْضِ بِالسِّيفِ رَاقِعًا وَقَدْ نَمَّا لَأَمْتُ الشَّعْبِ مَذْكَتُ يَافِعًا^(٢)
فَسَائِلُ ثُغُورِي هَلْ بِهَا الْيَوْمَ ثُغْرَةٌ أَبَاهُهَا مُسْتَقْبَضِي السَّيْفِ دَارِعًا^(٣)
وَشَافِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ الْفُضَاءَ جَمَاعِمَا كَأَقْفَافِ بَشْرِيَانِ الْهَيْبِدِ لَوَامِعًا^(٤)
تَتَبَّكُّ أُنَى لَمْ أَكُنْ فِي قِرَاعِهِمْ سَوَانٍ وَأُنَى كُنْتُ بِالسِّيفِ قَارِعَا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا يبتكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويصف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدخون أنه فوق الناس جميعا من بهته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضرمها بنيران الحروب، فيزج به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يصفو عنه ويرد إليه حرته.

ومر بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسألة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحي مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحي بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى البيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقاله وقتل به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القمى، وساعده الأيمن سعيد بن جردى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثارا لابن صقاله سنة ٢٧٦ وقتل بمسحة آلاف منهم، وتلقى بهذه الواقعة سعيد بن جردى مفارحا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كوردى جهنم ورية يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بصر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل البيرة، ولسعيد بن جردى فيها قصيدة

(٣) مستغنى السيد، شاهره، دارها، لا بأس دوح

الحرب والنزال.

(٤) أصفاء، رموس، الهيد، الحنظل.

(١) المغرب ٤٤/١.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثائرين،

ورأب، لأم وأصلح، والشعب، الصدع والانفراج

بين جيلين. والاستعارة واضحة.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غيرة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمر العرب عليهم سعيد بن جودي، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يجرّس فيها العرب ويفاخر بهأسه وشجاعته، وسنخسه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية^(١) نظم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعلبي واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدي محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بني خزيمه، ومن قول العلبي في إحدى قصائده يهون من العرب وجوعهم بغرناطة:

منازلهم منهم قفارٌ بِلَاتِعُ تجارى السّفا فيها الرّياحُ الزّعازُعُ^(٢)

ومضى يهدد العرب بوقائع ميرة تحصدهم حصدا، فردّ عليه الأسدي ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجباة بالويل والثبور يقول:

منازلنا معمورةٌ لا بِلَاتِعُ وَقَلْعَتْنَا حَصْنٌ مِنَ الضِّمِّ مانِعُ
ألا فائذنوا منها قريبا بوقعةٍ تشيبُ لها وَلَدَانُكُمْ والمَرَاضِعُ

وإتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقي فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستاثنوا بالأمير عبد الله في قرطبة، ومن مشهور قول العلبي في تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصتُ قناتهم وذُلُّوا وَزُعْزَعُ ركنُ عِزِّهمُ الأذُلُّ

وناقضه الأسدي بقصيدة طويلة يعبره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك للمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواءُ النّصرِ معقودٌ علينا بتأييدِ الإلهِ فما يُحِلُّ

وللأسدي شعر كثير يجرّس فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين في كورة إلبيرة حتى إذا خلفه حفيده الناصر قضى على مثيري هذه العصبية الجنسية في كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسالمة ومولدين.

(١) انظر في أشعار هذه الحركة المقتبس لابن حبان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.
(٢) بلاغ: مقفرة. السفا: القراب.

ومن طريف ما يروى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠ هـ) أن نزاراً الفاطمي الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) كتب إليه كتاباً يسبّه فيه وجهه، فرد عليه المستنصر المرواني: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدّلت بنا الحال أودارت علينا الدوائر
إذا وُلد المولود منا تهلّلت له الأرض واهتزّت إليه المناير»

فأفحمه^(١) ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المرواني المسجون في عهد المنصور بن أبي عامر شعر كثير يفخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبي عامر^(٢):

رَمِيتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَخَاطَرْتُ وَالْحَرُّ الْكَرِيمَ يَخَاطِرُ
رَفَعْنَا الْعَالِي بِالْعَوَالِي بِسَالَةٍ وَأَوْرَثْنَاها فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرَ^(٣)

وحكاياته في الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيفاً وخمسين غزوة في النصارى وإنه كان لا يخلُ في أكثر أيامه بغزوتين في السنة يشنها عليهم، ومُر بنا في الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد^(٤):

بِالْعِلْمِ يَفْخَرُ يَوْمَ الْحَفْلِ حَامِلُهُ وَبِالْعَفَافِ غَدَاةَ الْجَمْعِ يَزْدَانُ
وَمَا أَلَانَ قَنَانِي غَمَزُ حَادِنَةٍ وَلَا اسْتَخَفُّ بِحُلْمِي قَطُّ إِنْسَانُ
أَمْضَى عَلَى الْهَوْلِ قَدْماً لَا يُنْهِنُنِي وَأَنْتَنِي لِسُفْهِي وَهُوَ غَضْبَانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حق بحق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتماق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطوى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن^(٥) حزم:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوْ الْعُلُومِ مَنِيرَةٌ وَلَكِنْ عَنِي أَنْ مَطْلَعُ الْفَرْبُ
لَوْ أَنْتَنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالَعٌ لَجَدْتُ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي التَّهَبُ

(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكي (طبع القاهرة) ص ١٦٣.

(٥) الذخيرة ١٧٣/١.

(١) انظر هذه الرواية في التفتح ٥٥٨/٣.

(٢) المغرب ٢٠٣/١.

(٣) العوال: الرماح. ومعاير يفتح الميم: قبيلة

ابن أبي عامر وهي يمنة.

وهو حقاً - كان شمساً منيرة في العلوم ولم يعبه طلوع شمس من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضيء ما بينها إلى اليوم، وسنفرده له حديثاً في الفصل الأخير.

وتكاثرت على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد ويكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمائتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتديرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيلية^(١):

أَقُومُ عَلَى الْأَيَّامِ خَيْرَ مَقَامٍ وَأَوْقَدُ فِي الْأَعْدَاءِ شَرَّ ضِرَامٍ
وَأُنْفِقُ فِي كَسْبِ الْمَحَامِدِ مُهْجَتِي وَلَوْ كَانَ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ جِمَامِي
وَأُبْلَغُ مِنْ دُنْيَايَ نَفْسِي سَوْلَهَا وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ الْمَلَا بِسَهَامِي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغاً من دنياه كل ما يتمكن محققاً لنفسه كل ما يريد من المال والأمان. وسننص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشر كأن الفخر يفيض معينه بعدهم في نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول^(٢) علي بن أضحى الهمداني الفرناطي المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نَحْنُ الْأَهْلَةُ فِي ظِلَامِ الْجِنْسِ حَيْثُ احْتَلَلْنَا فَهَوَ صَدْرُ الْمَجْلِسِ
إِنْ يَنْهَبُ الدُّخْرُ الْخَثُونُ بَعْرُنَا ظَلَمًا فَلَمْ يَنْهَبْ بِعَرْ الْأَنْفُسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلبة تنزلق عنها تواً عن الزمن دون أن تنال منها أي نيل. ولا ين خفاجة قصيدة يقتخر فيها بنفسه ويرفاق له في مسقط رأسه بجزيرة شقر يعيشون للباس والتجدة والنضال وخوض الدماء بخيلهم المحجلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تدر، وفيها يقول^(٣):

مَضَاءٌ كَمَا سَلَّ الْحُسَامُ مِنَ الْفَيْدِ وَيَأْسٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزُّيْدِ
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ سَلَاةً تَدَارُ وَلَا غَيْرُ الْأَسْتَةِ مِنْ وَرْدِ
وَأَنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لِيَحْنُ الْمَلَا يَرْبُ النَّدَى لَيْلَةَ الْمَجْدِ
أَخْوَضَ الظُّبَا تَخْضَرُ فِي النَّعَقِ بَيْضَهَا فَالْتَقَى الْمُنَايَا الْحُمْرُ فِي الْحُلَلِ الرَّيْدِ

(٢) ديوان ابن خطابة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

(١) الملح السيرة (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.

(٢) مغرب ١٠٨/٢.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة في شعره - فرفاقه لا يفلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساوممارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكان سلافتهم وخبرهم فيها نجيع الدماء التي يسفكونها من الأعداء ولا يرد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صَدْرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خُذْن وصديق للملا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وأنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الفيلز الظُّها بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلال والثياب بغير قليل من الكثرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التي تسحقهم سحقا.

وهذه الروح العاتية التي لا تقهر، يقول الطبيب الشاطبي أبو عامر محمد بن يَتَّى^(١) المتوفى في آخر سنة ٥٤٧ :

دَعْنِي أَصَادِ زِمَانِي فِي ثَقْلِيهِ	فَهَلْ سَمِعْتَ بَظْلًا غَيْرَ مُنْتَقِلِ
وَكَلِمَا رَاحَ جِهْمًا رُحْتَ مَبْتَسِمًا	كَالْبَدْرِ يَزْدَادُ إِشْرَاقًا مَعَ الطُّفْلِ
وَلَا يَمْرُوعُكَ إِطْرَاقِي لِحَادِثَةٍ	فَاللَّيْثُ مَكْمَنُهُ فِي الْفِيلِ لِلْفِيلِ
وَمَا تَأْطُرُ عَطْفُ الرُّمَحِ مِنْ خَوَرِ	فِيهِ وَلَا أَحْمَرُ صَفْعُ السِّيفِ مِنْ خَبَلِ
لَا غَرَوْ أَنْ عَطَلْتُ مِنْ حَلِيهَا هَمِي	وَهَلْ يُحْمَرُ جَيْدُ الظُّمَى بِالْعَطَلِ

وهو يقول دعني أصادي الزمان وأعارضه في ثقلياته في وأحداثه ممي، وهل سمعت بظل ثابت في مكانه، ومها تجهّم لي ونظر إلى مكفهّر الوجه فسأظل مبتسما كالبدر يزداد إشراقا مع الطفل أو الظلام الداجي، وإذا رأيتني مطرقا إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق اللبث في غيلة للوثوب على فريسته، ومها يصبى من أحداث قلن تنقّ إرادق، وحتى إن طُنّ أنها تنقّ فهو تنقّ حد الرمح شديد المضاء، وسأظل قاطئا نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة النجل. وإن همي لأعظم من أن تتحلّى بالرماح والسيوف، فهي أحد من أي سيف وأمضى من أي رمح، وإنها مجردة من تلك الحل تجرد جيد الظمى راتع الجبال. وهو زهو ما بعده زهو وعُجَب لا يماثله عجب بمروده وشخصيته ورجولته.

ولتلقى بسهل بن مالك الأزدي الفرناطي البارِع في العلوم القديمة والحديثة، وكانت

قد نالته محنة في عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغرب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد^(١):

وَأُنِّيَ مِنْ عِزْمِي وَحِزْمِي وَهَمِّي وَمَارَزْتُهُ النَّفْسُ مِنْ كَرَمِ الطَّنْبَرِ
لَفِي مَنْصَبٍ تَعْلُو السَّمَاءَ بِسِمَاتِهِ فَتَبَّتْ نُورًا فِي كَوَاكِبِهَا السَّبْعِ
تَدْرَعْتُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَأَجَلَبْتُ صُرُوفَ اللَّيَالِي كَمَا تَعَرَّقُ لِي دُرْعِي^(٢)
فَمَامَلَاتُ قَلْبِي وَلَا قَبِضْتُ يَدِي وَلَا نَحَتْتُ أَصْلِي وَلَا هَضَمْتُ قَرْعِي^(٣)
فَإِنْ عَرَضَتْ لِي لَا يَفُوهَ بِهَا فَمِي وَإِنْ زَحَفَتْ لِي لَا يَضِيقُ لَهَا ذَرْعِي^(٤)

ونفس سهل - حقًا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوئ النفس أمام صروف الدهر وهوومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولا بن^(٥) جَزَى الماز ذكره المتوفى سنة ٧٨٥:

وَكَمْ مِنْ غَادَةٍ كَالشَّمْسِ تَبْدُو فَيُسَلِّي حُسْنَهَا قَلْبَ الْحَزِينِ
غَضَضْتُ الطَّرْفَ عَنْ نَظَرِي إِلَيْهَا مَحَافِظَةً عَلَى عِرْضِي وَدِينِي

وهو يفتخر بعفاهه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخسه بكلمة، ولم نمرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشارقة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرانهم فسحوا للفخر في أشعارهم، وهم سعيد بن جودي وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد^(٦) بن جودي السعدي

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي من هوازن من جند

(١) الذيل والتكملة للمراكشي (بقية السفر

الراح - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣

وراجع في ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار

القدح المثل ص ٦٠

(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبًا. كناية عن

تكاثرها

(٣) هضمت قرعي: كسرت. كناية عن أن صروف

الليال انزاحت عنه دون أن تنال منه.

(٤) الفرع: الطاقة.

(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.

(٦) انظر في ترجمة سعيد بن جودي المقتبس:

الجزء الخاص بالأمر عبد الله (راجع الفهرس)

والحميدى ص ٢١٣ والبيئة ص ٢٩٤ والحلة

السيرة لابن الأثير ١٥٤/١ وما بعدها وأيضًا في

ترجمة سوار بن حدون السابقة لترجمته والمغرب

١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥

والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس في عهد الولاة، ولّى جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوار بن حمدون المحاربى أمير عرّب إبيرة المنازعين للمولدين والمسألة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتخيّر سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب في تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعراً - أهمّ مساعد له في حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثار زعيم العرب قبله في تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقاله، إذ قتل منهم فيا يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بِسَارِنَا فقتلنا منكم كلّ مارقٍ وعَنيدٍ
قد قتلناكم ببحيى وما إن كان حكمُ الإلهِ بالمردودِ
فاصلوا حرّها وحرّ سيوفٍ تتلظى عليكم كالوقودِ
لم تزالوا تبغونها عوجاً حتّى سى ورذتم للموت شرّ وودودِ

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقاله غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسألة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثني عشر ألفا، ويرميهم بقصيدة ملتهية، يقول فيها:

لقيتم لنا مَلُومَةً مُسْتَجِرَةً تُجيدُ ضراب الهام تحت القوامِلِ^(١)
وظلّت سيوفُ الهند تحصدُ جمعكم حصادَ زروعٍ أَيْتَتْ لِلْمَنَاجِلِ^(٢)
ولم يبقَ منكم غيرُ عانٍ مُصْفِدٍ يُقادُ أسيراً موثقاً في السلاسلِ^(٣)
وآخر منكم هاربٌ قد تضايقت به الأرضُ يعضو من جوى وبلابلِ^(٤)

ولم يلبث سوار قائد هاتين المركاتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمّر العرب مكانه في زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يزود عنهم زياد الأبطال سبع

(١) ملعومة: كتيبة. مستجرة من استخر القتل إذا اشتد الهام: الرموس. العوامل: الرماح.
(٢) تحصد: تقطع. أيتت: حان حصادها وقطعها.
(٣) وأيتع الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة

لحصد الزرع

(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.

(٤) يعضو: يفر. جوى: ضيق. بلابل: وسوس.

سنوات طوال، متبراً فيهم المحاسة والحمية لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعراً حماسياً كثيراً لسعيد نظم في تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت :

وما كان إلا ساعة ثم غودروا كمثل حصيد فوق ظهر صعيد^(١)
وله مرثية في بطل وربما رثى بها سوار بن حدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن
لقوا حتفهم في تلك الحروب، وله أيضاً بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها
بشجاعته على شاكلة أبي دلف قائد المأمون في غزلياته. وله في جارية تسمى جيجان
سمها بقرطبة تثنى للأمير عبدالله في إمارة أبيه محمد، فهم بها دهرًا دون أن يراها وفيها
يقول :

سمي أي أن يكون الروح في بدني فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روعي عن تذكرها هذا ولم أرها يوماً ولم تنزني
فقل لجيجان يا سؤلي ويا أمني استوص خيرا بروح زال عن بدني^(٢)
كأنني واسمها والدمع منسكب من مقلتي راهب صلي إلى وثني
ومن عجب أن قيل هذا الفارس البطل غيلة بأيدي بعض أصحابه في شهر
ذي القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك^(٣) بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل. كان أبوه هذيل بن خلف بن رزيق من أكابر جند
البربر، وفي أول الفتنة بقرطبة سمى نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طلبلة
وسرقطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدين بحسن سياسته وتديبره. ومروء بنا أنه
أول من أفرط في تمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار
كانت أوعية تحسن الفناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبعة واللعب بالسيوف
والتناجر المرفقة، وابتاع لها هذيل قينات مفضيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته
أرفع ستار أمراء الطوائف والسترة عندهم تثنى المسرح الذي كانت تثنى وترقص عليه

(١) انظر في عبد الملك بن هذيل ونسبه الثلاث ٥١
والهيفة ١٠٩/٢ وما بعدها والهة الهواة ١٠٨/٢
والقرب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٢٨ والبيان القرب
لاين غفرى ٢٠٩/٢ والمطرب ص ٣٩.

(٢) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع.
الصعيد: وجه الأرض
(٣) حذف الياء في «استوص» في خطاب جيجان
لتضرورة الوزن.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفي هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر. فكان طبيعيا أن تنفتح فيها ملكته. وتوفى أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثا في الندى، ولينا في العدا « بينما يقول ابن الأبار إنه « كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسرا بطلوبهم من ميسور العطاء » ويقول ابن بسام: « كان له طبع يدعو فيه، ويرمى ثغرة الصواب عن قوسه فيصيه ». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابن تاشفين وتوفى سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتعجب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم في مركب ولا ملابس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هي التي اضطرتته إلى عدم الاتساع في النوال على الشعراء لا عن شح وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطراب، وقد تدل على ذلك دعوته للبود في بعض شعره قائلا:

اهدنم بناء البخل وأرفض له من هدم البخل بني مجده
لا عاش إلا جائعا نائما من عاش في أمواله وحده

وهو يدعو على البخل الشحيح الذي يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم في أمواله أن يعيش جائعا نائما أو ظامنا وبهارة أخرى فقيرا بائسا. وكان موقفه كريما من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مر بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاص ضياعه وأملكه، وإن شق عليه ذلك لبعده السهلة ويرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلداتها الجنوبية، هي شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرا:

شأوت آل رزين غير محتفل قوم إذا سُئلوا أغنوا وإن حُرِّبوا
وهم - على ما علمتم - أفضل الأمم أقنوا وإن سوبقوا جازوا مدي الكرم^(١)
مُد البحار ولا حطالة الدَّير مد البحار ولا حطالة الدَّير
هيهات هل أحد يسمي بلا قدم هيهات هل أحد يسمي بلا قدم
فليحكتي في الندى والسيف والقلم فمن يرم جاهدا إدراك منزلتي

ومخالفة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطروا وتنبؤوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعداً إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أَنَا مُلْكٌ تَجَمُّعَتْ فِي خَمْسٍ كُلُّهَا لِلْأَنَامِ مُخَيِّ مُبَيِّتٌ
هِيَ ذَهْنٌ وَحِكْمَةٌ وَمَضَاءٌ وَكَلَامٌ فِي وَقْتِهِ وَسَكُوتٌ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذاً ماضياً كالسهم المصمى. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذمًا شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم وتليهم بينا هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبه وما تسله من المأظها بينا لا يخشى السيوف في القتال ولا يرهبا، يقول:

إِذَا سَلْتُ الْأَلْعَاطُ سَيْفًا خَشِيْتُهُ وَفِي الْحَرْبِ لَا أَخْشَى وَلَا أُنَوِّقُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبيل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث^(١)

حفيد الغنى باقه، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حَقَّقَهُ الأستاذ عبد الله كُتُون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرئ في نفعه - كما جاء في مقدمة بحقه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مراث في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لمجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كُتُون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيراً به وتصفو بينها العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة ومواعدة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف في بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله في قصيدة حماسية من قصائده:

راق الزمان وجاءنا ميقاته بالضحوة الفراء من أيامه^(١)
 نأتم في حرب الصليب وحزبه يشفيح كل موحد وإمامه
 مستأصلي بيع العداة مهتمي ما صان فيها الكفر من أصنامه^(٢)
 واه جَلْ جلاله متكفل بالنصر والمهود من إنصامه

ويوسف يعلن أنه انتصر في ضحوة أضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى في جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمماً على استئصال بيعهم أو كنائسهم وتهيم أو تهيم أصنامهم مستعيناً بعون الله في نصره عليهم وسحقهم سحقاً ذريعاً. وطبعم أن يكتظ ديوان يوسف بخم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمت نصر باني كليلها إذا هاجت الهيجا واحمرت الأرض^(٣)
 أذافع عنهم بالصوارم والقنا وأحمى جماها أن ينال لها عرض
 بنا ساعة الهيجا يختم وطيسها وتهتك أstar الهياة إذا انقضوا
 إلى عترة الأنصار تزي أرومتي إلى مشر في الذكر حهم قرص

وهو يقول إن بني نصر من أسرته يعلمون بلاءه في الحرب وأنه حين يحمي وطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتل صرعى ينود عن حماهم ويدافع عنهم مستعيناً بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمي إلى رهط الأنصار. إذ أسرته من سلالة سعد بن عباد، ومعروف أن عداده في السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

ألسْتُ سليل الصيد من آل جعير وخير ملوك الأرض قوماً ولا فخر^(٤)

(١) الضحوة: الضحى.

(٢) بيع: كنائس مهتمي: محطى.

(٣) كليل: ضامن. الهيجا: الحرب. احرار

(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب لنا العِزَّةُ القَصَبَاءُ والفُرُرُ القُرُ^(١)
لنا الهَضْبَةُ الشَّاءُ ساميةٌ الذُّرَى لنا الرِّايَةُ الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ^(٢)
مكارمُ أَعْيَتْ كُلُّ من رام حَصْرَها وهيَّات ما للشَّهْبِ في أَفْقِها حَصْرُ

وهو يفخر بأنه سليل أصحاب الخول والطول من حير، إذ أصل الانتصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهي مكارم يمزُ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار في الفخر والمجاسة أشعار ذات نسيج ضيف، وهي طبيعية ممن ينشأ مثله في الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي، ومُرُّ بنا -^١ في كتابنا عن العصر الجاهل - أنه كان في الأصل لعنات يصيها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آمليْن أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلُونه كما يسلون سيوفهم في حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة في الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لمهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق في العصر الأموي ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُمِّيت بالنقائض. وظل التهاجي مضطربا بين الشعراء في العصر العباسي، وسقطت منه شبل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر في الأندلس لمهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفي مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائيين المبكرين عبد الله^(٣) بن الشَّحْرِ المتفنن في العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حبان^(٤) عن قاض اسمه يُثَامِر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشعر استغل ذلك يوما - وهو في مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التي كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

(١) القساء: الوطيدة. الفرر: الأعمال العظيمة.

الفر: المشهورة.

(٢) الشاء: السامقة: يهفو: يهفق.

(٣) مرث مصادر ابن الشعر في الحديث عن علوم

الأوائل في الفصل الثاني.

(٤) المقيس (تحقيق د. مكي - طبع بيروت).

ص ٦٥ - ٦٦.

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة في يده أمر أن يُدعى له بن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضي ولا يجهب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولها من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخامرُ ما تنفكُ تأتي بِفَضِيحةٍ دعوتَ ابنَ متى والمسيحَ بنَ مَرِيما
فَفاكُ قفا جَحشٍ ووجهُكَ مَظْلَمٌ وَعَقْلُكَ ما يَسْوَى من البَحرِ بِرَهما

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقبح فيه، وتارت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن المهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن^(١) بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعراً رموه عن قوس واحدة لثريته أعراس الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقرّبه ويجزل له النوال، وأسرته النصارى في إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوه شامتا به في قصيدة طويلة:

تَصْبَحُ أبا حفصٍ على أَسْرِ هاشمٍ ثلاثُ رُجَاجاتٍ وخمسةَ رَواطِمٍ^(٢)
وَبُحْ بالذي قد كنت تُخَفِيهِ جَفْنَتُهُ فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمٍ

والتقى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب للمؤمن حبال السعاية عند أميره لمحبهه، وطال حبسه حتى تولى سنة ٢٦٧. ومن كبار المهجائين في عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلقاط^(٣) محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسلّ لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله ولديه يقول:

ما يَرْتَجِي العاقلُ في مُدَّةٍ أَلرَّجُلُ فيها موضعُ الراسِ.

وكان صديقا لابن عبد ربه، وهدرت منه بادرة له، فتوجّس منه شرا، وتهاجما وأقذع كل منهما في هجاء صاحبه. ولطف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

(٢) رواطم لعلها من آنية البحر في الأندلس.

(٣) انظر في اللقاط وصفه الزبيدي ٣٠١

والحميدى ٩١ وبغية الملقص ١٣٤ والمغرب

١١١/١ وابن طارقي ١٩٣/٢ وإنباء الرواة

٢٣١/٣ والملقص الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(١) انظر في ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره

الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من الملقيس في

مواضع طفلة (راجع اللطرس) وقضاة قرطبة

للخفي ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية

الملقص ص ٤٥٦ والمغرب ١/١٣٢.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد في ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادي: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله في طفل حلق أهله شعره خوفاً عليه من الحسد^(١):

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحاً خيفةً منهم عليه وشحاً
كان قبل الحِلَاقِ ليلاً وُصْبِحاً فمَحَوْا ليله وأبقوه صُبْحاً

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشدد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُني في الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون باباً سواء وفي مقدمتهم السُّعَيْسِر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب^(٢) الملقب بالحجّام شاعر قلعة رباع غربي طليطلة وقد سقطت في حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالباً لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو غلبة القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التي تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناسِ أكثرُهُم فساداً وليس لهم لصالِحَةٌ نهوضُ
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ سِراً تسالمتنا ويؤذينا البعوضُ

وقوله:

فيا للملكِ ليس يَرَى مكاني وقد كُجِلَتْ لواحظُه بنورى
كذا المِسْوَكَ مطرَحاً هواناً وقد أبقي جلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيراً، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشيء من الاستطالة مع الإقلال والجذب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالاً وإجداً، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر^(٣) الأصيلي، وهو كثير الذم والهجاء للناس

ورايات المبرزين ص ٨٢.

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨.

(٢) انظر في أبي عامر الأصيل وشعره الذخيرة

(٣) راجع في أبي تمام غالب الحجّام وشعره

٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والحريدة ٣٠٨/٢.

الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢.

يمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعمَتمرون دوراً ومالى فى بلادِ الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رِعاغاً كِبَارُهُمُ إذ اخْتُبروا صفارُ

ونُشِبت لعهد أمراء الطوائف أكبر^(١) معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة البيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فامتد غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتباً له يهودياً يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقب بابن النُفْريْلَه، وكان داهية خبيثاً درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة ٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة ٤٦٧ وفى عهده أصبح ابن النفريلة رئيس وزراءه أو وزيره الأول بحسن تديره لشئون المال، وبالف باديس فى الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حامياً لليهود فى الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدرى شيئاً من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجاً من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن فى أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعد ابنه يوسف ليخلفه فى وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفى مقدمتهم السُميسِر وأبو الحسن يوسف بن الجدد القائل فى سخط وغضب^(٢):

تحكمت اليهودُ على الفُروجِ وتاهت بالبهالِ وبالسُروجِ
وقامت دولةُ الأنذالِ فينا وصار الحكمُ فينا للعلوجِ^(٣)
فقل للأعور الدُّجَالِ هذا زمانك إن عزمت على الخروجِ

الرد على ابن النفريلة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٥٦٢/٢

(٣) العلوج: جمع عالج: الفظ.

(١) انظر فى هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٢٦٤/٣ والإحاطة ٤٣٩/١ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة

وأصبح المسلمون في غرناطة، يوجون بالحق والقيظ من يوسف واليهود الذين اعتصروا طبيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة إلكامن، إذا أبو إسحق الإلبرى الذى سنترجم له بين الزهاد يمدهم بقصيدة حماسية ملتبهة، بل بالشعلة الشعرية المضطربة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف في مطلبها برجال صنهاجة الحاكمين^(١):

أَلَا قُلْ لَصَنَاهَا جَعَلْنَا أَجْمَعِينَ	يدور الندى وأسد العرين ^(٢)
لَقَدْ زَلَّ سَيْدُكُمْ زَلَّةً	تقرُّ بها أعين الشامتين
تَخِيرُ كَاتِبَهُ كَافِرًا	ولو شاء كان من المسلمين
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَحَوْا	وتأهوا وكانوا من الأرذلين ^(٣)
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازَاوَا الْمَدَى	فحان الهلاك وما يشعرون

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوالين يحملون أخراجهم على ظهورهم في صغار وذل وهوان باحثين في المزابل عن خرق من الثياب ملوثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنبا حتى يتبته ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فَبَايَرَ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً	وَضَحَّ بِهِ فَهَوَّ كَبَشٌ تَمِينُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً	بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْبُونُ
وَقَدْ نَكَلُوا عَهْدَنَا عَنْدهم	فَكَيْفَ تُلَامُ عَلَى النَّاكثِينَ

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها في الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صهاح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا في أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفي مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسور كثيرون من الرعية قصره حين تبيت

ومأواه.

(٣) انتخوا: تعاظموا وتكبروا.

(١) ديوان الإلبرى (طبع مدريد) ص ١٥١.

(٢) الندى: مجلس القوم. المرين: غبل الأسد.

لهم جليلة نواياه مصممين على قتله، فاخْتَبَأَ منهم في بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار المهجائين في عصر المرابطين عبد الله^(١) بن سارة الشنتريني المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تُرِي على حَصِي الدُّهْنَاءِ، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أُضْرِبَ عن ذكرها إلا لما قليلة لمنهجه الذي اتخذه في الذخيرة، وهو أن ينحى عنها الهجاء وخاصة المفعش منه، وكان ابن سارة مَقْرَأً عليه في الرزق، فتنقل طويلاً في بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوراقة، وفيها يقول ذاماً هاجياً:

أما الْوِرَاقَةُ فَهِيَ أَنْكَدُ حِرْفَةٍ أَغْصَانُهَا وَتَمَارُهَا الْجِرْمَانُ
شَبَّهَتْ صَاحِبَهَا بِابْرَةِ خَائِطٍ تَكْسُو الرِّعَاءَ وَجِسْمُهَا عَرِيَانُ

ويكثر في زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجياً، ومثله ابن خفاجة وابن البني وفيهم يقول مخاطباً لهم:

أهلَ الرِّبَا لَيْسَتْ نَامُوسُكُمْ كَالذَّنْبِ أَدْلَجَ فِي الظَّلَامِ الْعَانِمِ
فَمَلِكُكُمْ الدُّنْيَا بِمَنْهَبِ مَالِكٍ وَقَسَمْتُ الْأَمْوَالَ بَابِنِ الْقَاسِمِ
وَرَكِبْتُمْ شُهَبَ الدُّوَابِّ بِأَشْهَبِ وَبَاصَغِرَ صُفْتُ لَكُمْ فِي الْعَالَمِ

وهو يتهمهم بالمرءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمتهم المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدراً لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. ومن عنف بالفقهاء في الهجاء الأبيض^(٢) محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ ولوح بهجاء الزبير المرابطي حاكم قرطبة بمثل قوله:

عَكَفَ الزُّبَيْرُ عَلَى الضَّلَالَةِ جَاهِداً وَوَزِيرُهُ الْمَشْهُورُ كَلَّبُ النَّارِ
مَازَالَ يَأْخُذُ سَجْدَةً فِي سَجْدَةٍ بَيْنَ الْكُتُوسِ وَنُقْمَةِ الْأَوْتَارِ

(٢) راجع في ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد السافر ص ٦٦ ونفع الطب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والمحرية ٣١٥/٢ والقلاند ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والنبية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

فإذا اعتراه السُّهُوُ سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَةُ الْمَرْمَارِ

وكانت في الأبيض جرأة شديدة، وأفحش في بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ بقرعه ويوجهه باللوم قال له هازنا به: إننى لم أر أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حتى منه ما بعده حتى. وكان معاصره البكى يهجو المرابطين مثله، غير أنه لم يبلغ مبلغه في الإقذاع وهو من كبار المهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة في مهنة الطب كما يقول المقرئ - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن^(١) باجة:

يَا مَلِكَ الْمَوْتِ وَابْنَ زُهْرٍ جَاوَزْتَا الْحَدَّ وَالنَّهْيَةَ
تَرْفُقَا بِالْوَرَى قَلِيلاً فِى وَاحِدٍ مِنْكُمَا الْكِفَايَةَ

وهى في رأينا دعاية وبمازحة، لا هجاء نميم كما ظن المقرئ، مما جعله يعقب لأبى العلاء بن زهر بيتين يصف فيها شخصاً بالزندقة وأنه لا بد أن يصلب والجدع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعاية. ومن المهجائين المخضرمين الذين عاشوا في عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى^(٢) المخزومى أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سميد في المغرب هجاء كثيراً، من ذلك قوله في إحدى مقطوعاته يهجو قوماً لقوه لقاء قبيحاً:

وَأَنْتُمْ سَنَنْتُمْ كُلَّ مُحَدِّثٍ سِيِّئٍ وَلَمْ تَتْرَكُوا فِيهَا لَحَاقًا لِآخِرِ

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبة وكل منمة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءاً وعاراً بلعنات كل من في المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون^(٣) - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلاً:

أَلَا قُلْ لِّزَهْوِيَةِ مَالِهَا تَجَرُّ مِنَ التِّيهِ أَذْيَالُهَا

المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.

(٣) تأتى في الفصل التالى مراجع نزهون.

(١) نفع ٤٣٤/٣ وما بعدها.

(٢) انظر في ترجمة الأعمى المخزومى وشعره.

فردت عليه بهجاء موجه أخرسه. وكما هجا تلميذته التي كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابنًا له بقوله:

الحقُّ أبلجُ لستَ أنتَ وحقُّ مَنْ أحيا بك الأجلانَ مِنْ يُفْلِحُ^(١)
لا تهتدي بفضلِهِ لا ترعوِي بسلامَةٍ لا أنتَ ممن يَصْلحُ
يزدادُ عقلك ما كَبُرَتْ تناقصا وتلجُ في صَمَمٍ إذا ما تَنَصَّحُ^(٢)

وبدلا من أن يتعاطف مع ابنته فلذة كبده ويصوغ له النصيح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه في مطلع ترجمته نقلا عن الحجارى: «بشار الأندلس انطباعا ولسنا وأداة، وهو الذى أحيا سيرة المحيطة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبره ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله في دار تطفأ. وقال لفلان له: أسأل في الموضع الذى نزل فيه المخزومى متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له في دابة تحمله، وأساء الفلام الطريقة إذ ضرب على المخزومى فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبيتا منها:

لا ترجونُ بنى سعيدٍ للندى فالظُلُّ أَقْبَدُ مِنْهُمْ للسائلِ
قومٌ مصيبتُهُم بطلمةٍ وافِدٍ وسرورُهُم أبداً بخيبةٍ راحلِ

ومن كبار المهجائين في عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد^(٣) بن الصفار الأعمى القرطبي المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوف في الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازى كاتب أبي العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التى أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة في مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجيا له بقوله:

وإن ينازعك فى المنصور ذو نسب فتَجَلَّ نوحِ نوى فى قِسْمَةِ العَطَبِ
وإن يَقُلْ أنا عمٌ فالجوابُ له النُبىُّ بلا شكٍ أبو لهبِ

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتباً شهرياً إلى أن بارح دنياه. وبظل شرر الهجاء يتظاهر في إمارة بني الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البساطي محمد بن عبد الكريم القيسي بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيراً من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضي بلدته^(١):

تَبَا لِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضِلٍ تَبَا لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيَفْتَدِي
إِذْ غَيْرُ الْأَحْكَامِ عَمَّا أَصْلَتْ تَغْيِيرُ جُبَّارٍ عَنِيدٍ مُعْتَدِي

وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء أربعة من كبار المهجائين في الأندلس على مر عصورها هم يحيى الفزال والسُّمَيْسِر واليَكِّي وعلي بن خَزْمُون.

يحيى^(٢) الفزال

هو يحيى بن الحكم البكري الجياني المعروف باسم الفزال، وُلد حوالى سنة ١٥٦ للهجرة وتوفى حوالى سنة ٢٥٠ وإذا صَحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره في أرجوزته التاريخية من قوله:

أَدْرَكْتُ بِالْبَصْرِ مَلُوكًا أَرْبَعَةً وَخَامَسًا هَذَا الَّذِي نَحْنُ مَعَهُ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الرضى وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِّب بالفزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدباً وعلماً. ويبدو أنه كان يتولى أحياناً بعض أعمال للدولة وخاصة في زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع في بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشتري

٦٤ - ٦٥، ٦٦، ٧٠، ١٣٤، والمحمدي رقم ٨٨٧
والهبة للضبي رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢
والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن غزاري
٩٣/٢ والنفع ٢٥٤/٢ والهبة للشمالي ٥٦/٢
وكتاب القضاة للخشي ص ٨٣. ونشر ديوانه
د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

(١) انظر كتاب البسطي آخر شعراء الأندلس
للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت)
ص ١٩٤.

(٢) راجع في ترجمة يحيى الفزال المقتبس:
الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد
(تحقيق د. مكِّي - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣.

للدولة منها حاجتها وكان السر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما ياتلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستمطفه ببعض منظومه أو بهارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربي الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح في السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشفله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش في غير قليل من لين العيش وأنه كان في أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب في أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أرى هاهنا من الناس إلا نعلباً يطلبُ الدُجَاجَ وذيباً
أو شبيهاً بالقطِّ ألقى بعينه إلى فارةٍ يريدُ الوثوباً

فالناس بين نعلب ماكر وذنب مفترس وقطّ ينتظر فرصة من فارة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضي الجماعة بقرطبة يخامر بن عثمان الجذامي الجباني موطنه، ولأه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله في شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كلف القاضي يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ له كلّفتني غيرَ صنعتي كما قلّدوا فضّلَ القضاء يُخامرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لي سأفضعُ ما قد كان منك مُفائرا
فقلتُ له: رأسُ الفُضوحِ إقامةُ علينا كذا من غيرِ علمٍ مُكابرا
وخبّطك في دينِ الإلهِ على عمى خباطةَ سكرانٍ تكلمُ سائرا^(١)
فلن يحملَ الصخرَ الذبابُ ولن ترى الـ سلاجفَ يمزجُ بينَ السفينِ مؤاخرا^(٢)

(٢) مواخر: تمر البحر أي تشقه.

(١) سائرا: غير مهال.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخبط في قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، وعثله في حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التي لا يؤتاها إلا أولو العزم بذهاب يُطلب إليه أن يحمل صخرًا ضخماً وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفناً تشق مياه البحار شقاً. وما يزال هوّون منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلي الحفصيّ تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذي الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجميعه على ما قدّمت يداه:

أيا لا هيّا في القصر قُربَ المقابر يرى كل يومٍ واردًا غير صادر
تراهم فتلّهو بالشراب وبعض ما تلذّ به من نَقَرٍ تلك المزاهر^(١)
سترحل عن هذا وإنك قادمٌ - وما أنت في شك - على غير غافر

وكان الأمير عبد الرحمن ولّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ في سنة ٢٣٦ يفكر في صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه في اللذات، فأغرت طروب نصراً أن يسقيه شربة سم حتى يمجّله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونبّه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة في معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمراً، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقّباً له بأبي الفتح ومتشفياً فيه من قصيدة طويلة:

أغنى أبا الفتح عما كان يأمله حُفَيْرَةٌ حُفِرَتْ بين المقابر
فصار فيها كاشقى العالمين وإن لُفوه بالنفع في مسكٍ وكافور

وأمر عبد الرحمن بإتزال زرياب مغنّيه في قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصراً قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفته أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيها أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجه في زمنه.

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام الشعراء في زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقذح، وكأنما تخصص بالقذح والهجو في أهل زمنه، حتى ليكتب في هجائهم كتابا في مجلدات سباه «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجي منذ سنة ٤٦٧ وكان السمسير ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين في ملاهيهم بين الكاس والطاس متناهبين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلداتهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكِ وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتكم الإسلام في	أسرِ اليمدا وقصّدتكم
وجِبَ القيامُ عليكم	إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شقّ العصا	فقصا النهى شققتكم

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم في يده، بل إنهم لَيَسْتَعِدُّون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصر في حكم إماراتهم. شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمر غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادي، فعبد الله بن بلقين غارق في تشييد قلعة يتحصن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَبِيرِ

فهو - في رأيه - كدودة القز لا تزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقلا تلفه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمير وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب
١٠٠/٢

(١) انظر في ترجمة السمسير وشعره الذخيرة
٨٨٢/١ وما بعدها، ونفع الطب ٢٢٧/٣، ٢٩١.
٤١٢، ١٠٨/٤، والحميدى ص ١٩٣ والحريدة

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ أَهَا الْهَرَبَةُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا
أَنَّ الْهَرَابَ نَسْلُكَ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجه المؤلم توعده الأمير عبد الله بسفك دمه، ففر إلى المعتصم بن ضاح أمير الربيعة مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السمسر سبي الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رَأَيْتُ بَنِي آدَمَ لَيْسَ فِي جَمُوعِهِمْ مِنْهُ إِلَّا الصُّورُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ جَمِيعَ الْأَنْسَامِ كَذَلِكَ صِرْتُ كَطَيْرِ خَيْرِ
فَمَهْمَا بَدَأَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ أَقُولُ أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَشَرِ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لا يزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع في شبكة من شباكههم رصدوها له، وإنه ليستعيز منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السبي بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أَنَا أَحَبُّ الشُّعْرَ لَكُنِّي أَبْغَضُ أَهْلَ الشُّعْرِ بِالْفُطْرَةِ
فَلَسْتُ تَلْقَى رَجُلًا شَاعِرًا إِلَّا وَفِيهِ خَلَّةٌ تُكْرَهُ
وَالْعُجْبُ وَالتَّوَكُّ إِلَى الْجَهْلِ فِي أَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَعَ النُّزْرِ

وطبعي أن يعجب كل شاعر بشعره، أما التوك أو الحق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ في وصمهم بهما. ويطن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جملة يكثر من أشعار طريقة في الزهد والقناعة والحياة والموت.

الْيَكِّي^(١)

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكبي من قرية يَكَّةَ شمالي مُرْسِيَّةَ، قال فيه الحجازي: «هو ابن رومي عصرنا وحطيطه دهرنا، لا تعجد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء» عاش في زمن المرابطين ولاحق دولة الموحدين إلى أن توفي حوالي سنة ٥٦٠

٥٨٠/٣ والضي في البغية ص ١٨٨.

(١) انظر في ترجمة اليكبي وشعره زاد المسافر
لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢٦٦/٢ والمقريفة

وكان المراهطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا الملتثمين، ونراه يعطى لانتخاضهم اللثام بمثل قوله:

لَمَّا حَوَّوْا إِحْرَارَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحِيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلَثَّمُوا
 فِي مَدْحَةٍ بَلَغَ بِهَا غَايَةَ رِضَاهُمْ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ طَبْعُهُ وَمَا فَطَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَجَاءِ الْمَقْدَحِ،
 فَهَجَاهُمْ وَقَدَحَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَلِثَامَهُمْ رَامِيًا لَهُم بِالذَّنَاءَةِ وَنَقَصَ الْعَفَافَ قَائِلًا:
 فِي كُلِّ مَنْ رُبِطَ اللَّثَامُ ذَنَاءَةٌ وَلَوْ أَنَّهُ يَطْلُو عَلَى كَيَوَانٍ^(١)
 لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عَفْةٍ وَاطْلُبِي شِعَاعَ النَّارِ فِي الْفُتْرَانِ

وفي نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسي - كأندلسي - أن الملتثمين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها في برائن النصارى الشهابيين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلاقة التي سحقوهم فيها سحقاً بعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يَا أَهْلَ فَاسٍ لَقَدْ سَاءَتْ ضَمَائِرُكُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيكُمْ الْآرَاءُ مُتَّفِقَةً
 وَرَبَّمَا اجْتَمَعَتْ فِي بَعْضِ سَادَتِكُمْ نَقَائِصُ أَصْبَحْتُ فِي النَّاسِ مُفْتَرَقَةً

ويتبادى في البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصال عشرة ذميمة للفقيه وزوجته، وما وصم به قاضى بلده:
 مرسية من جَوْرِهِ وَأَكَلَهُ أُمُوالُ الْيَتَامَى وَأُمُوالُ الْمَسَاجِدِ سَرَقَةً وَغَصَبًا، يَقُولُ:

يَطَالِبُهُ الْآيَاتُ فِي جُلِّ مَالِهِمْ وَيَطْلُبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدٍ^(٢)

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدُّرْكِ أو إلى هذا المنحدر لا يضح من الفن والشعر في شيء، إذ يصبح سباً وقذفاً مذموماً. وربما كان أخف ما هجا به أهل فاس قوله:

قَصِدْتُ جِلَّةَ فَاسٍ أَسْتَرْزُقُ أَقْبَهُ فِيهِمْ^(٣)
 فَمَا تَسِرْ مِنْهُمْ دَفَعْتَهُ لِمَنْبِهِمْ

(٢) جل: معظم.

(٣) جلة: أجلاء.

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس

وشؤم.

ولما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئا من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبتانهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله في بعض مهجويه:

أَعِيدِ الوضوءَ إِذَا نَطَقْتَ بِهِ متذكِّراً من قبل أن تُنسى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظِّلُ منه ينجسُ الشَّمْسُ

وكأنه يصفه بدنس لا يمانله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو في الإقذاع والإيلام. وفي أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد في المغرب في نسبة موشح له وقال إنه لابن المريئي ويروى لليكي مما يدل على أنه شارك في نظم الموشحات.

علي^(١) بن حزمون

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن حزمون، من المرئية، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشي: «كان شاعرا مقلقا ذاakra للأدب والتواريخ أحد بواقع^(٢) الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجي». ومر بنا في حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدي بعد قفوله من غزوة الأَرَك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه وفد على المستنصر الموحدي (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) بمرآكش مادحا له ومتمظلها من واليه المجريطي على مرسية لضره بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالي وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفي المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالي واشتد أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مراثية رائدة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها في غير هذا الموضع، وجرّه هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعما أنه فرّ في إحدى المواقع مع النصاري قائلا: يودُّ بأن لو كان في بطنِ أمي جَنِينًا ولم يسمع حديثًا عن الفَرِّو

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

(١) انظر في ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب

ثَقِيلٌ وَلَكِنْ عَقْلُهُ مِثْلُ رِيْشَةٍ تَطِيرُ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي مَهْمِهِ دَوٌّ^(١)
تَمِيلُ بِشِدْقَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ لِحَيْتِهِ تَنْظُرُ بِهَا مَاءٌ يَفْرُغُ مِنْ دَلْوٍ
وَقَدْ حَدَّثُوا عَنْهُ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يَرَوِي وَلَا يَرَوِي

وهو تَجِنُّ على هذا القائد الذي كان مشهورا في قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى بصفه بالجبن، وهو يرى منه، وينقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التي لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهي مبالغة في هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبى سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقليل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ بَيْنٍ وَمِنْ وَقُوفٍ عَلَى دَارِ بَيَابِينِ
وَمِنْ زِيَارَةِ أَرْبَابٍ بِلَا عَدَدٍ لَا يَمْلِكُونَ حَيَاتِي لَا وَلَا حَيْنِي^(٢)
إِنِّي وَجَدْتَهُمْ لَمَّا رَجَوْتُهُمْ كَالرَّيْحِ تَطْلُبُهَا مَا بَيْنَ كَفَيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبا وغيثا مدرارا وممدحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء في ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصص منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمَرْأَةِ وَجْهِي فَخِلَّتُهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِوِ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي فَإِنَّ بِهَا مَا قَدْ أَرَدْتَ مِنَ الْهَجْوِ
كَأَنَّ عَلَى الْأَزْوَارِ مِنِّي عَوْرَةً تَنَادَى الْوَرَى غَضُوا وَلَا تَنْظُرُوا نَحْوِي
فَلَوْ كُنْتُ مِمَّا تَبَتُّ الْأَرْضُ لَمْ أَكُنْ مِنَ الرَّاغِبِ الْبَاهِي وَلَا الطَّيِّبِ الْحُلُوِ

وفي الحق أنه كانت في ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هي التي دفعته إلى أن يسلك طريقة إبن حجاج البغدادي الماجنة المفحشة في كثير من شعره، وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشعة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم في عروضها ورويا موشعة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. ونهى المراكشي حديثه عنه بقوله: «نال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذيء المقذع.

الشعراء والشعر التعليمي

ذكرنا في كتاب العصر^(١) العباسي الأول أن رقى الحياة العقلية في هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمي، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية في ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد في الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة في هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة في تاريخ ملوك الفرس وفي الفقه وأحكام الصوم والزكاة. ومن نظم في هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزارى، إذ نظم في علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعي فيه قصيدة في ذكر الملوك والجبابة المالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتز يكثر من النظم في هذا الفن التعليمي، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيها عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعلى بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين في هذا الفن الجديد - إن لم يكن أولهم السابق إليه - الشاعر يحيى الغزال الذي مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم في فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماهم مستقصيا محسنا^(٢). وملتقى بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبداقه إلى أن توفي في حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولائها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم^(٣)، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخمة^(٤) وفي ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة في الطول.

القاهرة ١/١٤٤.

(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار

الكتاب العربى بلنات) ص ١٧٩.

(١) العصر العباسي الأول ص ١٩٠ وما بعدها

(٢) نفع الطيب ١/٢٨٢.

(٣) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس (طبع

وإذا استمررنا في تتبع الشعر التاريخي التعليمي وأراجيزه التقينا بأرجوزة^(١) ابن عبد ربه التي سجل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهي في نحو ٤٥٠ بيتا. وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لَمْ تَحْوِهِ أَقْطَارُ وَلَمْ تَكُنْ تَدْرِكْهُ الْأَبْصَارُ
وَمَنْ عَنَتْ لَوَجْهِهِ الْوُجُوهُ فَمَا لَهُ نِدٌّ وَلَا شَيْبُهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التي أسبقها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حِمَاتِهِ قد تناثرت وعُمَتِ الفتن في كل الأنحاء وكثر الثوار في كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضي قضاء مبرما على الثوار والمرأق ويأخذ في منازلة نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدِ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة^(٢) السنة الأولى من غزوات الناصر وهي سنة ثلاثمائة، وكان قد أعد جيشا ضخما خرج به من قرطبة في السابع من شهر رمضان في تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جِيَّانَ واتجه إلى حصن المَنْتِلُون وثأثره سميد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورجل إلى حصن شمنتان وثأثره عبيد الله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورجل إلى الحصون التي كانت موالية لعمر بن حفصون في جِيَّانَ ثم في البُشْرَاتِ وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون في إقليم البيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يربح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعقل تبليغ نحو الثلاثمائة، وهي فتوح لم يسمع بمثلا - كما يقول ابن حيان - لملك واحد من ملوك الأرض في غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه في أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خائعين:

وَجَمِيعُ الْعُدَّةِ وَالْعَدِيدَا وَكُتِفُ الْأَجْنَادِ وَالْعُشُودَا
ثُمَّ انْتَحَى جِيَّانَ فِي غَزَاتِهِ بِعَسْكَرٍ يَسْعُرُ مِنْ حِمَاتِهِ^(٣)

المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسم: يتقد. حماة: جمع حام.

(١) انظر الأرجوزة في العقد الفريد ٤/٥٠٠.

وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة في الجزء الخامس من

فأذعنت مُراقها سِراعا وأقبلت حُصونها تداعي
وافتح الحصون حصنا حصنا وأوسع الناس جميعا أمنا
ثم انتحى من قُوره إلبيره وفنى بكل آفة مشهورة
ولم يدع من جنبها مريدا^(١) بها ولا من إنسها غنيدا
إلا كسأه الذل والصغارا وعُسه وأهله دمارا
وانصرف الأمير من غزايه وقد شفاه الله من عدايه

والأبيات ليس فيها الحرارة التي ينبغي أن توج بها إزاء هذه الفزوة التي ليس لها مثيل في تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت في أرجوزة من الشعر التاريخي التعليمي الذي تفتقر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائي المتوهج حرارة. ولا ين عبد ربه مدائح كثيرة في الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل في نفس هذه الفزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله في مدحه للناصر^(٢):

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان فيها الجور قد ماجا
لما رأوا حومة الشاهين فوقهم كانوا يفتاناً حواليلها ودرجا^(٣)
ويقول في وصف عدله في رعيته:
أحيا لنا العدل بعد ميته ورد روح الحياة في جسده

ونلتقى في عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمي التاريخي، ونقصد أباطالب عبد الجبار الملقب بالمتنبى، وسنفردة بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبي الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة في نسب الرسول ﷺ سهاها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده في هذا اللون التاريخي من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذي ستأتى ترجمته في الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سهاها «رقم الحلل في نظم الدول» وهي تاريخ شعري للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمرأ الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بخرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضي، ويسوق ابن الخطيب في تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفي كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الرضى وما كان

(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البخت والدراج: طائران صغيران والاستشارة واضحة.

(١) مريدا: خبيثا شريرا.
(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص ٦٢.

من ثورة الفقهاء وأهل الربض عليه وسفكه للماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه في حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد في الثورة عليه عهداً ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيراً إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام^(١):

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما قام بها ابنه المسى الحكما
واستشعرَ الثورةَ فيها وانقبض مستوحشا كاللثيث ألقى وَرَبَضُ^(٢)
حتى إذا فُرِصَتُهُ لاحَتْ نَفَضَ فأفمَحشَ الوقعةَ في أهل الربضِ
وكان جباراً بهيْدَ الهمةِ لم يَرْعَ من إل بها أو ذِمةِ^(٣)

وإذا تركنا التاريخ وشره التعليمي إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهي أكثر من أن تحصى في الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علماً دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة في العلم الذي نظمته مهما شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فيرُّه الشاطبي الذي مر ذكره بين القراء في الفصل الثاني، وقد ساءها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهانى في القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدتها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً، وقد شرحت مراراً، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبي إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له في القراءات منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد ساءها: «عقد اللآلى في القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها^(٤) من الشهرة والذووع. ودوت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكى لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطأ لمالك وساء: «التمهيد لما في الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً» ولعل ذلك ما جعل الشاطبي ينظم قصيدة في

(١) الإحاطة ١/ ٤٨٢

(٢) إل بنشدد اللام: عهد.

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن

حجر ٥/ ٧٣.

(٢) اللث: الأسد. أقصى: جلس على إنيه

ونصب ساقه وفخذه. ربض: طوى قوائمه ولصق

بالأرض.

خمسائة بيت تحيط علما بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات في العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبي بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله في القراءات^(١) منظومة باسم «إيضاح المعاني في القراءات الثماني» ومنظومة ثانية في علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المغاوض في علم الفرائض» ومنظومة ثالثة في علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله في الفقه المالكي أرجوزة في نحو ١٦٩٠ بيتا نشرت في باريس منذ القرن الماضي وكانت تدرس في جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيرا ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد في رائية^(٢) أبي الحسن بن الحصار، وهي اثنان وعشرون بيتا في بيان المدنى والمكى من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبيعيا أن تشارك الأندلس المشرق في نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما في كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسنا وضم إليها صور البيان الأساسية وهي الاستعارة والتشبيه والكتابة، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبي الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسنا. وتأخذ في الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات^(٣)، وهي منظومات يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط في ١٤٥ بيتا موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسنا من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الفرناطى ينظم قصيدة في علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلبي والإربلى في أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم في تلك القصائد ابن جابر الوادى أشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعيه من بحر البسيط

(١) انظر في أساء هذه المنظومات لابن عاصم

الفتح ١١/٥.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم

الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨

وما بعدها.

في مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم وسأها: «الحلة السَّيْرَا في مدح خير الورى» واستهلها بقوله:

بَطْيِيَّة أَنْزِلْ وَيَعْمَ سَيِّدُ الْأُمَرِ وَأَنْشُرْ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرْ أَطِيبَ الْكَلِمِ^(١)

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعَيْنِي، ويقول في مقدمته لها إن ابن جابر اتبع في سرد المحسنات البدعية الخطيب القزويني في كتابيه الإيضاح والتلخيص، ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم في علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائي الجبائي المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق، وبعد أشهر نحات القرون العربية المتأخرة لا في الأندلس فحسب بل في العالم العربي جميعه، وكان نظم الشعر التعليمي سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق الدقائق في النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيمه ومنظوماته فيها المصوغة صياغة بديمة، وفي مقدمتها نظمه المفصل للزعمشري في النحو باسم «المؤصل في نظم المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» في النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله في الصرف منظومة لامية في أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهي في مائة وأربعة عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية في ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطي في الجزء الثاني من كتابه المزهر. وله في اللغة منظومة واوية في ١٦٢ بيتا سأها «تحفة المودود في المقصور والممدود» وهي تتضمن الألفاظ التي تنتهى بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت في القاهرة مع شرح موجز لها، ومنظومة ثانية في ٦٢ بيتا من وزن البسيط سأها: «الاعتداد في الفرق بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتأثلة التي تنتهى بها. وأهم منظوماته جميعا الألفية في النحو والصرف وهي أرجوزة في ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارس وإكباب الشيوخ والطلاب عليها في جميع البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى في النحو والصرف واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وحواشيها مثل شرح الأشعرون وحاشية الصبان عليه وشرح ابن عميل وحاشية الحضري عليه. ولحازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها في حديثنا عنه عما قليل، ولأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة في النحو سماها «غاية»^(١) الإغراب في علمي التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ - كأرجوزته في القراءات - بشيء من الشهرة، وبالمثل الأرجيز النحوية التي نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر في كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى أشى نظم كتاب فصيح ثعلب في اللغة.

وكان قد شاع نط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دُرَيْد في القرن الرابع بمقصورته التي تقع في نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتي مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال وإلى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء في المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدر المثل في عناية الشعراء بها وفي تخميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته في هذا اللون من الشعر التعليمي اللغوي، ونذكر منهم على بن حريق المخزومي، إذ ذكر المراكشي أن له مقصورة^(٢) عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشي أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة^(٣) جعلها في ثلاثة أقسام: الأول في الزهد والنصرع إلى الله واستغفاره، والثاني في الحديث النبوي: بُنى الإسلام على خمس، والثالث في الشكوى من الزمان والإخوان ورناء أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولهازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها في حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى أشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرئ في النفح^(٤) مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى في أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسب على العادة التي شاعت في قصائد المدح النبوي، مع تضمينها بعض

(١) ذكرها أبو حيان في كتابه منهج السالك في

الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر

الخامس ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٤) راجع نفح الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة في سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بمراحه إلى السماء وقرب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قَاب قَوْسَيْنِ أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ في قوافي أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبي طالب عبد الجبار وحازم القرطاجني بكلمة.

أبو^(١) طالب عبد الجبار

لم تُعْنِ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبي طالب عبد الجبار، وحقا عُني ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة في مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعرَف بلقب المتنبي، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم نفعا في العلوم، وأوسعهم ذُرعا (طاقة) بالإجادة في المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف في المجون، وأنشد له خربة اقتطفنا منها أبياتا في الفصل التالي، ويقول إنه كان قانما بما يسد حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاية دولة المرابطين على شرقي الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التي عاش فيها، غير أنه أرخ في أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠-٥٣٧هـ) وأنه يقتفيه ويهتدى به في حكمه، مما جعل العباد الأصهباني يستنتج في ترجمته له أنه عاش بعد ستة خمسمائة أي بعد السنة الأولى من حكم علي، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ) قائلا عنه:

وَقَوَّ إِلَى الْآنَ إِمَامُ الْخَلْقِ وَالْمَلِكُ قَدِ الْإِلَهِ الْحَقُّ

وفي قوله: «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

(١) ٢١٠/٢ وما بعدها والمغرب ٣٧١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة أبي طالب عبد الجبار الذخيرة ٩٤٤-٩١٦/١ والمحررة للصاد الأصهباني

والأرجوزة في أربعمائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناعه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالمجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع في أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكتون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر في فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدؤها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ في حمد الله مبتدع السماء والأرض والبرية ابتداءً خالق مهيمن منفرد بوحديته منزّه عن قول جهّم بن صفوان وغيره من المجسّمة، ويدعو إلى التأمل في ملكوت العالم وتدييره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل في خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى المات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما في الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أَفْ لِقَوْلِ الْفِتْنَةِ الْبَصْرِيَّةِ أَهْلُ الْهَوَى وَالْفِرْقَةِ الْقَوِيَّةِ
وَاحْذَرْ هَذَاكَ اللَّهُ يَأْذَا الْفَهْمِ قَوْلُهُمْ وَاحْذَرْ مَقَالَ جَهْمِ
وَقُلْ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ مُثْنَى صِفَاتِ رَبِّ الْخَلْقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشدد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشدد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلم أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذي ينقله الجهم الغفير عن الجهم الغفير أو الجهاهير عن الجهاهير، وهو بذلك سني أو قل أشعري، ولا يلبث أن يحددنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وَكُلُّ شَيْءٍ جَوْهَرٌ أَوْ عَرَضٌ إِلَّا الَّذِي الطُّوعُ لَهُ مُفْتَرَضٌ
فَإِنْ فَحَصْتَ قَائِلًا مَا الْجَوْهَرُ وَمَا هُوَ الْعَرَضُ إِذْ يُقْسَرُ
فَالْجَوْهَرُ الْعَامِلُ لِلْأَعْرَاضِ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ يَذِي أَهَاضُ
وَالْعَرَضُ الْمَحْمُولُ كَالْأَلْوَانِ وَحَرَكَاتِ الْجَرَمِ وَالْإِسْكَانِ

فكل ما في الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزأ. والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلاسه هلاسه الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة في بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهم وأن لا يميل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لفظة الخصوص، ويعرفه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلم علمانِ أيَا مَنْ يَبْحَثُ عِلْمٌ قَدِيمٌ ثُمَّ عِلْمٌ مُّحَدَّثٌ
 إِنْ الْقَدِيمُ عِلْمُ رَبِّ الْعَرْشِ بَارَى الْبَرِيَّةِ الشَّدِيدِ الْبَطْشِ
 وَمُحَدَّثٌ فَذَاكَ عِلْمُ الْخَلْقِ مِنْ نَاطِقٍ وَغَيْرِ مَا ذِي نُطْقٍ
 وَكُلُّ عِلْمٍ مُّحَدَّثٍ عِلْمَانِ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ بِلَا بَرَهَانِ
 وَبَعْدَهُ فَعِلْمُ الاسْتِدْلَالِ وَالْمَنْطِقُ الْبَاحِثُ عَنْ أَحْوَالِ

فالعلم علمان: علم قديم أزلي خاص بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضروري بدون برهان وهو الهدييات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلا: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له، ويثنى على النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود في الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جل جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث في مقدمة رابعة عن التفكير في ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما في الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعا يدبره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحداية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدل ذلك على أن ربا فوقه هو الكمال المطلق الذي ليس له نهاية محده. وفي مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتديا بأضواء من الذكر الحكيم منشدا:

قَدْ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا كَمَا عَنِ الرَّسُولِ فِي الذُّكْرِ نَلَا
 أَخْرَجَ مِنْ مَاءٍ دُخَانًا فَسَمَا ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ لِيَهْلُكَ الْأَنَّمَا
 وَأَدَمَ صُورَ مَنْ صَلَّالٍ فَكَانَ مِنْهُ جُمْلَةُ الْإِنْسَالِ
 ثُمَّ بَرَأَ لَأَدَمَ حَوَاءَ فَسَكَنَا جَنَّتَهُ الْعِلْمَاءَ

وهو يشير في الأبيات إلى ما جاء في الذكر الحكيم من خلق السموات في مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السَّاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ (أَظْلَمَ) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضِحَاهَا﴾ وقوله عزَّ شأنه في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وقوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُور من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وقوله في سورة الرحمن: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنها الفردوس. ويستمر في الأرجوزة متحدثا عن عصيانها لربها وأكلها من الشجرة وهبوطها للأرض ويتحدث عن قتل ابنها قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلها وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسال الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دلَّ فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بنى أمية في الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموى في تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بتل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادا وعطلوا الثغورَ والجهادا
واشتغلوا أذهانهم بالخمرِ وبالأغاني وسماع الزُمَرِ
وزادهم فى الجهل والخذلانِ أن ظاهروا عصاة الصُّلَبانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، ودخلوا طوائف النصارى في الشمال حتى قويت أطباعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت في كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فمير إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال يسحقه لجنوده سحقا وبيللا في موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيها وفي استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وَإِذْ أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَ الدِّينِ اسْتَصْرَحَ النَّاسُ ابْنَ تَاشَفِينَ
فَجَاءَهُمْ كَالصُّبْحِ فِي إِثْرِ غَسَقٍ مستدركا لما تبقى من رَمَقٍ
وَوَاصِلِ السَّيْرِ إِلَى الزَّلَاقَةِ وشاقه ليومها ما شاقه
فَهُ تَرُّ مِثْلَهَا مِنْ وَقْعَةٍ قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وَتُلُّ لِلشُّرْكِ هُنَاكَ عَرْشُهُ لم يُقْنِ عَنْهُ قَوْمَهُ أَذْقَنُشُهُ

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ فلهاهم كالصبح المضيء في إثر ظلام مطبق، مستدركا لما بقي في الأندلس من رمق يوشك أن يزهد ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأسد وغى والنصر يحف بهركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بالفونس السادس وجنوده وتُلُّ عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة في نسجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم في اختيار الألفاظ والقوافي دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعاني أو تضيي عليها شيئا من الإبهام. وهي تدل - بوضوح - على تعمق أبي طالب في الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعي بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم^(١) القرطاجي

مرُّ بنا في الفصل الثاني حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزِقَ به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعُني بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشبُّ فأخذ يتلقى الآداب والعلوم في بلدته الواقعة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقي للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومدَّ رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوطين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

من مصادر، ودراسة الدكتور مهدي علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجي وفن المصورة في الأدب العربي مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره بيروت عثمان الكماك مع تعريف به.

(١) انظر في حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المجلد ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطي وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد المهيبي بن الحوجة وما بها

تلخيصه لكتابه الخطابة والشعر لأرسططاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية بما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنه. وأحس أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقربه، وتوفى فقر به منه ابنة المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطنًا له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعا بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعُنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظًا أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز مطلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قل إن زرت أفضل مُرسل
قِفَانِيكَ من ذكرى حبيب ومنزل

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعري للنحو على نحو ما نرى فى ميمته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئا بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والحذف وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقا فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشمرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشدا:

فه ما قد هجئت يا يوم النوى
على فؤادى من تباريح الجوى

ويطيل في غزله إلى حسين بيتا ناسجا في أبياته أكثر المعاني التي ألم بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير في نفوسهم هديل المحام من شجي. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه في مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ باقه منصورٌ به مؤيدٌ يعونه على العدا
مُلكٌ حكى مُلكَ سليمانَ الذي لم يتجسه لغيره ولا أبتغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنة الخلد كما يشبه قناتي المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هي نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل في وصف جنات أبي فهر والقصبه بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سباح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى في دولية أولتْ يدي أسنى الأيادي واللها^(١)
والدُهرُ عِيدٌ والليالي عُرُسٌ والدُهرُ أحلامٌ كأحلام الكرى^(٢)

وكأنما تهيج تونس بمباهجها في نفسه الذكرى لمرايع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك في نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثا في نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التي نهىها النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصورا كم نعيم فيها مع خلانه من الشباب متقلبين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى وربي ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نصيف من مرسية بمنزل نصفا به الدوح على ماء صفا^(٣)
نقطع دُنْيانا بوصل الأنس في مُغْتَبَق في رَوْضه ومُغْتَبَدَى^(٤)

الشجر وكثر.

(٤) مغتبق: مكان الفروق وهو شرب المشي.

مغتبدى: مكان الدُّر في الصباح.

(١) الأيادي: النعم. اللها: المطايا.

(٢) الكرى: الترم.

(٣) نصيف: تقضى الصيف. صفا الدوح: نما

وتتاجى بالمنى أنفسنا
تقسم الناس بها قسمين من
إذا اجتتى زهر الجمال وامق
فيها اجتتى خلوا بها زهر الربى
وكم أغان كنظيم الدر في
وكم حديث كثير الزهر في
حيث تداعى الطير منها وانتجى^(١)
بين خلوى قلبه ومضطجى^(٢)
تلك المغاني قد وشاها من وشى^(٣)
تلك المباني قد حكاها من حكى^(٤)

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التي رسم فيها مرسية وجناتها المطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى في أنس موصول، والناس قسمان محب وقع في شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتتى المحب أزهار حبه من النظر أو من القبل يجتتى الخل من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكثظ بالفناء والموسيقى وبأعلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم في رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التي كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودع تلك الجنان ارتسمت في خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه في فللكها، متساقين فيها كتوس الأنس في حدائق، منتشين فيها بأكؤس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنه وجمالا عن لوحة مرسية. ويطيل في وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخيمري ونرجس وباسمين، ويصف كل ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغاني الشعب بوان التي تغنى بها المتنبي، ويدعوها بالسقيا ويندب جذها العائر وما عفا فيها وفي أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذي ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ولم يمدح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث في نحو مائتي بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس. وما لقي فيها من المتاعب والمشاق التي احتملها في جلد وصبر، ويفكر في شئون الحياة وفي نفسه وخصاله وتسيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

(١) انتجى: تناجى.

(٢) مضطجى: مضطجى.

(٣) وشى: زين وزخرف.

(٤) خل: خال من الحب. مصطبي: محب مغرم.

ما أحدثت حادثة لي روعةً ولا اغتراني جَزَعٌ لما اغترى
والعيش طَوْرًا مُبْتَهًى مُسْتَرَأً وتارة مُسْتَوْبَلٌ وَمُجْتَوًى
والعيش محبوبٌ إلى كل امرئ لا فرق بين الشيخ فيه والفتى
قد يترك الحاجة مَنْ لم يَسْعَ في طلبها وقد تفوت مَنْ سَعَى
إِنْ احتياطَ المرء في أفعاله رأى يُوَدِّيهِ إلى سُبُلِ الْهُدَى

ويطيل في الكلام عن ضلوا نهج الرشد فكان في ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهل من مثل قصة النعمان وقتله لعدي بن زيد تسرعاً، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرهم أن جيشاً قادمًا ولم يصدقوها فكان في ذلك حتفهم، وقصة الزباء في حصنها وكانت أمنع من عقاب في أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذية ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدس لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمرا فوثقت به ووعداها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالاً في جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهي تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولفتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديداً. ولم تنتبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوا. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروي الأسطورة العربية ليبين ما حدث فيها من تفرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير ونبذة من ثقل ما تحمل، يقول:

وغيرها جذعٌ قصير أنفه فأمنتَه وهو مرهوبُ الشدا^(١)
وأوقرَ العيشَ رجالاً وعبا يؤسا لها وأبؤسا فيما عبا^(٢)
وارتابَ في مشى الجمال لحظها ولم تحقّق عندما قالت: عسى^(٣)
وما درت ما فوقها حتى غدت مُقصدةً يسهم دهي ما خبا^(٤)

ويتحدث عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة في الجاهلية، وينصح بالحزم في الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عن شبوا

شكها ورينها ولا ظنت بعض الظنون.
(٤) دهي: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

(١) الشدا: الحد، شبه قصيرا بالسيف القاطع.
(٢) أوقر العيش: حل الإبل. عبا: هياً.
(٣) قالت عسى أى أنها شكّت ولم تتحقق من

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس في ثأر أبيه حُجْر. وسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحاف وإيقاعه بتقلب في معركة البشر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، وتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إِنْ تَوَاءَ الْمَرِّ فِي أوطَانِهِ عِزٌّ وَمَا الْقُرْبَةُ إِلَّا كَالْتَوَى^(١)

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنوا إليها حينئذ ملتاعا، راجين أن يشتقوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسد مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبي الهدى الذي أضاء بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وبفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين في موقعة الأرك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للتوار، وعم طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسان الحال تمل شجوها، وبكى كل ما هنالك وبكت حتى الأنهار بدمع هام وأنت الوديان وبثت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبات عقد في حجور نصارى الشمال، واحتوا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من برائن الإسبان ينشدا:

وَلَوْ سَمَا خَلِيفَةُ اَللهِ لَهَا	لَا فَتَنُهَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَافْتَدَى
فَفِي ضَمَانِ سَعِيدِهِ مِنْ فَتْحِهَا	دَيْنٌ عَلَى طَرْفِ الْعَوَالِي يُقْتَضَى ^(٢)
فَقَدْ أَشَادَتْ أَلْسُنُ الْحَالِ بِهِ	حَتَّى عَلَى اسْتِفْتَا حَايَا حَتَّى عَلَى
أَثَائِ الْعِدَا مَا كَانَ مَرْمُوبًا بِهَا	وَهُوَ الَّذِي يُرْجَى بِهِ رَأْبُ الثَّأِي ^(٣)
مَا زَالَ يُعْلِي الْمَلَوَانِ نَصْرَهُ	وَسَيُفِيهِ يَخْتَطُّ مَا يُعْلِي الْمَلَا ^(٤)

ومضى في استصراخه لإفناذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم منير، ويهتف بهتاف

(١) تواء: إقامة. التوى: الهلاك.

الصدع والفتق.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق

الكريم.

(٢) العوالي: الرماح.

(٣) أنأى العدا: أكثر من القتل فهم والجراحات.. مرموبا: ملثبا. رأب الثأى: إصلاح

المسلمين في كل أذان: «حَيَّ عَلَى» استفتاحها أى أقدم أقدم وباخيل الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتصقا بها، وهو الذى يُرْجى به لَأَمَّ ما انفتق، وإنه لمؤد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يعلجها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جهشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يفتّر بصره وأن يعمل لآخرته قائلا:

لا تَلَهُ فِى وَجُودِكَ الْأَوَّلِ عَنْ وَجُودِكَ الثَّانِى وَنَهْنَهْ مَنْ لَهَا^(١)

ويقول إن للنفس وجهين: وجهها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجهها يشدّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنَنِ السنة والاعتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله في فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصودته وما بذل فيها من جهد في تخيير الألفاظ والمعاني، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بدعية تغلب القارئ بروعتها البهانية.

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة، بل أيضا في كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هائى بهجة وتارة شقى محروم يشكو المهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبتة أحس بفرحة لا تقاها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا في عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عنريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبتة لمعانى الحب والوجد في ذاتها، لا لشيء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثروا الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا في صدورهم لا يمكن إطفائها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيبهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العنرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولها دائما الغلبة والرجحان، ونشر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقاته ومشاعره، سواء في ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسألة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى في جوارٍ غاضبته وهجرته^(١):

(١) انظر في مقطوعة البتين الحلة السيرة ٥٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٧٩/٢.

قُضِبَ من البانِ ماسَتْ فوق كُتبانِ أعرَضَ عني وقد أزمَعَنَ هجراني
مَلَكْتَنِي يَلِكُ من ذَلَّتْ عزائِمُهُ للحبِ ذُلٌّ أسهرَ موثقي عاني

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجواري، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهن متذللاً. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حباً، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش في الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله^(١):

إذا ما بدت لي شمسُ النها ر طالمةٌ ذُكرتني طروباً
عَدائِي عنكِ مَزَارُ العِدا وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لَهَا مَاهِيَا^(٢)
سموتُ إلى الشوكِ في جَحْفَلٍ ملأتُ الحُزْنَ به والسُّهوباً

وقد استهل القصيدة ب ستة أبيات فيمضي الغزل بطروب ثم خلص إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلاً يدرع غبار القتال حتى استحالَت نضرة وجهه شحوباً ابتقاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموي وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروباً في سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموي في القرنين الثاني والثالث للهجرة على لسان الحكم وابن عبد الرحمن. ولؤم بن سعيد شاعر عبد الرحمن^(٣):

حُرْمَتُكَ ما عدا نظراً مُضِراً بقلبي بين أضلاعي مقبم
فعيني منك في جناتِ عَدْنٍ مخلدةٌ وقلبي في الجحيم

والبيتان تلاحباً بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منها غزلاً يعبر عن عاطفة حارة، وللقلقات الهجاء غزلٌ يُروى في ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله^(٤):

ياغزلاً عن لي فاب سترَ قلبي ثم ولي
أنت مني بفؤادي يامني نفسي أولى

وهما بيتان رقيقان ولقتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

(١) راجع في قصيدة هذه الأبيات الحلة السراء

١١٤/١ والمغرب ٤٧/١ والبيان المغرب ٨٥/٢.

(٢) لهما: جيشا كيفا.

(٣) المغرب ١٣٣/١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٣٠٢.

ومرت في الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال في التصوير ورشاقة في التعبير كقوله ^(١):

يَالْوَلُؤَا يَسْبِي الْعُقُولَ أَنْيَقَا وَرَشَا بَتَعَذِّبُ الْقُلُوبَ رَفِيقَا
مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ دُرًّا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاءِ عَقِيقَا
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مُحَاسِنِ وَجْهِهِ أَبْصَرْتَ وَجْهَكَ فِي سَنَاءِ غَرِيقَا
يَأْمَنْ تَقَطُّعَ خَصْرِهِ مِنْ رِقَةٍ مَا بِأَلِّ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقَا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الحدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يفرق في محاسن الوجه وسناها أو ضونها المتوهج جمالا وفتنة، والنصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر ^(٢):

عَجِبْتُ - وَقَدْ وَدَّعْتُهَا - كَيْفَ لَمْ أُمْتُ وَكَيْفَ اتَّشَتُّ بَعْدَ الْوَدَاعِ يَدِي مَعِي
فَيَأْمُقُنِي الْعَبْرَى عَلَيْهَا اسْكُبِي دَمًا وَيَا كَيْدِي الْحَرَى عَلَيْهَا تَقْطُمِي

والبيتان ينمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتها سلسلة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادي وسنفر له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجبائي وقد رَجَّحَ به المستنصر في سجن يبلدته جَبَّان لما رُفِعَ له من أنه هجاء، فسجنه ومات في سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الهدائق الذي تحدثنا عنه في غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذري في الأندلس، كما يتضح في قوله ^(٣):

وَبِطَائِمَةِ الْوِصَالِ عَفَفْتُ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمَطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتَتْ دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ الْقِنَاعِ ^(٤)
وَمَا مِنْ لِحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ بِهَا دَوَاعِ
فَمَلِكْتُ النَّهْيَ جَمْعَاتٍ شَوْقِي لِأَجْرِي فِي الْعَفَافِ عَلَى طَبَاعِي
وَبَتْ بِهَا مَبِيتُ السَّقْبِ يَظُنُّ فَيَمْنَعُهُ الْكِمَامُ مِنَ الرُّضَاعِ ^(٥)
كَذَاكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَنَاعِ

ص ١٤٠ والمغرب ٥٦/٢ والمطرب ص ٤ ومجمع
الأدباء ٢٣٦/٤.

(٤) السقب: ولد الناقة. الكلام: ما يجمل على فمه
لنحه من الرضاع.

(١) النضج ٥٦٤/٣.

(٢) مغرب ١٨٧/١.

(٣) انظر في ترجمة أحمد بن فرج الجبائي وشعره
المحمدي ص ٩٧ والقلائد ص ٧٩ والنبغة

ولست من السوائم مُهْمَلَاتٍ فَأَتَخَذُ الرِّيَاضَ مِنَ المِرَاعِي^(١)

وابن فرج الجبائي يصف لنا جمال صاحبه الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحيه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفي كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصما بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بمنقب جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظلم والكمام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبه النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسله في المراعى ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك في أن هذا التسامي اقترن بالحب والغزل في الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجبائي عبر عنه في لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسده تجسيدا قويا. وللمصطفى وزير الحكم المستنصر^(٢):

كَلَمْتُ فَقُلْتُ: دُرُّ سَقِيطٌ فَنَامَلْتُ عِقْدَهَا هَلْ تَنَازَرُ
فَارْزَهَاها تَبَسُّمٌ فَأَرْتَبِي عِقْدُ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخَرُ

واستعارة الدر للكلام وللنثر قديمة، غير أن المصطفى عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظن من حسن كلام صاحبه أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحياته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وتوج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الآنسات عناني» وفيها يقول المستعين^(٣):

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظُ فَوَاسِرِ الْأَجْفَانِ
وَقَلَّكَ نَفْسِي ثَلَاثَ كَالِدُمِي زُهِرَ الْوَجْوهُ نَوَاعِمُ الْأَهْدَانِ
فَأَبْعَنَ مِنْ قَلْبِي الْحَمَى وَتَرَكْنِي فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي
لَا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَذَلُّ لِلْهَوَى ذَلَّ الْهَوَى عِزُّ وَمُلْكُ ثَنَانِ

السيراء ٢٥٧/١ - ٢٦٧ والذخيرة ٥٨/٤

وما بعدها.

(٣) الذخيرة ٤٧/١.

(١) السوائم: الحيوانات المخلّاة في المراعى.

(٢) رايات البرزين لابن سعد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر في جعفر وشعره المطمح ص ٤ والملة

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنا المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفنك به بنو حمود واستولوا على الخلافة، وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فنك به ابن عمه المستكني. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله^(١):

غَزَالٌ بَرَاهُ اللهُ مِنْ نُورِ عَرْشِهِ لَتَقْطِيعُ أَنْفَاسِي وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسِ^(٢)
وَهَبْتُ لَهُ مُلْكِي وَرُوحِي وَمُهْجَتِي وَنَفْسِي وَلَا شَيْءَ أَعَزُّ مِنَ النَّفْسِ
وكثيرون من أبناء البيت الأموي تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعارا مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري الذي أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله^(٣):

إِذَا رُمْتُ قَطْفَ الْوَرْدِ سَاوَرَنِي الصَّدْعُ بِعَقْرِبَ سِحْرِ فِي فَوَادِي لَهُ لَذْعُ^(٤)
غَزَالٌ بِجِسْمِي فَتْرَةٌ مِنْ جُفُونِيهِ وَفِي أَدْمَعِي مِنْ لَوْنِ وَجَّتِهِ صَبْغُ
زِيَارَتِهِ أَخْفَى خَفَاءً مِنَ السُّهَا وَدُونِ فِرَاقِي مِنْ مَحَبَّتِهِ الْفَرْعُ^(٥)

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من حدود صاحبه ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته في فواده. وزعم أنها أعدت دموعه بلون خندوها الوردية كما أعدت جسمه بفتور جفونها وأنكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السها الذي تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتبا مبدعا، وسنترجم له بين الكتاب، ومن غزلياته قوله^(٦):

وَلَمَّا فَشَا بِالْذَّمِّ مِنْ سَرٍّ وَجَدْنَا إِلَيَّ كَاشِحِينَ مَا الْقُلُوبُ كَوَاتِمُ^(٧)
أَمْرُنَا بِإِسْكَافِ اللَّمُوعِ جَفُونَنَا لَيْشَجِي - بِمَا تَطْوِي - عَذُولٌ وَلَا تُمْ
فَطَلَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ خَيْرَى كَأَنَّهَا خِلَالُ مَاقِينَا لِأَلِّ تَوَاتِمُ

وتصويره للدموع ودموع صاحبه وإسكاكها بها تفرق في جفونها ولا تسقط بالآلئ التوائم تصوير بديع.

-
- (١) الذخيرة ١ / ٥٧. والخلافة.
(٢) براه: خلفه.
(٣) الذخيرة ١ / ٤٧١.
(٤) ساوره: وثب عليه.
(٥) السها: نجم خفى. الفرغ هنا: الموت
(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكي) طبع القاهرة ص ١٥٤.
(٧) الكاشحين جمع كاشح: الطور المخض.

وتتكاثر سيول الغزل في عصر أمراء الطوائف، عصر الفناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولاً شائعاً على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه قائم يضمونها جميعاً إلى صدورهم وفي مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتاب، وكان شاعراً وله غزليات كثيرة منها قوله^(١):

وددتُ بأن القلب شقٌّ بمُذبِيةٍ وأدخلتُ فيه ثم أُطِيقُ في صَدْرِي
فأصبحتُ فيه لا تُحَلِّينَ غيرَه إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحشر
تعشين فيه ما حييتُ فإن أمتُ سكتتُ شِغافَ القلب في ظَلَم القَبْرِ

وقوله متحولاً بحبويه، أو محبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية^(٢):

أينَ عالمُ الأملاك أنت أم أنسيَ أينَ لى فقد أزرى بتمييزي اليُ
أرى هيئةً إنسيّةً غير أنه إذا أعمل التفكير فالجرمُ علوي
عدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً نقيسُ عليه غير أنك مَرَيّ
ولولا وقوعُ العين في الكون لم نُقلْ سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقي

فهو لا يدرى أمحوبه إنسى أم ملاك طاهر، وبحارٍ وتعظم حبرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوي، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذي لا يحده مكان حسي. وملتقى باين برد الأصفر، وسنخصه أيضاً بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعراً، وله غزل بديع مثل قوله^(٣):

لما بدا في لازورٍ دئى الحريرِ وقد بهرُ
كبرتُ من فرط الجمالِ لى وقلتُ: ما هذا بشرُ
فأجابنى: لا تُنكرنْ ثوبَ السماءِ على القمرِ

والأبيات تتم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبى جعفر الخولاني أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية^(٤):

بَدَرُ أَلَمٍ وَبَدَرُ التَّمِ مُنْتَحِقٌ وَالْأَفَقُ مُخْلَوِكُ الْأَرْجَاءِ مِنْ حَسَدِ
أردتُ توسيده خدَى وقلْ له فقال: كَفَكَ عِنْدَى أَفْضَلُ الْوَسَدِ

(١) أطوق الهامة (تحقيق د. الطاهر مكي) طبع دار . (٤) الذخيرة ١٣٦/٢.

المعارف ص ٩٢. (٥) بدر التم: البدر في تمامه واكتاله. محتق.

(٢) أطوق الهامة ص ٢٥. مخفف نوره، محلولك: شديد السواد.

(٣) الغرب ٩٠/١.

فبات في حَرَمٍ لا غَدَرَ يَدْعُرُهُ وَبِتْ ظَمَانٍ لَمْ أَصْنُرْ وَلَمْ أَرِدْ

فكأنما بات بجوار صاحبه في حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينفع غُلَّةُ حبه يرى منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يَرُدُّه ولا يصدر عنه، بل يكفي بتكرار النظر للحدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعا أخرى ممانلة في العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع في الأندلس - كما مر بنا في الشواهد السابقة، وكما يلي في شواهد ممانلة - هذا الغزل العنرى أو الروحي السامي الذي تُعَدُّ العفة مقومه الأساسي والذي يجري فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيها حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفيا منها - وهي طوع يديه - بنظراته وكأنه في حلم - أو - كما يقول الخولاني - في حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسي العنرى أو الروحي النقي تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسباني والفرنسي، وهو يتضح عند الإسباني أشد الوضوح في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦ م) وهو يذكر في سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربي، وكأنه مترجم لها فحسب. ونغضى في قراءتها فنشعر كأنما تجسد في بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحي السامي الأندلسي، وهو يخرج في حبه عن طوره ويصيه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلا في إسبانيا مقتنحا في أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملا في رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هي مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحي الأندلسي عند الإسباني في قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيها نظمه شعراء التروبادور في القرن الثاني عشر الميلادي، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأفعال والقوافي مع الموشحات الأندلسية^(١)، وأيضا فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسي العفيف في المضمون: في عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضا فيما يجري في هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحيانا وذكر الرقيب والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مُقَانَا^(٢):

(١) العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.
(٢) الذخيرة ٧٨٨/٢.

(١) انظر الدكتور مكى في كتاب أثر العرب
والإسلام في النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية

لَمَنْ طَلَّلَ دَارِسٌ بِاللَّوَى
رَمَادٌ وَتَوَّى كَكُحْلِ الْعُرُوسِ
غَدَا مَوْسِمًا لَوْفُودِ الْبَلَى
عَجِبْتُ لَطِيفِ خِيَالٍ سَرَى
وَكَيْفَ تَجَاوَزَ جَوْزَ الْحِجَازِ
وَلَمْ يَتَّخِذْ حَرًّا نَارِ الضَّلُوعِ
فَذَكَرَ أَيْسَامَنَا بِالْعَقِيقِ
كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ أَوْ كَالرُّدَا
وَرَسَمَ كَجِسْمِ بَرَاهِ الْهَوَى
وَرَاحَ مَرَاخِا لِسِرْبِ الْمَهَا
مِنَ السُّدْرِ أَنَّى إِلَيَّ اهْتَدَى
وَجَوَّزَ الْبَحَارَ وَيَسْنَدُ الْمُنَى
وَيَخْرُ الدَّمُوعَ وَرِيحَ النَّوَى
وَلَيْلَتُنَا بِهِضَابِ الْجَنَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صورا وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه في عين المحب الواله الرداء المعلم أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتهاعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكف بأن جعله مسرحا لبقر الوحش مثل امرئ القيس في مطلع معلقته فقد جعله أيضا موسما لوفود البلى، وأيضا لم يكتف في ذكر المواضع بموضع شجر السدر في حمى صاحبه، فقد أضاف إليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد ديبانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جو بوادي الحجاز وحبها العذرى اللتان، وصوره مضطربا في حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تتشبه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمة من عينيه، ولا ريح النوى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسي بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبدا. ويقول محمد بن البين وزير يحيى الوالى على يابرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) في إحدى قصائده^(١):

غَصَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَمُوهُ خُدُودَا
وَرَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ مَحَلِّهِمْ
وَاسْتَدْعَوْا حَذَقَ الْمَهَا أَجْفَانَهُمْ
لَمْ يَكْفِ أَنْ سَلَبُوا الْأَسْنَةَ وَالظُّبَا
وَتَضَافَرُوا بِضَفَائِرٍ أَبَدُوا لَنَا
وَاسْتَوْهَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودَا
فَاسْتَبَدَّلُوا مِنْهُ النُّجُومَ عُقُودَا
فَسَبَّوْا بِهِنَّ ضَرَاغِمًا وَأُسُودَا
حَتَّى اسْتَعَانُوا أَعْيُنَا وَنَهُودَا
ضَوْءَ النَّهَارِ بِلَيْلِهَا مَتَقُودَا

وهي قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهي مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسي مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما في القطعة من صور طالما

كرره العرب في غزلياتهم، فقالوا إن الحدود مشرقة كالصباح، والقُدود أو القامات كفصول الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسمى الضراغم والأسود، وكأنا الأعين والنهود أسنة وظبا سيوف، وكأنا الضفائر لبال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفر له ترجمة مع صاحبه ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام في ترجمته^(١) له: «كان قد مني في صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُويرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما في الكناية عن أحبوه».. وكان اسمها الحقيقي جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا لكلمة «نار» التي أشعلها حبها في قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مرارا لعقيدة التثليث المسيحية وللقس والصلوات في الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفال بعيد فصح في إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعصا ومن حوله القس وعينه تسرح - كما يقول - في الحسنات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول^(٢):

الشمسُ شمسُ الحسَنِ من بينهم	تحت غَمَامَاتِ اللُّثَامَاتِ
ونَظَرِي مَخْتَلِسٌ لَمَحَهَا	وَلَمَحَهَا يُضْرِمُ لَوْعَاتِي
وفِي الحَسَا نَارٌ نُوَيْرِيَّةٌ	عَلَّقْتُهَا مِنْذُ سُنَيَاتِ
لَا تَتَطْفَى وَقْتًا وَكَمْ رَمَتْهَا	بَلْ تَلْتَطِي فِي كُلِّ أَوْقَاتِي

وفي ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات في البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما في أشعاره لا يراها إلا في الكنائس وبين القس في أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصليان وعقيدة التثليث. وكان حبا في صباه كما يقول ابن بسام - أو في بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

وكان في هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنُ نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا في غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ في أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»^(١) التي أهداها أميرها مجاهد العامري إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تَسَامُ وَمُذْنَفُهَا يَسْهَرُ وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَقْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا، وهذا به سبيلك وَجَدًا وَلَا يَشْعُرُ

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتباد»^(٢) الملقبة بالرُمَيْكِيَّة زوجة المعتضد ابنه، وهى إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية في نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرْدَ التُّرْع؛ فقال المعتضد لابن عمار: أَجَزُّ

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدُ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من القسالات على حافة النهر:

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَدَّ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذى صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت مزوجة؟ فقالت: لا. فزوجها وهى أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُمَيْكِيَّة والعبادية «غاية»^(٣) المنى» جارية المعتصم بن صահ أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجهيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أَجِيزِي:

سَلْ هَوَى غَايَةِ الْمُنَى

(١) انظر في العبادية والخير المذكور عنها نفع الطيب ٢٨٣/٤
(٢) انظر في غاية المنى القسم الثانى من السفر الثامن للمراكشى ص ٤٨٨ وما بعدها.

(٣) انظر في العبادية والخير المذكور عنها نفع الطيب ٢٨٣/٤
(٤) راجع في اعتقاد الرميكية النفع ٢١١/٤.

فقلت بديعة:

مَنْ كَسَى جِسْمِي الضَّنَا
وَأَرَانِي مَدَهَا سَيَقُولُ الْهَوَى

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم^(١) الكرم، وكان أبوها المتعصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبت - كما يقول ابن سعيد - الفقه المشهور بالسفار، وأنشد لها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سَبِيلٌ لَخَلْوَةٍ يَنْزِعُ عَنْهَا سَمْعُ كُلِّ مُرَاقِبٍ
وَمَاعِجًا أَشْتَاقَ خَلْوَةٍ مِنْ غَدَا وَمُثَوِّاهٍ مَا بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ

والصورة في البيت الثاني تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضا نظم الموشحات.

ونمضي إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التلطيل^(٢):

أَرِيقُ تَفْرِكُ أَمْ بَنَتْ الزُّرَاجِينَ وَعَرَفُ نَشْرِكُ أَمْ مَسَكُ لَدَارِينَ^(٣)
جِسْمُ بَرَاهِ الْإِلَهِ حِينَ صَوْرُهُ مِنْ مَاءِ لَوْلُؤَةٍ وَالنَّاسُ مِنْ طِينِ
وَحَاشَ لِي أَنْ يَعْزَى إِلَى بَشَرٍ أَوْ أَنْ يُضَافَ لِحُسْنِ الْخُرْدِ الْعَيْنِ^(٤)
يُدِيرُ لِي مُقْلًا مَرَضَى بِلَا سَقَمٍ يُمِيتُنِي نَارَةً فِيهَا وَيُعَيِّنِي
كَمْ زَفَرَةٍ تَسْتَعِيرُ النَّارَ وَقَدَّتْهَا وَلَوْعَةٍ طَيِّ أَضْلَاعِي تَنَاجِينِي

وهو يقرن ريق صاحبه إلى الخمر ورائحتها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرقاً لسفن الهند على الخليج العربي كانت تحمل إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبه ملاكاً صوره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

(١) راجع في أم الكرم المغرب ٢٠٢/٢ وما بعدها.

الطيبة.

(٢) المرد جمع خريدة: الحساء. العين جمع عيناء:

(٣) الزرّاجين جمع زرجون: شجرة الصنب. بنت

واسعة العين الفاتنة.

(٤) الزرّاجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية

إشادة بجهاها الخلاب الذي لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقرن به - جمال الخرد العين
أو الغائتات ساحرات العيون من البشر، ويشعر في حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة
وتكتظ أضلاعه بلوعات بحرقه ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة
مختصرة. ولا بن عيدون^(١) :

وما أنسَ لَيْلَتُنَا والعِنا قِي قد مَزَجَ الكلُّ منا · بَكلْ
إلى أن تقوسَ ظَهْرُ الظلامِ وأَشْمَطَ عَارِضُهُ وأَكْثَهْلُ^(٢)
ومسَّ رداءَ رقيقِ النسيمِ على عاتقِ الفجرِ بعضُ البَلَلِ ·

وقد صورَ هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلت أضواء الفجر
وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة
خده شيئا. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجوفى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل
حينذاك رداء رقيقا على منكب الفجر مسه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن
خفاجة في وصف صاحبة له^(٣) :

غَزَالِيَّةُ الأَحْظاظِ رِيَّةُ الطَّلَى مَدَامِيَّةُ الأَثَلَى حَبَابِيَّةُ النَّفَرِ^(٤)
تَرَنُّحُ فِي مَوْشِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ كما اشْتَبَكَتْ زَهْرُ النُّجُومِ عَلَى الْبَدْرِ^(٥)
تَلَقَّى نَيْسَبِي فِي هَوَاهَا وَأَدْمَعِي فَمَنْ لَوْ لَوْ نَظِمِي وَمَنْ لَوْ لَوْ نَفَرِ
وقد خلعت ليلًا علينا يَدُ الْهَوَى رداءَ عِنَانِي مَرْقَنُهُ يَدُ الْفَجْرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبه مثل الغزال في سحر
عيونه والظبي في طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فمبسم دن خرى، وأما نغرها
فعل جفافيه حباب هذا الدن المسكر، ومن حولها وشى نوبها الذهبى يتجمع كنجوم
مشرقة مضئنة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - فى البيت الأخير -
يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبه رداء غريبا، هو رداء العناق، وبأسى لأن يد
الفجر امتدت له ممزقة إيدانا بالوداع. ويقول يحيى^(٦) بن بقى المارة ترجمته بين
الوشاحين :

المدام: الحمر. الأثلى: الشفة تضرب خفيفا إلى

السرة. المهاب: الفقايع على وجه الكأس.

(٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضئنة.

(٦) النخيرة ٦٣٦/٢ والمغرب ٢١/٢.

(١) النخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ٣٧٥/١.

(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الحد.

(٣) الديوان ص ٢٤.

(٤) الريم: الظبي خالص البياض. الطلى: العنق.

بأبي غزال غازلته مُقلتي بين العذيب وبين شطى بارق^(١)
وسألت منه قُبلة تشفى الجوى فأجابني فيها بوعيد صادق^(٢)
بتنا ونحن من الدجى فى لجة ومن النجوم الزهر تحت سراقى
حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شينا وكان معانقى^(٣)
باعدته عن أضلع تشاقه كيلا ينأم على وساد خافى

وهو يتخيل أنه لقي صاحبه بين موضعين من المواضع التى طالما لقي فيها شعراء الغزل العربى محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدت له فى الوصال واللقاء، وأنها باتت معه فى ليلة تحت سراقى النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذى توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وساد خافى بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف^(٤):

هم رحلوا يوم الخميس غديّة فودّعتهُم لما استقلّوا وودّعوا^(٥)
ولما تولّوا ولت النفس إثرهم فقلت: أرجى قالت إلى أين أرجع
ولى جسد ما فيه لحم ولا دم ولا هو إلا أعظم تنقّع^(٦)
وعينان قد أعماه كثره البكا وأئنّ عصت عذالها ليس تسمع

وهو يقول إن صاحبه وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودّعوه وودّعهم ورحلت نفسه فى إثرهم، وعينا يدعوهما إلى الرجوع وهى تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قصفتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابتضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لفو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللاتى أظلهن عصر المرابطين ولحقن - فى أغلب الظن - عصر الموحدين نزهون وحمة الغرناطيتان، أما نزهون^(٧) فيقول ابن الأبار أحسب أن

والذيل والكلمة للمراكشى (القسم الثانى من السفر الثامن، نشر بنشرينه بالمغرب ص ٤٩٣ والبقية ص ٥٣٠ والنفع ٢٩٥/٤ والإحاطة وانظر ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع فى أبيها الكلمة رقم ٥١٥.

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.

(٢) الجوى: الوجع. (٣) الكرى: النوم.

(٤) المرحمة ٣٣٣/٢. (٥) استقلّوا: رحلوا.

(٦) تنقّع: تتحرك مع صوت.

(٧) انظر فى نزهون وأخبارها وشعرها المغرب

١٢١/١ ولحمة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكررا

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقلمى قاضى غرناطة إلى أن توفي سنة ٥١٠ هـ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت ناه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها في الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومي الذى مر ذكره بين شعراء المهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادر مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الكتندى الشاعر الغرناطى دخل يوما مجلسا كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومي فقال له - وكان أعمى - أجز: **لو كنت تبصر من تكلمه**

فأفحم الأعمى ولم تسعه بهديته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها فى سرعة خاطفة.

لغدوت أخرس من خلاخيله
البدر يطلع من أزرته والفن يفرح فى غلاته

ويرى أنه لقبها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بنى إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرة بنى إسرائيل: **بأنها (صفراء قاقع لونها تسر الناظرين)**. ومر بنا فى حديثنا عن المخزومي بين شعراء المهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألصقته حجرا أخرسه. وأما حمدة^(١) فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقى ربأها هى وأختها زينب تربية فاضلة تتقفا فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. وترجم ابن الأبار لحمدة فى التكملة وفى التحفة ويقول: من أهل مدينة وادى آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتظرفات العفيفات، وفى كتاب المغرب أنها حسناء المغرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرئ عن ابن سعيد أنها هى وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر فى مدينة وادى آش، وهو يجرى بين بساتين ورياض، ولما خلعن

للمراكشى ٤٨٥/أ/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونضع
الطبع ٢٨٧/٤.

(١) راجع فى ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب
المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادى رقم ١٠٠ والتكملة
رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة

ثيابه ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن في النهر سابحات متلاعبات قالت في محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أنْشَراري بَوادى له في الحسنِ أنارُ بَوادى^(١)
فمن نَهْرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ومن رَوْضٍ يَرِفُ بكلِّ وادى
ومن بينَ الظَّباءِ مَهْأَةً إنْسٍ لها لُيىً وقد سَلَبَتْ فَوادى^(٢)
لها لَحْظٌ نَرَقْدُهُ لَأَمْرٍ وذاك الأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادى
إذا سَدَلْتُ ذَوَانِبها عَلَيْها رأيتَ البَدْرَ في جَنحِ الدَّادى^(٣)
كَأَنَّ البدرَ ماتَ له شَقِيقٌ فمن حُزْنٍ تَرَبَّلَ بالسَّوادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتهما في منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة في النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتهما التي خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها في المياه، ولطالما سهرت الليالي تفكر في سحر عينيها، وما هي تسدل أحياناً ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمراً يطل في جنح الليالي الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب^(٤):

ولمّا أَمَى الواشونَ إلا فِرَاقُنا ومالَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ نارِ
وَشَنُوا عَلَيَّ أَسْمَاعِنا كُلَّ غارَةٍ وَقَلَّ حِمَامَتِي عِنْدَ ذاكِ وَأَنْصارِ
غَزَوْنَهُمْ مِنْ مَقْلَتَيْكَ وَأَدْمَى وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيفِ وَالْماءِ وَالنَّارِ

وواضح ما في البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيل والنار، وهي مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير في الشعر العربي من قديم، ومنه أمثلة كثيرة في الشعر الأندلسي قبل زينب.

وتظل سهول هذا الغزل الرائع تندفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية في عصر الموحدين، ويلقانا في صدره محمد بن عياض صاحب المقامة المياضية، وهي مقامة غزلية،

(١) بَوادى الأخيرة: ظاهراً.

(٢) المَهْأَةُ: بقرة الوحش واسعة المِئين.

(٣) الدَّادى: الليالي الأخيرة في الشهر القمري.

وهي حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.

(٤) نفع ٢٠٨/٣ وفي المغرب أن الأبيات لأختها حدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات في الغزل، ومن أروعها قوله^(١):

أَنْكَرْتُ إِلَّا سَقَامَ طَرْفٍ وَأَيْ سَيْفٍ بِلَا ذُبَابٍ^(٢)
إِنْ أَنَا لَأَحْظُهُ نَوَارِي مِنْ تَمَعَةِ الْعَيْنِ فِي حِجَابٍ
أَبْصَرْتُهُ جَدُولًا وَوُزُقًا مِنْ تَمَعٍ عَيْنِي وَاتِّحَابِي^(٣)

وتشبهه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول في الشعر العربي من قديم، ولكن تفرق الدموع في عينيه بالبيت الثاني حتى لتصبح حجابا بينه وبين رؤية صاحبه تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجها إخراجا طريفا. والغزل في الأندلس يتشابه بقوة مع الغزل العربي الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا في غزلية لمفلسف الأندلس أبي بكر محمد بن طُفَيْل الذي تحدثنا عنه في نشاطها الفلسفي، إذ يستهلها على هذا النمط^(٤):

أَلَمْتُ وَقَدْ نَامَ الرَّقِيبُ وَهَوُمَا وَأُسْرَتْ إِلَى وَادِي الْعَقِيقِ مِنَ الْجَمَى^(٥)
وَجَرْتُ عَلَى تَرْبِ الْمُحْصَبِ ذَيْلَهَا فَمَا زَالَ ذَاكَ التَّرْبُ نَهْجًا مَقْصَا^(٦)
تَنَاقَلَهُ أَيْدَى التُّجَّارِ لَطِيمَةً وَيَعْمَلُهُ الدَّارِيُّ آيَانِ يَمْعَا^(٧)
وَلَمَّا رَأَتْ أَنْ لَا ظِلَامَ يُجْنِيهَا وَأَنْ سُرَاهَا فِيهِ لَنْ يَنْكُمَا^(٨)
أَزَاحَتْ غَمَامَ الْقَصَبِ عَنْ خُرُوجِهَا فَأَبَدَتْ شِعَاعًا يُرْجِعُ الصُّبْحَ مَظْلَمَا^(٩)
فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَالِهَا كَشَمْسِ الضُّحَى يَعْشَى بِهَا الطَّرْفُ سَاهِمَا

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسي لظنناه أمويا من شعراء نجد العنبريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبي تمام متخذين منها رموزا لإسباغ العنبرية والعفاف المتنازع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسي بدوره يتخذ تلك العناصر

(١) مغرب ٣٤٥/١.

(٢) ذباب السيف: حده القاطع.

(٣) ودق جمع أودق: ما لونه رمادي من الحمام.

(٤) مغرب ٨٥/٢ والمحب ص ٣١٦ وتحفة القادم رقم ٤٣.

(٥) هوم: مال رأسه في الناس. أسرت: سارت

لإلا. وادي العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف ونجد.

(٦) المحصب: موضع رمى الجمار بغير.

(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الداربي: العطار نسبة

إلى دارين: فرخة أو مرقا كان يحمل إليه قديما المسك من الهند. يمم: قصد

(٨) يجنيها: يسترها. سراها: سيرها لئلا.

(٩) القصب: العصاة على الرأس وطرف الوجه.

حر ظاهر.

رموزاً تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة في نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصب، وجعل التراب الذى يمر عليه ذيل ثوب صاحبه مسكاً، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولعل في ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماء مراراً في مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثاً عن ولع صاحبه بالمسك والتعطر به:

إذا التاجر الدارى جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقتها تجرى^(١)

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبه الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها منها صنعت، فأزاحت العصاية عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس في الصباح، بل إن ضوء الصباح ل يبدو مظلماً بالقياس إلى ضوئها، ولعله في ذلك نظر إلى قول أبي تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكسى نورا وتمشى فى الضياء فيظلم

وما يلبث ابن طفيل أن يخلق في خياله، إذ يتصور جمال صاحبه حجاباً لها يعشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا أنفاً عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبه حفصة الركونية. وملتقى في مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثرأه هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة^(٢) قضاها مع صاحبه في متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته^(٣) كما يقول ابن سعيد:

عَرَجَ بوادى العَسَلِ	وقف عليه وأسأل
عن ليلةٍ قطعناها	صُبْحاً برغم العُذْلِ
أرشفَ خمرَ الرُّبَى أو	أقطفُ وردَ الخَجَلِ
وقد تعانقنا اعتنا	قَ القُصْبِ فوق الجدولِ ^(٤)

المجارية والبساتين النظرة، ونهرها يرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حجاب مشرف على النهر والبحر في نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.
(٤) القصب: النضون.

(١) فأرة المسك: وعاءه. الدارى: العطار.
(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.
(٣) العرب ١/٣٢٠ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه

وَالشَّمْعُ فَمِنْهُ دَرْعُ الْقَدِيرِ كَسَوَالِي الْأَسَلِ^(١)
بَنَّا إِلَى أَنْ حَنَّا إِلَى النَّوَى بَرْدُ الْحَلِي

وابن أبي روح يمثل في البيت الأخير من المقطوعة ما جاء في كتاب الأمل في أن
عربية سُئِلَتْ كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلي. وهو يصور ليلة هنيئة له
قضاها مع صاحبة متعانقين يقطف من ورد الحجل ويحنيان معا من زهرات حبهما، وكأنما
كانت ليلة من ليالي العرس، فالشموع متقدة متألثة على سطح القدير وعادة يشبهه
العرب بالدرع لما تحدته الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين
شعراء الطبيعة^(٢):

وَوَاعِدُنَهَا وَالشَّمْسُ تَجَنُّحُ لِلنَّوَى	بَزَوْرَتِهَا لَيْلًا وَبَرْدُ الدُّجَى يَسْرَى
فَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى	وَطَوْرًا كَمَا مَرُّ النِّسِيمِ عَلَى النَّهْرِ
فَطُفِرَتِ الْآفَاقُ حَوْلِي فَاشْعَرْتُ	بِمَقْبَلِهَا وَالْعَرْفُ يُشِيرُ بِالزُّهْرِ ^(٣)
فَنَابَتْ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَجِيهَا	كَمَا يَنْقُصُ قَارِئُ أَحْرَفِ السُّطْرِ
فَبِتَ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى	تَنَبَّهَ بَيْنَ الْفَضْنِ وَالْحَقِيفِ وَالْبَدْرِ ^(٤)
أَعَانَقَهَا طَوْرًا وَاللَّيْلُ نَارًا	إِلَى أَنْ دَعَتْنَا لِلنَّوَى رَابِعُ الْفَجْرِ
فَفَضَّتْ عَقُودًا لِلتَّعَانِقِ بَيْنَنَا	فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ اتْرَكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

والمعاني والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها
النسيم العليل الذي يحیی النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال
الثرى تحت أقدامها طيبا ذكي الرائحة وهو ما ينبي يقبل مواضع خطوها، وكانت ليلة
سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت
ليلة القدر الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنحتها عن الكون، حتى يؤجل
الوداع ولو إلى حين.

ونلتقي بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكماله الأربعين صاحب كتاب زاد
المسافر في شعراء زمانه المتردد ذكره في الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

(١) الأسل: الرماح: عوالها: أطرافها القاطعة. (٣) العرف: الرائحة الطرية.
(٢) النفع ١٩٩/٣. (٤) الحقف: الكتيب من الرمل.

يا حُسْبَنَهُ والحُسْنُ بعض صفاته
بَثَّرَ لو أَنَّ البَدْرَ قَبيلَ له: اقترح
صاحِبُهُ وَاللَّيْلُ يُذَكِّي تحته
وَضَمَّتُهُ ضَمَّ البَغِيلِ لماله
أوثقته في سَاعِدِي كأنه
وأبى عفا في أن أَقبلُ تَفْرِهُ
فاعجبْ لملتهبِ الجَوَانِحِ غلّة

وَالشَّعْرُ مَقْصُورٌ على حركاته
أَمْلاً لِقَالِ أَكُونُ من هالاته
نَارَيْنِ من نَفْسِي ومن وَجَنَاتِي^(٢)
أَخُو عليه من جميع جِهَاتِهِ
ظِيٌّ أَخَافُ عليه من فَلَائِهِ
وَالْقَلْبُ مَطْوِيٌّ على جَمَرَاتِهِ
يَشْكُو الظُّمَاءَ والماءُ في لَهَوَاتِهِ^(٣)

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من حالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد في جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضعها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهي طوع يديه، وهو ظامئ ظمأ شديدا، والماء في أعالي حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب ويطفئ غلته. وعلى هذا النحو يردنا غزلون أندلسيون إلى نجد وغزها العنرى عند مجنون ليلى وأضرابه بثل هذا التصوير الرائع للصفات المتناع، بجانب ما استشعره من العناصر الهدوية وعرض صورها الهدية على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. ونلتقي في عهد الناصر الموحدي (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيَّة الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه، ومن غزله الطريف^(٤):

سَنَرَ الصُّبْحَ بِطَرَّةٍ وَجَلَا اللَّيْلَ بِغُرَّةٍ
كعبَةً لِلْحُسْنِ في كُلِّ فَوَادٍ مِنْهُ جَمَرَةٍ
جاءني كالظُّمِيِّ في أَشْرَاكِهِ إِذْ حَلَّ شَفَرُهُ^(٥)
وَمَضَى عَنِّي وَلَكِنْ بَعْدَ مَا خَلَفَ نَشْرُهُ^(٦)

ويقول علي بن حريق^(٧):

-
- (١) انظر في ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢٦٠/٢ ودايات المبرزين ص ١١١ والتكلمة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣٤٩/٣ ومقتطف كتابه زاد المسافر لهد القادر بمحاده.
(٢) يذكي: يضرم ويوقد.
(٣) لهوات جمع لهاة: أعل الخلق.
(٤) انظر المغرب ٢٤٠/١.
(٥) أشراك جمع شراك: حالة الصائد.
(٦) نشره: عطره.
(٧) المغرب ٣١٩/٢.

كَلَّمْنَهُ فاصْفُرْ مِنْ خَجَلٍ حَتَّى اكْتَسَى بِالصُّجْدِ الْوَرِقُ
وَسَأَلْنَهُ تَقْبِيلَ وَجْتِهِ فَأَبَى وَقَالَ: أَخَافُ أَحْتَرِقُ
حَتَّى زَفِيرِي عَاتَى عَنْ أُمْلَى إِنْ الشَّقَى بِرِيقِهِ شَرِقُ

وهو يشبه صفرة الحجل التي كست خد صاحبه بالصُّجْدِ أو الذهب ووجنتها بالورق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبه خشيت لو قبلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقى بريقه شَرِقَ أو غاصَّ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحيدين سهل بن مالك الذي مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلاً^(١):

ولما بدا ضوء الصباح رأيتها تنفض رَشَحَ الطَّلِّ عن ناغمٍ صَلَّتْ^(٢)
فقلت: أخاف الشمس تفضح سِرِّنا فقالت: معاذ الله تفضحني أختي

وسهل يتصور صاحبه زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضيء في الصباح ندى العرق، ويخوفها من إذاعة الشمس لسرها، وتطمئنه، فهي أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد^(٣) صاحب كتاب المغرب المبهوث في الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس^(٤):

وهبتُ فَوَادِيَ اللَّبَاسِ وَالْحَدَقِ وَحَكَمْتُ فِي جَفْنِي الْمَدَامِ وَالْأَرْقِ
وَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا الْوَفَاءَ لِفَادِرٍ وَبَالِهَتِي لِمَا وَفَّهَتْ لَهُ رَفَقِ
وَمِنْ أَجَلِهِ قَدْ رَقَّ جِسْمِي صَبَابَةً رِيا لَيْتُهُ لِمَا رَأَاهُ عَلَيْهِ رَقِ

ومنذ أواسط القرن السابع الهجري - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشر أن نبع الفزل الذي كان متدفقا في بلدان الأندلس أخذ يفيض وتفيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنيهم واحدة إثر أخرى في حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التي ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفعج ملبد بالقيوم. وطبيعي أن يعم الفزل في تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرها من محسنات الالطاف، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شيء من الوجد، ونشر داتا عندهم بغير قليل من التصنع وأنهم يبدنون ويعيدون في خواطر

الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى في الكلمة التي سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما في قصيدة لابن جُزَيٍّ من وجد قائلاً إنها من الغراميات التي سلك فيها مسلك مجنون ليلي، وربما كان أجمل ما فيها قوله: ^(١) تباعدتُ لما زادني القُربُ، لوعةً لعل فؤادي من جَواه يُفِيقُ ولا سلوةً تُرَجِي ولا الصبرُ ممكنٌ وليس إلى وَصل الحبيب طريقُ. شجونٌ يَضِيقُ الصُّدْرُ عن زَفَرَاتِها وشوقٌ نطاقُ الصبر عنه يَضِيقُ فياغاثها عن ناظرئٍ أما يَرى لشمسك من بعد الغروب شُرُوقُ

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلي من أصحاب الحب العنري، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتقد في أفئدة العنريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل في الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هي - لا الغزل ووجد المحب - الغاية في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى في قول ابن جُزَيٍّ ^(٢):

أُبَحِّ لِي يَا رَوْضَ المحاسنِ نظرةً إِلَيَّ وَرَدَّ ذَاكَ الخَدُّ كَتَّ لَكَ الْفِذَا وَبَاقَهُ لَا تَبْخُلْ عَلَيَّ بِقَطْفَةٍ فَإِنِّي عَهَدْتُ الرَوْضَ يَوْصَفُ بِاللُّندَى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - في الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويموج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المرحوم له في الفصل السابق - بالغزل، بل إنه يحوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسلج والجُرْعاء والعَذِيب والرقمتين والغزال والرُّيم والقياب والحيام والإبل المودعة. وحقا هذا كله يطبع به الغزلون الأندلسيون أشعارهم وصلا محكما لها بالشعر العنري ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحي متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندها من الرقة والوجد واللوعة وأيضا ما عندها من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجل ما نقرأ له في غزلياته قوله:

(١) الكتيبة الكائنة للسان الدين بن الخطيب (٢) الكتيبة الكائنة ص ٢٢٧.

هل البان يحكى من معاطفك القدا أو الورْدُ في توريدِه يُشبه الخدا
لقد أخطأ التشبيه مَنْ حَسِبَ السَّها يقاوم في آفاقه القمر السُّمدا
وهل لُحلى ليلي نظيرُ وإن هُم يظنون منها التقر قد أشبه العِقدَا
هي الغاية القصوى محاسِنُ لم تجد شبيهاً لها في الغانياتِ ولا نِداً

وهو يريد أن يقول إن قد ليلي أرشق من قد البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد
جمالاً وبهاءً، ومثلُ أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذي لا يكاد يبين سَناءه بالقياس
إلى ضوء البدر الذي يملأ الآفاق نوره، وثغرها في بهاضه وصفائه يشبه درر العقد المتلألئة.
وكل هذه التشبيهات مرت بنا في أخيلة بديعة تصور انبهار الغزلين بهجاء صواحيهن، وقد
أضعفها عنده أيضاً عرضها في صور من الاستفهام واقترانها بالمسبان والظن.
ولعله يحس بنا أن نتوقف قليلاً عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم:
الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد
وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرمادى^(١) الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مفرجوه إن نسبته
إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب في زمنه، يقولون: فتح الشعر بكندة
وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى في الجاهلية والمنتبهى والرمادى القرطبى الكنديين.
أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال في الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هي:
«أبوجنيس» ويبدو أنه كتاه بها أحد معاصريه على نحو ما مر في كُنَيَات وألقاب شعراء
آخرين مثل البليّنة أى الحوت. وقال ابن سعيد في المغرب إنه منسوب إلى رمادة من
قرى مدينة شلب في الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه
أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلاً لكنية: «أبى جنيس» الإسبانية أو

٢٠/٦٢ والذخيرة ١/٣٢٢ و ٢/١٤١ و ٣/٣٤٦،
٨٢١ و ٤/١٢٠ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى
عصر سيدة قرطبة للدكتور إحسان عباس
ص ١٥٥.

(١) انظر في ترجمة الرمادى وشعره الجذوة
ص ٣٤٦ والمطبع ص ٦٩ والهبة ص ٤٧٨
والصلة ص ٦١٣ والمغرب ١/٣٩٢ والمطرب لابن
دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٢/٢٢٥
والهبة ٢/١٤، ٩٩ وما بعدها وسجع الأدهاء.

الرومانية. لقيل: «أبو الرما» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب التوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميراً من بنى ذى النون الطليطيين. وأخذ يشتهر في الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان في المطمح إنه: شاعت عنه أشعار في دولة الحكم ورجالها سُدَّ إليهم سهامها فأوغرت عليه الصدور، وسجنه الحكم دهرًا، ثم رُدَّت إليه حريته بعد وفاته، وفي سجنه ألف كتابا عن الطير ختم كل حديث له في طائر بأبيات في مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمر في جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألماً لشاربيها. وفي أشعاره بعض خمریات وبعض غزل في الغلمان ولا ندرى أكان ينظم في ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشاركة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته في السقاة بمثل قوله:

فَنَحَبُ الْجَنَّةِ مِنْ جَنِّيهِ فَبُتْ فِي دَعْوَةٍ رِضْوَانٍ^(١)
مَرُوءَةٌ فِي الْحَبِّ تَنْهَى بَانَ يَجَاهِرُ اللَّهُ بِمِصْيَانٍ

وقوله:

وما بى فخرٌ بالفجور وإنما نصبُ فجورى الرُشْفِ والشَّفَتَانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنا. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شيء من مدائحه لها، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجنوة والمغرب والبيتهمة للتعالي تحتفظ جميعا بفزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البين في مثل قوله:

هُوَ ظَالِمِي لَكِنْ أَرِقُّ عَلَيْهِ مَنْ أَنْجِلَ اللَّحْظَ فِي خَدْيِهِ
أَعْفَيْتُ رِقَّةً وَجَنَّتْهُ مِنْ أَدَى عَيْنِي وَمَا أَعْفَيْتُ مِنْ عَيْنِهِ

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على خدود صاحبتة من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية في غزله، وهي البعد في التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالخدود، ولعله

(١) جيب الثوب: فتحة العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والتجمل الذى يلم بصاحبه فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غَدَا يَرْحَلُونَ فِيَا يَوْمُ رَسَدٍ لَكَ كُنْ بِالظَّلَامِ بَطِيءَ اللَّحَاقِ^(١)
وَيَا دَمْعَ عَيْنِي سُدَّ الطَّرِيقَ وَأَفْرَغْ عَلَيْهِمْ نَجِيعَ الْمَاقِي^(٢)
وَيَا نَفْسِي جَنَّهُمْ مِنْ أَسَامٍ وَقَسَابِلَهُمْ بِنَسِيمِ احْتِرَاقِ
وَيَا هُمْ نَفْسِي بِهِمْ كُنْ ظِلَامًا وَقَسِدَهُمْ عَنْ نَوَى وَانْطِلَاقِ
وَيَا لَيْلٍ مِنْ بَعْدِ ذَا إِنْ ظَفِرُ تَ بِالصَّبْحِ فَاقْذِفْ بِهِ فِى وَثَاقِ

فصاحبه سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يترث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القاتى، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نفسه الحارَّ بالحب وشراره أن يلفح الركب بلهبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هوم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلاقا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاهه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

عَلَى كَمْدَى تَهْبِى السَّحَابُ وَتَذْرِفُ وَمِنْ شَجْنِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتَفُ
فَالسَّحَابُ إِنَّمَا يَذْرِفُ دَمُوعَهُ لِمَا يَرَى مِنْ كَمْدِهِ وَهُمُّ وَضَاهٍ، وَالْحَمَامُ إِنَّمَا يَبْكِي وَيُنُوحُ لِمَا يَرَى مِنْ شَجْنِهِ وَحَزْنِهِ، وَمِنْ طَرِيفِ صُورِهِ الْفُزْلِيَّةِ قَوْلُهُ:

وَإِذَا أَرَادَ تَنْزُلَهَا فِى رَوْضَةٍ أَخَذَ الْبِرَاءَةَ بِكَفِّهِ فَأَدَارَهَا^(٣)

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تتمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فترى أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبه بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفتنا، فلا غرو أن يتفتن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

الأنف، وهو مجرى الدمع.

(١) رسلك: تمهل.

(٢) المراق: المرأة.

(٣) مرق العين: طرفها من جهة

الشريف^(١) الطليق المرواني

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعشق جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيخته من أبيه، فانتضى يوما سيفا وانتهز فرصة منه، فقتله، وكانت سنة إذ ذاك ست عشرة سنة، فزج به المنصور بن أبي عامر في السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفي قريبا من سنة أربع مائة. ويقول ابن حزم في كتاب الحلة السَّيَّاء: «أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعز في بني العباس ملاحه شعر وحسن تشبيه». ويقول في جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها في السجن وبنقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة في الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربي، وتمتله للصياغة الشعرية الرصينة الموقفة، مع العناية بالأخيلة والتساوير، من ذلك قوله متغزلا في قافية له مشهورة:

عُصْنٌ يَهْتَرُ فِي دِعْصٍ نَقَا	يَجْتَنِي مِنْهُ فُزَادِي حُرَقَا ^(٢)
أَطْلَعَ الْحَسَنُ لَنَا مِنْ وَجْهِهِ	قَمَرًا لَيْسَ يُرَى مُجِجَا
وَرَنَا عَنْ طَرْفِ رِيَمٍ أَحْوَرِ	لَحْظُهُ سَهْمٌ لِقَلْبِي قُوقَا ^(٣)
بِاسْمٍ عَنْ عِقْدٍ ذُرْ خُلْتَهُ	سَلْبَتُهُ لِسَنَاءِ الْعُنُقَا
سَال لَامُ الصَّدُغِ فِي صَفْحَتِهِ	سِيلَانُ الثَّيْرِ وَاقِي الْوَرَقَا ^(٤)

ونشر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة في نسق صوقي بلذ الأسجاع والألسنة، وحقا تشبيه قامة المرأة بالفصن النابت في كتيب نقا أو رملة متداول وكذلك تشبيهها بالقمر وبظلي أحور، وهي تسد السهام إلى قلوب

١- ابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كتيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبي. قوق: سُد.

(٤) الصدغ: الثمر المسدل بين الأذن والعين.

الورق: الفضة.

(١) انظر في ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السَّيَّاء ٢٢٠/١ والمغرب ١٩١/١ والحميدى ص ٣٢١ والبقية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفع الطب ٥٨٦/٣ وما بعدها والخيرة ٥٦٣/١ وما بعدها وجمهرة الأنساب

المفتونين بها وأيضاً تشبيه الأسنان في اللثة بمقود نر وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك رده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحور فيه تحويرات تروع قارنته. ومن غزله قوله:

وَدُعْتُ مَنْ أَهْوَى أَصِيلاً لِيَتَنَى ذُقْتُ الْجِمَامَ وَلَا أَذُوقُ نَوَاهُ
ووجدتُ حتى الشمس تشكو وجده والورقُ تندب شجوها بهواه^(١)
وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنها تلقى الذى ألقاه
وغدا النسيم مبلها ما بيننا فلذاك رَقَ هَوَى وطاب شذاه^(٢)
ما الرّوض قد مُرِجَتْ به أندأؤه سَحَرًا بِأَطْيَبَ من شَذَا ذِكْرَاهُ
ولذلك أولع بالرياض لأنها أبداً تذكّرني بمن أهواه

وهو يصور وجده والتياغه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس في وداعها للألق أصيلاً وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سُكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريجها العطر، وإن شذى ذكرها لصاحبه ليفوق شذى أى روض تفتتح أزهاره الندية سحرا، وهو ما يجعله صباً بالرياض إذ تمثّل عناصرها صاحبه له وتجمسها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائما نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولفته من صفاء وسلاسة.

ابن زيدون وولادة^(٣)

هو أبو الوليد أحمد بن عبادقه بن زيدون المخزومي الأندلسي ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ في بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لمهد الخليفة المستعين

عنه طبع دار المعارف ودوياته وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور عل عبد العظيم.

(٤) راجع في ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمغرب ص ٧ والوفاء للصدى ٢٥١/٤ ونفع الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(١) الورق: الحمام الرمادي اللون

(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.

(٣) انظر في ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والمحمدي ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمغرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشي ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والمربدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبنية رقم ٤٢٦ ومقدمي سرح العيون وقام المتن لرسائله الهزلية والمجدبة وكتابتها

(٣٩٩-٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثر، وعُنى أبوه بقربته إلى أن توفي سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه في شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الحليفة المستكفي من حب، وقد توفي أبوها سنة ٤١٦ وما توافى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية في قرطبة، ويتولى أبو الحزم جمهور مقاليد الحكم وجعله حكاماً شورياً ديمقراطياً من خلال مجلس كان يرجع إليه في سياسته وتدير شئون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله في حاشيته، ودُس عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك في مؤامرة ضد أبي الحزم جمهور، وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبو الحزم في السجن، واستعطفه برسائله الجدية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصمّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقاً له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيراً له، ويوفده في عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدير في سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبي الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطرباً ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيراً له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيراً لابنه المعتمد إلى أن يلبى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر في الأندلس، وله مدائح رائعة في أبي الحزم بن جمهور وابنه أبي الوليد والمعتضد عباد، وله أيضاً مرات بديعة. غير أن القطعة الأرجوانية في حياته وشعره هي كلفه بولادة وما نظمها فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلساً أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحياناً البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشّو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتْها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منابها، تخط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية في فرنسا اللاتي نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات مختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يمتز به من رجاحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها في الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، هن مثل مجلسها ومنتداهن على نحو ما مرُّ بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطى سير بن أبى بكر وممدوحة الشاعر الأعشى التطيلي، وكما سئرى عما قليل مثيلتها حفصة الرُّكُونِيَّة في عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللاتنى ترجم هن المقرئ واللاتنى ييلغن أربعة وعشرين كان هن يجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهى نمرة الحرية التى استتمت بها المرأة في الأندلس والتى أشرنا إليها مراراً. وينبغى أن نفرق دائماً بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاًتها في الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُدن في المجتمع الأندلسى نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاًتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداهن الفقى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظباً على ذلك أياماً وشعر أنها تؤثره، فوقعت في قلبه كما وقع في قلبها، واتصل بينهما الود، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترُقُبْ إذا جُنَّ الظلُّمُ زيارتي فإني رأيتَ الليلَ أكنمُ للسُّرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلج وبالهتِر لم يَطْلُع وبالنجم لم يَسِرْ

واتصل بينها اللقاء في منتداهن وفي حدائق قرطبة، تغمرها نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الفلزين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلُ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقِيَ
تمرُّ الليالى لا أرى البينَ يَنْقُضِ ولا الصبرُ من رِقِّ التشوُّقِ مُعَيِّقِ

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جعيم هجرها وبُعدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مفازلته لإحدى جوارها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض

شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ في حقها أو في حق شعرها خطأ كبيراً. ويقال إنها صَبَتْ إلى أديب نابغ ثرى ممن كانوا يختلفون إلى منتداهما هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخراً منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفع عنه، وظل مبعدا محروما. وغزله فيها - كما صورنا ذلك في كتابنا عنه - يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرّة عينه ويستمد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقه والالتئاع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتسئس الباكي النادب لحظه. وغزله يعدّ في الذروة من الغزل العربي وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيها من لوعاته المحرقة المضطّة، ومن أروع قصائده الغزلية في صاحبه قافيته التي يستهلها بقوله:

إني ذكركُ بالزُّهراءِ مُشتاقاً والأفقُ طَلَقٌ ومَرأى الأرضِ قد راقاً

وهو يذكر منتداهما في قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتفره اللوعة واللهفة على لقائهما ويشرك الرياض التي طالما جاسا معا خلالها وتجولا بين أشجارها وأزهارها وطيرها ومياهها في أحاسيسه ومشاعره. وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أضحى الثنائي بديلا من تدانينا ونابّ عن طيب لُقيانا تجافينا
حالت لبعدكم أبا منّا ففقدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
بالأمس كنا وما يُخشى تفرقنا واليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
يا جنة الخلد أبدينا بسلسلها والكوتر العذب زقوماً وغسلينا^(١)

والقصيدة تكتظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذي دفعه إلى مفادته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسלוه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمرا طويلا ولم تزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها في تاريخ الشعر العربي وتاريخ المرأة الأندلسية.

(١) السلسل: الماء العذب. الكوتر: نهر في الجنة. أهل النار. الزقوماً والفيلين: طعامان من أطعمة

ابن الرُّقَاق^(١) اللُّخْمِي

هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية اللخمي البلسي المعروف باسم ابن الرُّقَاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسي المشهور ابن خفاجة، رُزِقَ به أبوه في أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، ويصل بعض مترجيه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفي نفع الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكب فيه على صناعة الرُّقَاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلا يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده في أمير بلنسي ثلاثمائة دينار، فأقى بها إلى أبيه ووضعها في حجره، وقال له: اشتر بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الرُّقَاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أى صلة برُّقَاق الحمر وأن هذا الأب أو الجَد لقب «رُقَاقا» لسمته الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديراني بحققة ديوانه. وعُني الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطليوسي وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء في بلدته. وامتدح بعض الكبراء من بني عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة وبحبي بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد علي بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يدح أميراً أو كبيراً، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا في شعره من مثل قوله:

أنا من تمنته الملوك فلم أعجج منها على ذى طارفٍ وتلاذ^(٢)

فالملوك لزمته كانت تمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمتع عليهم لإباء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفي الديوان مرثا مختلفة وبينها مرثية حارة في سيدة

(١) انظر في ترجمة ابن الرُّقَاق وشعره المغرب ٣٢٣/٢ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفع ١٩٩/٣ ٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديراني (طبع دار الثقافة

بيروت) ومقتضاها له وما بها من مصادر. (٢) أعجج من عاج؛ التضن. تلاح: قديم ضد طارف.

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بتجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لها وعاطفته الأبوية نحوها بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفاً إلى النشوة بها النشوة بالخمر، ومن بواكير غزله قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسِ جَدِّ ما لها مَغْرِبُ	أرَامَةُ جِذْرِكَ أَمْ يُشْرِبُ ^(١)
ذهبتِ فاستعبرَ طَرْفِي دَمًا	مَفْضُضُ الدَّمْعِ به مُذْهَبُ
ناشدْتُكَ . اللَّهُ نَسِيمَ الصُّبَا	أَتَى اسْتَقَرَّتْ بَعْدَنَا زَيْنُ
لَمْ تَسِرْ إِلَّا بِشَذَى عَرَفِهَا	أَوَّلًا فَمَاذَا النَّفْسُ الطَّيِّبُ ^(٢)
إِسِيهِ وَإِنْ عَذَّبَنِي حُبُّهَا	فَمَنْ عَذَابِ النَّفْسِ مَا يَعْذُبُ

وتتضح في هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التي أشار إليها أبو الوليد الشقندي في بيانهِ براءة الأندلسيين في الشعر، وهي أن ابن الزقاق يتناول في أشعاره الصور والأخيلة التي تداوُلها الشعراء قبله مراراً وتكراراً حتى غدت كالنوب الخلق البالي، فإذا هو يبت فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغرباً في ذلك أحسن إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح في تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبه في البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة في خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبه؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل في النسيم ذاته بدليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِّ الرِّيحَ عَنْ نَجْدٍ تَخْبِرُكَ أَنَّهَا	مَعطُورَةُ الأنفاسِ مُذْ سَكَنْتْ نَجْدًا
وَأَنَّ الْفَضَا وَالسُّنْدُ مَذْ جاورَتْهُمَا	بَطِيبٌ شَذَاها أَشْبَها البانَ والرُّنْدَا

فصاحبه منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الفضاء والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التي طالما ذكرها الفزولون واستدارت من حولها في أخيلتهم هالات الجبال لمحبي باتهم. ومن قوله في مقدمة إحدى مدائحه:

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يقرب: (٢) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة. المدينة.

ولقد مررتُ على الكتيب فأرَزَمْتُ إبلى ورجعتِ الصَّهْلَ جِيادِي^(١)
 ما بين ساحاتٍ لهم ومعاهدٍ سَقَيْتُ من العَبْرَاتِ صَوْبَ عِيَادِي^(٢)
 والوَزْقُ تهتف حولهم طرباً بهم وبكل مَخْنِيَةٍ ترنم شادي^(٣)

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصاحبه وراء الكتيب وحوله، حتى الإبل جمدت في مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهي لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهن ومعاهدهن أن تظل تُسْقَى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنيته لفراق صاحبه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لطن طرباً. وتكثر في غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله في وصف دقة الحَصْر:

أسائلها أين الوشاحُ وقد أتت مُطَلَّةٌ منه معطرة النُشْرِ
 فقالت وأوتت للسوار نقلته إلى مَقْصِي لما تغلغل في خَصْرِي

وقوله:

وقفتُ على الربوعِ ولى حنينُ لساكنهنَّ ليس إلى الربوعِ
 ولو أني خَنَنْتُ إلى مَفَانِي أَجْبَانِي خَنَنْتُ إلى ضُلُوعِي

وقوله:

تعاذُرُ من عمود الصبحِ نوراً مخافةً أن يُلْمَ بنا افتضاحُ
 ولم أرَ قَبْلَهَا واللَّيْلُ داجٍ صَاحاً بات يَدْعُرُهُ صَاحُ

والتعبير عن نحول الحصر بنقل السوار إليه تعبیر طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعاً لمحبوباته، وتصويره لما جال في نفس صاحبه من خوف بل من دعر حين أخذت تتفَلَّت في الأفق تباشير الصباح، ويعجب لغزع صباح إنسى من صباح كوني. وقد توفي ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفي للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

(١) أرزمت: حنت.

منه.

(٢) الورق: الحمام. مَخْنِيَة: منعطف.

(٣) العهد: المظفر أول الشتاء. ومروبه: السافط

أبو جعفر^(١) بن سعيد وَحَفْصَةُ الرُّكُونِيَّةُ

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة في إقليم غرناطة نسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة في نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجري استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها في نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة في الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولاته لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبي جعفر أحمد وزيرا له يدير معه شئون القلعة، وكان شاعرا وفي ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب ملو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهوى مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولائها له رأيناه يقد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبي سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للأدب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيرا أدبيا من أهلها يستعين به ووصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستغفیه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب و ثراء هي حفصة الرُّكُونِيَّة، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعا مكانة رفيعة في بلدتها، وبلغ من مكانتها أن تقد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

ياسيد الناس يامن	يؤمل الناس رفدَه
امنن علي بطرس	يكون للدهر عدَه
تخط يمنناك فيه	الحمد لله وحده

مشيرة بالشرط الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

ص ١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص ٢٢٠
والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفع
١٧١/٤ - ١٧٩.

(١) انظر في ترجمة أبي جعفر بن سعيد وشعره
المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفع
١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع في ترجمة حفصة وأشعارها
المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب

بخط يده في رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذي تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جمالها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبي جعفر، ولا بد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجنون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتنا من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء في قصورهن، وفي الحدائق والرياض، إذ كن أحيانا يمضين فيها بعض الليالي مع من يهوهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة في بستان بمتنزه يسمى «حُور مؤمل» عيقة في نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى اللهُ لَيْلَا لَمْ يَرْخُ بِمَنْعِهِمْ عَشِيَّةً وَارَانَا بِحُورٍ مُؤْمِلٍ
وَقَدْ خَفَقَتْ مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرْجِيَّةٌ إِذَا نَفَعَتْ هَبَّتْ بَرِيًّا الْقُرْفُلُ
وَعُرْدُ قَمَرِي عَلَى الدَّوْحِ وَانْتَشَى قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ مِنْ فَوْقِ جُدُولِ

فهو يدعو لليل الذي نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التي تحيي القلوب أن يسبح الله دائما عليه رعايته. وتجيبه:

لَمْرَكَ مَا سَرُّ الرِّيَاضِ بَوْصِلْنَا وَلَكُنْمَا أُيِّدَتْ لَنَا الْفُلُ وَالْحَسَدُ
وَلَا صَفَقَ النَّهْرُ ارْتِيَا حَا لِقَرْنَا وَلَا غُرْدُ الْقَمَرِي إِلَّا لِمَا وَجَدُ

وكأنها تحدث عن حسد الناس لها وأنها لن يتركوها ينعمان بحبها، ويقطفان من أزهاره ما يمن لها وما يمتنان به روحها، واتصل بينهما الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أَزُورُكَ أَمْ تَزُورُ فَإِنْ قَلْبِي إِلَى مَا تَشْتَهِي أَبَدًا يَمِيلُ
فَعَجِّلْ بِالْجِسَابِ فَمَا جَمِيلُ أَتَأْتِكَ عَنْ بُيُوتَةِ يَاجْمِيلُ

وهي تشير إلى حب جميل لبثينة حبا عذريا شاع ذكره في بوادي نجد والحجاز لعصر بني أمية. وأجابها مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أَجَلُّكُمْ مَادَامَ بِي نَهْضَةٌ عَنْ أَنْ تَزُورُوا إِنْ وَجَدْتُ السَّيْلُ
مَا الرُّوضُ زَوَارًا وَلَكُنْمَا يَزُورُهُ هَبُّ النِّسَمِ الْعَلِيلُ

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التي ملكت قلب صاحبها وغلبت له، وإنما يزوره عصر الدول والإمارات (الأندلس)

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأرجحه. ويبدو في أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتتشده ملناعة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غيرتها عليه:

أغار عليك من عيني ومنى ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خباتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

فهي تغار عليه غيرة لا تقاها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيط به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعت وراء جفونها في عيونها إلى يوم القيامة ما كفها. وبينما هي تتم بهذا الحب مع أبي جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان في غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقها المفروش بالورود والرياحين، وتغشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه في يوم عيد كاتبة إليه:

يا ذا العلا وابن الخلية غية والإمام المرتضى
يَهْنِكَ عَيْدٌ قَدْ جَرَى مِنْهُ بِمَا تَهْوَى الْقَصَا
وافاك من تهواه في طُوع الإجابة والرضا

يمتلئ قلب عثمان على كل من العاشقين مودة وغيظا، وتزیده الوشايات مودة على مودة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين في ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرّها في نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فَقُلْ لحريصٍ إِذْ يرانى مَقِيدًا بِخِدمته لَا يُجْمَلُ البَازُ في القَفْصِ

ووات عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخا أبي جعفر عبد الرحمن فرّ إلى ابن مردنیش النائر في شرقي الأندلس على الموحدین، ويبدو أن أبا جعفر فكر في الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقُتل صبراً في مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. ويكنه حفصة طويلا وتنبته ندبا حاراً وليست عليه السواد، وهجرت غرناطة لفرعها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدین يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها في قصره معلماً لفتياته، وتظل معززة مكرمة في عاصمة الموحدین إلى أن لبت نداء رها سنة ٥٨٦ للهجرة.

هو أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المري، ولد في نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفي سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن في نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم في مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا في الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوي، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى في أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمر غرناطة، ولعله عمل كاتباً مدة في دواوين المرية ببلدته التي كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذكر في ترجمته أنه تَخَلَّى عن الكتابة، حتى إذا طُلِب إليه أن يعود إليها أنشد:

تَقْضَى فِي الْكِتَابَةِ لِي زَمَانٌ كَشَانِ الْعَبْدِ يَنْتَظِرُ الْكِتَابَةَ

وكتابة العبد التي يشير إليها هي أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسطاً، فإذا آذاه صار حُرّاً، وهو يقول إنني قضيت في الكتابة زماناً غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل في الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استغنى منها فأعفى، وبذلك رُدَّت إليه حريته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبداً. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح في كتابه: «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذي اجتاح المرية في عامي ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفي أسبابه. وله في التاريخ الأدبي كتاب مزية الرؤية على غيرها من البلاد الأندلسية، وله في اللغة كتاب سباه: «إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجع دراسة عنه للمسنقة الإسبانية سولداد خيرت في كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكي (طبع دار المعارف) ص ٩٧.

(١) انظر في ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ٢٣٩/١ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ وتثير فرائد الجمان لابن الأحرر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت - رقم ٢٠ ودرة المجال لابن القاضي (طبع الرباط) ٤٠/١ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص ٧٢ ونفع الطب في مواضع

«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السُّؤال». وله في الأدب رسالة صغيرة في «الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل» وكتاب «رائق التحلية في فائق التورية» وليس دراسة في التورية وإنما هو أشعاره الذي صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

توديان ابن خاتمة في نحو مائتي صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم في المدح والثناء، وقسم في التشبيب والغزل، وقسم في الملع والفكاهات، وقسم في الوصايا والحكم، ونهضة كبيرة من الموشحات استقرت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو في نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية في الحب، إنما هي محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم في هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربي، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أساء الموضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تَهَبُ نُسَيْمَاتُ الصَّبَا مِنْ رُبَى نَجْدٍ	فَيَنْفَعْنَ عَنْ طَيْبٍ وَيَتَبَقْنَ عَنْ نَدٍّ ^(١)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُنَّ يَجْلُنَ فِى	مَعَاهِدِنَا بَيْنَ الْأَثِيلَاتِ وَالرُّنْدِ ^(٢)
مَعَاهِدُ نَهَوَاهَا وَتَنْهَى لِقَاءَنَا	بِهَا قَدْ مَضَى حَكْمُ الْعَفَافِ عَلَى الْوُدِّ
وَفِي الْقُبَّةِ الْبَيْضَاءِ بَيْضَاءُ لَوْدَتِ	لشَمْسِ الضُّحَى يَوْمَ الْحَارَتِ عَنِ الْقَصْدِ ^(٣)
تَطْلُعُ عَنْ صُبحٍ مِنَ الْوَجْهِ نَهْرٌ	وَتَقْرُبُ عَنْ لَيْلٍ مِنَ الشَّمْرِ مُنَوَّدٌ

ونسيج الصياغة في الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعاني والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما المخذ كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعقد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبه تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء في زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال في كثير من جوانبه إلى

(١) الند: عود عطر الرائحة. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.

(٢) الأثيلات تصغير الأثلاث: من أشجار البادية. (٣) حارت: رجعت.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر في جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتُ على حَنَرٍ من الرُقْبَاءِ وَاللَّيْلُ مَلْتَفٌ بِفَضْلِ رِدايَ
تَصِلُ الدُّجَى بِسَوَادِ قَرَعٍ فَاحِمٍ لِتَزِيدَ ظِلْمَاءَ إِلَى ظِلْمَاءِ
فَوَشَى بِهَا مِنْ وَجْهَيْهَا وَحَلِيهَا يَبْرُ الدُّجَى وَكَوَاكِبُ الْجَوَايِ
أَقْسَمْتُ لَوْلَا عَفَّةُ عُذْرِيَّةٍ وَتَقَى عَلَيَّ لَهُ رَقِيبٌ رَائِي
لَتَنَقَّتْ غُلَّةَ لَوْعَتِي بِرُضَائِهَا وَنَضَحْتُ وَرَدَ خُدُودَهَا بِبِكَائِي

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف في المقطوعة على نحو ما نرى في الشطر الثاني من البيت الثاني، والصور في البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذي مهد به لعفته وتقاه الذي يراقبه في حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد في الغزل. ويخف هذا التكلف في موشحاته بحكم القصر الشديد في شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التي تلاحظ بوضوح في كثير من أبيات شعره.

٢

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة في سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومنتزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك ففتنوا بمقاتها ومشاهدتها دائما بائين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبيهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون القتال. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك في مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر في قسمين متقابلين كما صنعنا في حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

متمزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنها معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في تلك الديار بمقطوعة له في وصف نخلة بستان قصره في قرطبة المسمى منية الرصافة، وهي تمضى على هذا النمط^(١):

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ: شَبَّهْنِي فِي التَّغْرِيبِ وَالتَّوْبَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنِ بَنِي وَعَنْ أَهْلِ
نَشَأْتِ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي

وكأن هذه النخلة رمز العرب هناك، وكأن هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين ماثوث في هذه النخلة الغريبة التي نقلها العرب إلى تلك الديار الثابتة القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون في وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيناتهم ومشاعرهم وأخيلتهم ما بث فيه الحياة والحياة على نحو ما نجد في هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاب لما يستشعره الشاعر الأندلسي من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون في الخمر وخاصة أبا نواس، ومن حاول محاكاته ميكرا يحيى الغزال الذي ترجنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبي نواس تصور مغامرة له في حان من حانات الخمارين وفيها يقول^(٢):

وَلَمَّا أَتَيْتُ الْحَانَ نَادَيْتُ رَبَّةً فَنَابَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوِ نِدَائِي
فَقُلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَهَا طَرَحْتُ عَلَيْهِ رَيْطِي وَرِدَائِي^(٣)

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجدد، فكثير من شعر الخمر - لا في الأندلس وحدها بل في كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبي نواس على سبيل الفكاهة في المجالس، ومثل ذلك ما يقال في وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

(١) الحلة السراء ٣٧/١.

(٢) الرميطة: التوب الرقيق تحت الرداء.

(٣) الديوان ص ٤٣.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح في قطع مفازة ليلاً^(١):

ومخوفة تنهى مخافتها نوم الفتى ذى البرية الندب^(٢)
للجن في أجوازها لفظ بالليل مثل تنازع الشرب
وترى بها جون النعام إذا أشرفن كالمهتمة الجرب^(٣)

وهو يصف سُرى الليل في فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلاً ذو الرمة في وصف الفلوات ليلاً وعزيف الجن بها الذى يشبه كما يقول عباس بن ناصح لفظ الشرب، ويشبه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسى في القرن الثالث الهجرى وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه في وصف نهار ممطر^(٤):

نهارٌ لاح فى سربال ليل فما عُرِفَ الرواح من الكور
وعين الشمس تزو من بعيد رنو البكر من خلف الستور

فالسحب منعقدة فى السماء والجو مظلم، ولا يدرى ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه ياكرون أو مبكرون صباحاً قبل طلوع الشمس أو هم رانحون أو راجعون، وأحياناً تترامى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفى وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلاً واستحياء. وتتقدم فى القرن الرابع الهجرى ونلتقى ببيحى بن هذيل وله أشعار كثيرة فى الربيع وأزهاره. وله فى وصف حمامة وأنيها محزونة لفراق صاحبها أو هديلها^(٥):

ومرنة والدجن ينسج فوقها بُردَيْن من طل ونوء بال^(٦)
مالت على طى الجناح وإنما جعلت أريكتها قضيب أراك^(٧)
وترنمت لحنين قد حلتها وترنمت لحنين قد حلتها
ففقدت من نفسى لفرط تلهى نفس الحياة وقلت من أبكالك

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجاً فوقها

(٤) الذخيرة ٧٧٩/١.

(٥) الذخيرة ٣٤٦/٣.

(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء.
النوء: المطر.

(٧) الأريكة: المقعد قضيب: غصن.

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس
لابن الكنانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.

(٢) ذو الرمة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.

(٣) جون: سود. المهتمة: الإبل المطلية بالهنا.

وهو القطران.

رداءين من ظل ومطر تذرّفه السحب، وهي محزونة قد مال رأسها على طى الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعدًا، وشجاها فراق صاحبها فهي تترنم ببناء ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبه حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكى من حُرْق هواه بصاحبته، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن في الهوى سواء. وتكثر أشعارهم في الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد، ولسميع بن فرج في الرد عليه قصيدة يقول فيها: ^(١)

أزعمت أن الوردَ من تفضيلِهِ خَجَلُ وناحلِهِ الفضيلَةُ عائدُ
إن كان يَسْتَحْيى لفضلِ جَمالِهِ فحيَاؤُهُ فيه جَمالُ زائدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيد جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادى ضيفا على صُحب له في مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجانة في الجنوب الشرقى، فتعجب من وجود الورد في وادى آش شتاء، فقالوا له إنه من بجانة، فأخذ إلى الصمت ولم يلبث أن لثما وأنشد ^(٢)

يا خُدودَ الحُورِ فى إخجالها قد علّتها حمرةً مكتسبةً ^(٣)
اغتربنا أنتِ من بجانةٍ وأنا مغترِبٌ من قُرطبة
واجتمعنا عند إخوان صفاً بالندى أموالهم مُتَهَبه
إن لثمى لك قدامهم ليس فيه فِعْلةٌ مستغرِبة
لا اجتماعٍ فى اغترابٍ بيننا قَبْلَ المغترِبِ المغترِبه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متماثلان في الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيأضا. وكان للنصور بن أبى عامر الحاجب ثلاث جوارٍ ساهن بأساء الأزهار: بهار ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

(١) الحميدى ٢١٢.

بريس - طبع الرباط) ص ١٢٢.

(٢) البديع في وصف الربيع لأبى الوليد
إساعيل بن عامر الحميرى (تحقيق هنرى

(٣) المحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

الجزيري يجعل كلا منهن تخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار في مقطوعات^(١) شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق في نفس قصيدته الفريدة السالفة في ترجمته^(٢):

وَعَمَامٍ هَطَلِ شُؤْبُوهُ نَادَمَ الرُّوضُ فَغَنَى وَسَقَى^(٣)
فِي لَيْالٍ ضَلَّ سَارَى نَجْمُهَا حَانَرًا لَا يَسْتَبِينُ الطَّرْقَا
أَوْقَدَ الْبَرْقُ لَهَا بِضَابَحَهُ فَانْتَشَى وَجْهَهُ دُجَاهَا مُشْرِقَا
وَشَدَا الرُّعْدُ حَنِينًا فَجَرَّتْ أَكْوَسَ الْمَرْزِ عَلَيْهِ غَدَقًا^(٤)
وَعَدَّتْ تَحْنُو لَهُ الشَّمْسُ وَقَدْ أَلْفَحَتْهُ مِنْ سَنَاها نُفْرَقَا^(٥)

وقد بثَّ الشريف الطليق في الفهام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق في ليلة داجية، أسمى النجم فيها حائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحها، فاستحال وجهها الداجي المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويفق، فجرت أكوس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأصبح، فرأت الشمس ما أصاب الفصون وبعض الأزهار من المطر المنهر ليلا، فعمطت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضونها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدَّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الحمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم في هذا العصر الأموى من أشعار له في الخمر، غير أنها في مجلتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له في الخمر أشعارا فيها شيء من الطرافة للمكانة الخيالية الخصبه من مثل قوله في نفس القصيدة السالفة:

رُبُّ كَأْسٍ قَدْ كَسَتْ جُنْحَ الدُّجَى نُوْبَ نُوْرٍ مِنْ سَنَاها يَفْقَا^(٦)
بَثَّ أَسْقِيهَا رَشًا فِي طَرَفِهِ سِنَّةٌ تُسَوِّرُ عَيْنِي أَرْقَا^(٧)
خَفِيَّتْ لِلْعَيْنِ حَتَّى جِلَّتْهَا تَتَقَى مِنْ لَحْظِهِ مَا يُتَقَى

(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.

(٥) الترق: الطنفة من القطيفة أو الصوف.

(٦) الأبيض البق: الناصع البياض جنح: ظلام.

(٧) الرشا: ولد الظبية.

(١) راجع هذه المقطوعات في الذخيرة ٤٧/٤

وانظر في ترجمة الجزيري الجفوة ٢٦١ والمطعم ١٣

والصلة ٣٥٠ والمغرب ٢٢١/١.

(٢) الحلة السيرة ٢٢٣/١.

(٣) شؤوب المطر: أول دفعة منه.

أَشْرَقَتْ فِي نَاصِعٍ مِنْ كَهْ كُشْعَاعِ الشَّمْسِ لَا قَى الْفَلَقِ^(١)
 طَلَعَتْ شَمْسًا وَقُوهُ مَغْرِبًا وَيَدُ السَّاقَى الْمَحْيَى مَشْرَقًا
 فَإِذَا مَا غَرِبَتْ فِي فَمِهِ تَرَكْتُ فِي الْخُدِّ مِنْهُ شَفَقًا

والاستعارات في الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشاً عيناه ذا بلتان كأن بها سنة من النوم، وإن فتورها وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرى، وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقى مشرقاً لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب في فم الرشأ أو فم صاحبه. وكل ذلك فيه أصداء من خمرات أبي نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقى مشرقاً وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبه تتحول في الخد منها شفقاً. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطلوسى الأرض في الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول^(٢):

تَبَدُّ لَنَا الْأَرْضُ مَزْهُوَّةً عَلَيْنَا بِيَهْجَةِ أَتَوَابِهَا
 كَأَنَّ أَزَاهِرَهَا أَكُوسٌ حَوْنَهَا أَنَامِلُ شُرَابِهَا
 كَأَنَّ الْفُصُونَ لَهَا أَذْرُعُ تَنَاوَلَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهَا
 كَأَنَّ تَعَانِقَهَا بِالْجَنُوبِ تَعَانِقُ خَوْدِ لَأْتِرَابِهَا
 كَأَنَّ تَرَقُّرُقَ أَجْفَانِهَا بُكَاهَا لَفَرْقَةٍ أَحْبَابِهَا

فالأرض قد ازدهت بأهيج أتوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كؤوس في أنامل الشارين قدما لهم أذرعها من الفصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الفصون عناق خَوْدٍ أو شابة فانتة لأترابها الفاتنات، ويتلفت فيجد الندى على وجنات الأزهار وفي عيونها فيقول إن الدموع تترقرق في أجفانها لفرقة أحبابها. ونلتقى بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموى، وله في زيارة دَيْرِ أَيَّامِ شِبَابِهِ مع صحبه في طلب الخمر واللهو^(٣):

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ خَمْرَ الصَّبَا مُرَجَّتٍ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
 فِي فَتْيَةٍ جَعَلُوا الرِّقَاقَ بَكَاءَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَخَشَعًا لِكَبِيرِهِ

المتمس رقم ٧٦٢.

(٣) الديوان ص ١١٥.

(١) الفلج: الصباح.

(٢) ابن الككاش ص ٤١ والبديع في وصف الربيع

ص ١٤ وانظر في ترجمة الفقيه الحميدى ٢٠٦ وبهذه

يَهْدِي إلَيْنَا الرَّاحَ كُلَّ مُقَصِّرٍ كَالْخَيْشَفِ خَفَرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرُهُ^(١)
وَتَرَنَمَ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَفَتَحَتْ مِنْ عَيْنِي لِرُجْعِ هَدِيرِهِ

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه في حانة دير اصطفت فيها الدنان وأخذوا يعبون من الخمر متخذين من زقاقها متكئا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغللمان الدير يدورون عليهم بكتوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودق ناقوس الكنيسة في الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتاني المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلمهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا في الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط في الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا في غير هذا الموضع - نشاطا عظيما.

ونضى إلى عصر أمراء الطوائف وتلتقى في أوائله بأبى عبد^(٢) اقه محمد بن السراج شاعر بنى حمود بالقة في الجنوب الشرقى للأندلس على البحر المتوسط، وكان صبا بمن اسمها حُسن الورد وله فيها وفي الورد وفي الطائر المسمى حُسُونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذَكَرْتُ بِالْوَرْدِ حُسْنَ الْوَرْدِ شِقَّتَهُ حُسْنًا وَطَيْبًا وَعَهْدًا غَيْرَ مَضْمُونٍ
هَيْفَاةً لَوْ بَعَثَ أَبَايَ لِرُؤُوسِهَا بِسَاعَةٍ لَمْ أَكُنْ فِيهَا بِمَقْبُورٍ
فَاشْرَبْتُ عَلَى ذِكْرِهَا خَمْرًا كِرْبَقَتِهَا وَخُصْنِي بِهَوَاها حِينَ تَسْقِينِي

فورد الربيع على أغصانه يذكره باسم صاحبه وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنُو للورد طيبا وحسنا وقصرا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التى نعم فيها بقرها. وكان يزامله في مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقَاتِلَا وسنخصه بكلمة وتلتقى

(٢) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والنجية رقم ١٤٤ والمغرب ١/٤٣٤.

(١) مصفر: مصبوغ بالمصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاء من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.

بأبي عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح الذي ألفه للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله في وصف الخمر^(١):

خمرة ماتت زماناً بحجاب يَغْتَوِيها
لبثت في بطن أم غَمِيَّتْها عن بَيْعِها
أَلَحَدَتْها الدُّنْ ذَهْرًا ثم عاد الرُّوحُ فيها
فانبرى منها سراج رائق مَنْ يَجْتَلِيها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب ذنبا أو سدا، ويزعم أنها ظلت في بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنها من الكتوس، وما زالت الدن مدفونة، أو عبارة أدق ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قُلِّر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها حين وُضِع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره في إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع في وصف الربيع الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني، وهو أحد مصادرنا الموثوقة في الموشى، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين في صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون في الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة في مائة وستين صفحة، مما نظموا فيها. ولابن عمار أبيات في الخمر والطبيعة اشتهرت قَدَم بها مدحة للمعتضد عباد، وهي تمضى على هذا النمط^(٢):

أدبر الزُجاجة فالنسيم قد أنبرى والنجم قد صَرَفَ العِنانَ عن السرى
والصُّبح قد أهدى لنا كافورة لما استردَّ الليل مِنَّا القنبرا
والروض كالْحَسَناء كساء زهره وشيا وقلده نداء الجوهرا
روض كأن النهر فيه معصم صافٍ أطلَّ على رداء أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنها تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت في مكانه لا يريم، واسترد الليل المريح الذي قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضيائه المشرق، وتبرج الروض في وشبه وجواهره، وكأن النهر الذي يجرى فيه معصم صاف متلألئ بجياحه يشرف

على بساط بل على رداء سُندسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة في مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف في المعتضد:

أَتَدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطَرِ النَّدى وَالَّذِى فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى
وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونغضى إلى عصر المرابطين، ونلتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة في الأزهار: النرجس وغيره وفي الحمر ومجالسها، ومن قوله في النارجج^(١):

أَجْمَرُ عَلَى الْأَغْصَانِ زَادَتْ نَضَارُهُ بِهِ أَمْ خَدُودُ أُرَبَّرَتْهَا الْهُودُجُ
كُرَاتُ عَقِيقٍ فِي غُصُونِ زَبَرْجِدٍ بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ
نَقَلَهَا طَوْرًا وَطَوْرًا نَشْمَهَا فَهِنَّ خَدُودُ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ

وابن سارة لا يدرى أرى على الأغصان جرا ناضرا أم خدودًا لحسان نومض من بعيد على الهوداج، بل هي كرات من عقيق أحمر تتوج غصونا من زبرجد أخضر، بل هي صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالي أشجارها حتى إذا تناوَلها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طورا خدود وطورا نوافج ملك ذكى الرائحة. ولهم شعر كثير في الفواكه والثمار نكتفي منه بهذا المثال. ولأبى طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعلیمی خربة نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها^(٢):

وَحُمَارٍ أَنْخَتْ بِهِ مَسِيحِي رَخِيمِ الدُّلَى ذَى وَتَرٍ فَصِيحٍ^(٣)
سَقَانِي ثُمَّ غَشَانِي بِصَوْتِ فِدَاوَى مَا بَقَلْبِي مِنْ جُروحِ
وَفَضُّ فَمِ الدَّنَانِ عَلَى اقْتِرَاحِي فَفَاحَ الْبَيْتِ مِنْهَا طِيبُ رِيحِ
فَقُلْتُ لَهُ لَكُمْ سَنِيَّةٌ نَرَاهَا فَقَالَ: أَظْنَهَا مِنْ عَهْدِ نُوحِ
وَلَمَّا أَنْ شَدَا النَّاقُوسُ صَوْتَا دَعَانِي: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الصُّبُوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحي يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفض له باقتراحه دنا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودق الناقوس، فتيهه إلى الصبح أو

(٣) رَخِيم: رقيق.

(١) الذخيرة ٨٤٠/٢ ومغرب ٤٢٠/١.

(٢) الذخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.

شُرِّبَهَا فِي الصَّبَاحِ. وَابْنُ الزُّقَاقِ يَصِفُ أَمْسِيَةً وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَخَلَّتْ وَرَاءَهَا عَلَى أَفْقِ السَّمَاءِ الْغَرْبِيِّ الشَّقَقُ الْبَهِيحُ^(١):

وَعَشِيَّةٌ لَبَسَتْ رِدَاءَ شَقِيقِ تَسْرَهُوْ بِلَوْنٍ لِلْخُدُودِ أَتْيَقِ
أَبْقَتْ بِهَا الشَّمْسُ الْمَنِيرَةَ مِثْلَمَا أَبْقَى الْعَبَاءُ بِوَجْنَةِ الْمَعْشُوقِ
لَوْ أَسْتَطِيعَ شَرِبْتُهَا كُلَّهَا بِهَا وَعَدَلْتُ فِيهَا عَنْ كُتُوسٍ رَجِيحِ

وهو يتصور العشيّة كأنما أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداءً أو كأنما اكتست بحمرة الحدود الفاتنة أو كأنما خلّفت الشمس المضئنة عليها ما يخلفه الحجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشيّة وما يلبس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التي تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكُتُوس من رحيق الخمر، حتى لينمى - لو استطاع - أن يشربها هاتنا بها هناة ما بعدها هناة. وابن الزقاق ينتشى دائماً بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخسه بكلمة عما قليل.

ونظّل في عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابة، وفي مقدمتهم الرصافي الذي ترجنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادي الكبير الذي يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلا^(٢):

ومَهْدُلُ الشُّطْبَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ مُتَسَايِلٌ مِنْ دُرَّةٍ لَصْفَانِهِ
فَاءَتْ عَلَيْهِ مَعَ الْهَجِيرَةِ سَرَحَةٌ صَدِنَتْ لَقَبَيْنِهَا صَفِيحَةٌ مَائِهِ^(٣)
وتَرَاهُ أَزْرَقَ فِي غِلَالَةِ سُندُسٍ كَالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ

فالنهر تهدلُّ على شطيه أغصان الأشجار، وهو يجري تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهي صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع جفافيه من النباتات والزرورع كأنما يرتدى غلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٣٢٤/٢.

(٢) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٣) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٥١٤/٢.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلا بلوانه. والرصاص لا يبارى في روعة تصاويره، وله يصف أسمية قضاها مع بعض رفاقه منتشيا بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول^(١):

وَعَيْشِي رَانِي مَنْظَرُهُ قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشُّمُولِ^(٢)
وَكُنَّ الشَّمْسُ فِي أَثْنَانِهِ أَلَصَقْتُ بِالْأَرْضِ خُذًا لِلزُّرُولِ
وَالصَّبَا تَرَفَعُ أَذْيَالُ الرُّبَى وَمُعْيَا الْجَوُّ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
حُبًّا مَنْزَلْنَا مُغْتَبِقًا حَيْثُ لَا يُطْرَبُنَا غَيْرُ الْهَدِيلِ
طَائِرُ شَادٍ وَغَصْنُ مُثْنٍ وَالدُّجَى يَشْرَبُ صَهْبَاءَ الْأَصِيلِ^(٣)

وهو يقول إنه ظل في هذه الأسمية يتمتع بشرب الخمر الصافي وبمنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلتصق بها خدها إعزازا ومحبة، ونسيم الصبا العليل يحرك النباتات والفصون أو كما يقول أذبال الربي والمرتفعات، ويشق على منزلهم واغتيابهم أو احتسانهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمله من أنغامه وأشجانه. ويُولور روعته بالمنظر في طائر شاد وغصن مثن، ويخلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل وريحه الهنيء. وكانوا كثيرا ما ينتزهون في الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشرعة والأخرى ذات المجاديف، وأحيانا كانوا يُجْعرون فيها سباقا على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن علي بن لبّال قاضي شَرِيش عن أحد هذه السباقات في نهرها قائلا^(٤):

بَنَفْسِي هَاتِيكَ الزَّوَارِقُ أُجْرِيَتْ كَحَلْبَةِ خَيْلٍ أَوَّلًا ثُمَّ ثَانِيَا
وَقَدْ كَانَ جَيْدُ النَّهْرِ مِنْ قَبْلِ عَاطِلَا فَأَمْسَى بِهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حَالِيَا
عَلَيْهَا لَزْهَرُ الشَّمْعِ زُهْرُ كَوَاكِبِ تُخَالُ بِهَا جُسْنَ الْغَدِيرِ عَوَالِيَا^(٥)
وَرُبُّ مُشَارٍ بِالْجَنَاحِ وَأَخِيرِ بَرَجْلٍ يَحَاكِي أَرْثِيَا خَافَ بَارِيزَا
وهو يقول إن الزوارق أُجْرِيَتْ في النهر على دفعات تزينا شموع أصبح بها جيد النهر

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.

(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.

(٣) الصهباء: الخمر.

(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر في ترجمة ابن

لبال ونشره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١

والنكحلة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفي

سنة ٥٨٣.

(٥) العوالي: الرماح. زُهر جمع أزهر: مشرق

مضيء.

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع في النهر كأنها رماح مشرعة،
بينما الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنها هي أرناب
تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سهر،
وسنخصه بكلمة. وتلتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبي الهيثم حافظ إشبيلية بل
الأندلس جميعها في عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذي الرمة الشاعر
الأموي، ومن عجائبه أنه كان يلى على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثاب
موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يمليه ارتجالا دون توقف، وله في فرس أصفر^(١):

أُطِرْتُ فَات طَرْفِي أَمْ شِهَابٌ هَذَا كَالْبَرْقِ ضَرْمُهُ التَّهَابُ^(٢)
أَعَارَ الصُّبْحُ صَفْحَتَهُ نِقَابًا فَفَرُّ بِهِ وَصَحُّ لَهُ النِّقَابُ
فَمَهْمَا حُثَّ خَالُ الصُّبْحِ وَافَى لِيُطْلَبَ مَا اسْتَعَارَ فَمَا يُصَابُ
إِذَا مَا انْقَضَ كُلُّ النُّجْمِ عَنْهُ وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السُّحَابُ

وللأندلسيين شعر كثير في وصف الخيل لأنهم كانوا يحاربون عليها دانا، وكانوا
يمقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا
كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طَرْفُ أى حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان
السماء، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففر به، وهو دانا
لا يتوقف كأنه يظن الصبح في إثره يطلب نقابه الذى افترضه منه. ويقول إنه إذا انقض
وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضلت السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا
أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله^(٣):

أَبْدَرَهَا فَالسَّمَاءُ بَدَتْ عَرُوسًا مَضْمُخَةً الْمَلَابِسُ بِالْفَوَالِي^(٤)
وَحَدَّ الرُّوْضُ خُفْرَهُ أَصِيلٌ وَجَفَنُ النُّهْرِ كَحُلِّ الظَّلَالِ
وَجِيدُ الْقَمَرِ يُشْرِفُ فَيُلاَلِ تَضِيئُهُ بَهْنُ أَكْنَافِ اللَّيَالِي

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الفبوق المسائية، فالسماء قد بدت عروسا

(١) الرابات ص ٤٧ وانظر في الهيثم وترجمته

وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدح المل

ص ١٥٨ والكلمة ص ٧١٦. توفي سنة ٦٣٠.

(٢) الفوالى: جمع غالية: المسلك.

(٣) طرف بكسر الطاء: حصان. هنا: أسرع.

(٤) الفوالى: جمع غالية: المسلك.

مبتهجة مضخة أو معطرة بالمسك في منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على
خد الروض حياء وخفرا فاصفر لونه، بينما كحل جفن النهر بالظلال، وقد أضاءت على
جيد الفصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالي المظلمة.

ويلقانا مَرَجُ الكُحْلِ: محمد بن إدريس الذي نشأ بائعا متجولا في الأسواق يتعش
بيع السلمك ثم ترفت به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم
الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرة يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمرة
يقول فيها^(١):

عَرَّجَ بِمُنْعَرَجِ الكَيْبِ الأعْفَرِ	بين الفُراتِ وبين شَطِّ الكَوْنَرِ ^(٢)
وَلَتَضَيَّقَهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ	من راحَتِي أَحْوَى المِراشِفِ أَحْوَرِ ^(٣)
وَالرَّوْضِ بَيْنَ مُفَضِّضٍ وَمَذْهِبٍ	وَالزُّهْرِ بَيْنَ مُدْرَقَمٍ وَمُدْنَرِ ^(٤)
وَالوَرَقِ تَشْدُو والأَرَاكَةُ تَنْتَنِي	وَالشَّمْسُ تَرْفُلُ فِي قَمِيصِ أَصْفَرِ ^(٥)
مَا أَصْفَرُ وَجْهَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا	إِلَّا لِفِرْقَةٍ حُسْنِ ذَاكَ الْمُنْظَرِ

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكيب المشرب بحمرة في تلك الجنة البعيدة
بين الفرات والكونثر ليعتصما هناك بالفبوق أو خمر المساء، ويماظر الأزهار المفضضة
والمذهبة، والورق أو الهمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكاة تنتن، ينتنهما النسيم العليل
والشمس تنبخر في قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب
فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الهجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي
المتطبب في خاتمة موشع له يصور شرب الخمر والصباح يطل على الطبيعة^(٦):

فَقَمَّ نَبَاكِرَهَا لِلْأَصْطَبَاحِ
وَالشَّهْبُ تَنْتَرُ مِنْ خَيْطِ الصَّبَاحِ

المراشف: الشفاه.

(٤) المدرهة: الفضية من الدرهم. والمدرة:

الذهبية من الدينار.

(٥) ترفل: تنبخر.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر في ترجمة أبي الهجاج

وشعره أيضا اختصار القدح المثل لابن سعيد

ص ١٦١.

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر في ترجمة مرج الكحل

وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوراق بالوفيات

١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢

مُحَلَّ عَنْ دِيوانِ شِعْرِه وَتَوَفَّى سَنَةَ ٦٣٤.

(٢) منرج الكيب الأعفر: طريق الكيب

المخالط لونه حمرة. الكونثر: نهر بالجنة ولعله يريد

دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتافها: شربها في المساء.

وَالْقَضْبُ تَرْقُصُ فِي أَيْدِي الرِّيحِ

على غناء الحمام والكاس ذات ابتسام
والظلام قنبل والصَّيْحُ دامي الحسام

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامي لإحدى موشحات أبي المحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا في حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت في أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هي نفسها أغراض الموشحات ولهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى في هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تبشير النهار، فقد جعلها أبو المحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنانير تنثر في عُرْس والفصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح، والحمام يشدو ويغنى والخمر في كتوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو المحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامي البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حمرة القانية تلطخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلها الرصافي في وصف نهر^(١):

ونهر كما ذابت سيائك فضة
تبدى خضياً مثل دامي الصَّوَّارم^(٢)
لإرهاب هبات الرياح النواسم^(٣)
ظلال لأدواح عليه نواسم
وتظلمه في دُكنية بعد زُرقة

وهو يجعل ما في النهر سيائك فضة سائلة، ويشبّه في انعطافاته يمينا ويسارا بانعطافات الأفاعي، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوّره سيفاً دامياً، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتحيل لونه داكناً بعد أن كان أزرق صافياً. ويقول إبراهيم^(٤) بن سهل الإشبيلي:

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطلُّ ينثرُ في رُبَها جوهراً

(١) أزهار الرياض ٢٢٣/٣.

(٢) الأرقام: الأفاعي.

(٣) خضياً: ملوناً. الصَّوَّارم: السيوف.

(٤) سُنْتُ: صُبْتُ. مفاضة: درع.

(٥) انظر في ابن سهل وترجمته وشعره المغرب

٢٦٩/١ واختصار القدر ص ٧٣ والفوات ٢٣/١

والمنهل الصافي ٥١/١ وهو يهودي أسلم في

شبابه توفي سنة ٦٤٦. طبع ديوانه محققاً ببغروت.

فاحتُ فِجَلْتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها التُّرْبَ مِسْكَاً أَذْفَرَا^(١)
وكان سَوَسْنَهَا يَصْفَحُ وَرَدَهَا تَغْرُ يُقْبَلُ مِنْهُ خُداً أَحْمَرا

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر في ربها كل ما في حجره من جواهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكان سوسنها الأبيض الجميل حين يصفح وردها تغر يقبل خدا باقوتيا. ويقول أبو الوليد^(٢) بن الجنان:

هات المَدَامَ وقد ناح الحمامُ على هذا الظلام وجيشُ الشُّعْرِ في الطَّلَبِ
والشُّعْبُ قد بَدَّدَتْ في الأرض لَوْلُوحَا تَضُمُّ الشَّمْسُ في تَوْبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصباح في إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقت كل هذه الآلى؛ ولتتها أو جمعتها في ثوبها الذهبي. ولابن خاتمة في بلبل وردية اللون تغنى في روض مكتظ بالورود والأزهار^(٣):

وورْدِيَّةُ الجَلْبَابِ أعجَبَهَا الوَرْدُ ففَتَتْ وما بالفانيات لها عَهْدُ
أنت وبطاح الأرض تَجَلَّى عرائسا وفي كل غُصْنٍ من أزهاره عَقْدُ
وقد أبَدَتْ الدنيا محاسنَ وَجْهَهَا فمن زهرة تَغْرُ ومن وردة خَدُ
ففتَتْ غناء الشُّرْبِ أنشَتَهُمُ الطُّلا وَحَنَّتْ حَنِينِ الصَّبِّ باح به الوَجْدُ^(٤)

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخليها، فتفتت له غناء ساحرا لم تعهده الفانيات الجميلات، ويقول إنها أنت الروض في وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكأنها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة - مثل زهرة الأقحوان - تغر، ومن وردة - وما أكثر الورد - خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحنن حنين الصب المغرم الوهان. ولابن زَمَرَكَ في وصف زهر القرنفل بجبل الفتح أو جبل طارق^(٥):

(٣) الديوان ص ٩٨ .

(٤) الطلا: الحمر.

(٥) أزهار الرياض ٢/٤٠.

(١) لأذفرا: عطرا.

(٢) راجع في ابن الجنان وترجته وشعره المغرب

٢٨٣/٢ واختصار الفتح ص ٢٠٦.

رَغِيَّ اللهَ زَهْرًا يَنْتَمِي لِقَرْنَيْهِ
وَمَنْبَتُهُ فِي شَاهِقٍ مَتْنَعٍ
أَمِيلٌ إِذَا الْأَغْصَانُ مَالَتْ بِرَوْضَةٍ
وَأَهْوَى لَخْفَافِ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى
حَكِي عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقَ خَدِّهِ^(١)
كَامْتَنَعَ الْمَحْبُوبُ فِي تِيهِ صَدِّهِ
أَعَانَتْ فِيهَا الْقَضْبُ شَوْقًا لَقَدِّهِ^(٢)
وَأَهْوَى أُرْيَجُ الطَّيِّبِ مَنْ عَرَفَ نَدِّهِ^(٣)

وهو يدعو لزهو القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكى عرف من يهاها وطيبها، ويقول إن منبته في أعالي جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب في صَدِّهِ وتيهه وخِيَلَاتِهِ، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان في روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه، ويقول أيضا إنه يحن إلى خفاف النسيم مساء يظنه من قِبَل محبوبه، وهوى أريج الطيب يظنه من أريج الذكوى العطر. وحرى بنا أن نلم إلامات قصيرة بمن وعدنا بالمحدث المجل من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

عبادة^(٤) بن ماء السماء الأنصارى

هو عبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة الخزرجى أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ في العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتهاء إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجوه من أنه تلميذ الزبيدى تلميذ أبي على القالى وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومُدِّح المنصور بن أبي عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائز، وسُجِّل اسمه في ديوان الشعراء وأعليت مرتبته فيه وأعلى عطاؤه. وتدور الأيام وتكون فتنة قرطبة التى ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب سنة ٤٠٧ هـ ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ هـ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤ هـ. ولعبادة مدائح في هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفي مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة في مديح

(٤) انظر في ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ٤٦٨/١

وما بعدها والمنقذة ٢٧٤ والطبع ٨٤ والبخية رقم

١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ٤٢٥/١.

(١) الرف: الشذا وطيب الرائحة.

(٢) القضب: القصور.

(٣) سرى: سار ليلا. أريج: فائح. التد: عود

طيب الرائحة.

أنتمهم، غير أنهم جميعاً لم يكونوا يستظهرون شيئاً من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة مدحه ويسبق عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهباً فاغتم غماً شديداً، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمه في قرطبة معللاً ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً مؤرخاً أدبياً إذ كان له كتاب في أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد في المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا في حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتها - وكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدم بن معافى القبرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضاً عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاهما شكلها النهائى. ومر بنا نقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدي عرب تطويراً منهم - كما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء في زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهوراً بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنّاب:

سقى الله أيامى بقرطبة المنى	سرورا كرى المنتشى من سراه
وكم مزجت لى الراح بالريق من يدى	أغرر يربنى الحسن ملء ثيابه
تعلنى فيه الأمانى بوعدها	وهيهات أن أروى بورد سراه ^(١)
سل العنم البادى من السجف دالفا	لتعذيب قلبى هل قى من خضابه ^(٢)

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسقى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من سراه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يمل نفسه بملقاتها ووعدها، غير أنه كان دائماً سراه لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

(١) الورد: الماء الذى يرد الناس، وقد أضافه إلى السراب غيلاً.
(٢) العنم: ستر الحمة بجانب بايها. دالفا: مقبلاً.

أناملها البادية من الستر لتعذيب قلبه من دمه. كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل. ويقول:

أجلُ المدامة فهي خيرُ عروسٍ تجلُو كروبَ النفسِ بالتنفيسِ
واستغنمِ اللذاتِ في عهدِ الصبا وأوانِه لا عطرَ بعد عروسِ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهومها، ويدعو إلى اغتنامها في عهد الصبا، فهو عهدا، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما ياتئها تقليدا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدخر المثنائيل الذهبية المائة التي ضاعت منه بالقة.

عبد^(١) الرحمن بن مقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا، من قرية القُبْدَاق من قرى أشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية في أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء في مدن سواها. ولنتقرب به في أوائل عصر أمراء الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التجيبى المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسفخوا عليه نواهم إدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسنى أمير مألقة الذى خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكف عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنئاً بضعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغرس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرف ابن بسام بابن مقانا قائلاً: «من شعراء غرنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين في غفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله» وكان ابن بسام يحجل وفوده على أمراء الطوائف في أيام

(١) انظر في ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة ١٠٤٤ والمغرب ٤١٣/١.

٧٨٦/٢ وما بعدها والحميدى ٢٦٠ والنفية رقم

الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخا لا كهلا. وأم قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلا:

قد بَدَا لِي وَضَعُ الصُّبْحِ الْمُبِينِ	فَأَسْقِيْهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الْأَذِينِ ^(١)
مُزَّةٌ صَافِيَةٌ مَشْمُولَةٌ	عُتِقَتْ فِي ذَنْهَا بِضْعُ سِنِينَ ^(٢)
مَعَ فَتَيَانٍ كَرَامٍ نَجِبٍ	يَتَهَادَوْنَ رِيَّاحِينَ الْمَجُونِ
وَعَلَيْهِمْ زَاجِرٌ مِنْ جُلْمِهِمْ	وَلَدَيْهِمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنِ ^(٣)
وَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرَبُوا	بِأَبَارِقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ ^(٤)

وابن مقانا يترامى له ضوء الصبح في السحر، فيهتف بالساقى أن يلاً كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مزة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتیان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فاتنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصُّبُوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله ساء ونجوما ورياضا وأزهارا ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصاييح الدُّجَى قد أَطْفَنَتْ	فِي بَقَايَا مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جُونِ ^(٥)
وَالثَّرْبَاءُ قد عُلَّتْ فِي أَفْقِهَا	كَقَضِيْبٍ زَاهِرٍ مِنْ يَاسْمِينِ
وَانْهَرَى جُنْحُ الدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ	كَغَرَابٍ طَارَ عَنْ بَيْضِ كَيْنِ ^(٦)
وَجَنَاحُ الْجَوِّ قد بَلَّلَهُ	مَاءُ وَرْدِ الصُّبْحِ الْمَصْطَبِحِينَ
وَالنَّدَى يَقَطُرُ مِنْ نَرْجِسِهِ	كَدَمْعٍ أَسْبَلْتُهُنَّ الْجَفْسُونَ ^(٧)

وهو يقول إن مصاييح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى في بقايا من سواد الليل، وتعالى الثريا في السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

(١) معين: عين جارية.

(٥) جون: سوداء.

(٦) جنح: ظلام. كين: مستتر.

(٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

(١) الأذنين: نداء الأذان للصلاة.

(٢) مزة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة:

باردة.

(٣) قاصرات الطرف: يفضضن من أبصارهن.

عين جمع عناء: واسعة العين جميلتها.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل يتبرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، وورد الصبح بل مازه بلل جناح الجو تحية للمصطححين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهى صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُذبة والشحاذة الأدبية فى الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عنوبة وسلاسة وروعة فى الموسيقى والتصوير.

على^(١) بن حصن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلي، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذ وزيراً له معه، وكان فى ابن زيدون شيء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنفس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوهما أحياناً إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان فى ابن حصن تهور وطيش فزلت قدمه وأدياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحاً للدماء قتل كثيرين من وزرائه ونخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلاً عنه: «أحد من راسٍ سهام الألفاظ بالسحر الحلال، وشق كرائم المعاني عن أفتن من محاسن ربّات الحِجال، بين طبع أرق من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر، وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا فى شعره ويعلم ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وبنوه بروعة تصاويره، ومن قوله فى إحدى خرياته الماجنة:

خَضِبْتَ بَنانَ مَديرها بِشُعاها فَعَلِ القَرارةُ فى شِفاءِ الرُّبَرِ

والرُّبَر: القطيع من بقر الوَحش، يقول إن الحمر خضبت بنان الساقى بشعاعها

(١) انظر فى على بن حصن وترجمته وشعره والبخية ص ١٤٣ والمغرب ١/ ٢٥٠.

النخيرة ١٥٨/٢ وما بعدها والمحمدي ص ٢٩٦

كما يخضب نبات الرّار الصحراوي شفاء قطمان البقر الوحشي. وهي صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يترأى لهم في البقر الوحشي هناك من جمال. ويقول في خربة أخرى:

إذا بدت لك في قِطْ حبة من البِلارِ
حسبتها شفقاً مُسْبَبٌ في زجاج نهار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا في زجاج يلورى أو مصوغ من بلور بل في زجاج مصوغ من نهار مضى. ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كأنك والشمس عند الغروب عروس من الحسن منحوتة
غدا النهر عِقدك والطود تاجك والشمس أعلاه ياقوتة

فالنهر وما يحفّ به من أزهار عقد نفيس يتألق في جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصمه في أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله في وصف هديل:

وما حاجنى إلا ابنُ ورقاء هاتفٌ
مُفَسِّقٌ طوقٍ لازوردى كلّكلٍ
أدار على الهاقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ
حديدهُ شها المنقارِ داجٍ كأنه
توسد من فرع الأراك أريكته
ولما رأى تمعى مُراقاً أراهه
وحتّ جناحيه وصَفَقَ طائرا

على فنن بين الجزيرة والنهر^(١)
موشى الطلى أحوى القوام والظهر^(٢)
وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر^(٣)
شها قلمر من فضة مدّ في جبر^(٤)
ومال على طيّ الجناح مع النخر^(٥)
بكانى فاستولى على الفصن النضر^(٦)
وطار بقلبي حيث طار ولا أدري^(٧)

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيها يتخيلونه من ترتيب الحمام المفهوم وأنه يبكى

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: هصن.

(٢) مفسق طوق: طوقه فسقى اللون. كلّكل: صدر. لازوردى: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوام: ريش الجناح الطويل.

(٣) التبر: الذهب.

(٤) شها: حد، سن.

(٥) أريكته: منقطة مقعد طي: جانب.

(٦) أراهه: شككه وحمره.

(٧) صفق الطائر: حرك جناحه للطيران.

وينوح محزوناً لفراق أليفته، وهو يقول في مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقاً إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة في رسمها رسماً دقيقاً، فطوقه فستقى اللون وصدره لازوردى أو أزرق بنفسجي وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤاً عينية، ومن حولها أهداب ذهبية. وحد منقاره أسود داج كأنه بين قلم من فضة غمس في مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكاة منصّة، ومال برأسه محزوناً على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحس الشاعر أنه - مثله - حزين مهوم لفراق صاحبتة فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفانة فرآه يبكي واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحركها طائراً، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. وما أعجب به ابن بسام من شعره قوله في وصف سحابة:

بكرت سُحْرَةً قَبِيلَ الذَّهَابِ تَنْقُضُ الْبِسْكَ عَنْ جَنَاحِ الْغَرَابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديماً ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأطرافها تنقض المسك الأسود عن جناحه. وفي ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أمية^(١) بن أبي الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشيئ - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرج على أيديهم طبيباً متفلسفاً وشاعراً بارعاً يتقن الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفي أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحباً والدته، وقد تكون الرغبة في التزود من علماء المشرق أو الرغبة في الحج من دواعي تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهدي بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠
وتاريخ الحكماء للقفطي (طبعة لبيزج) ص ٨٠
ومرأة الجنان للهاشمي ٢٥٣/٣ وشنرات الذهب
٨٣/٤.

(١) انظر في أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء
٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن
خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب
لابن عذاري ٣١٢/١ والمهريّة: قسم شعراء

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ). إذ كان مقصدا للشعراء لما يجيزهم به من الجوائز السنية، وامتدحه مرارا، وظل في حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فعين وصل أمية برسالته إليهم رَجُّوا به في سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة في أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكَّب عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفى كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرى صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه فى السجن منها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو فى سجنه، وشئى على قصيدتين أرسل بها إليه فى مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العباد فى الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرى كما ذكرنا. وعاد إلى المهديّة سنة ٥٠٥ فى عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ). وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرها وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهديّة بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هبتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مدّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد فى المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لما أهداه كبرى، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جُلّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جُلّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جليلة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنّفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق ساء: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبى وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى النابيين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العباد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت

فيه إلى أكثر من ثابن صفحة مُهد لها بقوله: «كل شعره منقح مستلمح، صحيح السبك، محكم الحوك، نظيم السلك» وهو موزع بين مديح ورناء وغزل وهجاء ووصف للقصور والحمل ومن قوله في الحرمين:

بَعِشْكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا عَلَى طُولِ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ هَرَمَيْ مِصْرٍ
أَنَافًا بِأَعْيَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوِ النَّسْرِ^(١)
وَقَدْ وَاقِيَا تَنْشُرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا كَأَنَّهُمَا ثُدَيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ^(٢)

وفي هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خبرياته وتصاويره للطبيعة، وتداول الكتب التي ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَسْرَبٌ من مياه النيل يصبُّ في قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

قَهْ يَوْمِي بِبِرْكََةِ الْحَبَشِ وَالْأَفْقُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالْفَبَشِ
وَالنَّيْلُ تَحْتَ الرِّيَّاحِ مُضْطَرَبٌ كَصَارِمٍ فِي يَمِينِ مَرْتَبَشِ^(٣)
وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مَفُوفَةٍ دُبُجٌ بِالنُّورِ عِطْفُهَا وَوُشِي^(٤)
قَدْ نَسَجْتَهَا يَدُ الرِّبْعِ لَنَا فَتَحْنُ مِنْ نَسْجِهَا عَلَى فَرْشِ
فَعَاظِنِي الرَّاحُ إِنْ تَارَكَهَا مِنْ سَوْرَةِ الْهَمِّ غَيْرِ مُتَبَشِ^(٥)

وهي نزهة ببركة الحبش في يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة في الأبيات بدعة، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف في يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبداً، وهو وصحبه في روضة أنيقة وشيت جوانبها وزينت بالنور، ومدُّ الربيع من تحتهم بساطاً سندسياً. وفي هذا الموكب الرائع الذي ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجماها يسأل صاحبه أن يتاوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم في طوايا نفسه. ويعلم مراراً أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتن في مزجها بالفلز إذ يجتمع عليه صباهته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قَامَتْ تَدِيرُ الْمُدَامَ كَفَّاهَا شَمْسٌ يَنْبِرُ الدُّجَى مُعَيَّاهَا

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السالك: نجم نير.

(٢) النسر: المرتفع من الأرض.

(٣) صارم: سيف.

(٤) مفوفة: مزخرفة.

(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَاثِفِها والبرقي ما لاح من ثنائِها
غزالةً أخرجت سَمِيئَها فلم تشبه بها وحاشاها^(١)
فَبَها لها حُسْنُها وَبَهْجَتُها فهل لها خُذْها وَعَيْنُها

والأبيات تلك القلوب والأسماع بهذوبتها وتمكن ألقاظها وقوافيها في سياقها، وأيضاً برقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرْدَف والكثيب والمراشف وما يلعب وراءها من الثغر وصاحبته والشمس، وهَبَّ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خذها الجميل وعيناها الفاتنتان. وله وراء ذلك أشعار بدعية.

ابن خفاجة^(٢)

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقر بين شاطِبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفي المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بمسلك، المتلفعة من جناتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام». وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصوري والشريف الرضى ومهيار والمتنبي كما يقول في مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصوري في مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار في ذكر الطعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيِّف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبي فيقول إنه تأثر به في لف الغزل بالحامسة. ويقول أيضا في مقدمة ديوانه إنه ظل في شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة في شعره، متفنيا فيه بحب وجداني وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التي نشأ في حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

(١) غزالة: يريد صاحبته، وتسمى بها الشمس.

(٢) انظر في ابن خفاجة وترجمته وشعره الأخيرة ٥٤١/٣ وما بعدها والقلائد ص ٢٣١ والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص ١١١ وابن الأبار في التكملة (البيّة المطبوقة في الجزائر) ص ١٧٥ ومعجم الصدفى ص ٥٩ والمطمح ص ٨٦ وبغية الملتنس ص ٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١ والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة

مصر) ص ١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د. السيد مصطفى غازي (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته في كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الحادية عشرة بدار المعارف) ص ٤٤٤ وما بعدها وتاريخ الأدب الأندلسي: عصر "أمراء الطوائف والرايطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٠٤ وما بعدها.

بضيعة ورثها عن آباءه، وفي الديوان مقطوعة سينية نظمها في زيارة للمعتصم بن صاحب دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس في الديوان وراءها مدحة لا في ابن صاحب ولا في غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات في الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكان هذا العصر كان عبثاً غليظاً على نفسه، كما كان عبثاً غليظاً على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه في الترف والمجون، حتى ضاعت طليطلة سنة ٤٧٨. ونظن ظناً أن هذا الحادث الخطير هو الذي جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل في إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا في الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذي جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء في ديوانه، ولا يلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه في نفس السنة فينتعش الأمل في نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هي الفترة الثالثة في حياته، وفيها ظل يديح المدائح في أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلاً ذلك - كما يقول في مقدمة ديوانه - بمديح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاية المرابطين على شرقي الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفي أخيه تميم وإلى غرناطة ثم مرسية بشرقي الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفي علي بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفي أبي بكر بن تيفلويت ممدوح ابن باجة. وفي كل هذه المدائح وغيرها في تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أو عطاء، وإنما كان - كما قال في مقدمة ديوانه «مصطنعاً، لمنتجعاً، ومستميلاً، لاستئبلاً اكتفاء بما في يده من عطايا منان وعوارف جواد وهاب». ونظن ظناً أنه عاش فترة في حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاماً، مفكراً في مصيره وفي متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفي هذه الفترة نظم طائفة من شعره في العظة والاعتبار والتوبة والابتهاال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُني كما يقول في مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى» وعُني بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر في بعض شعره - تقريباً لله ورسوله. وكان في هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويغمر مغشياً عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاماً.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى ساء الأندلسيون الجنان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعُلِّل هو نفسه لهذه النزعة في ص ٢٩٠ بديوانه قائلا: «إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجَريّة ماء ورنّة طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجبلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادق، وبطاح عريضة وأرض أريضة»^(١) فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ^(٢) لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل واتجاع». ومن قوله في وصف روض صباحا:

وِكَمَامَةٌ حَدَرَ الصَّبَاحُ فِنَاعَهَا عَنْ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الْأَزْهَارِ^(٣)
فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثَقُورُ أَقَاحِهِ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِثْرَارٍ^(٤)
وَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاكِ وَالطَّلُ يَنْضَعُ أَوْجُهُ الْأَشْجَارِ
مَتَقَسَّمُ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنٍ مِنْ رِدْفٍ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارٍ^(٥)

والصور تتراكم في القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها النُدى وثقور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، والمحاظ موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول في وصف عشية:

وَعَشِيٍّ أَنَسٍ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةٌ فِيهِ يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدْمِتُ^(٦)
خَلَعْتُ عَلَيَّ بِهِ الْأَرَاكَ ظِلَّهَا وَالْفُصْنَ يُضْفِي وَالْحَمَامُ يَحْدُثُ
وَالشَّمْسُ تَجَنُّحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ وَالْبَرْقُ يَرْقِي وَالْغَمَامَةُ تَفْتُ^(٧)

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة في مقعد محمد لطيف، والحمام يحدث والفصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للغروب وقد اصفر

(١) أريضة: كثيرة النبات.

(٢) كلف: هيام.

(٣) كمامة: أكمام وهي جمع كم بكسر الكاف:

برعوم الزهرة.

(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلقة

(٥) الردف: العجز يضم الجيم. خسر الإنسان:

وسطه. قرار: منخفض من الأرض.

(٦) يدمت: يهد ويوطأ بتشديد الطاء.

(٧) تفتت: تنفتح.

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشعل البرق كأنها رُقَى تريد أن ترقبها والقمامة تنفث
كما ينفث الراقى في العقد. ومن قوله في إحدى خربياته:

وَأَرَاكِ ضَرَبْتَ سَمَاءَ فَوْقَنَا تَذْنَى وَأَفْلَاكَ الْكَتُوسِ تَدَارُ
حَفَّتْ بِدَوَاجِئِهَا مَجْرَةُ جَدُولٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ نَجُومَهَا الْأَزْهَارُ
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا حَسَنَاءُ شُدَّ بِقَصْرِهَا زُنَارُ^(١)
زَفُّ الزَّجَاجِ بِهَا عُرُوسٌ مُدَامَةٌ تُجَلَّى وَتَوَارُّ الْقُصُوفُ نِشَارُ^(٢)

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التي جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم
الصورة، فالكتوس تدار وكأنها النجوم تدار في الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار
كأنه المجرة بما حوّلها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت
حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكوس يزف المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم،
وما التوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقي به المحبون في هذا العرس الكبير.
وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر
الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر.
وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض
الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، وهي ليست
كثرة معان إنما هي كثرة تصاوير، وهي ليست عيبا بل هي حسنة وفضيلته، إذ أحس
بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل
بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم،
وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول في أبي بكر بن تيفلويت وإلى
سرقسطة:

وَجَلَا الْإِمَارَةَ فِي رَفِيفٍ نَضَارَةٍ جَلَبَتِ الدُّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ
مُنْقَسِمٌ مَا بَيْنَ شَمْسٍ دُجْنَةٍ طَلَعَتْ وَبَيْنَ غَمَامَةٍ مِسْدَارِ
أَرْجَ النَّبْدَى بِذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ مَتَنَفَّسٌ عَنْ رَوْضَةٍ بِمِطَارِ

فهو قد جلا الإمارة فيها يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أسيقت
على الليل الداجي حلة من الأنوار، وما أروع طلعه كأنها طلعة شمس من دجنة مظلمة

نضىء للأبصار، وكأنما يداء غمامة ما تزال تهمى بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره في الندى ليملؤه بأريج العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله في رثاء صديق عزيز:

فمى كلُّ نادٍ منك رَوْضُ ثناءٍ وبكلِّ خَدٍّ فيك جَدْوَلُ ماءٍ
ولكلِّ شخصٍ هِزَّةُ الفُضنِ النَّدَى نحت البُكاءِ وَرَنَةُ المَكاءِ

وهو يقول - مخاطباً صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهار دموعه إلى ما يشبه هزة الفصن الندى ورنة طائر المكاء الصغير يبكي أليفته.

ولم نتمثل حتى الآن بشيء من شعر الطبيعة الذى نظمته في الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل في مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة في الديوان بأنه قالها في الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سُراه في الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائبا، وكأنما يصف رحلته الطويلة في الحياة، ويلتقى في سراه بجبل ضخم شاقق شامخ ويقوم معه حواراً ينطقه فيه بما يدور في نفسه، إذ يقول له: كم أوى إلى واستوطنني من فتاك ونُساك وكم مرّ بي من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وما كان إلا أن طَوْنَهُمْ يَدُ الرَّدَى وطارت بهم رِيحُ النَوَى والنَوَابِ
وما خَفَقَ أبْكَى غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ ولا نَوُحٌ وَرَقَى غَيْرُ صَرخةِ نادٍ
فحنى منى أبْقَى وَيَظُنُّ صَاحِبُ أودع منه راحلا غَيْرَ آسِ
فسلى بما أُنْكَى وَسَرَى بما شَجَى وكان على لَيلِ السُّرى خَيْرَ صَاحِبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شيء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة في الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الهمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد^(١) بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين في المائة السادسة، ويقول ابن الأثير عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقي الأندلس) في عصره الذي يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب في التنبيه على قدره» وأشاد به المقرئ في النفع مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل في مد نهر إشبيلية وجزره (لتأثره بجزر المحيط الأطلسي ومدّه) قوله:

جئت الجزيرة والخليج يحفها يشكو إليها كي تجيب جواره
شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطئه يطلب ناره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحي هزأ فضم من الحياء إزاره

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعارة أخرى فتحة مصب النهر، فانساب المحيط من شطئها يطلب ناره، وهو يكتئب بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذي كان رابضا على الدوح هزأ به، فاستحى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهو يكتئب بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب في زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرت عيناك زورق فتية ليدي لهم بهج السرور مراحه
وقد استداروا تحت ظل شراعه كل يمد بكأس راح راحه
لحسبه خوف العواصف طائرا مد العنان على بهنه جناحه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا في زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا في ظل شراعه يتهادون كنوس الخمر وكل منهم يد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر في عشه دفعه الحنان إلى أن يد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

(١) انظر في محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب

٢١٢/٢ والرايات ص ١٠٦ والتحقه رقم ٦٦.

العواصف المباغثة. ويقول:

يامن رأى النهر استأثر به الصبا خيلاً لإرهاب الفُصون الميِّد^(١)
لما رأتها سُدَّتْ تلقاءُ قرنت به خيلاً تروح وتفتدي
وغدت تُدرِّعُه ولم تهخّل لها شمس الضحى بمسامر من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهب لإرهاب الفصون المتهايلة، ولقيته الفصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلبس النهر دروعاً من ظلالها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كي تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول في وادي المرية بلدته:

اشربْ على شِدو الحمام فإنه أشهى إلى من الفريض ومعبِد
أترأه أطربه الخليج وقد رأى تصفيقه تحت الفُصون الميِّد
وكانهن رواقص من فوقه وبها من الأزهار شبه مُقلد^(٢)

وهو يجعل شِدو الحمام في سمعه أروع من غناء مفضي مكة والمدينة: الفريض ومعبِد المشهورين في العصر الأموي، ويقول: كأنما أطربه شِدو المياه وخريها تحت الفصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل في ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي منذ الجاهلية ألواناً ثلاثة، هي التذنب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبياناً لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة في الشعر الأندلسي، ونبدأ بعرض نصوص من نذب الشعراء لبعض أقربانهم من الأبناء

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

(١) الميِّد: المتهايلة.

والزوجات والإخوة، وملتقى باهن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هضر الموت غصن أكبرهما وهو في ريعان شبابه، أما الثاني فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيها مرات مختلفة، ومن قوله في الشاب ملتاعا بعد فترة من موته^(١):

بَلَيْتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدِ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمْنَتْهُ لَوْ كَانَ صَمٌّ أَبَاكَ ثُمَّ الْمَلْحَدُ
بِالْيَأْسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا يَتَجَلَّدِي هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلَّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتحنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قرة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبي إسحق الإلهيري يبكي زوجته^(٢):

عُجِبَ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْيَابِ الْغَامِرِ وَارْتَبَعَ عَلَى قَبْرِ تَضْمُنْ نَاطِرِي^(٣)
وَاقْرَأِ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِنْ ذِي لَوْعَةٍ صَدَعَتْهُ صَدْعًا مَالَهُ مِنْ جَابِرِ
وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُهُ فِي وَدِّهِ لَقَضَيْتُ يَوْمَ قَضَى وَلَمْ أَسْتَأْخِرِ^(٤)
وَشَقَقْتُ فِي خِلْبِ الْفَوَادِ ضَرْبِيهِ وَسَقَيْتُهُ أَهْدًا بِمَاءِ مُحَاجِرِي^(٥)

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركب على قبر محبوبته وقرأ عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن ألحد معها في قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها في سوידاء الفؤاد ضربحا وسقيته أبدا بدموعي المنهلة. ومات لمحصره فقيه الأندلس المشهور أبي الوليد الباجي ابنان مفتربان فتدبها ندبا حارا بقوله^(٦):

(٥) خلب الفؤاد: حجاب. محاجر العنين: ما يحيط

بها.

(٦) المغرب ٤٠٥/١ وانظر أيضا في ترجمة أبي

الوليد الفخيرة ٩٤/٢ ومجمع الأدباء ٢٤٦/١١

وابن خلكان ٤٠٨/٣ والفلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

(١) الهمة للتمالي ٧٦/٢.

(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع

دمشق) ص ٧٤.

(٣) عج: اعطف. الياب: القفر. الغامر: المغمور

بالتراب. أربع: قف.

(٤) قضيت هنا: مت.

هما أَسْكَنَاهَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَلْبِ
وَالصَّقِ مَكْتُونِ التَّرَائِبِ فِي التُّرْبِ^(١)
سَانَجِدُ مِنْ جُحِبٍ وَأَسْعِدُ مِنْ سُحْبِ^(٢)
وَلَا رَوْحَتْ رِيحُ الصَّبَا عَنْ أَخِي كَرْبِ
وَلَا ظَمِئْتُ نَفْسِي إِلَى الْبَارِدِ الْعَذْبِ

رَعَى اللَّهُ قَبْرَيْنِ اسْتَكْنَا بِهِلْدَةً
يَقْرُ بِعَيْنِي أَنْ أُرَوِّرُ ثَرَاهِمَا
وَأَبْكِي - وَأَبْكِي - سَاكِنِيهَا لَعْنَتِي
وَمَا سَاعَدَتْ وَرَقَ الْحِمَامِ أَخَا أَسَى
وَلَا اسْتَعْذَبَتْ عَيْنَايَ بَعْدَهُمَا كَرَى

وهو يدعو الله أن يرعى قبري ابنيه اللذين يسكنان في السواد من قلبه، ويقول إنه يُسرُّ بزيارة قبريهما واحتضان ثراهيما، وأنه ليبيكي آملا فيمن ينجده ويساعده في بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وأنه يبيت مسهدا وقد زهد في كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعشى التطيلي مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تنوب أسي وحسرات، وفيها يقول^(٣):

رُزْنَتِكَ أَهْلَى مِنْ شَيْءِي وَمِنْ وَفَرَى
وَأِنْ كُنْتُ لَا أَخْشَى التَّرَابَ عَلَى التَّيْرِ^(٤)
مَقَرُّ الْحَيَا أَوْ هَالَةُ الْقَمَرِ الْبَنَرِ
تَقَدِّمْتَنِي إِلَّا مَشَيْتُ عَلَى الْإِثْرِ^(٥)
تَأْخُرُ بِي سَخِي وَأَثْقَلْنِي وَزَرَى

أَأَمِنْ إِنْ أَجْزَعُ عَلَيْكَ فَيَأْتِنِي
بِرَغْمِي خُلَى بَيْنَ جِسْمِكَ وَالتَّرَى
هَنِيئًا لِقَبْرِ ضَمِّ جِسْمِكَ إِنَّهُ
إِذَا جِئْتُ عَدْنَا فَاظْلِمْنَا قَفْلًا
وَلَا تَعْذِلْنِي إِنْ أَقَمْتُ فَرُبَّمَا

والمرثية تكتظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى في مطلقها أن لو واروا جسد زوجته في صدره مع ما يجتهد فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلي إلى بطيفك فدونك سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أخبرت إن جيدك أصبح عاطلا من الحلق فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محاربتها أوصدفتها عيني وبلجتها أو يميها صدرى. وبيكى ابن خفاجة ابن أخت له توفى في عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول^(٦):

(١) التراب: فئات الذهب.

: الفردوس.

ان ص ٢٦٧.

(١) الترائب: عظام الصدر.

(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.

(٣) راجع ديوان الأعشى التطيلي ص ٧٠.

أَرَقْتُ أَكْفُ الدَّمْعِ طَوْرًا وَأَسْفَحُ وَأَنْضَحُ خَدَيَّ تَارَةً ثُمَّ أَمْسِحُ^(١)
 فَيَا لَغَرِيبٍ فَاجَأَتْهُ مَنِيَّةٌ أَتَتْهُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ تَجَلُّعُ^(٢)
 تَرَى بِي - إِذَا أَعُولْتُ حَزَنًا - حَمَامَةٌ تَرْنُ وَطَوْرًا أَيْكَةً تَتَرَنِّجُ
 وَمَا أَتَلَقَّى الرِّكْبَ أَرْجُو تَحِيَّةً تَوَافَى لَهُ أَوْرَقَةً تُتَصَفَّحُ
 فَمَرُجٌ عَلَى مَنَوَى الْحَبِيبِ بِنَظَرَةٍ تَرَاهُ بِهَا عَنَى هُنَاكَ وَتَلْمَحُ

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمعها وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوارا وطورا يمسه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرق له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديه والشجر يترنح ويتأيل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يمرج على منوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلصحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة في زوجته زينب^(٣):

أَزْنَبُ إِنْ طَفَعْتَ فَإِنَّ ظَهْرًا أَقْلُكَ سَوْفَ يَرْكَبُهُ الثُّمِيمُ^(٤)
 بِسَايَةِ حَبَّةٍ أَسْمَى لِأَنْتَى سَوَاكِ وَأَنْتِ هَامِدَةٌ هُشِيمُ
 وَلَمَّا أَنْ حَلَلْتَ التُّرْبَ قَلْنَا لَقَدْ خَلَّتْ مَوَاقِعُهَا النُّجُومُ
 أَلَا بِأَزْهَرَةٍ ذَهَلْتُ سَرِيحًا أَضْنُ الْمُرْنُ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التي حملتك إلى المقابر سوف تحملني قريبا، وسأظل وفيًا لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديعة في البيت الثالث، فقد تعجب لهذا النجم الثاقب أن يحل في التراب ومكانه السماء في أعلى عليين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل في إبانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهي أيضا صورة بديعة.

ويكثر التأبين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصب. أنضح: من
 نضحت العين إذا فارت.
 (٢) تجلج: نسرع.
 (٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر في ترجمته
 المغرب ١٢٠/٢ والنبية ص ٥١٧ والمطرب ص
 ١٠٩ والواق ٢٤٢/٢.
 (٤) ظهرا: دابة، ويريد الثمش أقلك: حلك.

ويعبدون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أتهوم عبدالرحمن الأوسط المؤسس الحقيقي للحضارة العربية في الأندلس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر^(١) بن حزم:

وَبَاخَسَرْنَا إِذْ أَظْفِرَ الْمَوْتُ بَشْتَةً بَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِهِ الْمَوْتُ يَنْظُرُ
تَدَاعَتْ إِلَى النَّعْشِ السَّحَابُ فَظَلَّتْ سَرِيرًا عَلَيْهِ السَّيِّدُ الْمُتَخَيَّرُ
سَقَى اللَّهَ قَبْرًا بِالنَّخِيلِ غَمَامَةً تَكَادُ إِذَا حُلَّتْ غُرَاهَا تَنْظُرُ^(٢)
كَأَنَّ ثَرَاهُ مُذْ بِهِ سَكَنَ النَّدَى إِذَا لَاعَبَتْهُ الرِّيحُ بِسُكِّ وَعَنْبَرٍ^(٣)

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نمشه في مسيرته، ويدعو لقبره في النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ترى القبر مذ سكنه جثان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودي زعيم العرب بقرطبة فيؤبنه مقدم بن معاذ القبري مبتكر الموشحات بقوله^(٤):

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو وَقَدْ حَوَى جِلْفَ النَّدَى رَمْسُ^(٥)
لَا اخْضَرَّتْ الْأَرْضُ وَلَا أَوْرَقَ الْـ حَوْدُ وَلَا أَشْرَقَتْ الشُّشُ
بَعْدَ ابْنِ جُودَى الَّذِي لَنْ تَرَى أَكْرَمَ مِنْهُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ
دَمُوعُ غَيْبِي فِي سَبِيلِ الْأَسَى عَلَى سَمِيدٍ أَبَدًا حُبْسُ^(٦)

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورق الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذي لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاغا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم في إقليم قرطبة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربي من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنات الكفيف يرثي أبا الحزم بن جهور أمير

(١) المتنبي (تحقيق د. مكي - طبع بيروت) ص ١٢٥.

(٤) المتنبي: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).

(٥) رمس: قبر.

(٦) حبس جمع حبس: محبوس وموقوف.

(٢) حلت غرا الغمامة: هطلت كثيرا. نظير:

تشفق: كتابة عن غزارة المطر.

(٣) الندى: الجود والكرم.

قرطبة ويهني بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد^(١) :

إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي الرُّزَى الَّذِي فَجَعَا وَالْحَمْدُ لَهُ فِي الْحَكَمِ الَّذِي وَقَعَا
أَبُ كَرِيمٍ غَدَا الْفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ وَابْنُ نَجِيبٍ تَوَلَّى الْأَمْرَ وَاضْطَلَعَا^(٢)
لَهُ شَمْسٌ ضَحَى فِي اللَّحْدِ قَدْ غَرَبَتْ فَاعْقَبَتْ قَمَرًا بِالسَّعْدِ قَدْ طَلَعَا

وهو يستسلم لله فيها فجع به من موت أبي الحزم جهور ويستشير بولاية ابنه أبي الوليد، ويقول إن جهورا أصبح في الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع قمر سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مغلطال الطرسوني يرثي عالما من علماء العربية فيها يبدو^(٣) :

رُزَى بَكَتْ مِنْهُ الْعَلَا وَمَصَابُ شَقَّتْ عَلَيْهِ جُوبِهَا الْأَخْبَابُ
وَطَفَقَتْ أَلْتَمِسُ الْعِزَاءَ فَخَانَنِي نَفْسٌ تَذُوبُ وَأَدْمَعُ تَسَابُ
وَتَلْجَلُجُ النَّاعَى بِهِ فَسَالَتْهُ عَوْدَ الْحَدِيثِ لَهْلَه يَسْرَتَابُ
أَنْتَبَى إِلَى الْإِعْرَابِ مِنْكَ مُعِيدَهُ غَضًا كَمَا نَطَقَتْ بِهِ الْأَعْرَابُ
نَاحَتْ بِكَ الْأَقْلَامُ غَايَةً وَسَمِعَهَا وَبَكَتْ بِأَبْلَغِ جُهْدِهَا الْآدَابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جلل بكنت منه العلا وشقت عليه الأخباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانتته نفسه الذائبة ودعمه المنساب، وتلجلج الناعي فأمل أن لا يكون النعي صحيحا. وينعيه إلى العربية التي أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب في القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تتوح عليه نواحا لا ينقطع. ولتلقى باين سوار وسنخسه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تيفلويت المرابطي حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مفوارا وريثه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله^(٤) :

سِلَاقٌ وَالْمَاءُ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ عَلَى الْجَسَدِ النَّائِي الَّذِي لَا أَزُورُهُ
أَحَقًّا أَبُو بَكْرٍ تَقْضَى فَمَا يُرَى نَرْدُ جَمَاهِيرِ الْوُفُودِ سَتُورُهُ^(٥)
لَنْ أَنْتِ تِلْكَ الْقُبُورُ بِقَبْرِهِ لَقَدْ أَوْجَسَتْ أَمْصَارُهُ وَقَصُورُهُ

(٢) اضطلع: نهض

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢

(٤) المغرب ١١٩/٢

(٥) تقضى: مات

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر في ترجمة ابن الحناط

الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والهميدى ٥٣ والصلة

٦٤٠ والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والحريدة

٢٩٧/٢ والوافي ١٢٤/٣.

وابن باجة، وقد يش من زيارته لأبي بكر بن تيفلويت يتعنى له سلاما ورّوحا أوراحة ورحمة. وإنه لفي ذهل فتهتساءل أحقا أنه لم يعد يقدو إلى قصره ولم يعد يرى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجاهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة في قصوره وأمصاره التي كان يمد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضا راثيا مؤبنا هاكيا^(١):

يا صَدَيِّ بِالتَّغْيَرِ جِساوِرُهُ رِمَمَ بِمورَكَّنْ مِنْ رِمَمِ^(٢)
صَبَّحْتُكَ الخَيْلَ غَاديَّةً وَأَنارتِكَ فِلمَ تَرمِ
قَد طَوَى ذا الدَّهْرُ بِزَرتِهِ عَنكَ فَالِيسَ بِزَرةِ الكَرَمِ^(٣)

وهو يقول أيها الجثمان الناي بنخر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، وبلغت إليه قائلا: لقد صبحتك الخيل التي تعودت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأنارتك كي تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهل المدرار. ولابن الزقاق مرثية في شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكي فيه شباها ومضاه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى القيم وانحسر ظل الأنس واغبر ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامليه: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه في جوانحننا وأحساننا، ويهتف ملتاعا^(٤):

أَعزَّزْ عَلَيَّ بِضَيْقِمِ ذِي سَطَوَةٍ أَجَمَاتُهُ بَعْدَ الرِّمَاحِ رِجَامُ^(٥)
أَعزَّزْ عَلَيَّ بِزَهْرَةٍ مَطْلُولَةٍ أَمَسْتُ وَلَا غَيْرُ الضَّرِيحِ كِمَامِ
إِنْ راحَ مَهجُورُ الفَناءِ فَطالَما هَجَرْتُ بِهِ أرواحَها الأَجْسامِ
الليْلِ بَعْدَكَ سَرَمَدٌ لَا يَنْقُضِي فَكأنْما سِباعُناهُ أَعْوامِ
يا هَما مِلينِ التَّعَسُّ أَيْنَ جِياذُهُ يا مُلِيسِهِ التُّرَبِّ أَيْنَ الأَلامِ^(٦)

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حشرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزُّ

(٥) أجمات جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف

الملف وهي نمط الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة

تنصب على القبر.

(٦) اللام: الدروع.

(١) المغرب ١١٩/٢.

(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.

(٣) بزة: شارة.

(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٣٣٦/٢.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة في عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقاً ذريعاً، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلاً داجياً لا ينقضى أبداً وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذي تعود أن يراه ممتطياً جواده ممتشقا حسامه للحرب الأعداء، فيتساءل أين جباهه، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثي الأندلسية مراثية على بن حزمون للبطل أبي الحملات قائد الأعنة بلبنسية وقد استشهد في بعض معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيماً، وجعل ابن حزمون مراثيته موشعة كأنما أراد أن تكون ندباً ونواحا على البطل الصريح، وفيها يقول^(١):

نَصًا لِبَاسِ الرِّزْدِ	وخاصَّ مَوْجِ الْفَيْلَقِ ^(٢)
وَلَمْ يَرْعُهُ عِنْدَ	ذَاكَ الْخَمِيسِ الْأَزْرَقِ ^(٣)
وَالْحَوْرُ تَلْتِمُ خَدَّ	أُذْيَمِهِ الْمَمْرُقِ
وَكُنْ ذَاكَ الْأَسَدُ	فِي كُلِّ خَيْلٍ يَلْتَقِي
إِذَا رَأَى الْأَعْلَاجَ وَكَبُرَا	ثُمَّ انْتَبَرَى بِمَاصِغِ ^(٤)
رَأَيْتَهُمْ كَالدُّجَاجِ مَنْفَرَا	وَسَطَ الْفَرَا الْوَاسِغِ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدرع وخاصَّ دماء الكتيبة الباسلة وسط موجهها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذاتدا غير مكثر بأعداد النصارى من الإسبان ولا برماهم تنوشه، وأخذ يمزقهم شراً ممزق حتى تكاثروا عليه فخر صريعاً، وحقت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبله وتلثم مواضع الطعنات في جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يحققهم محققاً، وكان إذا نازلهم فرأوا في غير نظام كأنهم دجاج منفر، متناثرين في كل صوب فزعا وهلماً، وكأنما كان قفلاً كبيراً لبلبنسية، يصد عن حماها العلوج النصارى منزلاً بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشترياً بجهاده الفردوس ورضوان ربه. ولتلقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.

لزرقعة عيونهم.

(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.

(٤) ماصغ: يجالده بالسيف ونحوه.

(٣) الخميس: جيش الإسبان، ووصفه بالزرقعة

عبد الله بن أبي القاسم يرثى عالم العربية ابن الفخار الفرناطى قائلا^(١):

قَضَى مِنْ بَنَى الْفَخَّارِ أَفْضَلَ مَا جِدَّ جَمِيلُ الْمَسَاعِي لِلْعَلَا جِدُّ شَانِدٍ^(٢)
أَسْوَلايَ مِنْ لِمَشْكَلَاتِ بَيْنَهَا فَتَجَلُّوْا عَمَى كُلِّ الْقُلُوبِ الشَّوَاهِدِ
وَمِنْ ذَا يَحُلُّ الْمُقْفَلَاتِ صِمَامَهَا وَمِنْ ذَا الَّذِي يَهْدِي السَّبِيلَ لِعَانِدٍ^(٣)

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده في السعى للمعالى وحله لمشكلات النحو ومغلفاته، ملحا في ذلك حتى تذلل وتستبين معمياتها وصعابها، وكلما ذلل مسألة معية أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومسائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشى في رثاء سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة: ^(٤)

كَادَتْ نَجُومُ الْأَفْقِ تَسْقُطُ فِي الثَّرَى لَمَّا شَكَّتْ شَمْسُ الْعَلَاءِ أَفْوَلَا
لَا صَمَتْ إِلَّا وَهُوَ نَارٌ فِي الْحَشَا لَا تُنْقَى إِلَّا مَا يَمُودُ غَوِيلَا
ضَاقَتْ صَدُورُ الْخَلْقِ عَنْ أَنْفَاسِهِمْ إِذْ ضَمَّ بَطْنُ الْأَرْضِ إِسْمَاعِيلَا

وهو يببالغ بمبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم في السماء كادت تسقط في الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا في الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنيبا وضاق الصدر عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد الزاء، وهو في أصله الصبر على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير في حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، ولتلقى بابن شهيد وقد هدّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، وما قاله فيه متمزيا متقبلا للموت عن رضا: ^(٥)

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى أَبُو عَامِرٍ الْمُلَا أَقْلُوا فِقْدَانًا مَاتَ آهَاءُ عَامِرٍ^(٦)
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يُصَرَفْ بِأَسْجَاعِ خَاطِبٍ بَلِيغٍ وَلَمْ يَعْطَفْ بِأَنْفَاسِ شَاعِرٍ
وَلَمْ يَجْتَنَّبْ لِلْبَطْشِ مُهْجَةً قَادِرٍ قَوِيٍّ وَلَا لِلضُّفِّ مَهْجَةً صَابِرٍ

(٤) الكنية الكاتبة ص ١٧٦.

(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.

(٦) أودى: مات. أفلوا: لا تتكلموا.

(١) الكنية الكاتبة لابن الخطيب ص ٢١٢.

(٢) قضى: مات. شاند: بان.

(٣) حاند هنا: ضال.

يَحُلُّ عُرَى الْجَبَّارِ فِي دَارِ مُلْكِهِ وَيَهْفُو بِنَفْسِ الشَّارِبِ الْمَتَاكِرِ^(١)

وهو يقول لمن سيكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آباهة - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لا بد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينقذه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شبكه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة^(٢):

السُّوْتُ حَتَمَ وَالنَّفُوسُ وَدَائِعَ وَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنَى تَضْلِيلُ
لَا يَصِيصُ الْعَصَاءُ مِنْهُ شَاهِقُ صَعْبٌ وَلَا الْوَزْدُ السُّبْتَى غِيلُ^(٣)
يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ مُؤْمَلًا وَلَهُ رَحِيلٌ لَيْسَ عَنْهُ قُفُولُ
يَلْهُو وَيَلْعَبُ مَطْمَنًا ذَاهِلًا وَلَهُ رَسِيمٌ نَحْوَهُ وَذَمِيلُ^(٤)

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجمها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدْع يضل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المتعصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آملا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأولين يسمى محمد بن اليناقي كان من المعجبين بالأعمى التظليل وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحزّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة^(٥):

خَذَا حَدَّثَانِي عَنْ قُلٍّ وَقَلَانِ لِعَلِي أَرَى بَاقِي عَلَى الْحَدَّانِ^(٦)
وَعَنْ دَوْلٍ - جُسْنُ الدِّيَارِ - وَأَهْلِهَا فَنِينَ، وَصَرَفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِغَانِ^(٧)

السريع.

(٥) الديوان ص ٢٢٤.

(٦) الحدّتان: الليل والنهار.

(٧) جُسْنٌ: وَطْنٌ. صرف الدهر: أحواله ونوائبه.

(١) المتأكر: متعاطى السكر والتظاهر به.

(٢) الذخيرة ٨١٤/١.

(٣) العصاء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق.

الورد السبتي: الأسد الجرىء.

(٤) رسم: عدو سريع. ذميل: سير دون

وعن هَرَمَى مصر - القُدَّة - أَمْتًا بِشَرِّ شَبَابٍ أَمْ هَمَّا هَرَمَانِ

فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يَفنى ولا تَفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتعا بشباب حى ناضر أو هما نشأ هرمين عجوزين لم يعرفا شباها ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شيء - حق في الكواكب - إلى فراق، ويعود بالذكري إلى أعزاء العرب في الجاهلية الذين طحتهم الحروب، ثم يقول:

فَذَلْتُ رِقَابٌ مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ إِلَيْهِمْ تَسَاهَى عَزُّ كُلِّ مَكَانٍ
وَأَتَى قَبِيلٍ لَمْ يَصْدَعْ جَمِيعُهُمْ يَبْكُرُ مِنَ الْأَرْزَاءِ أَوْ بِعَوَانٍ^(١)
وَنَبْهَتْنِي نَاعٌ مَعَ الصَّحْحِ كُلَّمَا تَشَاغَلْتُ عَنْهُ عَنْ لِي وَعَنَانِي
أَغْمَضُ أَجْفَانِي كَأَنِّي نَائِمٌ وَقَدْ لَجَّتِ الْأَحْشَاءُ فِي الْخَفَقَانِ
أَقُولُ كَأَنِّي لَسْتُ أَحْفَلُ وَانْبَرْتُ دُمُوعِي فَأَبْدَتْ مَا يُجِنُّ جَنَانِي^(٢)

فكل أعزاء العرب واراھم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثيل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا في أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يترامى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جنانه من الهم والغم والحزن. ويقول ابن الزقاق معزيا^(٣):

هُوَ الْقَدَرُ الْمَحْتَوَمُ إِنْ جَاءَ مُقْبِمًا فَلَا الْغَلْبُ مَحْرُوسٌ وَلَا اللَّيْثُ وَائِبٌ
تَسْأَلُ أَيْمَاتُ النُّفُوسِ ذَلِيلَةً إِلَيْهِ وَتَنْقَادُ الْقُرُومُ الْمَصَاعِبُ^(٤)
وَمَا النَّاسُ إِلَّا خَائِضُ غَمْرَةِ الرَّدَى فَطَافٍ عَلَى ظَهْرِ التُّرَابِ وَرَاسِبٌ

وهو يقول إن الموت قدر حتمى للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى ورده، ويغال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطاف منهم لابد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة في صديق مات شابا متعزيا^(٥):

(١) القروم المصاعب: السادة العظام.

(٢) الديوان ص ٢١٧.

(٣) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.

(٤) الجنان: القلب والعقل.

(٥) الديوان ص ١٠٩.

إذا ارتجعت أيدى الليالى هباتها ففأية هاتيك الهبات نهابٌ
تخبُّ بنا فى كل يومٍ وليلةٍ مطايا إلى دار البلى وركابٌ^(١)
وهل مُهَجَّةُ الإنسان إلا طريدةٌ تحومُ عليها للحمام عُقابٌ^(٢)

وهو يقول إن الليالى إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأنتا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا فى كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا فى ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور^(٣):

مضى علَّم العلم الذى ببيانه تبين خافيه وبان طريقه
رجوعا إلى الصبر الجميل فحقه علينا قضى أن لا تؤدى حقوقه
أعزىكم فى البعد عنه فإنتى أهنيه قريبا من جوار يروقه
وما كان فينا منه إلا مكانه وفى العالم العلوى كان رفيقه

وهو يقول إن علَّم العلم الذى طالما أوضح خفياته وذلل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجعة الموحية: الصبر الجميل الذى دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لَهُ وَإِنَّا رَاجِعُونَ﴾ وإن التمسك بقرى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزىكم فيه فإنى أهنته بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زمرك فى رثاء سلطان غرناطة الغنى باقه صفيه وخليله حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف^(٤):

عزاء أمير المسلمين فإنها مقادير رب الخلق فى الخلق يجربها
هو الموت ورْدٌ للخليفة كلها وأخبرها تقفو سبيل أوالها^(٥)
وما بيننا حى وما بين آدم ألا هكذا سوى البرية بارها
وفى موت خير الخلق أكبر أسوة تصبر أحرار النفوس وتسلها

(٤) أزهار الرياض ١٥٥/٢.

(٥) تقفو: تتج.

(١) تخب: تحوم. ركاب: مطايا معدة للركوب.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) اختصار القدح الملئ ص ٦٣.

وهو يعزى ابن الفتي بالله بأن الله قَدَّر الموت على الخلق جميعا، فالكل لابد أن يردوا حياضه، ينبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البرية، وفي ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وأن أن نخس محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهيون، بكلمة موجزة.

محمد^(١) بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني، ولد ونشأ في أشبونة بفربي الأندلس، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد في أمراء الطوائف قالها فيهم «تحبباً لا تكسبا»، وعمر مجالسهم بها وفاة لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ في يسار ونعمة أغنته في شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلا إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنق ٤٨٣، ٤٨٤ حالت باين سوار الحال وتوزعه الإديار والإقبال، إلى أن وقع في أسر النصاري وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجه غربي طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستفاته على بن القاسم بن عشرة قاضي سلا في المغرب على المحيط، فأغاثه واقتاده، وردت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله الفم على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وظل الشاعر يذبح فيه المدائح، وكان القاضي من المقرين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظنا أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفي ابن تاشفين في المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلا:

دِينُ الَّذِي بَنَفُوسُنَا نَفْدِيهِ
لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يُرْضِيهِ
تُرِيدُ عِدِيدَ الرُّومِ أَوْ تَفْنِيهِ^(٢)
حَكَمَ الْقَضَاءُ بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ
فِي كُلِّ مَا تُخْفِيهِ أَوْ تُبْدِيهِ

اسْمِعْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ
جُوزَيْتَ خَيْرًا عَنْ رَعِيَّتِكَ الَّتِي
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ مَهْرُورَةٌ
تَصِلُ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مُوَفَّقًا
مَتَوَاضِعًا قَدِّمَ مُظْهِرَ دِينِهِ

أسرة بني عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة
من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.
(٢) تردى: تهلك.

(١) انظر في محمد بن سوار وترجمته وشعره
الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدين من
الشراء للقطبي ٣٥٩ والواق ١٤٣/٣ وراجع

وهو يشيد بأبن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التي أجلت استرداد الإسبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذى يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته في جهاده المستميت للإسبان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد إعلاء لكلمة الله في تواضع حميد. ويتوفى القاضي على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العيشُ بمدك يا علئى نكالُ لا شئَ منه سوى العناءِ يُنالُ
يا عصمةَ الفقراءِ بل يا مالهم هبها ما للناسِ بمدك مالُ
قد كنتَ آمالى التى أنا طالبُ جَهْدِي ومَت فماتتِ الآمالُ
لا الظلُّ ظلٌ بعد فقدك يا أبا حَسَنِ ولا الماءُ الزلالُ زُلَالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموما، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضي في القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته في صبي يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبي العباس، كما ينشد له أبياتا في رثاء قاضيين، وربما كانا من بنى عشرة. ولعل فيها قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية المخصصة..

ابن^(١) وهيون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهيون، مولده ومنشؤه بُرْسية على البحر المتوسط، وهى من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقى الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباچ. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هى التى أنتجت ابن سيدة أكبر لغوى أندلسى صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهيون تتلمذ له، وقد يكون هو الذى دفعه للقراءة في كتب

للمراكشى ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاعر
٥١٣/١.

(١) انظر في ابن وهيون وترجمته وشعره الذخيرة
٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والخريدة ٩٥/٢
والمطرب ١١٨ وبخية المختص رقم ١١٠١ والمعجب

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشراء، ونراه يقد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلام الشتمرى ويختلف إلى حلقاته، ويعجب به ابن وهون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فبلغه أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقُثم الأعلام قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواء، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عرش إمارته ونفاه إلى أغنات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقي قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على أيديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد في الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفى أستاذه الأعلام الشتمرى سنة ٤٧٦ فبكاه بحرثية حارة استهلها بتأملات عميقة في الحياة والموت منشدا:

نَفْسِي وَجَسْمِي إِنْ وَصَفْتُهُمَا مَعَا أَلْ يَذُوبُ وَصَخْرَةُ خَلْقَاءُ^(١)
 لَوْ تَعْلَمُ الْأَجْبَالُ كَيْفَ مَا أَلْهَا عَلِمَى لِمَا امْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءُ
 إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يَرَادُ بِنَا فَلِمَ نَعْيَا الْقُلُوبُ وَتَقْلُبُ الْأَهْوَاءُ
 طُفِئَ الْمَنَايَا فِي أَسَالِيبِ الْمَنَى وَعَلَى طَرِيقِ الصَّحَّةِ الْأَدْوَاءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت حقيقة أنها لابد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباهه تراءى لنا فيها نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدوية والأمراض كأنها تنتظر الأضواء. ويستمر في إنشاده:

مَاذَا عَلَى ابْنِ الْمَوْتِ مِنْ إِبْصَارِهِ وَلِقَائِهِ هَلْ عَقَّتِ الْإِهْنَاءُ
 لِمَ يَنْكُرُ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ نَابِتٌ فِي طَبْعِهِ لَوْ صَحَّتِ الْآرَاءُ
 ذَنْفٌ يَبْكِي لِلصَّحِيحِ وَإِنَّمَا أَمَوَاتِنَا - لَوْ تَشَعَّرُ - الْأَحْيَاءُ
 مَا النَّفْسُ إِلَّا شُعْلَةٌ سَقَطَتْ إِلَى حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهَا التَّرَى وَالْمَاءُ

حتى إذا خلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقة وعناء

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفرح من لقائه؟ أهو ابن عاقٍ لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت في كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضاً ثقيلاً يُشفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخلقيون بالبكاء لهم، وفيهم إذن ييكون على من لبوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوى إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهيون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس في الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناء، مؤثراً الأعلام الشتمى أستاذه تأبيناً رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول

هذا اللون من رثاء الدول قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ نجد الأسود بن بقر يرثي دولة آل محرق في الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور المخورق والسدير وسنداد حيث كانوا يعيشون في ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها الشاعر أبو العباس الأعمى المكي طويلاً. وسينية البحرى في إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت له نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى في نضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين في حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لبأهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيبهم وبأل غاراتهم في مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بفرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغمات بقرب مراكش وكانت قرطبة تنبته وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقي

مصر أخيه المأمون. واستولى المراهطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابن تاشفين أن تترك لأمرائها الوسائل الذين ينازلون مجاورهم من نصارى الشمال وينكّلون بهم. وأبى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمراهطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتباً شاعراً، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالها، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء الطوائف، وبذلك أعاد سيرة سيف الدولة في حلب والرشد في بغداد، وكُتب للمعتمد أن يعيش بضعة سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكأها مثله ابن اللبانة، وحرى أن نخص كلا منها بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلها بكلمة موجزة.

المعتمد^(١) بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتمد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة في الجاهلية رُزق به المعتمد سنة ٤٣٦ ونشأ في الحلية والزينة والترف، وكان المعتمد أديبا مثقفا، فكان طيبعا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبّ وتفتح ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال في بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شلب في الجنوب الغربي للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمى بقصر الشراجب، وتعرف عليه سريعا ابن عمار الشلبى، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمر والمجون والسباع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه في نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدرسه على الحكم، وتصادف أن تعرف سريعا على فتاة تسمى اعتاد مولاة لرُمك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجالها وبدهاتها الشعرية على نحو ما مرُّ بنا في غير هذا الموضع، فاقرن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقرمونة في الشمال الشرقى لإشبيلية ولُبلة وباجة في غربها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

(١) ١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان
المغرب ٢٥٧/٣ والوافي ١٨٣/٣ وابن خلكان
٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة
الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

(١) انظر في المعتمد بن عباد ترجمته وأخباره
الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة
السراة ٥٢/٢ والخريدة للمصدا الأصبهاني ٢٥/٢
والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة

الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سرىما، وغرّه ذلك فأفضى إلى لهوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتمد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة في العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عُنى ابن بسام في الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس في الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبّاهم وكتب لهم معه النصر المؤزر في الزلافة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانفاس في اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بآبن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مرّفوها في يد كل منهم مرّة مع ما يستنزفونه من طبيقاتها في الخمر والمجون. وعبر يوسف الزقاق، واستسلم سرىما أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم في الزلافة النجدة ضد آبن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جرّما فظيما وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا في موطنه، وقاوم ولم تنفمه مقاومته فاستسلم، وأمر آبن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغّات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتقاد الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها في منفا. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياء مرفهة، واسمه ملء الآذان في الأندلس، والشعراء يقدون عليه ويروجون بفراند من أمداحهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلة. وكل ذلك أحمى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويندرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ	بأرضِ	المغربينِ	أسيرُ	سيبكي،	عليه	بنبرُ	وسريرُ
وتدبهُ	البُيُصُ	الصَّوارمُ	والقنا	وينهلُ	دمعُ	بينهنَّ	غزيرُ
فيا ليت	شغرى	هل أبئتُ	ليلة	أمامي	وخلفي	روضة	وغديرُ

بِحُبْنَتِ الزَّيْتُونِ مَوْثِقِ الْعَلَا تَقْنَى قَيْسَانَ أَوْ تَرْنَ طَيُورُ
بَزَاهِرِهَا السَّامَى الذَّرَى جَادَ الْحَيَا تُشِيرُ الثَّرِيَّا نَحُونَا وَنُشِيرُ

لقد أصبح غريبا وأسيرا منفيا في المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته ليكيانه وتبكي شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والملا والقيان المفتيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأتق في بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباهج التي نعم بها المعتمد في إشبيلية إلى متاعس في أغصان، وحانت منه التفاتة فرأى قمرية تنوح بفنيتها وأمامها وكر أوعش به حمامتان، وكأنها تبكي ألينها فقال:

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ الْفَيْنَ ضَمَمَهَا وَكُرُ مَسَاءُ وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدُّفْرُ
بَكَتْ لَمْ تُرَقِّ نَمْعًا وَأَسْبَلَتْ عُبْرَةً يَقْصُرُ عَنْهَا الْقَطْرُ مَهْمَا هَمَى الْقَطْرُ
وَنَاحَتْ وَبَاحَتْ وَاسْتَرَاحَتْ بِسَرِّهَا وَمَا نَطَقَتْ حَرْفًا يَمُوجُ بِهِ سِرُّ
فَمَا لِي لَا أَبْكِي؟ أُمُّ الْقَلْبِ صَخْرَةٌ وَكَمْ صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْرُ
بَكَتْ وَاحِدًا لَمْ يُشْجِهَا غَيْرُ فَقْدِهِ وَأَبْكِي لِأَلْفِ عَدِيدِهِمْ كَثُرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت الفين في وكر، بينما هي فقدت إلفها، فهي تبكيه بدمع مترقق في جفونها لا يبلغ تعبيره في الحزن والشجا القطر مهما هي وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذي فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكي؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجري به - الأنهار والمياه الغزيرة، ولقد بكت واحدا شجاعا وأحزنها فقده، وحرى بي أن أبكي الألفي وخلاف الذين يخطئهم المد. ويمر به سرب قطا فهيج وجده ويحرك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

أَلَا عَصَمَ اللَّهُ الْقَطَا فِي فِرَاحِهَا فَإِنْ فَرَاحَى خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلُّ

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله في فراخها فلا تصاب بظما ولا بسغبة وذعنا كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة^(١)

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللّخمي الداني، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التي كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صديق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعينت به وهريته، فتقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيرا عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالا، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده ينتقل في البلاد، وزاره بأغاث في منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقول ابن سعيد عنه أنه كان في أخبار الشعراء، وحاضر به في المربة بجنوبي الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد في أغاث أولم يعد، غير أنه لما توفي رثاه رثاء حارا. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بمورقة، ويبدو أن كلا منهما أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، وما زال ابن اللبانة يعيش في رعايته حتى توفي في الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلا رائعا في الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مرارا وتكرارا، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

على البهاليل من أبناء عباد^(٢)
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد^(٣)
أساود منهم فيهما وآساد^(٤)
وقد خلت قبل حمص أرض بقداد^(٥)
في ضمّ رحكك واجمع فضلة الزاد^(٦)
خف القطين وجف الزرع بالوادي^(٦)

تبكي السماء بمنع رائح غادي
على الجبال التي هُندت قواعدها
عبريسة دخلتها النائبات على
إن يخلصوا فبنو العباس قد خلصوا
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل وادبهم لتسكنه

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأنفى الكبير. المريسة:

غيل الأسد والأساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

(١) انظر في ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة

٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب

٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والنكلمة

رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والوقا بالفوات

٢٩٧/٤ وبغية المنصور رقم ٢١٣.

(٢) رائح غادي: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بنى عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغاية اقتحمته الكوارث على أسد مفترسة وحيات ضخمة سامة. ويعزى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة في خلج آل عباد بمن خلعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمتعمد وآبائه طالبين القرى والضياقة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلالهم رحل السكان وجف الزرع بالوادي الذي كان خصبا مرمعا. ويصور مشهد المتعمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن في نهر إشبيلية الكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودعونهم، يقول:

نسبتُ إلا غداةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ	فى المنشآت كأموالٍ بالحدادِ
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق أزهاد ^(١)
حطَّ القِنَاعُ فلم تسترْ مخدرة	ومُرَّتْ أوجهُ تمزيقِ أهْراد ^(٢)
حانَ الوداعُ فضجتْ كل صارخة	وصارخ من مفداةٍ ومن فادى
سارت سفائنهم والنوحُ يصحبها	كأنها إبلٌ يخذو بها العادى
كم سال فى الماء من تمنعٍ وكم حملتْ	تلك القطائعُ من قِطَعَاتِ أكباد ^(٣)

يقول إننى مهما نسيت فلن أنس رحيل المتعمد وآله في السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زبدته ولا ترسب في القاع. ويقول إنهن سرن من قصورهن سافرات لحزنهن بلطنن ونغمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعتهن. وضع الرجال والنساء على الشاطئين، وضع من في السفن وضع المفكئون الملوحون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الهداء الإبل السائرة في الصحراء، وكم سال في ماء الوادي الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المتعمد في أغات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للقطاع، وبذلك ملأ قلوب العرب في كل مكان - إلى اليوم - عطفًا على المتعمد، وكأنما غسل بدموعه عليه

(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

(١) العبرين: الشاطئين.

(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.

سينات حكمه من أدائه الجزية للملك النصراني في الشمال ومحاربتة لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلافة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السينات استطاع ابن اللبانة أن يحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعراً كبيراً كان وشاحاً كبيراً أيضاً، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشاحي الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين في كتابه «دار الطراز»

ابن عبلون^(١)

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى البأبرى، من يابرة غربي بطليوس، عُنى أبوه بترتيبه، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلام الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفي الصلة لابن بشكوال أنه كان عالماً بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن مظفر أمير بطليوس وكان كاتباً شاعراً مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذاً لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشنترين وأشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشئ في إمارته، ونفاجاً بوفود الشاعر على المعتمد ومدبجه، ولم يجد لديه قبولا لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلدته، فرجا ظن أنه أرسله عنيًا عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يَفِدْ بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنوالة وجودته، إذ اتَّخَذَه جليسا ورفيقا له في زيارته لمدينة إمارته، وأسبغ عليه من الود حلا ضافية، جعلته يلهج بمدبجه ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقتلهم وقُتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورنى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك في شعره أنه لن يقدِّمه إلى أمير، وكأنما مات

(١) انظر في ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة:

٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للراشدي ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفع في مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

الأمراء جميعا في شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين الذي ولى إشبيلية بعد استئصال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنقرين، ويقول المراكشي إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابته لا يدري والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبي بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشي في موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك» ثم يعددهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتباً عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجموا له بأشعاره، وخاصة برأيته التي رثى فيها دولة المتوكل ببطلليوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجموا له ينشدونها في ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبى من أدباء القرن السابع الهجري فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزى ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عظماء الأمم وحكامها الكبار ودولها الفاهرة وحيواناتها الفاتكة وطبورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأبين والثناء بالملوك الأعزة وبالوعول المعتنعة في قُلل الجبال والأسود المخادرة^(١) في الغياض والبالسور والعقبان والحيات في طول الأعبار^(٢)». وهو يستهلها بقوله:

فما البكاء على الأشباح والصُور
عن نومة بين ناب اللَّيْلِ والظُّفَر^(٣)
من الليالي وخاتمتها بِدُ الغَيرِ^(٤)
منا جراح وإن زَاغَتْ عن النُّظَرِ
كالأَيِّم نَارَ إلى الجاني من الزُّهرِ^(٥)

الذُّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ - لَا أَلَوْكَ مَوْعِظَةٌ -
مَا لِي لِيَالِي أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغْرُبَ بِهِ

(٣) لا أَلَوْكَ مَوْعِظَةٌ: لا أقصر في وعظك.

(٤) أَقَالَ: تجاوز وصفه، الغير: أحدات الدهر.

(٥) الأيِّم: الأفي.

(١) المخادرة: الساكنة. الغياض جمع غضة؛

الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دأبنا يرسل فواجهه على المحسوس وما وراء المحسوس، ففيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا، ويقول إنني لا أقصر في وعظك ونهيك عن الاستقامة إلى الدهر، وهو قد أنشبت فيه نابه وظفره. ويدعو الله أن يُقِلنا وينقذنا من عثرات الليالي وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ في كل حين نصيبنا في عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإننا إن سررت بشيء - وهيهات - فلنكن نخدعنا به، بل لنكن نلتسنا من خلاله اللسمة القاضية، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفه اللسمة السامة المميتة. ويأخذ في العظة بذكر من أبادتهم الليالي والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصْرِ خِدْمَتَهَا	لم تَبْقَ منها - وَسَلْ دُنْيَاكَ - من خَيْرِ
هَوَتْ بِدَارَا وَفَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ	وكان عَضْبًا على الأُمْلَاكِ ذَا أَثَرٍ ^(١)
واسترجعت من بني ساسان ما وَهَبَتْ	ولم تَدْعُ لِنَبِيِّ يُونَانَ من أَثَرِ
وَأَتَبَعَتْ أَخْتَهَا طُسْنَا وَعَادَ على	عَادٍ وَجَرَّهُمْ منها نَاقِضُ الجِرِّ ^(٢)
وَمَزَقَتْ سَبَأَ في كل قَاصِيَةٍ	فما التَقَى رَائِحَ منهم بِمَبْتَكِرٍ ^(٣)

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت لليالي لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حالق، هوت بدارا ملك الفرس، قتلته الإسكندر المقدوني، ولم تلبث أن هُدَّتْ منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فنلتمته وحطمته. وقد استرجعت من بني ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتي طسّم وأختها جديس في اليمامة، وكُرِّ الدهر على عاد وجرحهم نكباته حتى محاهها محوا، ومزقت لليالي سبأ كل ممزق، ففترق أهلها في الأرض ولم يلتق منهم رائح بفاد مبكر. ويمضى ابن عبدون في الحديث عن أهلكتهم الليالي من أعظم العرب في الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفَرُ والأَيَّامُ ما بَرَحَتْ	مراحلاً والوَرَى منها على سَفَرٍ
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يوما ولا حَمَلَتْ	بمثله لَيْلَةٌ في مُقْبِلِ الصُّمْرِ

(٣) مبتكر: مبكر في الذهاب ضد رائح: راجع.

(١) المضب: السيف القاطع. أثر: فرنديروتق.

(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.

مَنْ لِلْأَيْسَرَةِ أَوْ مِنَ الْأَعْيُنَةِ أَوْ مِنَ الْأَسْنَةِ يُهْدِيهَا إِلَى التُّفْرِ (١)
وَيُخِّ السَّاحِرِ وَيُخِّ الْبَاسِ لَوْ سَلِمَا وَاحْشِرَةَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا عَلَى عُمْرِ

وهو يقول لبني المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالي من الدول والعظماء تلك هي الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء. ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذي زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة نقسة من الليالي. ويكيهم لمرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للساح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمريثة تعد من فرائد الشعر الأندلسي، بل الشعر العربي بهامة، وبدون ريب يُعد ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية (أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين. زهدوا في متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة. مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عائلة على المجتمع. وتلقانا - على مر التاريخ - طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم - على ألسنتهم - إلى مواظب وأشعار كثيرة. وشركهم في أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوي وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل بلد عربي، وتلقانا منه سيول كثيرة في الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصروا حياتهم - أو شطرا كبيرا منها - على النسك والعبادة. وأول من نذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب (٢) عبد الرحمن العباسي القرطبي المتوفى سنة ٣٤٤ لهجد عبد الرحمن الناصر،

(١) النثر: جمع ثفرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه (٢) انظر في أبي وهب وترجمته وشعره المغرب ٥٨/١ والتكملة ص ٧١٨ والنفع ٢٠٧/٣. ٢٢٦.

بالأسنة صدور الأعداء.

ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين في الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا في حالتي - التي قد تراني إن تأملت - أحسن الناس حالا
منزلي حيث شئت من مستقر الد - أرض أسقى من المياه زلالا^(١)
ليس لي كسوة أخاف عليها من مُفِير ولا ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي ثم أتى - إذا انقلبت - الشمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذي يستر جسده ولا مالا يكتزّه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مفير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب نفي الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا^(٢)، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلط علينا في هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بفيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امح من قلوبنا الطمع في هذه الغانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنام وقد أبعد لك السهاد وتوقن بالرحيل وليس زاد
وتصبح مثل ما تُسمى مُضيعة كأنك لست تدري ما المراد
أنطمع أن تفوز غدا هنيئا ولم يك منك في الدنيا اجتهاد
إذا فرطت في تقديم زرع فكيف يكون من عدم حصاد

وهو يقول مخاطبا: كيف تنام وقد هيئ لك سهاد، كي تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دنياك وأنت لم تهيئ لنفسك زادا لرحلتك، وتصبح وتسمى مضيعة كأنك لست تدري ما المراد، أنتطمع أن تفوز غدا هنيئا ولم يك منك في الدنيا اجتهاد، وإذا فرطت في تقديم زرع فكيف يكون من عدم حصاد.

١) زلالا: عذبا.

٢) أسفرنا: أصبحنا.

٣) انظر في الطيّل وترجمته وشعره الذخيرة

من الجزء الخامس ص ١٩٥.

على بن إساعيل الفهرى القرشى الأشبوني، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركاً في الحديث والفقه، أمضى في ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم في معانيها أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة^(١) في رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عرفت برابطة الطيطل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفي. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه، ويذكر إنه نظم الدرر المفصل في الزهد، ومن نظمه:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجة فدَعُهُ لِأُخْرَى يَنْفَتَحُ لَكَ بِأُيُهَا
فإنَّ جِرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مَلُوءُهُ وَيَكْفِيكَ سَوَاءُ الْأُمُورِ اجْتِنَائُهَا^(٢)
ولاتك مَهْذَالاً لِمَرْضِكَ واجْتَنِبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابُهَا

وهو يوصي صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب في الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلئ، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغتنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرض نفسه لعقاب، وليصنَّ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصي حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الموتُ بِرِيعَاكَ كُلِّ حِينٍ فَكَيْفَ لَمْ يَجْفِكَ الْيَهَادُ
مَا حَالُ سَفِيرٍ بِغَيْرِ زَادٍ وَالْأَرْضُ قَفَرٌ وَلَا مَرَادُ^(٣)
فأَبْنِ بِهَا لِلتَّقَى بُرُوجًا تَأْمَنُ إِذَا رُوعَ الْعِبَادُ

وهو يقول إن جرس الموت يندق في كل حين، فكيف لا تُحَيِّى الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر في صحراء مجربة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذ التقى والورع عُدَّتَكَ تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية في ظلمة الليل إلى خرق كتف الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبحة رها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

(٣) مراد بفتح الميم: مَرَعَى.

(١) الرابطة: بيت للعبادة.

(٢) الجراب: وعاء الزاد.

وَوُلِدَ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ سَنَةِ ٤٤٠ بِكَارٍ^(١) بَنَ دَاوُدَ الْمُرَوَّانِي، وَلَحِقَ عَصْرَ الْمُرَابِطِينَ وَعَاشَ فِيهِ فِتْرَةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ، مَوْلَدُهُ فِي شَنْتَرَةٍ مِنْ بِلْدَانِ أَشْبُونَةِ بَغْرِي الْأَنْدَلُسِ، دَرَسَ فِي قَرْطَبَةٍ ثُمَّ اسْتَوطنَ أَشْبُونَةَ. وَيُرَوَّى ابْنُ سَمِيدٍ عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْإِمَامِ صَاحِبِ سِفْطِ اللَّائِلِيِّ فِي أَخْبَارِ شُعْرَاءِ عَصْرِهِ الْمُتَوَفَى بَعْدَ سَنَةِ ٥٥٠ أَنَّهُ لَقِيَهُ وَكَانَ غَايَةً فِي الزَّهْدِ مَطْرَحًا لِنَفْسِهِ وَاسْتَشْهَدَ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَيَقُولُ إِنَّهُ اسْتَنْشَدَهُ مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ:

يَقِي بِالَّذِي سَوَّاكَ مِنْ عَدَمٍ قَبْلَكَ مِنْ عَدَمٍ
وَأَنْظُرْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ قَرِّ عِ السَّنِّ مِنْ فَرْطِ النَّدَمِ
وَاحْذَرْ - وَقِيَتْ - مِنَ الْوَرَى وَأَصْحَبَهُمْ أَعْمَى أَصَمٍ
قَدْ كُنْتُ فِي يَتِيهِ إِلَى أَنْ لَاحَ لِي أَهْدَى عِلْمٍ
فَأَقْتَدْتُ نَحْوَ ضِيَائِهِ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الظُّلَمِ

وهو يقول: ضَعُ ثِقَتَكَ فِي اللَّهِ الَّذِي سَوَّاكَ وَخَلَقَكَ مِنْ عَدَمٍ، وَفَكِّرْ فِي نَفْسِكَ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَهْتَضَ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَعُضَّ عَلَى أَصَابِكَ نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ خَالِقِكَ. وَاحْذَرْ النَّاسَ وَأَصْحَبَهُمْ كَأَنَّكَ لَا تَرَاهُمْ وَلَا تَسْمَعُهُمْ. وَيَقُولُ إِنَّهُ كَانَ فِي تِيهِ ضَلَالٌ وَظَلَامٌ حَالِكٌ إِلَى أَنْ لَاحَ عِلْمُ الْهَدْيِ فَاهْتَدَى بِضِيَائِهِ. وَمِنْ الزَّهَادِ لِعَصْرِ الْمُوحِدِينَ أَبُو الْحِجَااجِ يَوْسُفُ^(٢) الْمَنْصَفِيُّ، مِنْ قَرْيَةِ الْمَنْصَفِ مِنْ قَرْيَةِ بَلَنْسِيَةِ فِي شَرْقِيِّ الْأَنْدَلُسِ، وَيَقُولُ الْمَقْرِيُّ: كَانَ صَالِحًا وَلَهُ رَحْلَةٌ حُجٌّ فِيهَا، وَمَالَ إِلَى عِلْمِ التَّصَوُّفِ، وَلَهُ أَشْعَارٌ حُمِلَتْ عَنْهُ، مِنْهَا قَوْلُهُ:

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: أَتَاكَ الرَّدَى وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا مُقِيمٌ^(٣)
هَلَا اتَّخَذْتَ الزَّادَ قَلْتَ: أَقْصِرِي هَلْ يُحْمَلُ الزَّادُ لِدَارِ الْكَرِيمِ

فَنَفْسُهُ قَالَتْ لَهُ: أَتَاكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ غَارِقٌ فِي الذُّنُوبِ فَهَلَا اتَّخَذْتَ زَادًا لِلْمَعَادِ؟ فَقَالَ لَهَا إِنَّ الزَّادَ لَا يَحْمَلُ لِدَارِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ. وَمِنْ طَرِيفٍ مَا قَبِلَ حِينَئِذٍ فِي الزَّهْدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ قَوْلَ الْفِيلَسُوفِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ طُفَيْلٍ^(٤):

يَا بَاكِيًا فُرْقَةً الْأَحْبَابِ عَنْ شَحِطٍ هَلَا بِكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْهَدَنِ^(٥)

(١) الردي: الموت.

(٢) المحجب للمراكشي ص ٣١٣.

(٣) شحط: بعد.

(١) راجع في بكار وترجمته وشعره المغرب ٤١٥/١ والنفع ٣٣٤/٣.

(٢) انظر في أبي الحجاج المنصفي وترجمته وشعره المغرب ٣٥٤/٢ والنحفة رقم ٣٧ والنفع ٣٣٦/٣.

نورُ تردّد في طينٍ إلى أجلٍ فانحاز عُلُوًّا وخَلَى الطينَ للكفنِ
ياشدُّ ما افترقا من بعدما اعتلّقا أَظنّها هُدْنَةٌ كانت على دَخَنِ^(١)
إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيألّها صَفَقَةٌ تَمّت على غَبَنِ^(٢)

وهو يقول لمن يبكي على أحبابه حين يموتون أنبكي لفراقهم ولا تبكي لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نوراً تردّد وقتاً في طين الجسد، ثم تسامى عنه عُلُوًّا وخلاهُ للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجها طول الحياة، وكأنما كانت بينها هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعها وامتزاجها إن لم يكن في رضا الله كان صفقة أو بيعه خاسرة.

وتكاثر الزهاد لمعهد يعقوب الموحدى وكوّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه في غزوة الأَرَك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم في الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر هؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكل مذهب^(٣). ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران^(٤) موسى بن عمران المازنلي وهو من مارتلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار في التكملة: كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله في ذلك آثار معروفة مع المظ الوافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر في الزهد والتخويف، وكان ملازماً لمسجده بإشبيلية، توفي سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عَنِّي فلا ترعوى وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا أوملُ طولَ البقا وأغفلُ والموت لا يفعلُ
وفي كل يومٍ يُنادي بنا مُنادى الرحيلِ ألا فارحلوا
كأن بي وشيئكا إلى مضرعى يساق بنعشى ولا أمهلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المعمرات ولا تزدرج، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.

(٢) الفين في البيع: الوكس والحسارة.

(٣) المعجب للمراكشي ص ٣١٣.

(٤) انظر في ترجمة أبي عمران المازنلي المغرب

٤٠٦/١ والنفع ٢٢٥/٣ و٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧

ونحفة القادم رقم ٥٨ والفصول الهامة ص ١٣٥.

ولا تنتصح، وكم يؤمل في البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يفعل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريباً سيرحل، ويحمل في نعشه ولا يجهل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذي كان يجرى على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق في مجراها الذي بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجي^(١):

لَمْ يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الْحَيَاةَ إِقَامَةً أَنْ الْحَيَاةَ تَنْقُلُ وَتَرْحُلُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُنْيَاهُ مَرَحَلَةً وَيَدْنُو الْمَنْهَلُ
يَحْظِي السَّعِيدُ بِهِ بِطُولِ سَعَادَةٍ وَأَخُو الشَّقَاوَةِ لِلشَّقَاوَةِ يَنْقُلُ
لَا تَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا اسْتَذْبَرْتَهُ وَلَتَبْكُ إِشْفَاقًا لِمَا تَسْتَقْبِلُ

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، في كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكي المرء إشفاقاً على ما خلف منها وراء ظهره وحقه أن يبكي إشفاقاً على ما يستقبله في آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة منشئاً بعفو الله ورحمته في أول قصيدة هديوانه:

لَقَدْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ أَبْوَابَ عَفْوِهِ لِمَنْ رَاجَعَ الذِّكْرَى وَأَقْبَلَ خَاشِياً
إِلَهِي لَا تَفْضَحْ عُورًا سَتَرْتَهُ فَمَا لِي مَأْمُولٌ سِوَاكَ إِلَهِي^(٢)
هَلَكْتُ رَدَى إِنْ لَمْ أَنْلُ مِنْكَ رَحْمَةً تَبْعِدُ زَوْعَاتِي وَتَذِينُ أَمَانِيَا
لَعَلَّ الَّذِي قَامَ الْوُجُودُ بِجُودِهِ يُهَيِّدُ بِحُسْنِ اللَّطْفِ حَالِي حَالِيَا^(٣)

وهو يقول إن الله - جل شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريمها لمن راجع نفسه وأقبل خاشياً منيها، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسمة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حالياً مزداناً. ويستفتي لسان الدين بن الخطيب بربه منشداً^(٤):

(٣) حالياً: مزداناً.
(٤) أزهار الرياض ١/٢٧١.

(١) الديوان ص ٩٧.
(٢) العوار: العيب.

إِلَهِي بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالْمَسْنَى
وَبِالْمَوْقِفِ الْمَشْهُودِ - يَارَبِّ - فِي مَنِي
وَبِالْمَصْطَفَى وَالصُّحْبِ عَجَلْ إِقَالَتِي
صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمُسْتَفَاتُ جَنَابُهُ
وَجَمْعُ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا^(١)
إِذَا مَا أَسَالَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدُّمْعَا
وَأُنَجِّجْ دُعَائِي فَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى^(٢)
أَقِلْ عَثْرَتِي يَا مَأْمُولِي وَاجْبُرِ الصَّدْعَا^(٣)

وهو يتوسل إلى الله بقدساته: بيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة في الحج وجميع أو المزدلفة مجتمع الحاج، ويعوقهم في مَنِي متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجناحه، وإنه ليستغث به ضارعا إليه أن يُقبله من عثرته ويجبر الصدع أو الشق البين في أعماله. وحرى بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإليري.

أبو إسحق^(٤) الإليري

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، من أهل حصن العقاب بالقرب من البيرة، ولزم في نشأته فقيها ومحدثا ابن أبي زمنين المتخلق بأخلاق الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجوا له إنه كان من البكائين الورعين الحاشمين، ويقول ابن الأبار في التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس مجلسه لإفادة الطلاب في البيرة. وخرُجَ سريعا في عهد زاوي بن زيري الذي اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبي زمنين. ونرى أبا الحسن علي بن محمد بن توبة حين يتولى القضاء لهاديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتباً له. واصطحبه معه إلى المرة حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

(١) جمع: المزدلفة.

(٢) الإقالة للشخص: العز عنه والصفح والإعفاء.

(٣) صدعت: جهرت: الصدع: الشق والكسر.

(٤) انظر في أبي إسحق وترجمته وشعره الحميدي في الجفوة والضئى في البنية ص ٢١٠ والتكملة

لابن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ١٣٢/٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان في مدريد غرسة غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

زهير الصقلي أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضي وأنه ظل كاتباً له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النفريلة اليهودي وزير الأمير باديس لتسلطه - مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود - على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمراً من باديس بنفى أبي إسحق من غرناطة إلى البيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه في العقاب. وتوفي إسماعيل بن النفريلة، وخلفه في وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضج الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى في أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، ورددها الناس في الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألمنا بها في حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبى نداء ربه في نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبي زمنين مصنفاته في الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضاً مصنفاته في الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حملّه عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد في نفسه مبكراً، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها في نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعراً مجوداً وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سحيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام يحفظونها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصحة وخواطر متنوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض الشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حاسي يتدفق في عذوبة. والديوان يستهل بتائية في مائة بيت وسبعة يفتحها بقوله:

نَفْتُ فُسُؤَاذِكَ الْأَيَّامُ قَتْنَا وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْنَا
وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبَ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

ومضى أبو إسحق في القصيدة بهذه الصياغة والمعاني التي تؤثر في الأفتدة تأثيراً يملك على قارئه وسامعه كل شيء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينাম ويستغرق في نومه حتى إذا وافاه الموت انته بهد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا بجال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها نسوة حقبة وتسرو قتنا، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يجب أحد سجنه، ولا يفره طعامه فيها فستأكله حطاماً، وكل يوم يشهد فيها دَفِينًا، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليمبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به في آخره، وينصحه أن يلزم قرع باب الله فسيُفتح له يومًا، وينشد:

فلو بكتِ الدُّمَى عَيْنَاكَ خَوْفًا لَدُنِّيكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنَّا
وَمِنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ أَمَرْتُ فَمَا انْتَحَرْتُ وَلَا أَطَعْنَا
وَتَشْفِقُ لِلْمَصْرُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسُكَ مَا رَجِمْتَا
تَفْسِرُ مِنَ الْهَجِيرِ وَتُنْقِيهِ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْنَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ في بكائه حتى يبكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصي ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفي قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعاملينا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرض على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوبتك ويفضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة:

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَنْقُذُ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كَيْمَرَجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة في النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المُهْل فيها، ويطعم الزقوم، وتندافع سيول النار في القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبى إسحق المعافاة والعق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

يَأْنِيهَا الْمُفْتَرُّ بِأَقْبِهِ فِرُّ مِنْ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ
وَلَدَّ بِهِ وَاسْأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَا مَنْ لَا ذِ بَأَقِهِ
وَقَمَرُ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جُنْحِهِ فَحَبِّذَا مِنْ قَامِ اللَّهِ
وَاتَّلِ مِنَ الْوَحْيِ وَلَوْ آيَةً تُكْسِي بِهَا نُورًا مِنْ اللَّهِ
وَعَفَرِ الْوَجْهَ لَهُ سَاجِدًا فَمَزُ وَجْهَ ذَلِ قَه

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فِرْ من عقابه إلى ثوابه والجا إلى ربه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجد في آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبح الله نورها عليك، ومَرِّج وجهك في العفر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللا له، فَمَرِّج وجهه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة في الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضيء جوانبه، وتنزل منه منزلا محكما.

(ب) شعراء التصوف

ألمنا في الفصل الأول بنشأة التصوف في الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع في عقيدته بين التصوف على طريقة ذي النون المصري كما يقول ابن الفرضي وبين آراء المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية^(١) وقام عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرُّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبي عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتنة في كثير من الصدور وظل لها أنصار في عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرُّ في غير هذا الموضع - إسماعيل الرُّعَيْنِي.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفي استظهر في وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر^(٢) أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبري الأصولي المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبي الذي روى عنه تأليفه «إنه كان متكلمًا دقيق النظر عارفاً بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائراً عليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خربت بها قبيلة صنهاجة في عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

والمغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسن تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبي واشتهر بالعلم والفضل، توفي سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حبان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) انظر في أبي عمر أحمد بن عيسى الإلبري وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسلم بها في الفصل التالي، وينشد له ابن بسام:

شربتُ بكنسِ الحبِّ من جوهرِ الحبِّ رَجِيحًا بكفِّ العقلِ في رَوْضَةِ الحبِّ
وخامَرَ ماءَ الروحِ فاهتزَّتِ القُوى قُوى النفسِ شوقًا وارتياحًا إلى الرُّبِّ
ونادى حَيْثُما بالآئينِ حنينها إلهي إلهي مَنْ لعبدك بالقرْبِ
وخاطبه وخيًّا إليه بليكه: سأكشفُ - يا عَبْدِي لَعْنِكَ - عن حُجْبِي
فأعلن بالتسبيح: مثلك لم أجِدْ تعاليتَ عن كفِّ يكافئك أَوْصَحَبِ

وهو يقول إنه شرب في روضة الحب الإلهي رحيقا مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنَّت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى - وأن في ندائه - متلهفا على قربه من ربه، وتحلَّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجه، فسبح بحمده منزها له عن أن يكون له كفء أو صاحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ - ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾. والتصوف في الأبيات - كما ذكر تلميذه أبو المطرف - تصوف سني، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذي يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفي. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال في مثل قوله:

يا مُعَدِّناَ للكلِّ كُنْتَ وَلَمْ تَزَلْ وكذلك رَبِّي لا يَزَالُ بَلا مَكانَ
وقوله:

جَلَّتْ صَفاتُ جَلالِهِ، فَجَلالُهُ قَدْ جَلَّ عَنْ تَحْديدِ كَيْفٍ وَمَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحده مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسین بلاسیوس - ويتابعه پالنثیا - أن مدينة المریة على البحر المتوسط في الجنوب الشرقي للأندلس أصبحت في القرن الخامس الهجري - بتأثير آراء ابن مسرة - مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبیری الصوفي وأبو العباس بن العریف^(١)، وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

الونا التفتازانی طبع دار الكتاب اللبناني)
ص ٧٦.

(١) انظر في ذلك پالنثیا ص ٣٢٩ وما بعدها
وكتاب ابن سیمین وفلسفته الصوفية للدكتور أبي

عيسى الإلبيري المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِف عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإلبيري يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من البيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مر بنا، وكان من أصحاب التصوف السني بشهادة أشعاره وتلميذه أبي المطرف الشعبي. أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفي على نحو ما سيتضح في ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره في إشبيلية ابن^(١) بُرجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد في العبادة وله تأليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى» وله في التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم^(٢) أحمد بن قسي، ويقول ابن حجر في لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف في المرية، وعاد إلى موطنه في مارتلة بقرب باجة في غربي الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين في أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شلب ولبلبة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل في طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن بُرجان - تحريفها لمعاني النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع التملين وشرحه فيما بعد ابن عربي. وكان تصوفه هو وابن بُرجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجموهم كلاما في وحدة الوجود. وفي رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. ومن اعتنقها حينئذ أبو عبداقه الشوذى الإشبيلي الملقب بالحلوى، ولّى القضاء بإشبيلية في دولة الموحدين، ثم خلص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود^(٣)، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقي المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاورا غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تأليف منها شرح الإرشاد في علم الكلام

وبالتنبا ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٣) انظر في الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

(١) انظر في ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاذر في الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤.

(٢) راجع في ابن قسي لسان الميزان ٢٤٧/١

لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، وكتاب في مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول في غير بلد، وكان يعتنق رأى أستاذه في وحدة^(١) الوجود.

وتلتقى بمحيى الدين بن عربي، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخسه بترجمة قصيرة، وظهر في إثره ابن سبعين^(٢) عبد الحق المكي المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب في بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر في أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر في كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعباد، وتصادف أن أرسل فردريك الثاني صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملا منهم في الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماما واسعا، وأكب حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له في التصوف عقيدة ظل يدافع عنها ببقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بحاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماؤها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - في مصر، فغادرها في أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفي سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبي نعيم محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبذ العارف وسه صاحب الفوات: «ما لا بد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات في آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التي يصور فيها معاني الفقر الصوفي وآدابه، وله رسائل في علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تاهبها فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتهنأ عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

(١) راجع في ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة

في الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر فهرس) ومقدمة ابن خلدون

١١٠٦/٣

(٢) انظر في ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١

والدباة والنهاية ٢٦١/١٣ ولسان الميزان ٣٩٢/٣ والنفع ١٩٦/٢ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي ٣٢٦/٥ وشنرات الذهب ٣٢٩/٥ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا الفتازاني.

الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء في كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فآله فقط وليس في الكون سواه، وفي ذلك يقول في كتابه الإحاطة:

من كان يَبْصُرُ شَأْنَ اللَّهِ فِي الصُّورِ فَإِنَّهُ شَاخِصٌ فِي أَنْقَاصِ الصُّورِ
بَلْ شَأْنُهُ كَوْنُهُ، بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ لِأَنَّهُ جَمْلَةٌ مِنْ بَعْضِهَا وَطَرِي
إِيَّاهُ فَأَبْصَرْنِي إِيَّاهُ فَأَبْصَرْتُ إِيَّاهُ فَلَمْ قُلْتُ لِي: ذَا النِّفْعِ فِي الضَّرَرِ

والآيات تحمل فكرته، فآله ترى صورته في كل شيء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما في الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثقة في الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الخفيف مما جعل العلماء والفقهاء في عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقية. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغي أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. ومن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششتري الصوفي المعروف، وسرى في ترجمته له أنه ينفصل عنه في اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنما بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا في الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة - وخاصة في الأندلس والمغرب - تعتنق التصوف السني.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد^(١) الرندي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي المولود برنطة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتجوّل في بلدان المغرب، وأقام في سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفي ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحوّل عنه إلى فاس فاختر فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفع الطيب إنه كان صوفيا على طريقة الشاذلية، وهي من طرق التصوف السني، وفي الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندري. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندي كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحه كتاب الحكيم لابن عطاء الله السكندري، وهي أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

(١) انظر في ابن عباد الرندي الإحاطة ٢٥٢/٣.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أشربت منازع التصوف السني، وينعكس ذلك عنده في بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهي جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره في الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها في ديوانه: «الصيّب والجهام والماضي والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجري في كل بلد وكل دار. وحرى بنا أن نفق قليلا عند ابن العريف وابن عربي والششتري.

ابن^(١) العريف

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرماه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - في صباه، وعكف في شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ في التفسير والحديث النبوي والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب في المربة ثم في سرقسطة، وولّى الحسبة ببليسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالروايات وتجمع القراءات واهتمام بطرقها وتحملتها». وأكّب على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب^(٢). لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفي نفس السنة نشر عنه دراسة في مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها في أعماله المختارة، وعُني الدكتور الطاهر مكي بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلًا دقيقًا ملاحظًا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد في كل ما عدا الله ومحبهته، بما في ذلك الزهد في المنازل الصوفية العشرة، وهي المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد في شيء، لأن الصوفي لا يتعلق

والفلسفة للدكتور الطاهر مكي (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.

(٢) ذكر المقرئ من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

(١) انظر في ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبنية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والنخبة لابن الأبار رقم ٨ ومجمع الصدف ١٤ والمغرب ٢١١/٢ والنفع ٢٢٩/٣ و ٣٣١/٤ وراجع كتاب دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ

إلا بره غير مفكر فيها سواء، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصعبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء في تحقيق شيء، ولا شوق إلى أي شيء، إذ الصوفي لا يرجو ولا يشاقق إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفي لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة، ومنزل واحد يتعلق به الصوفي هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أي شيء سواء، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفي قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفي الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أي شيء من فكر أو جسم سوى الفناء في الله، وهو بكل ذلك صوفي سني، ومن الخطأ الظن بأن في تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفي قوله:

سَلُّوا عَنِ الشُّوقِ مَنْ أَهْوَى فَإِنَّهُمْ
أَذْنَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ وَهْمِي وَمِنْ نَفْسِي
مَازَلْتُ - مَذْ سَكَنُوا قَلْبِي - أَصُونُ لَهُمْ
لَعَطِي وَسَمِي وَنَطَقِي إِذْ هُمْ أَنَسِي
فَمَنْ رَسُولِي إِلَى قَلْبِي لِيَسْأَلَهُمْ
عَنْ مُشْكَلٍ مِنْ سَوَالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسٍ
حَلُّوا الْفُؤَادَ، فَمَا أَذْنَى! وَلَوْ وَطِنُوا
صَخْرًا لَجَادَ بِمَاءٍ مِنْهُ مُنْجِسٍ^(١)
وَفِي الْحَشَا نَزَلُوا وَالْوَهْمُ يَجْرَحُهُمْ
فَكَيْفَ قَرُّوا عَلَى أَذْنَى مِنَ الْقَبْسِ^(٢)
لَأَنْهَضُنَّ إِلَى حَشَرِي بِحَبِّهِمْ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ خَانَهُمْ فَنَسِي

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظة وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من ييلفهم ما في قلبه من صباهته وحبه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطنوا صخرًا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا في حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا في ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساها أبدا، ويقول:

قِفَا وَقَفَةً بَيْنَ الْمُحْصَبِ وَالْجَمَى نَصَافَحُ بِأَجْفَانِ الْعَيُونِ الْمَعَانِيَا^(٣)

(١) منجس: منجر. (٢) المحصب: موضع رمى الجمار بنى. المعاني: المنازل.

(١) منجس: منجر. (٢) قَرُّوا: سكوا واستراحوا.

ولا تَسَيَا أَنْ تَسْأَلَ سَمَرَ الْهَوَى
فمهدى به والماء ينساب فوقه
أقام على أطلالهم ضوءَ باري
من الحسن لا يبقى على الأرض ساليا
متى بات من سمر الأيئة عاريا^(١)
سماء وماء الورد ينساب واديا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب في منى والحمى
المكى لصفاح بهصره المغاني والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذى ترى من
سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من
تحتة والنفوس معلقة بما فى الأطلال من ضياء الحسن الذى لا يستطيع أحد أن يسلوه.
ويقول:

تمشى والعيون له سوام وفى كلّ النفوس إليه حاجه^(٢)
وقد ملئت غلاته شعاعاً كما ملئت من الخمر الرجا^(٣)

وهو يتغزل بحبوبة مستخدماً لغة الحب الإنسانى كما استخدمها فى الأبيات السابقة،
فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعاً مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلاته
الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح فى الرسول الكريم سننشد منها
أطرافاً. وقد توفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن^(٤) عربى

هو أبو بكر محبى الدين محمد بن على بن عربى الطائى، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة
تحتل بشيء من الثراء، وانتقل به أبوه فى صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ
فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهرى فى الفقه،
كما درس الحديث النبوى على شيوخه والآداب على معلميه وكتب لبعض الولاة، وتزوج
بمريم بنت محمد بن عبدون الباجى، وكانت سالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢
والكتاب التذكارى لمحبى الدين بن عربى فى
ذكره الثوبة الثامنة ليلادة (نشر وزارة الثقافة
المصرية) وابن عربى: حياته ومنهجه لأسين
بلاسوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (طبع
القاهرة) وبالتنثيا ص ٣٧١ وما بعدها.

(١) السمر: شجر الطلح.
(٢) سوام: شاخصة ومتطلعة.
(٣) الغلات: جمع غلالة: الثوب الرقيق.
(٤) انظر فى ابن عربى التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان
الاعتدال للذهبي ١٠٨/٣ ونفع الطب ١٦١/٢
والهداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين

والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، في مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتنى الذى مر ذكره بين الزهاد وأبو العباس الرهبانى المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المتى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول فى الأرض، وهو فى نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر فى فاس مدة سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة فى نواحي المغرب فى مراكش وغير مراكش، ونزل ببجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان للخالق». وفى سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح فى الأحاديث النبوية للترمذى، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشفق بها ابن عربى حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الربانى ومواجهه الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» فى تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبى مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول فى البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيها يفهم فى أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبي حماه منهم. وبتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكافوس ملك قونية، ويؤلف مصنفيه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردي الصوفى السنى، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعانى الصوفية التى تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويمتفى به سلطانها الظاهر غازى، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفى سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٢٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربى مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينتف به الروح القدس فى الروح

ويعتص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته في وحدة الوجود، وهي التي ملأت كتاباته وأشعاره بالألفاظ واختلف إزاء عباراتها العلماء من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأولها، ومنهم من قال بمروقه من الدين الخفيف لمثل قوله: «إن الحق المنزه (أى الله) هو الخلق المشبه» و«إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هي عليه ويأمر في السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات^(١). ويمكن أن تؤول العبارتان السالفتان اللتان جعلنا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببها أنه إنما يريد أن الله المنزه عن الشبه بالخلق يتجلى فيهم كما يتجلى في العالم بتكوينه له وخلقته. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التي إن أخذت على ظاهرها ظنُّ به الروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حملت على الإيمان والرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى في الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى في بغداد وابن عساكر في دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين في عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشبهة الكبيرة في عقيدته: شعبة وحدة الوجود تترامى شعبة ثانية كبيرة هي شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكرا في ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صَبَّ عاشق لنظام - كما يقال - فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم في الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراسفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرَضَى مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ	عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي
بِأَبِي طِفْلَةً لَصُوبَ تَهَادِي	مِنْ بَنَاتِ الْخُدُورِ بَيْنَ الْفَوَانِي
طَلَعْتُ فِي الْعِيَانِ شَمْسًا فَلَمَّا	أَقَلْتُ أَشْرَقَتْ بِأَفْقِي جَنَانِي
بِأَبِي ثُمَّ بِي غَزَالُ رَبِيبٍ	يَرْتَعِي بَيْنَ أَضْلُعِي فِي أَمَانِي

فهو محب الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع في قلبه من

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية

(طبع دار المنار) ١٣٦/١.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التي رآها تتبختر بين الفواقي الجميلات. وحين رآها ظلها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفدى بروحه هذا الفزال المصون الذي يرعى بين أضلعه في قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصباة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتاع ما يزال ابن عربي يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هي نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير في الديوان منشدا:

كُلُّ مَا أَذْكَرُهُ مِنْ طَلَلٍ أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَغَانٍ كُلُّ مَا
أَوْ نِسَاءٍ كَأَعْيَابٍ تُهْدِ طَالِعَاتٍ كَشْمُوسٍ أَوْ دُمَى
صَفَةً قَذِيبَةً عُلُوبَةً أَعْلَمْتُ أَنَّ لَصَدْقَى قَدَمَا
فَاصْرِفِ الْخَاطَرَ عَنْ ظَاهِرِهَا وَاطْلُبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

وهو لا يذكر في القصيدة الطلول والربوع والمغانى أو المنازل والنساء المشتقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجدا وتهامة والسحب تبنى والزهر يتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنيها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنقا والرُّبَى والرياض والفياض، وكل ذلك حين يذكر صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الرباني وأسراره وأنواره في فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلِّ صُورَةٍ فَمَسْرَعِي لِيَفْزَلَانِ وَذَيْرُ لُرْهَبَانِ
وَبَيْتٌ لِأَوْتَانٍ وَكَعْبَةٌ طَائِفٍ وَالْوَاهُجُ تَوَارِقُ وَمَصْحَفُ قِرَآنِ
أَدِينُ بِدِينِ الْحَبِّ أَنِّي تَوَجَّهْتُ رَكَائِبُهُ فَالْحَبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

فدينه الحب الذي يسع جميع الديانات السماوية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدهما في شعره كقوله في إحدى موشحاته:

يَقُولُ وَالْوَجْدُ أَضَاءَ وَالْبَعْدُ قَدْ حَيْرَةُ
وَهُيُمُ الْقَبْدُ وَالوَاحِدُ الْفَرْدُ قَدْ خَيْرَةُ
فِي الْبُنُوحِ وَالْكُتْمَانِ وَالسَّرُّ وَالْإِعْلَانِ فِي الْعَالَمِينَ

وفي الحق أنه كان صوفياً كبيراً، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششتري^(١)

هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري، ولد بقرية ششت من عمل مدينة وادي آش في إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثناء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوده، وعنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكي، حتى نعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكب في شبابه على دراسة التصوف ولقاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثل كثيراً من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم في السياحة والتجول في البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولاً فترة غير قليلة، تلمذ في أثنائها لأبي مدين المتوفى سنة ٥٩٢ هـ، وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفياً سنياً، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - في البلدان المغربية، وملأت - فيها يدو - نفس الششتري فاعتنقها. ولقى بهجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبي مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فيسر إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلي. وظل طويلاً معجباً بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه في بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل في طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانة الصوفية (يريد رقعهم البالية) وحملت في يدك بنديراً (يريد علم الدراوش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل في السوق ثلاثة أيام يغني بخواطر المتصوفة منشداً:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغني^(٢)
أش علي من الناس واش على الناس مني

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرف فيها على الشيخ أبي الحسن الشاذلي

وراجع في أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. علي النشار (طبع الإسكندرية).
(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينا بهجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

(١) انظر في الششتري وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفع الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للبرقي ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الانتهاج للتبكي والرسائل الكبرى لابن عباد الرندي (طبع فاس) ص ١٩٧

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبى العباس المرسى وحمل عنها طريقتها، وبذلك يعترف في بعض أزجاله قائلا: «شيوخى هم الشاذليّ» وحج مرارا وكان كلما حج طُوف في العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقي ابن إسرائيل تلميذ ابن عربي في الشام سنة ٦٥٠ هـ لقي أصحاب عمر السهروردي البغدادي المتصوف السني المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفي أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفى بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقائه لابن سيمين وإعجابه به وذكره لاسمه في موشحاته وأزجاله مثنيا منوها سببا في أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبى مدين المغربي الصوفية السنية، وانتقل منها في مصر إلى طريقة أبى الحسن الشاذلي الصوفية السنية، فهو صوفي سني، وفيه يقول الغبريني: «الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد، من الفقهاء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوه به ابن عباد الرندي الشاذلي في رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالباً منا الزيادة لا الحُسنى بفكرٍ رمى سَهْماً فعُدَى به عَدْنَا^(١)

إذ نقل عنه التنبكي في كتابه نيل الابتهاج نعت له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقرأ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرئ فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجربين وبركة لا بسى الخرقه الصوفية.. كان مجوداً للقرآن قائماً عليه عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال في الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنف كتباً مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقائيد الوجودية في الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد بَهِتْ عَجَبًا بالتجرّد والفقر فلم أُنْدِرِجْ تحتَ الزمانِ ولا الدهرِ
وجاءتْ لقلبي نَفْعَةٌ قُدْسِيَّةٌ فبَهِتَ بها عن عالم الخلق والأمرِ
وصلتُ لمن لم أنفصل عنه لحظةً ونزّهتُ من أعنى عن الوصل والهجرِ

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الوُصفُ إلا دونه غيرَ أنى أريدُ به التشبيب عن بعض ما أدرى
وذلك مثلُ الصُوتِ أيقظُ نائمًا فأبصرَ أمرًا جلَّ عن ضابطِ الحُصرِ
فقلتُ له الأسماءُ تبقى بَيانُهُ فكانتُ له الألفاظُ سِتْرًا على سِتْرِ

وهو يتيه عجبًا وزهوًا بالاجتهاد في العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهيمه أى شيء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلتُ إلى رضوان الله ومحبتة، ويستدرك فإنه غنى عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشيبي وغزلى إلا بعض ما أشعر به، وكأنى مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجمل ويعظم عن الحصر، وحتى أسأوه الحسى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنما الألفاظ تضيف دونه حجابًا إلى حجاب، وله في إحدى موشحاته:

خلعتُ عِذارَ عشقى فى غرامى وَهَمْتُ وقد خَلا عِندى هُيامى
بمن أهوى وكاسات المدام
مذهبي دنى لانى دغنى الهوى فنى
ببذلى فى الهوى روحى ومالى عَشَقْتُ - فما لَعْدالى ومالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم في غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه، لا يستحي ولا يخجل، إذ جمع به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن. وهو ليس شرابًا عاديًا بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ منه مذهبًا له حتى يبهج روحه وقلبه بهذا الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعُدال اللاتمين وماله. وقد اندلع في فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دَن قدسى عظيم. ومن قوله في موشعة ثانية:

يا حبيبى بحياتِكَ بحياتِكَ يا حبيبى
رقى لى وانظر لعالى أنت أكرى بالذى بى
أنت دانى ودوائى فتلطّف يا طبيبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيرانًا لحفتها وعذوبتها وسلاستها. ولهذه السلاسة والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله في حلقات المتصوفة من شاذلية وغير شاذلية، ونوه بها جميعًا مترجموه، يقول الغبريني: «شعره في غاية الانطباع والملاحة،

وتواشحه ونظمه الزجل في غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندي: «في موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

(ج) شعراء المدائح النبوية

طبعي أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم في ذلك مثل الشعراء في جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم في تقواه ونسكه وورعه وامتناله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذي أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنازعين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خائعين. وهو ما جعل غير شاعر أندلسي يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة في نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجري حتى أصبح المديح النبوي غرضاً كبيراً من أغراض الشعر الأندلسي، ونحن نجده في هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ وله في مخاطبة مكة مهبط الوحي النبوي ورسولها الكريم شعر^(١) طريف، وبالمثل نجده على لسان أبي عبادته بن أبي الحصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرتبتان^(٢) في مقتل الحسين بكرهلاء. ويسوق المقرئ في الجزء الأخير من كتابه نفع الطيب لابن العريف الصوفي أشعاراً نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله في إحداها: (٣)

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي يَحْبُكَ قُرْبَةً نَحْوَ الْإِلَهِ
جَرَتْ أُمُوهَ حُبِّكَ فِي فُؤَادِي فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طَيْبِ الْمِيَاهِ

فهو يحب وآله للرسول عليه السلام، ويستمر قائلاً إنه نال به في دنياه فرحة وسروراً، وسينال به في أخراه جاهاً ونعيماً إذ يحب محبوب الإله وصفه، ويتذلل له في بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذاً وملجأً. ويختم

(٣) انظر في هذه القصيدة وتاليتها نفع الطيب
٤٩٧/٧.

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.
(٢) فهرست ابن خير ٤٢١.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتح جميع أبياتها بصلاة الله على النبي الهادى العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ الْهَادِى مَا لَذَتْ الْأَرْوَاحُ بِالْأَجْسَادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا اسْوَدَّ الدُّجَى فَكَسَا مُعْبَاً الْأَفْقِ بُرْدَ جَدَادِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا أَنْبَجَ السَّنَا فَابْهَضَ وَجْهُ الْأَرْضِ بَعْدَ سَوَادِ

ويظل يدعو الله أن يصل على رسوله ما هطلت السحب بالفيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصه بالنور والإرشاد وختم النبوة كتابه الهادى. ولا تتضح عند ابن العريف فيها ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التى وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما رده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول فى المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفياً سنياً. وتلتقى بأبى الحسن بن لبّال وتشوقه^(١) الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره^(٢) أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأبين الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة^(٣) فى مئات من الأبيات فى مديح الرسول. وتلتقى بمعاصره أبى زيد الفازائى وسنخسه بكلمة،

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة فى حجر النصارى الإسبان الشالين تكاثرت المديح النبوى إذ اتخذها الشعراء الأندلسيون أداة للاستغناء والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانيه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل فى الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى فى عشر الخمسين وستائة، وقد أشد له المقرى فى الجزء السابع من نفح الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس^(٤)، بديع جعل شطره الخامس: «صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً» وفيه عرض عريضاً رائعاً سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم^(٥) بن سهل الإشبلى، وكان يهودياً

(٤) نفح الطيب ٤٣٢/٧.

(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص ٣٠٦.

ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

(١) المطرب ص ٩٠.

(٢) المغرب ٢٦٠/٢.

(٣) سهاها الدرّة الثّنية فى العالم الثّنية. انظر

التكملة ص ٣٢٥.

كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلي المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن في بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعراً ماهراً، وله ديوان طبع مراراً، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقاً إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرئ منظومة^(١) نبوية بديعة لعله استلهم فيها خميس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذى تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقى الحامى إلى ذاك الحمى
فمتى أقضيه غراماً مفرماً
ومتى أعانقه صعيداً مكرماً
بضمير كل موحد ملثوما صلوا عليه وسلموا تسليماً

ولأبى الحسن الرُّعَيْنَى الإشبيلي المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان رباعيتان^(٢). ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان^(٣) نبويتان بنى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشطر من لامية امرئ القيس: «ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى». ويلقانا فى كتاب الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية^(٤) لغير شاعر مثل ابن الصانع وأبى جعفر بن جُرْزَى، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليداً فى غرناطة أن يُحتفل بالمولد النبوى احتفالاً رسمياً كل عام وأن تلقى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، ولللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة فى ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفع الطيب، ودائماً يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالباً بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى فى عهده، ومن تصويره لحنينه المتنازع إلى الاكتحال برؤية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهتَ الديار بطيِّبةً وجئتَ بها القبرَ المقدَّسَ واللُّحداً
فَنَبَّ عن بعيد الدار فى ذلك الحمى وأثّر به دمعاً وعَفَّرُ به خُداً

(٣) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.

(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩.

٢٥١، ٣٠٣.

(١) النفع ٤٤٥/٧.

(٢) الذيل والكلمة للمراكشى القسم الأول من

الجزء الخامس ص ٣٦٤.

وكان يعاصره ابن جابر الأندلسي وسنخسه بكلمة ، وعاصرها ابن خاتمة وفي ديوانه مہائج نبوية بديعة، وأنشد المقرئ لابن زمرك مَوَلِدِيَات له في الجزء الثاني من أزهار الرياض، ومن قوله في إحداها مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيبُ الله خاتَمَ رُسُلِهِ وأكرمُ مَخْصُوصِ بَرَزْلُفِي وَرِضْوَانِ
وأنت لهذا الكونِ عِلَّةٌ كَوْنُهُ ولولاك ما امتاز الوجودُ بِأَكْوَانِ
ولولاك للأفلاك لم تَجَلُّ نِيرًا ولا قُلُدْتُ لِلسَاتِنِ بِشُهْبَانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيري وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور في الأفلاك، ولولاه ما سطعت في لُبَاتِهَا ومواضع القلائد من جبهدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن تتوقف قليلاً بإزاء أبي زيد الفازاري وابن جابر الوادي آسى.

أبو زيد^(١) الفازاري

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي سعيد بن يَحْلَفْتَن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أَكْبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوي وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعمل في الدواوين الحكومية، وحظي بمكانة رفيعة عند أبي إسحق والي إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة براكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبي العلاء إدريس في ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودي بأبي العلاء - وهو في الأندلس - خليفة للموحدين براكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبا زيد للعمل في دواوين مراكش ولباه راضيا، ولم تكد تمضي بضعة أشهر حتى لبى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب في ترجمته إنه كان فاضلا سنيا شديدا الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبسا بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزما بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضا عن أبي زيد إنه كان آية الله في سرعة البديهة وارتجال النظم

والنثر وفور مادة وموالاة استعمال. وله في الزهد عملان: عمل طُبع بدار إحياء الكتب العربية في القاهرة باسم «القصائد العشرية في النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هي التي سهاها لسان الدين العشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «العشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بالسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستيقين، نظمها متبركا بعبادتهم، متينها بأغراضهم وإشاراتهم، قابضا عنان الدعوى عن مداناتهم وبحاراتهم..». والعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومة على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظم في العبادة والنسك وسماه: «العشرات الحبيبة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على السنة الداهيين وجدا، الذائنين كمدا، نظم من نسج على منوالهم» وله يناجي ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددت الكف في كل شدة ومنك وجدت اللطف في كل نائب
فحقق رجائي فيك يارب واكفني شمت عدو أو إساءة صاحب
وكم كربة نجيتني من غمارها وكانت شجا بين العشا والترائب
فيا منجى المضطر عند دعايه أغثني فقد سدت علي مذيبي
وسمى مجموعته في المذائح النبوية «الوسائل المتقبلة» وأضاف: «والآثار المسلمة المقبلة مودعة في العشرية النبوية» نظم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدّها لما يستقبله من مدهش الأحوال، وفرغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خانم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - ولي القبول للتوبة، والمنان بتسوية هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير في جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هي نفسها المطبوعة في دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة في مدح النبي ﷺ». وهي مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والخمسة قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله في الخمس النوني عن رسول الله:

بدا قمرًا مشرأ شرق ومغرب وخضت بمشواه المدينة يثرب
وكان له في سدة النور مضرب نجى لرب العالمين مقرب^(١)
حبيب فيدنو كل حين ويستدني

من العالمِ الأعلى وما هو منهمُ شبيهٌ بهم في الوصفِ زاكٍ لديهمُ
رحيمٌ بكلِّ الخلقِ دانٍ إليهمُ نصيحٌ لأهل الأرض حانٍ عليهمُ
أضاء لهم صُبْحًا وصابَ لهم مُرًّا^(١).

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغارب، وخُصَّت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل في السماء، حين صعد إليها بمراحه، عند سِدْرَةِ المنتهى، نجياً لرب العالمين مقرباً إليه حبيباً، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم في الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصيح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والمطف، بل إنه شمس يضيء الوجود صباحاً وينسكب عليه غيثاً غدقاً. ولأبي زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أشهد منها المقرئ في النفع شذوئاً، من ذلك قوله في الرسول:

تَقْدُمُ كُلُّ الصَّالِمِينَ إِلَى مَدَى	تَظَلُّ بِهَ الْأَوْهَامُ ظَالِمَةً حَسْرَى ^(٢)
وَعَفَى رُسُومَ الْكَافِرِينَ وَأَهْلَهَا	فَلَا قَيْصَرَ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَلَا كَيْسَرَى
وَحُصَّ بِتَشْرِيفٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ	بِنُورِ سَمَاءٍ نَاقِلُوهُ عَنِ الْإِسْرَا
تَرْقَى إِلَى السَّمْعِ الطَّيَّابِ تَرْقِيًا	حَقِيقًا وَلَمْ يَغْبَرْ سَفِينَا وَلَا جَبْرَا
فَسَبْحَانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بِعَبْدِهِ	وَبُورِكَ فِي السَّارَى وَبُورِكَ فِي الْمَسْرَى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه معها صعدت ومها تلهفت. وقد محاً رسوم الكفار كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، فلا كسرى إذ سُلِبَتْ منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قبصر فقد سُلِبَتْ الجوهرتان المتلاثلتان في تاجه: مصر والشام. وخصه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سِدْرَةِ المنتهى ينجاه ربه، فسبحان الذي أسرى بعبدته. مردداً بذلك ما جاء في أول سورة الإسراء. ويقول بورك في الرسول الساري وفي المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد في مديحه النبوي معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التي ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائماً يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم براً بأصحابه، ويحمل مراراً على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردوا في بحار هلاك ما بعده هلاك.

(٢) ظالمة: عرجاء. حسرى: منلهفة.

(١) المزن: السحاب الغسق المطر.

ابن^(١) جابر الأندلسي

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد بن جابر الهواري، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبي العيش في العربية ومحمد بن سعيد الرندي في الفقه وأبي عبد الله الزواوي في الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الفرناطي، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجاً وعاداً إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه في سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغفلا شالها حتى ماردین^(٢)، إذ يذكر ابن بطوطة في رحلته عن سلطان ماردین ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا في الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً في حلب وتوفي بالبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم في المديح النبوى، وله فيه ديوان ساه «العقدين في مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصة في الشعر التعليمي إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهي قصائد في المديح النبوى، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحلي - برودة البوصري الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة في رحلته أبو جعفر الفرناطي، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سهاها: «الحلة السيرا^(٣)» في مدح خير الورى» وفي النفع طائفة كبيرة من نبوياته، منها مقصورة في نحو ثلاثمائة بيت تقتطف منها قوله:

يَهْدِي بِهِ مَنْ فِي دُجَى اللَّيْلِ بَشَى
فَلِإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هُدَى
فَلِإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَسْرٌ بَدَا

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَصْبَاحٌ هُدَى
إِنْ تَحَسَّبَ الرُّسُلَ سَمَاءٌ قَدْ بَدَتْ
وإن يَكُونُوا أَنْجَمًا فِي فَلَكٍ

(١) ٣٧٠ - ٣٠٢/٧

(٢) ماردین: قرية بتركيا الآن.

(٣) السيرا: المخططة خطوطا بديعة.

(١) انظر في ابن جابر وترجته وشعره نكت العميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣٣٠/٣ والدرر الكائنة لابن حجر ٤٢٩/٤ وشذرات الذهب ٢٦٨/٦ ونفح الطيب ٦٦٤/٢ - ٦٩٠.

أَحْسَنُ أَخْلَاقًا مِنَ الرُّؤُوسِ إِذَا مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصُّبَا أَوَّارْتَدَى
تَقْدِيرُهُ نَفْسِي مِنْ شَفِيعٍ لِلرُّؤَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مَنَى فِدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالفزل وضمها في تضاعيف المديح النبوي كثيرا من الخواطر والحكم، وفصل القول في شائِلِ الرسول ومراحه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعه للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدته وذخره لربه، وأنشد له المقرئ مدحة من غرر مدائحه للرسول ورى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرئ: لو لم يكن له في مديحه سواها لكفى، وهى تمضى على هذا النحو:

فِي كُلِّ فَاتِحَةٍ لِلْقَوْلِ مُعْتَبِرُهُ حَقُّ الثَّنَاءِ عَلَى الْجَوْثِ بِالْبَقَرَةِ
فِي آلِ عِمْرَانَ قَدْ نَمَّا شَاعَ مَبْعَثُهُ رَجَالُهُمُ وَالنِّسَاءُ اسْتَوْضَحُوا خَبْرَهُ
مِنْ مَدِّ لِلنَّاسِ مِنْ نِعْمَاءٍ مَائِدَةٍ عَمَّتْ فَلَيْسَتْ عَلَى الْأَنْعَامِ مُقْتَصِرُهُ
أَعْرَافُ نِعْمَاءٍ مَاحِلُ الرُّجَاءِ بِهَا إِلَّا وَأَنْفَالُ ذَاكَ الْجُودِ مُهْتَبِرُهُ

والطريف أنه يُحْكَمُ وضع اسم السورة في مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاماً رائعا على نحو ما نرى من ذكره في هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء في السورة، والأنعام اسم السورة وهى الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهى فى البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهى العطايا. واطردت هذه الدقة فى استظهار أساء السور الكريمة فى جميع أبيات القصيدة. وتهدى فى نهايتها أركى صلواته للرسول وعِترته وصحابته، وخصوصا عشرة منهم، ويسميههم، كما يهدى أركى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتي الرسول ﷺ ولابنته فاطمة الزهراء وابنتيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من ساهم مدائحه. وله قصيدة مطولة فى فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علمٍ منهم فى أبياتها حظٌ مقسوم. ونشر دانا عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا.

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الفوث والعون تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشاغرة في عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا في مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسندونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمده حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعداؤهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يقدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهاز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بَرْبَشْتَر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتي لاردة وسرقسطة ركني الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفرغه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتزمة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول^(١):

ولقد رمانا المُشركون بأْسْهُم	لم تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الإِصْماءُ ^(٢)
كم موضع غنموه لم يُرْحَمْ بِهِ	طِفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَنْرَاءُ
ولكم رضيع فرَّقوه من أمه	فَلَهُ إِلَيْهَا ضُجَّةٌ وَبَغَاءُ ^(٣)
ولرب مولود أبوه مُجَذَّلٌ	فوق التراب وفرشهُ البَيْدَاءُ
ومصونة في جُدرها معجوبة	قد أُرْزَوْها ما لها اسْتِخْفَاءُ

وهو يقول إن المشركين رمونا بأْسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هُتكت الحرم ونُهيت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوع سرب الله وقل غربة، وإن العين لتدمع وإن النفس لتقطع، وكان ممن استنارهم هذه النكبة وأقضت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

(٢) الإصماء: القتل.

(٣) بغاء: نضدان.

(١) الروض المطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

عمر بن الحسن الموزني تَرَبُّب المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه في شبابه، فكتب إليه يستصرخه^(١)، ليرأب الصدع ويدأوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويغضل الداء من مثل قوله^(٢):

يَبِّتِ الشَّرُّ فَلَا يَسْتَزِلُّ	طَرَقَ النُّوَامُ بِمَنْعٍ أَزَلُّ ^(٣)
فَنَبِّهُوا وَاحْشَوْشُنَا وَاحْزَبِلُوا	كُلَّ مَارَزٍ سِوَى الدِّينِ قُلُّ
بَنَدُ صَعَقِ الْأَرْضِ نَشْءٌ وَطَلُّ	وَرِيَّاحٌ نَمَّ غَيْمٌ أَيْلُّ ^(٤)
يَدُنَا الْعُلِيَّا، وَهَمٌّ - وَتَيْكٌ - شَلُّ	فَلَمَّ اسْتَرْعَى الْأَعَزُّ الْأَذَلُّ ^(٥)
عَجَبُ الْأَيَّامِ لَيْتَ صُلُّ	ذَعَرَتْهُ نَجْعَةٌ إِذْ تَصَلُّ ^(٦)

وهو يصرخ في كل أندلسي أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذنب فاتك. وعليهم أن يشبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فيده الصواعق سبحانه ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ومحاول أن يلا روح الأندلسيين حساسة ملتبهة، فيقول إننا كثرة غالبية ولنا العز والبأس والمتعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دَهَى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تغرق نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الموزني وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عام حتى انقضوا على النورمانديين واكلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بلهون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التي أمكنته من عدوه أنزله ببلده في قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومدخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

(٥) شل: يبرد قلة.

(٦) صمل: شديد الحلق. نصل: تصيح بصوت لين رقيق.

(١) الذخيرة ٨٩/٢.

(٢) الذخيرة ٨٩/٢.

(٣) سمع أزل: ذنب فاتك.

(٤) غيم أيل: غيم بمطر مطرا شديدا.

ملكاً عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمه الاستيلاء على طلميلة حتى يردّ الدّين الذي في عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكّناه بطلميلة واطلاعه على عورتها هو الذى أوجب قتل النصارى لها»^(١). ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طلييرة وشنتمرية، وكان لذلك زلزلة ضخمة في نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرّض الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضبا وموجدة، وفيها يقول^(٢):

طَلْمِيلَةُ أَبَاحَ الْكُفْرُ مِنْهَا	جَمَاهَا إِنْ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ
أَلَمْ تَكُ مَقْعًا لِلدِّينِ صَغْبًا	فَذَلَّلَهُ - كَمَا شَاءَ - الْقَدِيرُ
فَعَادَتْ دَارُ كُفْرٍ مَصْطَفَاةٌ	قَدْ اضْطَرَبَتْ بِأَهْلِهَا الْأُمُورُ
مَسَاجِدُهَا كَنَائِشُ أَيْ قَلْبُ	عَلَى هَذَا يَقْرُؤُ وَلَا يَطِيرُ؟
أَذِيلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ كَانَتْ	مُصُونَاتٍ مَسَاكِنَهَا الْقُصُورُ ^(٣)

والنزعة الدينية قوية في القصيدة، إذ كانت حرب الشمالين فعلا حربا صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهبُ أبناؤه لحمايته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضا للعرض الذى طالما سُلّت السيوف من أجله وأذيت الحتوف، فقد امتنعت النساء العفيفات ربّات القصور الحسان ذوات الجبال، وتحولن إلى خادمات في بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يغلب لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خَذُوا ثَأْرَ الدِّينَانَةِ وَأَنْصُرُوهَا	فَقَدْ حَامَتْ عَلَى الْقَتْلِ النُّسُورُ
وَلَا تَهِنُوا وَسَلُُّوا كُلَّ عَضْبٍ	تَهَابُ مُضَارِبًا مِنْهُ النُّحُورُ ^(٤)
وَمُوتُوا كُلُّكُمْ فَالْمَوْتُ أَوْلَى	بِكُمْ مِنْ أَنْ تَجَارُوا أَوْ تَخُورُوا ^(٥)

(١) أفعال الأعلام ٣٣٠/٢.

(٢) نفع الطب ٤٨٣/٤ وما بعدها.

(٣) أذيلت: امتنعت. قاصرات الطرف: عفيفات.

(٤) المضب: السيف القاطع.

(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار:

ضعف ووهن.

وَنَرْجُو أَنْ يُبَيِّحَ اللَّهُ نَصْرًا عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَغْفِرُ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تنهوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيبقوهم وبال عدوانهم الأنهم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إيجارتهم وحمايتهم لكم فإن في ذلك هوانا لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسي أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يُجَبِّرَ العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتا لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبي محمد عبد الله العسال، ومربنا آنفا شعره حين استولى الصو على بربرشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظنا أنه نظم في نجدتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كي ينقذوها من أيدي القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة في أقصى الشمال لأمرائها من بني هود لاستبسالهم المستمر في حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زين له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدي بني هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أوفت الآفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة ٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُنتَده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى تطيلة وطرسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفي سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهاز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلداتها، وسيطر من بينهم ابن هشك على جيان واتخذ وزيرا له أبا جعفر الوقيشي أحد رجالات الأندلس النابيين وكان شاعرا، وما زال يقنع ابن هشك بالدخول في طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن في عاصمته مراکش ليعلن إليه دخوله في طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه في إحداها^(١) يستصرخه لجهاد النصارى في الأندلس ورد كيدهم في نحورهم، وفيها يقول:

أَلَا كَيْتَ شِعْرَى هَلْ يُمَدُّ لِي الْمَدَى فَأُبَيِّرَ شَمْلَ الْمُشْرِكِينَ طَرِيدَا^(٢)

(١) انظر القصيدة في نفع الطب ٤/٤٧٧ - (٢) يد لى المدى: تطول حبات.

وهل - بعد - يُقضى فى النصارى بُضْرَةٌ
ويغزو أبو يعقوب فى «سَنْتَ ياقب»
ويُلْقَى على إفرنجيهم عبء كلِّ كل
يفادهم جرحى وقتلى مبرحاً
تفادهم للمرفقات حصيداً^(١)
يُعيد عبيد الكافرين عبيداً^(٢)
فيتركهم فوق الصعيد هجوداً^(٣)
ركوعاً على وجه الفلا وسجوداً

والوقتى يتمنى أن يُدَّ له فى عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدهورين
مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصداً بقيادة أبي يعقوب
يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلاً بهم الهلاك والدمار حتى «سنت ياقوب» فى
جليقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة، وقد أصبح عبيدهم أو ملكهم قتيلاً إثر مواقع
تمزقهم تمزيقاً، حتى لُتَمَلَأ الأرض بهم جرحى وقتلى كُيُوا على جباههم، وكأنهم راكمون
على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرحون مصرعون. ومعنى قائلاً:

ويفتك من أيدى الطغاة نواعماً
وأقبلن فى خشن المسوح وطالما
وغبر منهن التراب ترائباً
فحق لدمى أن يفيض لأزرق
ويالهف نفسى من معاصم طفلة
تبدلن من نظم الحُجُولِ قبوداً^(٤)
سجنن من الوشى الرقيق بروداً
وخد منهن الهجير خدوداً^(٥)
تملكها دُغج المدامع سوداً^(٦)
تجاور بالقد الأليم نهوداً^(٧)

والوقتى يستتير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين
وفتياتهن الحسنات إذ تبدلن من زينتهن وحلّ خلايلهن أغلال القيود، بل يا للذل فقد
ألبسوهن مسوح النصارى الصوفية الخشن بعد أن عشن يلبسن الثياب الحريرية الموشاة
الريقة، بل يا للهول لقد صرن خدامات يُلَطَّخ التراب مواضع القلائد النفيسة فى
صدورهن، وقد غاضت من خدودهن النظرة من العمل الشاق فى لفح الهجرة بعد أن كن

(١) المرفقات: السيوف حصيداً: محصودين.
الهجير: اشتداد الحر.

(٢) يريد بالأزرق الإنسانى لزرقة عينيه. دغج
جمع أدغج: شديد السواد.

(٣) معاصم جمع معصم: موضع السوار فى يد
المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة
الناعمة. القد: سير من جلد.

(٤) كالأزرق المحصود.

(٥) يريد بعبيد الأول سيد النصارى وملكهم،
وعبيد الثانية قتيلاً وأصل معناها القتل بالسمود.

(٦) كلكل: وقعة ميرة. الصعيد: وجه الأرض.
هجوداً: مرقى كأنهم نانمون

(٧) المحجول: المخلخل.

(٨) غبر: لطح بالقيار. التراب جمع تربة:

رَبَّاتِ بِيوت وَفَتِياتِ قُصورِ مَخْدُوماتِ تَحَفَّ بَينَ الفَخامةِ وَالجلالِ. وَيَقولُ الوَقْشِيُّ حَقًّا
للمعنى أَن يَسيلَ مَدَرا را لِأولئكِ الحِسانِ ذِواتِ العِيونِ النِجلاءِ الدُّعجِ اللاتِي نِشانَ في
الحَلِيَّةِ وَالنَعيمِ، فَقَدِ بُدِّلَتِ الأَساورُ وَالحُلَى الذَهبِيَّةُ في مَعاصِمِهِم أَقْداً أوسُورا مِن جِلدِ
فِيا لِّلعارِا وَيا لِلإِسلامِ! وَيا لِلعُروبةِ

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن
أمير الموحدين الأثر العميق في نفسه، فدخل الأندلس في سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف
فارس شاكي السلاح، وسحق النصارى في غير موقعة واسترد كثيرًا من ديار الأندلس
والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلفه ابنه يعقوب المنصور فمزق جموعهم في
موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩٦ غير أن النصر كتب لهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩
لهذه ابنه الناصر. وثار الأندلس على الموحدين، وتفككت بلدانها وتحارب أمراؤها، مما
آذن سريعًا بضياح الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى
القشتاليون على مدينة ماردة في الغرب شرقي بطليوس، وفي السنة التالية يستولى
صاحب برشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حبات العقد ودره أن تنفرط واحدة في
إثر أخرى، وتسقط في سنة ٦٣٣ قرطبة جوهر الأندلس الكبرى في حجر القشتاليين،
وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها
وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية
أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماسهم من العلماء أمثال القاضي أبي الربيع
الكلاعي الذي استشهد وهو ينازل العدو منازل ضارية. ولم يلبث ملك أرجون أن حاصر
بلنسية أشهرًا متعاقبة، وشدد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤن، ولم يبق إلا الموت
جوعًا أو التسليم، ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبي الحملات
يستصرخ حكام المغرب لإغاثة ونجدة بلدته مرسلًا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن
استفاد به أبو زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه
كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التي
أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية في يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة
فجهز أسطولًا من ثمان عشرة سفينة محملة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول - مع
ابن الأبار والوفد المرافق له - إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق في إيصال المؤن إلى
المحاصرين، واضطر إلى إنزالها في ثغر دانية جنوبي بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرًا
طوالا حتى نفذت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم في صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزًا أليًا وخطيا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقي الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقرئ لشاعر وجه بها إلى أبي زكريا الحفصى أمير تونس، يقول فيها^(١):

نادتُك أُنْدَلُسُ قلبٌ يَداءُها واجعل طواغيتَ الصليبِ فداءها
رِشْ أَيْها العولى الرُحيمِ جَنَاحُها واعقد بأرشيَةِ النجاة رِشاءها^(٢)
إِيه بلنِسيّةً وفى ذِكرِاك ما يَعرى الشئون دماءها لا ماءها^(٣)
بأبى ما ذِنُ كالطلولِ دَوَارِسُ نسختْ نواقِسُ الصليبِ يَداءها
هُبوا لها يا مَعشَرَ التوحيدِ قد أن الهُوبُ وأحرزوا عُلياءها

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطفافة، ويتوسل الشاعر إلى أبي زكريا أن يرش جناح الأندلس المهيض ويعقد حبلها وخطوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة، ويكي بلنسية وما دهاها، مما يفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على نداثها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصليبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شقر جنوبى بلنسية: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، وبلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياعا شديدا آملا فى استردادها من حملة الصليب بمثل قوله^(٤):

قد عاد قلبى من شَرِّى أُنْدَلُسِ عيدُ أَسَى فَتَه وما فُتِر^(٥)
ودون شُفْرِ ودون زُرْقَتِه أَزْرَقُ يَحْكى قَناءُ أو أَشْفَرُ
الرؤمُ حربٌ لنا وهُمُ وشَلُ سألهم الواردون فاستَهَجِر^(٦)
إنا لَنرجو للدهر فياةً مَن أنابَ مما جَنأه واستَغْفِر^(٧)
ونرَقِب الكُرّةَ التى أبداً بها على الروم لم نزل نُخْبِرُ

الرباط: ص ٢٣٢.

(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من المهوم. فتر:

سكن

(٦) وشل: قليلون. استهجر: كثر واتع.

(٧) فياة: رجعة.

(١) نفع الطيب ٤/٤٧٩.

(٢) رش من راء: أنبت الریش. أرشية جمع

رشاء: الحبل.

(٣) يرى من أرى الناقة: أدرك لها.

(٤) انظر: أبو الطرف أحمد بن عميرة المخزومي

للدكتور محمد بن شريفية (طبع

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلاً قلبه مما حدث له ولوطنه «شقر» أَسَى وَغَمًا فَنَتَتْ تَفْتِيَتَا، ولم - ولن - يَفْتَرِ أو يَسْكُن، وأَيْنَ شُقْرٌ؟ وأَيْنَ نَهْرُهَا بِزَرْقَتِهِ وحلله السندسية؟ لقد استولى عليه شُقْرٌ من الروم زرق العيون مثل زرقة قناته، ويقول: يا للعجب! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر مما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرة على الروم والنصر الذي وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيان شرقى قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقى دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرُنْدَى في نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن^(١) الأبار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعى، كان أبوه من جلة القراء، من أهل حصن أندة من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطنا له ومستقرا، وبها رُزِقَ بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكْبُ على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ بلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيهاء لعصره أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعى، وكان ابن الأبار يعجب به إعجابا يلا عليه نفسه، وهو الذى وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذ الكلاعى صفياً له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمع إلى العمل السياسى فى دواوين المحكام، ولم يلبث والى الموحدىن على

مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٢٩٥/٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاى الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السراء» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقىن والمعاصرىن.

(١) انظر فى ابن الأبار عنوان الدراية للضرىنى ص ١٨٣ واختصار القدرح المعلق لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨٣/٦ وفوات الوفهات لابن شاكراً ٤٥٠/٢ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقرى ٢٠٥/٣ وما بعدها ونفع الطيب ٤٥٧/٤ وفى

مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذها كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبو جميل زيان بن مُردنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعي ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. وما يلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الفوث والمعونة، فجَهَّز له أسطولا محملا بالمون والأسلحة كما مرُّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلم أهلها ما حمله كما مرُّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية في صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسي لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأننا زهد ابن الأبار في المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألفقه أميرها أبو زكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهي توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسي، فرأى الأمير أبو زكريا أن يكتب بالخط المشرقي وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الفسافي، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسي، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة في ديوانه ورفعته إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وبأو (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقتنوا المستنصر باشتراكه في مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قُتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار في الذروة من مؤرخي الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو في مقدمة من مكثوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابيين بفضل كتبه النفيسة، وهي: التكملة في مجلدين - المعجم في أصحاب القاضي الصوفي المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيرة في مجلدين وتشتمل

على تراجع الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم في شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكام ثم استعادوها، وهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيداً، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا في عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلأعي، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زاحفاً إلى الأعداء مرغياً في قتالهم منادياً فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرون؟ وظل يعمل السيف في الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعائها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشمل الحمية في قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلْبَا بِأَسْلَاهِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ	تَقَدَّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ ^(١)
مَضَوْا فِي سَبِيلِ آفِهِ قُدَمَا كَأَنَّمَا	يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَارِمِ ^(٢)
مَوَاقِفُ أَبْرَارٍ قَضَوْا مِنْ جِهَادِهِمْ	حَقُوقًا عَلَيْهِمْ كَالْفَرُوضِ الْوَلَازِمِ
أَبَيْتَ لَهَا تَحْتَ الظَّلَامِ كَأَنَّنِي	رَمَيْتُ نِصَالِي أَوْ لِدَيْغِ أَرَاقِمِ ^(٣)
فَوَا أَسْفَى لِلَّذِينَ أَعْضَلُ دَاوُهُ	وَأَيَّاسٌ مِنْ أَسْرِ لِمَسْرَاهُ حَاسِمِ ^(٤)

وهو يجب بكل مسلم أن يلمَّ بتلك الأشلاء الطاهرة التي قطعناها ومزقناها رماح النصارى وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد في سبيل آفه مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداة المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهادتها لتحز في نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فؤاده، أو كأنه لدغ حيات ما تزال سمومها تسرى في شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف في الأندلس فكأنما أنزل النصارى به داء عضالاً، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا أنفاً أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبي زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محطى ومحروم، وولع الناس

(١) تقد: تشق. القنا: الرماح. الصوارم: (٢) نصال جمع نصل: حد السيف. الأرقام: المئات.

(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأرقام: المئات. (٤) أعضل الداء: لم يكن البرء منه. أس: طيب. في مقدم الجناح.

بحفظها وَلَعِ بَنِي تَغْلِبَ بِقَصِيدَةِ عَمْرِو بْنِ كَلْثُومٍ، وَيَقُولُ الْمُقَرِّي فِي أَزْهَارِ الرِّيَاضِ إِنَّهَا مِنْ «غُرَرِ الْقَصَائِدِ الطَّنَانَةِ» وَيَقُولُ فِي النِّفْعِ: إِنَّهَا «قَصِيدَةٌ فَرِيدَةٌ فَضَحَتْ مِنْ بَارَاهَا، وَكَبَا^(١) دُونَهَا مِنْ جَارَاهَا» وَفِيهَا يَسْتَفِيثُ:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا تَرَسَا^(٢)
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا^(٣)
وَفِي بِلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقَرْطَبِيَّةٍ مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعِدَا يَبِغَا وَلِلنِّدَاءِ غَدَا أَتْنَاهَا جَرَسَا^(٤)
طَهَّرْ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تَفْسِلِ النَّجَسَا
وَأَمَّا - هُنَيْئًا لَكَ التَّائِيدُ - سَاحَتَهَا جُرْدًا سَلَاهِبٌ أَوْ خَطِيئَةٌ دُعَسَا^(٥)

وهو يقول لأبي زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تصحس خطها وأصبح أهلها جزراً لسيف النصراري. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث بلنسية لما يروع النفوس ويخفق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراساً لنواقيس النصراري، ويقول له إنهم نجاسة ينبغي أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمانهم، إذ لا طهارة ما لم تفصل النجاسة وتغسلها بمحوا، وأما الأرض وساحاتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالوذن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسي المرافق له لإغاثة بلنسية المحاصرة، غير أن النصراري كانوا قد ضربوا حولها حصاراً لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت في أيديهم المدينة.

أبو^(٦) البقاء الرندي

هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبي البقاء

الراجح من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي ص ١٣٦ وما بعدها والإحاطة لابن الخطيب ٣/٣٦٠ ونفع الطيب للمقري ٤/٤٨٦ وما بعدها وأزهار الرياض ١/٤٧ وما بعدها ومجلة معهد الدراسات الإسلامية بدمشق ٦/٢١١ وكتاب تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص ٤٣٣-٤٦٠.

- (١) كبا: نمر.
- (٢) درس: أخلق وتقدم عهده.
- (٣) جزرا: قطعاً وذباح. جددا: حفظها.
- (٤) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرسا أي للنواقيس.
- (٥) جردا: خيلاً سابقة. سلاهيب: عادية. خطية: رماحا. دعسا: طاعنة.
- (٦) انظر في ترجمة أبي البقاء وشمرة بقية السفر

وكنية أخرى بأبي الطيب، ومسقط رأسه رُندة إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر ونيابيع وتحفها وديان، مما جعلها - كما في المغرب - تُعَمَّم بالسحاب وتوشح بالأنهار العذاب، وقد رَزَق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشي بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلي الذي ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطن الدباج أبا القاسم بن الجدد نزيل تونس. ولم يتلمذ لهما من العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشي ولابن زرقون الفرناطي. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على أنهم في طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك في جانبين عندهما التأليف ونظم الشعر، أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا في الفصل الثاني أن له أيضا كتاب الروافي في نظم القوافي، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه في أربعة أجزاء أولها في فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها في محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها في الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها في حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهي صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب في علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشي - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أي محدثا ويقول إنه كان متفنا في مجارف جليلة.

ويقول المراكشي إنه «كان خائفة الأدياء بالأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره» وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه، ويذكر أن له في النثر مقامات بديعة في أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا في زمنه. وقد طارت شهرة أبي البقاء الرندى شرقا وغربا لقصيدته النونية التي نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى في يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما في حيز كل منها من مدن ومعامل وحصون مما تتخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى في أيدي لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنما ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم في الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التي دالت، وكأنما يتأثر في هذا الجزء من قصيدته بآب

عبدون آملاً أن تدول دولة التصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التى نزلت
بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، ويصف:

دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عِزَّاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانْهَدُ نَهْلَانُ^(١)
فَأَسْأَلُ بَلَنْسِيَّةَ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةِ وَأَيْنَ شَاطِئَةٍ أَمْ أَيْنَ جِيَانُ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةَ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ
وَأَيْنَ جَمْعُصَ وَمَا نَحْوِيهِ مِنْ نُزُو وَنَهَرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضُ وَمِلَانُ^(٢)
قَوَاعِدُ كُنْ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
إِنْ الْمَسَاجِدَ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من المخطوب أمر يجيل عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى
لها الجبال وتهد في كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمتها ضاعت وضاعت معها
قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية
وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال في أيدي
المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس
والصلبان، ويصرخ مستغفرا:

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ
وَحَامِلِينَ سِيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنهَا فِي ظِلَامِ النَّقَمِ نِيرَانُ^(٣)
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَا لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعْنَدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ

وهو يصيح في فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة
الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين في ديارهم يعيشون في دعة وعزة وقوة، كأن
ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيهم وحدهم بل
تصيب أيضا الحنيفة البيضاء في الصميم، فما هذا التقاطع والتنازع وأنتم إخوان في الدين
أخوة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد،
ويصيح جزعا:

(٢) حمص: إشبيلية.

(٣) النعم: غبار الحرب.

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. نهلان: جبل

بنجد.

يَا مَنْ لَذَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرُ وَطْفِيَانِ
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانِ
 وَلَوْ رَأَيْتُ بُكَاهِمَ عِنْدَ بَيْعِهِمْ لَهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانِ
 يَا رَبُّ أُمِّ وَطِفْلٍ جِئِلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحُ وَأَبْدَانِ
 وَطِفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتُ وَمَرْجَانِ
 يَفُودُهَا الْعُلُجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَمَةً وَالْعَيْنُ بَاكِئَةٌ وَالْقَلْبُ حَزْنَانِ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استنلهم الكفر والطفيان بعد أن كانوا في الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليبكون بكاء مراء، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شيء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد، وباللهول فكم من طفل فرقوا بينه وبين أمه كما يفرق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وقلدة كيدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هي ياقوت ومرجان يرغمها إسباني جاف غليظ على المكروه البغيض، وهي محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التي سقطت في أيدي النصارى الشهابيين بعد وفاة أبي البقاء الرندي سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبيه لذلك المقرئ في نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدي الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التي ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا في تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة في سبائها ثمانية قرون طوال.

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعياً أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنِيَ به خلفاء أسرته الأمويون في دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة في ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبي حوثره، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد^(١) بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الرضى، وأسندها إلى حجاج^(٢) المغيلي، وقُطيس بن سليمان وفي كتاب الحلة السيرة أن راتبه كان خمسمائة^(٣) دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونظمها الإدارية التي استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطوط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطوط مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتابه، ويسميه أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالي - عبد^(٤) الكريم بن عبد الواحد بن مفيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفي سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن^(٥) سعيد الزجالى، حتى إذا توفي سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله^(٦) بن محمد بن أمية، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - في عهد

د. مؤنس) ٣٧٣/٢.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيرة ١٣٥/١.

(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/٣٣٠.

(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيرة ٣٧٣/٢.

(١) انظر في محمد بن أمية وأبيه وتوليها الكتابة

المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكى - طبع

لبنان) ص ٣١ والمغرب ١/٧١.

(٢) راجع في تولي المغيل وقطيس الكتابة للحكم الرضى المغرب ١/٤٤.

(٣) انظر الحلة السيرة لابن الأثير (تحقيق

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه في الكتابة أثناء مرضه قوس^(١) بن أنتينان النصراني وكان بليفا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استن^(٢) في أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه في ذلك جميع الكتاب في ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة في الأندلس. وعجلت المنية بقوس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد^(٣) بن محمد بن سعيد الزجالى مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد^(٤) الله بن محمد بن أبي عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد^(٥) الله بن محمد بن عبادة الزجالى، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الـ

حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد^(٦) الملك بن جهور فعبد الله بسيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن قطيس بن أصبغ بن قطيس، ونراه يحج عر عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخيلها من السجع^(٧)، مما يدل على تأخر استخدامه في الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن قطيس إلى عبد^(٨) الرحمن بن عبد الله الزجالى سنة ٣٢٩ حتى إذا كلفه في سنة ٣٤٥ بكتابة منشور^(٩) - على نحو ما مر^(١٠) بنا في غير هذا الموضع - يقرأ في المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرة وأتباعه أخلاء من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع في عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبي عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على ألسنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن^(١١) برود الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبي عامر وابنيه وفي زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبنى حمود بعده، وتوفى سنة ٤١٨ وقد نيف على الثمانين، وله من

الرحمن الناصر. فهرس المقتبس الجزء الخامس
الخاص بالناصر طبع مدريد

(٦) المقتبس ٤٣٨/٥.

(٧) المقتبس ٤٧١/٥.

(٨) المقتبس ٢٥/٥.

(٩) انظر في ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١

والمغرب ٨٦/١ والمحمدي ١١١ والصلة لابن

بشكوال ص ٤٠.

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشن
ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ٣٣١/١.

(٣) راجع في ابن أبي عبدة الحلة السراء
١٤٦/١.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار
ص ١٧٢.

(٥) راجع في ابن جهور وغيره من كتاب عبد

رسالة^(١) ديوانه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يبرر فيها قتله لصهره ابن القطاع:

«إنا أخذناه من الحَيَضِ الأَوْهَدِ، وانتشلناه من شطف العيش الأُنكد، ورفعنا خَبِيسَتَهُ، وأقمنا نَقِصَتَهُ.. فلا أقرُّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بِحَقِّ، ولا عامل رَعِيَّتِنا بِرَفْق، ولا تناول خدمتنا بِحَقِّ، بل أعلن بالمعاصي ونَبذ عهودنا، وخالف سُبُلنا، وكثُر على الناس صَفُونَا»

وينتهى عصر الدولة الأموية، وتدخل في عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسى الحاد بينهم والتنافس الأدبى الحاد بين الأدباء من كُتَّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام فى جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كُتَّابهم فى كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد^(٢) بن عباس كاتب زهير أمير المرية على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ هـ والتمسه محمد بن أحمد البرزلباني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر^(٣) التاكرنى كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ هـ ثم المنصور بن أبى عامر الأصغر أميرها بعدها، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرها أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب الناجين فى هذا العصر أبو المطرف^(٤) بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه فى الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجى، ومنهم أيضا ابن المعلم^(٥) كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد^(٦) ابن أيمن كاتب المتوكل بن الأقطس أمير بَطْلَيْوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

(١) الذخيرة ١٢١/١.

(٢) راجع فى أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١

والغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٣) انظر فى التاكرنى الذخيرة ٢٢٦/٣ والغرب

٣٣٢/١ والمحمدي ٥٦ وإعتاب الكتاب

٢٠١، وتاكرنا كانت قصبة رنة.

(٤) راجع فى ابن مثنى الذخيرة ١٠٩/٣.

(٥) راجع فى ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

(٦) انظر فى ابن أيمن الذخيرة ٦٥٢/٢ والغرب

٣٦٦/١.

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول: ^(١)

« لما كان نور الهدى دليلاً، وسبيل الخير سبيلك، ووضعت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أغضل من الداء، وتُسغث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المظيفة بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها ^(٢) واستبشائها، تَلأطف بالاحتيا، وتستنزل بالأموال.. ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانتقاد، حتى استصفى الطريف والتلاد، واضطربت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ^(٣)، فيا لله! وبا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملة النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتمم؟ ألا حامى لما استبيح من حرم الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرش الدين من تل ^(٤)، وعجزه من دل! »

وتمضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقدحمة للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضيهما مستغيثين به، كما استغاث به كثير من فقهاء الأندلس، فخف بجنوده وعبر بهم المجاز خفافاً وثقالاً رجالاً ورُكباناً، وأنزل بهم وبمن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التي سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقاً، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مِرْقاً بينهم، فجَمَعَ بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد ابنه علي إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم علي بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) ومن كتب له أبو القاسم بن الجدد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبي النخاس وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطونية كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أمين المار. وكثر ولاية المرابطين في الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتباً بليفاً ومن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين وإلى غرناطة أبو الحسن

(١) الشفار. جمع شفرة: حد السيف.

(١) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاينة، والاستبصار: (٤) تل: هدم.

تفاهم الاعتداء.

على^(١) بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر وإلى إشبيلية عبد المجيد بن عهون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرة ترجمته مع مراثيته المشهورة لدولة بني الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولا لسير بن أبي بكر - كما ذكرنا - ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو م مرة في ترجمته.

وتختلف دولة الموحدين في الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتاب حكامها ويبدأ بكتاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد^(٢) بن عطية وهو مراکشى وأبو القاسم القالى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبي، وفي مجموع رسائل موحدة المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعا مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش^(٣) والقالى إلى أن توفي فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد^(٤) الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المربى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فقال دنيا عريضة، وظل إلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفي مجموع رسائل موحدة ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، ونهى في وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم في موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول^(٥):

« فلما صارت البلاد كأن لم تكن، والماعقل كأن لم تكن، وعُلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأهوات أحياء ولكن في عداد الأموات، صوبنا على طليطلة قاعدة الصفر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون. وعرفوا التغاخذل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العبر أفواجا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويها وإدلاجها.

وكان أبو عبد الله محمد^(٦) بن يغلطنن الفاغازى القرطبي يعمل في ديوان قرطبة وعين

وراجع في أبي عبد الله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢

وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدة (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع في محمد بن يغلطنن المعجب ص ٣٩١.

٤٠٦ والتكملة رقم ٢١٣٥.

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٣٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور في مجموع رسائل موحدة وله فيه عن يوسف رسلتان.

(٤) انظر في كتاب يعقوب المعجب ص ٣٢٨

قاضيا في مدينة مرسية، واستدعى للنهوض بالكتابة في ديوان المستنصر حين توفي ابن عباس، وظل قائما عليه في عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا في سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسي بجيآن وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد^(١) عبد الرحمن بن يخلفتن المترجم له في الفصل الماضي أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراکش ولم يكده يمضى بها عدة أشهر - كما مر بنا في ترجمته - حتى توفي سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين في الأندلس كتاب بارعون ويكفي أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة عبد^(٢) الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هرّودس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تتور على المأمون والموحدين لضعفهم في مقاومة الأرجونيين في الشرق والقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبي عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومد سلطانته على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجي وابن صاحب الرد وابن الجند وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد وقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التي ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين في تونس رجاء أن يمدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى في حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل ثائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا، فالبياسي كتب له أبو يحيى^(٣) بن هشام القرطبي وأحببت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورا، وكتب لابن هود أبو جعفر^(٤) أحمد بن

٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع في أبي جعفر المغرب ١٦٤/٢ والفتح

١١٤.

(١) راجع في عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب ١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر في أبي يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١ واختصار الفتح المل ص ٨٩ وصح الأعشى

طلحة وابن الجنان^(١) وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجي ابن^(٢) البناء الإشبيلي، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب^(٣) الجبائي وأبو عبد الله^(٤) ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذي ترجمنا له في الفصل الماضي.

ومن الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم^(٥) كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ومن كتاب بني الأحمر الناهيين في القرن الثامن الهجري ابن الجيَّاب^(٦) ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زمرّك، ومُرّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنه كتبهم في القرن التاسع الهجري أبو عبد الله^(٧) الشَّران محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لتتحدث بكلّيات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية الناهيين هم: البزلياني وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن عميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البزلياني^(٨)

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني المالقي، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم في عصر أمراء الطوائف لبني زيري المغاربة، وأول من تولّاها منهم زاوي حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حبّوس بن ماكسن بن زيري، وطمعت نفس البزلياني للعمل في الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبّوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «من أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب في البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فالحقه بدواوينه، ووصله بابنه

(٥) أزهار الرياض ٢/٢٤٠ والإحاطة ٢/٤٤٤.

(٦) الكنية الكائنة ص ١٨٣.

(٧) انظر في الشران أزهار الرياض ١/١٣٣.

(٨) راجع في ترجمة البزلياني ورسائله الذخيرة

١/٦٢٤ والمغرب ١/٤٤١.

(١) راجع في ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود ص ٣٤/٧.

(٢) انظر في ابن البناء القندج ص ١١٨.

(٣) راجع في ابن خطاب الجبائي القندج ص ٢٢.

(٤) انظر في أبي عبد الله بن الخيال القندج ص

إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد في غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور في قرطبة، فيقع بين فكئ أسدين يمضفانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاظم الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى في استنوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقر في نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل في دواوينه، وهو يبيئ له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنعائه على أمراء الطوائف باللوم - في رسائله - منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحرهم بعضهم لبعض واستمائتهم في ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا جراحهم في صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعول عليه في العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده^(١)، فكان طبعيا أن يفتك بالبزلياني، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أئداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«أتصل بى ما وقع بينك وبين المؤمن (المنصور)^(٢) الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ) والموثق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطررتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قلقى، وكثر على المسلمين شفقى، فى أن يظا أعداؤهم بلاءهم، ويؤتموا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيذنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدّتنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة

أَمْضُ^(١)، والحيرة أَرْمَضُ^(٢)، والفتنة أَشَدُّ، والمحنة أَهْدُ، والأعمال أَحْبَطُ، والأحوال أَسْقَطُ، والأوزار أَثْقَلُ، والمضارَّ أَشْمَلُ، واهه يُعِيدُنَا مِنَ الْبَوَائِقِ^(٣)، وَيَسْلُكُ بِنَا أَجْمَلُ الطَّرَاقِ.. وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي لِلْمُسْلِمِينَ الْحَصْنُ الْحَصِينُ، وَالسَّبَبُ الْعَتِينُ، وَالنَّصِيحُ الْمَأْمُونُ، فَاجْرِ فِي جَمْعِ كَلِمَتِهِمُ وَالْمَرَامَةِ دُونَ حَوَزَتِهِمُ^(٤)».

والهزلياني يصرخ في يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة في أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطنون النصارى بلادهم مستعينين بهم في حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكنت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حوزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوت في العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة في فلاة ولا حياة لمن تتادى. ويصرخ الهزلياني في رسالة ثانية وجه بها إلى المنصور الأصغر أمير بلنسية الذي ذكره في الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بي ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومن تمكنا من مُعَاقِدِكَا لِمُقَاتَلَةِ الْمُظْفَرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ أَمِيرِ بَطْلِيُوسَ (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) وَمَنَازِلَتِهِ وَمَقَارَعَتِهِ وَاسْتِجَاشَتِهِ^(٥) كُلَّ حَزْبٍ مِنْكُمْ النَّصَارَى وَطَمَعَكُمْ أَنْ تَمْنَعُوا بِهِمْ ذِمَارًا، وَتَقْضُوا بِإِخْرَاجِهِمْ (مَعَكُمْ) أَوْطَارًا^(٦)، وَتُدْرِكُوا بِأَيْدِيهِمْ أَوْتَارًا^(٧)، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ مَا يَتَسَبَّبُ بِالْفِتَنِ، مِنَ الْبُلُوِّ وَالْمِحَنِ.. بِاخْتِرَامِ^(٨) الرُّجَالِ، وَإِتْيَامِ الْأَطْفَالِ، وَإِرْمَالِ^(٩) النِّسَاءِ، وَإِخْلَالِ الدِّمَاءِ، وَانْتِهَابِ الْأَمْوَالِ، وَاعْتِسَافِ^(١٠) الْأَهْوَالِ، وَإِخْلَاءِ الْأَوْطَانِ، وَإِجْلَاءِ السَّكَّانِ. هَذَا إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً، وَالشَّرْعَةُ مُعَاضِدَةً، فَأَمَّا إِذَا انْسَلَقَ الْعَدُوُّ إِلَيْنَا، وَتَطَرَّقَ عَلَيْنَا،

(١) أمض: أكثر ألا.

(٢) أرمض: أوجع.

(٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية.

(٤) الحوزة: الحمى.

(٥) استجاشة هنا: استعانة.

(٦) أوطارا جمع وطر: مأرب.

(٧) أوتار جمع وتر: ثأر.

(٨) اخترام هنا: قتل أو موت.

(٩) إرملت المرأة: مات زوجها.

(١٠) اعتساف: ركوب.

وَضَرَى^(١) عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ دِمَانَهُمْ، وَجَرَّؤُ عَلَى قَتْلِ رِجَالِهِمْ وَسَبَى نِسَائِهِمْ، وَبَانَتْ لَهُ الْعُورَاتُ، وَتَحَقَّقَتْ عِنْدَهُمُ الْاِخْتِلَافَاتُ، أَحَدُوا رَحَاهُمْ^(٢)، وَاسْتَمَدُّوا مَنْ وَرَاهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِمْ بَعْدَ يَدٍ^(٣)، وَلَا عَنْ إِخْلَاءِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَدْءٌ، وَاقَّةٌ يَحْمِيهَا مِنَ الْغَيْرِ^(٤)، وَيَكْفِيهَا سُوءُ الْقَدَرِ»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يبيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد في حشد الجيوش ضد أخيها المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعنيين في قتال أهلها المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموها لها حماها وأن يحققوا لها آمالها ويدركوا لها أنأرها غير مراعين في أهل دينها حقا، إذ تَقْتُلُ الرجال وتيتيم الأطفال وترمل النساء وتنهب الأموال وتخلو الأوطان ويحلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجبراً على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمانهم وقتل رجالهم وسبي نسائهم وانكشفت له في البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمداً فيها النصارى من ورائه في أوروبا، فقاموه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم في نزاهم ولا قدرة، واضطروا اضطراباً إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جيما هباء، وبدلاً من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياح البلاد جازاه المعتضد الباغي منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد^(٥) بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبي عمر بن عبد البر النعمري القرطبي، وقد عُني به أبوه، فخرجه على يده في أجل صورة علمية للشباب الأندلسي في عصره، وتفتحت فيه مبكراً نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حل من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

(٥) انظر في ترجمة أبي محمد ورسائله الذخيرة

١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١

والصلة رقم ٦٠٦ وبيعة اللئس رقم ١٦٥

واعتاب الكتاب ٢٢٠ والمحرمة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

(١) ضرى: اجترأ.

(٢) الرحي هنا: رعى الحرب.

(٣) يد هنا: طاقة، قوة.

(٤) غير الدر: أحداثه وتقلباته.

زحام، فأصاح أبو محمد لمقاله، وتورط بين حباته وحباله» وأصبح من كُتّاب ديوانه، ولا تعرف الأسباب التي جعلت ابن زيدون يَقْصُ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه في حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ في اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكته عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخف إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوقا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل في الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ في قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يَرَوْ له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحِب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفي سنة ٤٥٨ هـ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقها، وبها توفي. وقد أورد ابن بسام لأبي محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زف ابنته إلى المعتصم بن صراح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنْفِذَتِ الْهَدِيَّةُ (العروس).. وأنا أسأل الله في متوجّهاها ومُنْقَلِها الرعاية الموصولة بك، والكفاية المعهودة منك، حتى يَفِيَّ^(١) عليها ظُلك، ويَبْرُنْها^(٢) مَثْوَى الحفاوة محلك، ويحميها حَوْزُك ومكانك، ويؤويها عِزُّك وسُلْطَانُك، ثم حَسْبِي عليها كرمك وَكَتْفُك^(٣)، وخليفتي عليها بِرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللّهُ يَبْقِيكَ وَيُعْلِيكَ، ويشد^(٤) قَبْضَتَكَ على رقاب أمانيك وأراجيك - ذُخْرُ الأَبَد، وَعَتَادُ الأَهْلِ والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وفَلْذَةُ الكَيْد، فارقتُها عن شدة ضنّانة، وأسلمتها بعد طول صيانة، ومازُفْتُ إلا إلى كريم يحملها محمّل الأمانة، ويقضى فيها حقّ الديانة، ويَرْغِي لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن مَلَيْئِها وَمَنْشِيئِها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقَدْرُهُ الغالب، وسُنَّتُهُ المشروعة، وَمَشِيئَتُهُ المتبوعة»

(١) الكف: الحفظ والنجاح.

(٢) يشد: يقوى ويحكم.

(٣) يَفِيَّ: ينسط.

(٤) يَبْرُنْها: ينزلها.

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظيمة، فإن النورمانديين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوربا لحرب المسلمين في الأندلس، مكوّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واختارت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وَشَقَة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة بَرَبَشْتَر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوت والمثونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وقتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وَزَّرَ لا يماثله وزر، وقد شركه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن بَرَبَشْتَر. ويعمل ابن حيان تلك الكارثة بعنتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقية وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهي الأندح، أن الأمراء استناموا إلى التناذب والتنافر، وسميهم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه خُفَر الخنادق حول مدنها وتعليه الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل بربشتر، وسرعان ما أجبل السيف في النصارى المعتدين واستؤصلوا أجمعين وَرَدَّتْ بربشتر إلى المسلمين ففسلوها من رَجَس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صَدَأ الإِفْك^(١). وإنما قدمنا كل ذلك لتضح لنا صرخة ضخمة وجَّهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وَزَّع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بربشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثُّور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بِعُرْوَةِ الدين، المستهلّكين في حماية المسلمين، المعصمين بمضمة الإسلام، المتألفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سُنَّة

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة بربشتر

الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الأمة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والرموسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربرشتر من الأحوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجب القلوب سماعه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأيت منا العيون - من انتهاك النعم المدخرات، وهتك ستر الحرم المحجبات، والبنات المخدرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأتختتهم الجراح، وعيثت بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والفريل والنواح... ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق، ولا الأخ يلبي أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدني بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولا المرضعة تلوي (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها.. وقد سبقت النساء والولدان، ما بين عارية وعريان، ومشيجة الرجال مُقرنين في الجبال، مصفدين في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مُطَبَّقة^(١) بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شيعية الرحمن، والكفر يضحك وينكي^(٢)، والدين ينوح ويبكي، فيا ويلاه! ويا ذلاه! ويا كرهاه! ويا قرأناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جَزعا، وتقطعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أغمادها، وجفت أجفانكم رقادها، امتاماً لعبدة الرحمن، وحفظه القرآن، وضعة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخامدة حمية للدين الحنيف وما حرق من مساجده وصوامعه وما مُزق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرمانهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عرى وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أوثقوا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

مادّهي بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتناذب ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسراً:

«ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم^(١)، ولا ذل لنا حِزب، ولا فل لنا غِزب، ولا رُوع لنا يِزب، ولا كُدر لنا شِزب^(٢)، ولكنّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذر العذر! فإنه رأس النظر، من بركان تطاير منه شرّ ملتهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلما يؤمن من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنّبها قبل أن تنّبها، وقاتلوه في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكتافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجموا العدو في بربشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه بيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حرياً بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر^(٣) بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الوليّ الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرف

١٢٨/٣ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والواق ١٢٨/٣
والهجرة ٣٨٣/٣ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦
ورناتق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد
السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في
مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د.
محمود مكي ها.

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كتابة عن غلبتهم
وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الأخيرة
٢٣٩/٢ والمغرب ٣٥٠/١ والفتاوى ١٠٤ والصلة
رقم ١١٣٧ والطرب ٨١ والمجب ٢٢٧ والإحاطة

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منها بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه في الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدد عليه فيها كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكي يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذي حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولجأه ولجى المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبّر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمراؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلافة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولاً على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعاً ما عدا سرقسطة في الشمال إذ تركها لبني هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتهم ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيراً إلى أغاث كما مر بنا في غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ في سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كي يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفي، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التي حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائماً على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفاً - بكثير من الرسائل التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التي فصل فيها القول في هزيمة ألفونس بالزلافة، وكان جيشه قد تضرر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رهوسهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة في الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد علم ما كنا - قبل - مع عدوِّنا أذ فونش قصمه الله - من تطاطؤنا واستعلائته، وتقامتنا وانتخائنا^(١)، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلاته انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

(١) تقاضى: تصاهر وتذلل. انتخاه: تعظم.

فَنَاءُ، إِلَى أَنْ سَنَى^(١) الله تعالى من استصرَّخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين - أيده الله - ما سَنَى، وَأَدْنَى من نَأَى دياره وشَحَطَ^(٢) مزاره ما أدنى.. ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يَرِيش^(٣) وَيَرَى، وسار قُدَمَا^(٤) يَخْلُقُ وَيَفْرَى^(٥). واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قُورِيَّة (بالقرب من ماردة شرقى بَطْلَيْوس) - حَرَسَهَا الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك فقصد بمَحْتَشِدِهِ إليها في جيوش تملأ الفضاء، وتسدُّ الهواة، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذُكَاة^(٦)، قد تحصَّنوا بالحديد من قُرُونِهِمْ إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم وإقدامهم، ودعاه تعاطفه إلى مواجهة سبيلنا، وَحَمَلَهُ نَفْجُهُ^(٧) وتهوُّره على السلوك في مَنَزَجِ سيولنا، وَدَنَوْنَا إِلَيْهِ بِمَحَلَّاتِنَا، وَأَطْلَلْنَا عَلَيْهِ بِرَايَاتِنَا، وتنادى المسلمون بشعارهم^(٨) المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حالٍ مؤذنة بالظهور والوفور، وتواقف قليلاً الجمعان، وتجاوَلْ مِلْيَا^(٩) الفريقان. ثم صدق أمير المسلمين، وناصر الدين - أيده الله - الحملة، وصَدَّمَ في جمعٍ لم يكثر عدد الحملة، فلم يلبث أعداءُ الله أن وَلُّوا الأديار، وابتعثهم خيل المسلمين تقتلهم في كلِّ غَوْرٍ وَبَجْدٍ^(١٠)، وتقتضى أرواحهم على حالين من كاليِّ وَنَقْدٍ^(١١)، ولم يخلص منهم على أيدي المتبعضين - أجبرهم الله - إلا من سبيلتهمه البُعْد، ورائى على حُشَايَتِهِ^(١٢) الجَهْد.. ولم يُصَبِّ بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله على هول المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولآمات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بِدَا^(١٣)، فسيموت لا محالة أسفاً وكَمَدًا، ونحمد الله على ما يَسُرُّ من هذا الفتح الجليل وسنأه، ومنحه من هذا الصُّنْعِ الجميلِ وأولاه.

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تترامى وقعة الزلافة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف في مقدمتها باستخذائه^(١٤) أمام ألفونس وتصاصره وشعوره

(٩) مليا: زنا غير قليل.

(١١) سنى: فتح.

(١٠) القور: المنخفض من الأرض. النجد:

(٢) شحط: بعد.

المرتفع منها.

(٣) يريش ويرى: يضرب وينفع.

(١١) الكالى: المؤجل. النقد: المال، يقصد القتل

(٤) قديما: مسرعا.

السرعة والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسرارهم.

(٥) يخلق ويفرى: يقرر الأمر ويضيه.

(١٢) المشاشة: بقية الروح.

(٦) ذكاة: التمس.

(١٣) بددا: قطعا.

(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.

(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

(٨) شعارهم: الله أكبر.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة المجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف في غفلة يعمهون. وقبض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلع أظفار ألفونس ورد كيده في نخره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة في رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدان حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«اَسْتَهْدِ اللهَ يَهْدِكَ، واستعن بالله يُعْنِكَ، وتولَّ القضاءَ الذى ولَّاهُ اللهَ بهجْدٌ وحَزْمٌ، وجَلْدٌ وعَزْمٌ، وأمضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنة نبيه، ولا تبال برغمٍ راغمٍ، ولا تشفق من ملامةٍ لائمٍ.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تمضيهِ، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيهِ، ونحن أولاً وكلهم آخرأ مذ صرّت قاضيا سامعون منك، غير معترضين فى حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء فى الحق».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس للجماعة المرابطين فى الأندلس من أولى العقد والحل الحق فى أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة فى قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف فى القضاء الإسلامى، نجده فى كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد علي بن يوسف بن تاشفين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة فى ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان علي بن يوسف، وكان فى زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم. وقد فوّضنا

إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دَقِّه وجُلِّه^(١)، وقَلِّه وكَثْره^(٢).. وما فعل من ذلك كلِّه فتحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمَّضاه، ولا نَمْضى ما وقَّعه وأباه، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاه كأننا ما كان إلا أن يتولاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعما فى جَنَاننا^(٣) يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسبِّدِ ويُلْهِم^(٤)».

وفى رأينا أن هذه قسوة فى معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم فى الرعية. وتحملو بعض السطور فى رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشى يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إيتار جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا. رسائله المسجوعة.

ابن أبى الخصال^(٥)

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود القافقى الشُّقُورى المعروف بابن أبى الخصال، المولود سنة ٤٦٥ هـ بفرغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربى مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنا فى العلوم مستبحرا فى الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسن العشرة، واسع المبرة، من

(١) دقه: دقيقه. جله: كبيره.

(٢) قله: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدِّد ويُلْهِم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر فى ترجمة ابن أبى الخصال ورسائله الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥ والصلة رقم ١١٨٧ والنبية رقم ٢٨٢ والمغرب ١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦، ٤٢٠ ومعجم الصدف ١٤٤ والمحرية ٤٤٩/٢.

والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢، ٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤. وراجع أربع رسائل ديوانية له فى وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكى. وفى معهد المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبى الخصال.

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تأليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق المحامدة» في مناقب من خصه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحله بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محسنًا، وله قصيدة طويلة في نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدي أدهاء أهل الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع في خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطي والي يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحياناً قيادة الجيوش التي تنازل نصارى الشمال، وولاه في سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها في السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش الحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على ولاء على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محامياً عنها ومدافعاً حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبي الخصال ظل كاتباً له حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل في ديوانه براكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل في هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها في كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو محتاز بإشبيلية في حملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشاً في تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبي الخصال رافقه في حملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه في هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أئمة، وعين أخاه أبا مروان معه في الديوان، وما زال يكتبان عن على، وهو راض عنها كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذير صاحب أراجون في الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قلييرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاضه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لتونة (المرابطين) في بلنسية بالحزري، فكتب ابن أبي الحصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزي^(١) « وأفحش أبو مروان عليهم في رسالته بقوله في بعض فصولها: «أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيغكم الناقد^(٢)، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضائنا لها حالِبٌ قاعد، لقد أن أن نوسيعكم عقابا وأن لا تلوثوا^(٣) على وجه يقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونظهر الجزيرة من رُحَصائكم^(٤)». وهى مبالغة في الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد في الأندلس، مما أحق على بن يوسف، فأخر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبي الحصال فيها كتب أخوه وأن أبا عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان براكش^(٥) وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ هـ يدل - في رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتها من ديوان الكتابة وأنها ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠ هـ.

ولأبي عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك في غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناها من رسائله الديوانية كتب أولاهما في سنة ٥٠٧ هـ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع التصارى الشالين وفي فاتحتها يقول:

«كتابنا - أعزكم الله - بتقواه، وكنفكم بظل ذُراه، ووفر حظوظكم من حُسنائه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْعٍ وخمسمائة بين يدي حركتنا يَمُنُّ الله فاتحتها وعُقبها، وقد قرعنا الظنائب^(٦)، وأشرعنا الأنابيب^(٧)، وضمرنا اليعاسيب^(٨)، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشمرين إخلاص نية، وصدق حمية،

وجوهكم.

(٤) رجاء: عرق الحمى، والكتابة واضحة.

(٥) قرع الظنائب: كناية عن الإسراع للحرب.

(٦) الأنابيب: الرياح.

(٧) اليعاسيب: الغيل.

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان

تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠

وما بعدها.

(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من

الزائف.

(٣) تلوثوا: تضرعوا للنام شعار لتونة على

فى نصر دين الإسلام، وَمَنَعْ جَانِبِهِ أَنْ يُضَامَ، أَوْ يَنَالَهُ مِنْ عَدُوهِ اهْتِضَامٌ^(١)، وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ هَالَقْنَا فِى الْاِحْتِشَادِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَاسْتَنْهَضْنَا مِنَ الْأَجْنَادِ، مَا يُرْبِى عَلَى الْحَصَى وَالْعُدَادِ، فَإِنَّا نَعْتَقِدُ اعْتِقَادَ يَقِينٍ، بِقَوْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِى كِتَابِهِ الْمُبِينِ ﴿قُلْ مَا يَسْبُوْهُكُمْ رَبِّىْ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ أَنْ اسْتَفْغَارَ الدَّعَاءِ، وَاسْتِفْتَاْحَ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، بِخَالِصِ التَّنَاءِ، مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْجَحِ الدَّوَاءِ، فِيمَا أَعْضَلُ^(٢) مِنَ الْأَدْوَاءِ».

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التى أبلى فيها المرابطون بلاء عظيما فى قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعل بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزليين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون فى بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفى أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة فى غرناطة - إلى الملك النصرانى ألفونس بن ردمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كيفما اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما فى طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار البُشُرَات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقا إقليم البُشُرَات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه^(٣). وكان قد ظل فى هذه الحملة نحو سنة يعيث فى الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبذلون له كل عون. وكان يزيد فى غضبهم شئ من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة فى تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له فى حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

١١٤/١، والمجلد الموشى ٧٥ وتاريخ الأندلس فى

عهد المرابطين والموحدين لأشباح ترجمة عنان

ص ١٤٦.

(١) اهتضام: ظلم.

(٢) أعضل: أعجز. الأدوية: الأمراض.

(٣) انظر فى هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان)

المسلمين «وأفنى بتفريهم عن أوطانهم»^(١) ووعد على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبي الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيستخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدق ابن أبي الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَقَدْ إِنَّا، وورد علينا، الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد بن رُشد، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلاًها الله - وجَلَّاه، ووصف من حالها ما أصَحَّنَا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور في معرضها بأبلغ مقال.. ولن نألو^(٢) جهداً مَبْدُولاً، وجِدّاً حَفِيلاً، وعَزْماً لا نايياً ولا كَلِيلاً^(٣)، فيما نَدْرَأ ونَدْفَع، ونَدْوِدُ عن حَوَزة^(٤) الملة ونمنع، ونَذَابُ لذلك الذَّابِّ الحَثِيث^(٥)، نتبع القديم فيه بالحدث، وننصِبُ له النصْبَ الذي ليس حَيْلُهُ السَّحِيل^(٦) ولا النِّكِيث^(٧)، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أَمَّهُ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأثْمُ الأهم، وجهد الكفاية مادهم حادث وألم، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهْتِبالنا^(٨)، ومن أكد مؤكَّدات أشغالنا، وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر، حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه فلا تكونوا في ريب منه، واه تعالَى يميننا على ما نحن بصدد، ويمنحنا من تأييده ما يُمِزُّ الإسلامَ ويقم من أودِه^(٩)، بحوله وطوْله، وعذله وفضله».

وفعلاً نفذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر في رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهد الموثقة إلى مكناسة وسلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميمًا عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رزمير. وإذا كان المرابطون قَصُروا - أو أخذ عليهم شيء من التقصير - في مواجهة ابن رزمير فإنهم طالما أبلوا في منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث في موقعة أقليش التي انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانهج. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبي الخصال الديوانية أنه كان كاتباً مجيداً يحسن انتخاب الكلم في نسق محكم من السجع الرصين.

(٦) السحيل: المفلول على قوة واحدة فتلا خفيفاً.

(٧) النكيث: المنقوض المشتت، ضد المفلول.

(٨) اهتبالنا: اغتاتنا القرعة.

(٩) أوده: اعرجاه.

(١) الإحاطة ١١٩/١ - ١٢٠.

(٢) نألو: نجهد: تقصر في جهد.

(٣) كليل: ضيفاً.

(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.

(٥) الحثيث: السريع.

ابن عميرة المخزومي^(١)

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة سُقُر بين شاطِبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تفتى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعُنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتاباً حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أبلغ وشب أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفقهها وقاضها أبي الربيع الكلاعي، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الفافقي شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة في طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطِبة ونهل من حلقتي شيخها أبي عمر الشاطبي وقاضها أبي الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصاري، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفى في علم الأصول للفرالي وبعض كتب الصوفية. وطمعت نفسه مبكراً إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعراً، ولم يلبث أن عمل بديوان أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالي سنة ٦٠٧ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه في سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوين إمام العربية بالأندلس في عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبي عبد الله بن أبي حفص فالحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبي زيد زيان بن أبي الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل في ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحس من زيان شيئا من

٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحفظ الخزنة العامة في الرباط بخطوطين من رسائله.

(١) انظر في ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القاصم رقم ٩٢ واختصار القندح المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجنوة الاقتباس لابن القاضي ص ٧٢ وعنوان الدراية للبريني ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفع الطب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة سُقُر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرسية قد اتسع، فكتب له في سنة ٦٢٩ وعيَّنه ابن هود قاضياً في شاطبة، جامعاً له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة في الأندلس للمستنصر العباسي مع بيعة الناس فيها أيضاً له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسي استكمالاً لثورته على الموحدين وما يدعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله في الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتباً له، وقتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقي الخليفة الموحدى الرشيد في مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلاً، إذ عينه الرشيد قاضياً في سلا والرباط. وتوفي الرشيد سنة ٦٤٠ فأقره أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبي زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفي سنة ٦٤٦ تحول إلى أبي زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبي زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفي سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء في قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشاراً وأنيساً، وغمره بأفضاله إلى أن توفي سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبي زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الناصر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبي زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه في وفود أمير نصراني عليه من أراجون يسمى: «پلاسكو أرتال» كان وصياً على ملكها خايمى، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستقبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيها بعد عوناً لحاكم بلنسية في حروبه ضد ملك أراجون. وصور ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ في رسالته، وقد احتفظ القلقشندي في الجزء

السادس من صبح الأعشى بشرط كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

« كان له فى البلاد الأرغونية زعامة فى شأوها^(١) برز، ولقائتها أحرز، وكان قد كفل صاحب أراجون فى الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه، وألقى زمامها إليه. ثم إنه حط من رتبته، وتأكدت المبالغة فى نكبته.. والظاهر من حنقه على أهل أراجون وشدة عداوته لهم، وما تأكد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وقت فتنة معهم ووجد ما يؤمله من إحسان الأمر العالى - أيده الله - فينتهى من نكايتهم والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى ذك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقرابه وفرسانه وكلهم - فى حبله - حاطب^(٢)، ولا نجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكان أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالى إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفر منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالف فى إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفى أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغى أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحبلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعد وهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قدر للبنسية أن يحكمها غير ليس عنده بصر بالأمر وأن يجد فى كتفه «بلاسكو» الأرجونى عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونقف قليلا عند البيعة للخليفة العباسى المستنصر التى أشرنا إليها والتى كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه ولأولادهم من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

« الحمد لله الذى جعل الأرض قرا، وأرسل السماء مزارا، وسخر ليلاً ونهارا، وقدر أجالا وأعمارا، وخلق الخلق أطوارا، وجعل لهم إرادة واختيارا، وأوجد لهم تفكرا

(٢) يقال حطب فى حبله إذا أعانه ونصره.

(١) شأوها هنا: سلطاتها.

واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صفاراً وكباراً، نحمده حمد من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاقة واغتراراً، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نيجاراً، السامى فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقداراً، وعز جباراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراباً، واستسلم ذلة وصقاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة واثماراً. فجزى الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً، ورسولاً اجتنبه اختصاصاً وإيثاراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختياراً، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، صلاة نوالها إعلاناً وإسراءاً، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً»

وواضح أن ابن عميرة التزم في سجع هذه القطعة التي استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقاً وغرباً حتى لنجد الرسالة يختار لها أحياناً حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم في إحداها السين وفي الثانية الشين، فأخذ المحصفي وبعض الكتاب في الشرق يحاكيه في هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب في الأندلس يحاكيه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب في عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك في ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة»، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان في البلاغة لابن الزمكافى، ومنها كتاب في تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالحزنة العامة بالرباط مخطوطتان من رسالته.

لسان^(١) الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس في أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعين بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها
والجزمين الخامس والسادس من نفع الطب وكتاب
الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤
وفي مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام: =

مصر الدول والإمارات (الأندلس)

(١) انظر في ترجمة لسان الدين التعريف بآين
خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (طبع لجنة التأليف
والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصح
الأعيان للفلقشندى ٥٣٦/١ وتاريخ ابن خلدون

الأحر، وبها نشأ لسان الدين، وعُني أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها في زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ في مديح السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥) وهو أهم سلاطين بني الأحر في القرن الثامن الهجري، ويُعدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجيباب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب في النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُني بالأديب الشاب، وما زال يعمل معه حتى توفي سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رئاسة ديوان الكتاب بعده، وتوفي السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغني باقه، فازدادت حظوته عنده ورفعته إلى مرتبة. الوزارة. ونسبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبي عنان المريني بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال في بلاد المغرب واستقر بمدينة سلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بقرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليده الحكم، ولقيه بذى الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقايبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المريني بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بقرناطة وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرّك وقاضى قرناطة أبو الحسن النباهي ودسوا عليه عند الغني باقه أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم قرناطة إليه ووصوه بالزندقة لما ذكر في كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفِع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المريني فأبى تسليمه مبرئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور في فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغني باقه - أبو سالم المريني سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغني باقه. ولم يكتف تلميذه ابن زمرّك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه في مجلس السلطان

عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه في التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعرى: الصب والجهايم (طبع الجزائر).

= القسم الثاني (طبع الرباط) ص ٢٦١ وما بعدها وكتابتها الغني ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٣ ولسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة في أخبار قرناطة (طبع دار المعارف) والكنية الكامنة في معاصره بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان

أبى سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها في مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن التكبر عليه موبخا له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفئدهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، وُسِّ إليه في السجن مَنْ قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورئ القراب. وعجب الناس في فاس وفي غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زَمْرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرك أن يعتنه بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتباً موسوعيا كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب في التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوخ التصوف في زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقا لهجر الدنيا وعاش في زاوية - أو ضرب في الأرض - ناسكا مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شيء والتصوف الحقيقي شيء آخر، وفيه يقول المقرئ: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون في وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يُتحدى فيها بمثل هدهاء». وما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصبّ والجهم - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا في المغرب ومالقة في الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان في وصف البلدان وصف فيها بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» في وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و«معيان الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار» في وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نقاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك في موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بني مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولا أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين في هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل في الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذي كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ في بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون في كتابه التعريف والقلقشندي في صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصل القواعد الخلاف، واستقلت مبادئ فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلاف، وجب لحقها الجازم وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيمة والأكتاف، فامتزاجنا بعلانها المنيف وولانها الشريف كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم كما تأرجت الرياض بالأفواف^(١)، لما زارها الغمام الوكاف^(٢)، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علاتها يسمو به إلى قرع أبواب السموات الملا الاستشراق، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة لا تحصره الحدود ولا تدركه الأوصاف، وإن عثر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد انتضحت في هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، ويدعها لا يأتي من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتي أيضا من أسجاعها الطويلة التي يتلافى طولها بما يجري في تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى في تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» في السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين في السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقها الجازم، وفرضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» في السجعة الخامسة، و «الكريم والعميم» في السجعة السادسة. ويكثر ذلك في الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسجاع لذة موسيقية، وهي لذة تقترن بحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات في السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاویر، ففضل الخلافة أصل القواعد، ومباني فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عطر كشذى الرياض في الأزهار غب الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك في نعت الخليفة نفسه وآبائه الأجداد، وامتد نعتة نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغنى بآله مع

(٢) الوكاف: المدرار.

(١) الأفواف: الزهر.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسماَتُ الأسحار، وأطال في التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال في وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ في وصف جهاد سلطانه الغنى باقه لنصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم في جيان وكانت قد سقطت في أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الغلود، وكُرِسَى الملك، ومجنته^(١) الوسطى من السلك، غاب الأسود، وجُحِرُ العيَات السود.. ولما أكتبنا^(٢) جوارها، وكدنا نلتصق، نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم^(٣) بزهر النجوم قد دارَ دائره، واللَّيْلُ من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غدايره.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أصحر^(٤) إليهم من الفرسان، وسبق إلى حومة الميدان، حتى أجحروهم^(٥) في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، في موقف يُذهل الوالد عن الولد، صابت^(٦) السهام فيه غماما، وطارَتْ كأشراب الحمام تهدي جماما^(٧)، وأضحت القنأ قصدا^(٨)، بعد أن كانت شهابا رَصداً».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتساوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيتها النار وبئس القرار. وقد دنوا منها في أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسرارهِ بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا في جحورهم فرارا من الموت الزوَام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التي كانت تحميهم، وخروا صرعى مجذلين.

-
- (١) مجنة بواسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة في المقد.
 (٢) أكتبنا: قاربنا.
 (٣) المرقوم: الموسم والمنقوش.
 (٤) أصحر: برز.
 (٥) أجحر: أدخل.
 (٦) صاب: انصب.
 (٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.
 (٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كمادة أهل الأندلس في زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبي الحجاج وابنه الغنى باقه إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة في تحقيق أمانيتهم الدنيوية في النصر على الأعداء وأمانيتهم الأخروية في الغفران والرضوان، مع تصوير جهادها الدائب في نصرة الإسلام والذب عن حياضه في الأندلس. ويفيض المقرئ بكتابه نفح الطيب في الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسن أداء وروعة بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبعي أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناع وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام في الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التي صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً^(١):

«كنت قد نشأت في مَعْقِل من الْعَفَا^(٢) والْوَفَر، مُحَدَقاً بِسُور من الأَمْن والسُّر، حتى أرسل إليَّ سلطان الفقر، رسولاً من نُوب الدهر، يريد استترالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأهيت من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من النَوائب، تسير تحت الْوِيَّة المصائب، تُبْرِقُ بِسَيُوف الرُّزَايا، وتُشهر أسنة العنايا، يرمون عن قَيْسِي الأوجال، ويضربون طبول الذُّعُر وسوء الحال، بأيْدٍ باطشة لا تَكِل، وبصائر ثابتة لا تَمَل».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة في التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلات بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التمتع في الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجري على نحو ما أخذ يحدث في الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) (٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش. عباس) ٦٢/٨.

الأكبر، وملتقى بأخرة من العصر الأموي بآبن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولا شديدا، ونسوق له قطعة من رسالة أظن فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكراً معتذرا عن الإلمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والمهلم والحرق، يقول^(١):

«قد كان أقلّ حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدي إليه الشكر غُضًا، وأنثر عليه المدح بضًا^(٢)، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مَمْنوع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثل أمير، شيء غلب صبرَ الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليئين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرفِ القدر، والذي أشكو منه أغربُ الفرائب، وأعجبُ المعائب، بئ شاعِل، وبرح^(٣) قاتل، وصبرُ يَفِيض^(٤)، ودمع يَفِيض، لعجوزٍ بخراء^(٥)، سهكة دَرْداء^(٦)، تدعى قرطبة:

عجوزٌ لَمَرُّ الصبا فانيه لها في الحشا صورةُ الغائبة

طاب لي الموتُ على هواها، ولذٌ عندي سَقَى دمي لثراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال^(٧):

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتًا، وظلَّ اللّواء كُمَيْتًا^(٨)، واستبدل من نَقَر الكِران^(٩) قَرَع الطبول، ومن نغم القيان شَجَا الصهيل، ومن وَجَبَة^(١٠) المعازف لَجَب الخيول، يمشي في الهَجِير^(١١)، ويسرى^(١٢) في الزمهرير، ويحنُّ إلى الأذان والتكبير، في خِطَة إبليس، ومُصدح النواقيس».

وستترجم لابن شهيد في مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضي إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من تلقاه في هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب مقن بن صُباح أمير

(٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضاربًا إلى

السواد.

(٩) الكران: العود.

(١٠) وجبة: صوت.

(١١) الهجير: القهظ وسط النهار.

(١٢) يسرى: يسير ليلًا. الزمهرير: البرد

الشديد.

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.

(٢) بضًا: ناضرا.

(٣) برح: عذاب.

(٤) يفيض: يغيب.

(٥) بخراء: راتحة فيها كربة.

(٦) سهكة: كربة الراتحة. درداء: ساقطة

الأستان.

(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.

المريّة، وقد أطال ابن بسام في ذكر تجميداته، وذكر طائفة من رسائله في العتاب والاستزارة وله رسالة في ذم صديق، ويقول ابن سعيد في المغرب إنها من أبدع ما قيل في ذم مؤاخِر، ومن قوله فيها: ^(١)

«خَلَيْتُ عَنْهُ يَدِي، وَخَلَدْتُ قِلَاءَ خَلْدِي، يَبْضُ الْأَثَوِيُّ ^(٢) مِنْ رِفْدِهِ أَمَكْن، وَصَفَا الْمُشْقَرُ ^(٣) مِنْ خَدِّهِ أَلَيْن، نَزَرَ النَوَالِ، رَثَ الْمَقَالِ، أَحَادِيثُ وَعْدِهِ لَا تَعُودُ بِنَفْع، وَلَا هِيَ مِنْ غَرْبٍ وَلَا نَبْع ^(٤)، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّعْبِيسِ قَفْلُ ضَاعِ مِفْتَاحِهِ، وَلَيْلٌ مَاتَ صَبَاحِهِ، غَنَى مِنَ الْجَهْلِ، مَفْلَسٌ مِنَ الْعَقْلِ، تَضَاعَلِ النِّعَمُ لَدَيْهِ، وَتَقَبَّحَ مُحَاسِنُ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، غَرِبَالُ حَدِيثٍ إِذَا وَعَى سِرًّا قَطَرَ مِنْهُ، كَبِدُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ قَاسِيَةٌ، وَيَنْمُ أَقْلُهُ نَاسِيَةٌ، قَصِيرُ عَمْرِ الْوَفَاءِ لِلْإِخْوَانِ، عَوْنٌ عَلَيْهِمْ مَعَ الزَّمَانِ، مَرْبٌّ لِأَطْفَالِ الْإِخْنِ، مُخَيٍّ لِأَمْوَاتِ الدَّمَنِ ^(٥)، رَقَدَتْ مَلَأَ عَيْنِي فِي قَرَشِ الْقَلَى ^(٦) لَهُ وَشَرِبَتْ زُلَالٌ ^(٧) مَاءَ الْغَزَاءِ عَنْهُ»

ولابن برد رسالة وجه بها إلى أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتنحاور في أيها أجل في صورته وأعقب في رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحرمة مella لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين الترجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيرى، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة الترجس إذ يقول ^(٨):

«وَالَّذِي مَهَّدَ لِي حِجْرَ التَّرَى، وَأَرْضَعَنِي نَدَى الْحَيَا ^(٩)، لَقَدْ جَنَّتْ بِالشَّهَادَةِ أَوْضَحَ مِنْ لَيْلَةٍ ^(١٠) الصَّبَاحِ، وَأَسْطَعَ مِنْ لِسَانِ الْمَصْبَاحِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُسِرُّ مِنَ التَّعَبُدِ لَهُ وَالشَّفَفِ بِهِ، وَالْأَسْفَ عَلَى تَعَاقِبِ الْمَوْتِ دُونَ لِقَائِهِ، مَا أَنْعَلَ جَسْمِي، وَمَكَّنَ سَقَمِي، وَإِذْ قَدْ أَمَكْنُ الْبُوحُ بِالشَّكْوَى، فَقَدْ خَفَّ ثِقَلُ الْبَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار ^(١١) والخيرى، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

(١) الذخيرة ٥٠٤/٨ والمغرب ٨٩/١.

(٢) واضح أن يبيض الأثوق مثل لبيان الاستحالة.

(٣) المشرق: حصن في البحرين اشتهر صفاء

أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق.

(٤) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام.

(٥) الدمن: جمع دمنة: المحقد.

(٦) القلى: الكراهية.

(٧) الماء الزلال: المذهب الصافي السلس.

(٨) الذخيرة ١٢٧/٢.

(٩) الحيا: المطر.

(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر الترجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملكته أمرها. واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤثر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كفى بالورد عن أمله فى أن يكون وزيرا لابن جمهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحكاها غير كاتب، ومن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يديجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التمتع، ومن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنتة والتعزية، من ذلك تعزيتة لأب فى فق له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف. وفيها يقول ^(١):

« كُتِبْتُ عَنْ قَلْبٍ يَقْشَعُ، وَنَفْسٍ بَيْنَ ضُلُوعِهَا لَا تَسْتَقِرُّ، لَخَبَرِ الرُّزْءِ الْهَاجِمِ، وَالنَّبَأِ الشَّيْخِ الْكَالِمِ... فَيَا لَهَا حَسْرَةً مَا أَنْكَاهَا ^(٢) لِلنَّفُوسِ، وَجَعْرَةً مَا أَذْكَاهَا ^(٣) فِى الْقُلُوبِ. وَرَوْعَةً مَا أَفْتَحَهَا لِلْأَعْضَادِ، وَلَوْعَةً مَا أَحْرَاهَا عَلَى الْأَكْبَادِ:

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَّنَا أَقْمَنَا قَلِيلًا بَعْدَهُمْ وَتَقَدَّمُوا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن جَمَى الدين ذائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ المَوْفَى ^(٤) عَلَى كُلِّ هَضْبَةٍ، المَعْلَى عَلَى كُلِّ فَرْحَةٍ وَكَرْبَةٍ. وَاللَّهِ - يَا سَيِّدَى - فِى نَفْسِكَ الْعَزِيزَةِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا كَامِنٌ رَزْوٌ ^(٥) يَفْدَحُ، أَوْ أَنْ يُوهِنَ مِنْهَا بَاطِنُ أَسَى يَفْدَحُ»

وكان يعاصر أبا محمد ابنُ حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنثا بعض العبال بخلاصه من نكته ^(٦):

« كَتَابِى عَنْ نَفْسٍ قَدْ أَشْرَقَتْ وَجْهَ صَبَاحِهَا، وَهَبَّتْ رِيَّاحَ ارْتِيَاحِهَا، بِمَا طَلَعَ عَلَيْنَا مِنْ

(١) الموفى: المشرف.

(٢) الذخيرة ٢١٩/٣.

(٣) رزء: مصيبة.

(٤) ما أنكأها: ما أشد جرحها.

(٥) الذخيرة ٥٨٤/١.

وألمها.

(٦) ما أنكأها: ما أحرقها.

البشار السارة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغت قلوب الأوداء العناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمت فيك، بإساءتها إليك، كل مُتَنَسِّبٍ إلى فضل، مُتَسَمِّمٍ باسم نبل، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تضيئه به وتتجمل، وسخت منك بحلى جيدها الذى يحق به أن تبخل.. وقد صادفت منك الإبريز^(١) الذى لا يزيده السبك إلا تمحيصا، والمبرز الذى لا يعقبه تحول الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصبر وساع^(٢)، وصبر منفسح الباع، وتسير^(٣) الدهر بمسبار^(٤)، وتعرف من مكنونه حقيقة إرادته وإصداره».

ونلتقى بآبن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر^(٥) الباجى المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البهار وجه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الخطوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواير الربيع وفيها يقول^(٥):

«أطال الله بقاء المقتدر مولاي وسيدى ومعلمى حالى ومقيم أودى^(٦)، وأعاذنى من خيبة الغناء، وعصمنى معه من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بى عدوا من الرياض بناصبنى^(٧)، وحاسدا من النواير يراقبنى، وقد علم الورود موقع إمارتى، وغنى بلطيف إيمانى عن عبارتى.. وقد أنيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أخل من خدمتك رتبى ومكانى.. فهل لمولاي أن يحسن إلى صنيعا، ويكرم النور جميعا، ويؤذنينى فأرقى إلى أختى الثريا سريعا، فى مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغت الحسن عليه والطيب ضرائبه^(٨)، وجهك بئره، وغرتك فجره، وأخلاقك زهره، وتناؤك دُرّه وعطره»

والباجى يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنتسه على جميع كتابه ووزرائه. ولموطنه كاتب المقتدر حسداى^(٩) - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة ماثلة كتب بها إلى المقتدر على

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٢) وساع: متع.

(٣) سير: تختير، مسبار: آلة الاختبار.

(٤) انظر ترجمة الباجى فى القلائد ١٠٢ والذخيرة

١٨٦/٢ والخرقة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.

(٥) الذخيرة: ١١٤/٢.

(٦) أودى: اعوجاجى.

(٧) بناصبنى: يفاذبنى.

(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.

(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة

٤٥٧/٣ والخرقة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

ومن شعراء العصر الذين عفى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديهة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتتم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالآداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، ويعلم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء^(٢):

«يا سيدى الذى هو قَسِيمُ ذاتى إن تحققت الذوات والنُحائز^(٣)، وشقيقُ نفسى إن تبَيَّنَت الخلائق والفرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الْفَرَقْدَيْنِ^(٤) فى تدبير السَّعْدَيْنِ. بيننا من التحام اليقَّة^(٥)، واستحكام الثَّقة، ما أُرْبأ^(٦) به عن تضمين الصُّحائف، ولو قُدَّتْ من السُّوَالف^(٧)، وأنزَّهه عن اشتغال البِداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسَى النُّقاء، ووافؤنا فَلَكَيَّ البقاء، ولا تُضْمَنُ الطُّروس، إلا ما لحقه الدُّروس. وكتابى هذا إثر إنحافك لى بكتابين كالنَّيرَيْنِ، فإن كان القمر ويوح^(٨)، لإنارة اللُّوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين^(٩) سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريقة بناها على الدعاة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزُّرْزُور مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُّرْزُور على هذا النمط^(١٠):

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله علوك، وكَبَّتْ عدوك - شَخْصٌ من الطُّيُور يَعْرِفُ بالزُّرْزُور أقام لدينا أيام التَّحْسِيرِ^(١١)، وزمانَ التَّبْلِغِ بالشُّكْرِ^(١٢)، فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عُشُوشه، أَرْمَعَ عنا قُطُوعاً^(١٣)، وعلى ذلك الأفق اللُّدن تدلياً ووقوعاً، رجاء أن

(١) الذخيرة ٤٧٠/٣.

(٢) انظر ترجمته فى الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب

(٣) الذخيرة ٧٠٤/١.

(٤) ١١٦/١ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والحريدة

(٥) النحائز: الطابع.

(٦) ٤٨٤/٢ ومجمع الأدياء ١١/١٨١.

(٧) الفرقدان: نجان قريبان من القطب.

(٨) الذخيرة ٣٤٧/٢.

(٩) المقة: المحبة.

(١٠) الذخيرة ٣٤٧/٢.

(١١) أربأ به: أنزعه.

(١٢) التحسير: سقوط الريش المتق.

(١٣) السوالمف جمع سالفه: جانب المتق.

(١٤) الشكير: صغار الريش. التبلى: الاكتفاء.

(١٥) النيران: الشمس والقمر ويوح: الشمس.

(١٦) قطوعاً: طيرانا.

يَلْقَى فِي تِلْكَ الْبَسَاتِينِ مَعْمَرًا^(١) وَعَلَى تِلْكَ الْفُصُونِ حَبًّا وَثَمَرًا، وَأَنْتَ بِجَمِيلِ تَأْتِيكَ، وَكَرَمِ مَعَالِيكَ، تَصْنَعُ لَهُ هُنَالِكَ وَكُونًا^(٢)، وَتَسْتَمِعُ مِنْ نَعَمِ شُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ أَغَارِيدَ وَلُحُونًا، دُونَ أَنْ يَلْتَقِطَ فِي فَنَائِكَ حَبَّةً، أَوْ يَسْتَرْطَ^(٣) مِنْ مَائِكَ نَفْثَةً^(٤)».

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فِيهَا مِنْ دُعَاةٍ مُسْتَمْلِحَةٍ، إِذْ صَوَّرَ سَرَّاجٌ مَا كَانَ فِيهِ هَذَا الشَّخْصُ مِنْ ضَيْقٍ جَعَلَهُ يَلْتَمِسُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ لِصَاحِبِهِ بِالزَّرْزُورِ حِينَ يَنْحَسِرُ عَنْهُ رِيْشُهُ الْعَنَقِ وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا الرِّيشُ الْقَصِيرُ، حَقٌّ إِذَا كَثُرَ رِيْشُهُ صَمَّ عَلَى الْقُطُوعِ أَوْ الرَّحِيلِ أَمَّا أَنْ يَنْزِلَ عَلَى أَفْقِ هَذَا الْجَوَادِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَنْزِلًا وَحَبًّا وَثَمَرًا وَوَكُونًا أَوْ عَشُوشًا يَأْوِي إِلَيْهَا مُتَغْنِيًا بِالنَّهْثِ عَلَيْهِ. وَيَنْصَحُهُ أَنْ لَا يَجِدَ فِي فَنَائِهِ حَبَّةً يَلْتَقِطُهَا وَلَا جَرَّةً مَاءٍ تَبِلَ رِيْقُهُ. وَمِنْ حَاوِلِ مَحَاكَاةِ سَرَّاجِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي هَذِهِ الدُّعَاةِ الطَّرِيفَةِ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ^(٥) الْعَزِيزِ بْنِ الْقَبْطُورَةِ كَاتِبِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ النُّنُوفِيِّ حَوَالَى سَنَةِ ٥٢٠ لِلْهِجْرَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي رِسَالَتِهِ^(٦):

«يَصِلُ بِكَتَابِي - وَصَلَ اللَّهُ سَعُودَكَ - مِنَ الطَّيْرِ نَطَاقٍ، مِنْ غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ^(٧).. مَهْدَتَهُ الْعَذَارَى الْحُجُورُ، وَالْخَفَتَهُ الشُّعُورُ، وَرَبَّتُهُ بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ، وَعَلَّتُهُ بِالرُّضَابِ^(٨)، وَسَقَتُهُ بِأَنْوَاهِهَا الْعِذَابُ، أَقَامَ عِنْدَنَا زَمَانًا، لَا يَتَأَلَّفُ إِلَّا رَنْدًا^(٩) أَوْ بَانًا، يَتَنَجَّرُ فِي الْبَسَاتِينِ، يَتَطَلَّبُ الْعِنَبَ الْمُتَنَقَّى وَالتَّيْنَ، فَذَكَرْتَ لَهُ يَوْمًا وَالْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، أَرْضَكَ الْمَيْثَاءَ^(١٠) ذَاتَ الشَّجَرِ وَالْمَيُونِ، فَصَفَّقَ جَنَاحًا، وَاهْتَزَّ ارْتِيَا حَا، وَسَأَلَنِي إِلَى مَجْدِكَ كِتَابًا فَأَنْتَلْتُهُ مَا ابْتَغَى، وَقُلْتَ: سَلِمْتَ أَخَا الْبَيْفَا، وَهَلَفْتَ الْمُدَى، وَجُنُبْتَ مِنْ حَزَرَةِ الْمُدَى^(١١) وَأَخَذَ الْكِتَابَ بِمَنْقَارٍ، وَصَفَّقَ بِرِيْشِ الْجِنَاحَيْنِ سُورُورًا وَطَارَ، وَأَنْتَ بِسَيَادَتِكَ تَبَسُّطُ لَهُ فِي بَسَاتِينِكَ، وَتَفَرُّشُ لَهُ مِنْ وَرْدِكَ وَيَاسْمِينِكَ»

وَكَانَ يَحَاصِرُ ابْنَ الْقَبْطُورَةِ أَبَا الْقَاسِمِ بْنِ الْجَدِّ، وَنَسَخَهُ بِكَلِمَةٍ، وَعَاصَرَهَا ابْنُ عَبْدِوَيْنَ الشَّاعِرِ الْفُذِّ الَّذِي تَرَجَّمَا لَهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ الرِّثَاءِ، وَقَدْ عَمِلَ فِي دَوَائِنِ الْمُتَوَكِّلِ

(١) معمرًا: منزلاً.

(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.

(٣) يسترط: يتلعق.

(٤) نفثة: جرعة.

(٥) راجع ترجمته في الفخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب

٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والفلاذ ١٤٨.

(٦) الفخيرة ٧٥٨/٢.

(٧) ذوات الأطواق: الحمام.

(٨) الرضاب: الرقيق المرشوف والصل.

(٩) الرند: شجر طيب الرائحة البان: شجر

يشبه به الحسان في الطول واللين.

(١٠) الميثاء: اللينة الطيبة.

(١١) المدى: جمع مدية: السكين.

ببطلوس ثم في دواوين المراهطين، وله رسائل يخُطب فيها ودّ أبي القاسم بن الجدد، وفي إحداها يقول^(١):

«إن تعدّ لِقَاء، فقد انتشر ثناء، امتلأت الأرض منه والسماء، ووُصف عِزُّ الأوصاف
وغلّباها، وهزّ الأعطاف وجذبها، وذكر مَلَأ الآذان حُلْيَا، والآنف رِيًّا^(٢)، والأفواه أُرِيًّا،
وَبُلْ جَلَتْ مطالعُ دِياجِي الأوهام، وروّت مواقعهُ صَوَادِي^(٣) الأوهام.. والله دهرُ أطلّمْك
أفقه، ووقتٌ وَسِعَكَ طَلْقُهُ^(٤)، ما أكرمَ طبيعته، وأضخمَ دَسِيعَتِهِ^(٥)، وأعَبَقَ في الآناف
شَمِيمَهُ، وأرقَّ على الأنفاس نَسِيمَهُ.. وأنا أخطب إلى عِمَادِي - أدام الله عزّه - مودّته
عَقِيلَةً^(٦)، وأجعل رَجْمِي^(٧): الأدب والنسب وسيلة، وأبذل من تحلية حَمْدِي وشكري
مَهْرًا، وأبني لها بين سَحْرِي ونَحْرِي^(٨) قَصْرًا.. والله - جَلًّا وعلا - يُعِينُنِي على فَرْضِهِ
أُودِيهِ، وَقَرِّضِهِ أَقْضِيهِ».

وللأعشى التطيلي الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه
السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إني أبيت ظمآن، ولا أبيت خُزْيَان، وأحتمل
الحِرْمَان، ولا أحتمل الهَوَان^(٩)». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجدد ابن خُفَاجَة شاعر
الطبيعة المبدع الذي مرت ترجمته، وكما كان يبدع في وصفها شعرا كان يبدع في وصفها
نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبُّ مطر^(١٠):

«لما أَكَبَّ القَمَامُ إكْبَابًا، لم أجِدْ معه إغْبَابًا^(١١)، واتصل المطر انصلا، لم أَلْقَ معه
انفصلا، أذن الله تعالى لِلصُّو أن يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وينشر صَحِيفَتَهُ، ففَشَمَتِ الرِّيحُ
السحاب، كما طوى السجّل الكتاب، وطففت السماء تخلع جلبابها، والشمس تحط
بقابها، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تحلّت، وقد تجلّت، ذهبت في لُئمة من
الإخوان نستبق إلى الراحة رُكُضًا، ونطوي للفرج أَرْضًا، وننشر أَرْضًا، وتردّدنا بتلك
الأباطح تنهادي^(١٢) تنهادي أغصانها، وتتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك

(١) الذخيرة ٢/٦٧٠.

(٢) ريا: شذى.

(٣) صوادي: عطاش.

(٤) طلّقه: شوطه.

(٥) دسعت: طبيعته وشيمه.

(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.

(٧) رحم: قرابة.

(٨) السر: الرلة. النحر: أعلى الصدر.

(٩) الذخيرة ٢/٧٢٩.

(١٠) الذخيرة ٣/٥٤٣.

(١١) إغباها: انقطاعا.

(١٢) تنهادي: تتأيل.

المنظر الواسع، ترأسلُ مَشَى، على بساط وَشَى، وأجلنا النظر فى نهر صافى لُجَيْن^(٦) الماء، كأنه مجرَّة السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحَبَاب^(٧)، كأنه من ثور الأحاب. وحضرنا مُسَمِع^(٨) مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهواها، ويضئ لها مُقْتَرَحَهَا وَمَنَاهَا: يحرُّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ وَيَبْتِغِ الطِّبَاعَ للسُّكونِ»

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل فى التهادى وفى العتاب وفى الشفاعة، وفى التهانى وفى التعازى، وهى مبنوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله^(٩):

«قَمَرُ فَضْلٍ سارٍ إِلَى سِرَارِهِ^(١٠)، وَوُسْطَى عَقْدٍ أَخَذَ فِي انْتِثَارِهِ، وَصَبَاحُ جَدَلٍ^(١١) أَسْرَعَ فِي انْطِرَاثِهِ، وَمَصْبَاحُ أَمَلٍ عَجَلٌ بَانْطِفَائِهِ، فَقَبِحا لَدُنْيا قَصْفَتُهُ أَنْضَرَ مَا كَانَ غُصْنَا، وَكَسَفَتُهُ أَقْمَرُ^(١٢) مَا كَانَ حَسْنَا. وَصَارَ مَفْقُودًا، كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ مَشْهُودًا، وَمُنْشُودًا^(١٣) كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا. وَقَدْ وَجَدْتُ لَذَلِكَ وَجْدًا لَا يَسْمَعُ الصَّدْرُ، وَلَا يَقَاوِمُهُ الصَّبْرُ، وَأَوَارًا^(١٤) لَا تَطْوِيهِ أَحْنَاءُ الضُّلُوعِ، وَلَا تُطْفِئُهُ أَحْسَاءُ^(١٥) الدِّمُوعِ. وَكَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا انْقَضَى، فَمَضَى، خِيَالُ أَلَمْ تَمْ تَوَلَّى، وَغَمَامٌ أَظْلُ تَمْ تَجَلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الفصالح أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدوم وتعاذ فى وزير و بنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جذب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطييمة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجه بها إلى ابن بسام ردًا على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمينه الذخيرة، وهو فى أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَطِ المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلًا إنه

-
- | | |
|---|------------------------|
| (٦) اللجين: الفضة. | (٦) جذل: سرور. |
| (٧) الحباب: الفقاقع تلمع فوق سطح الماء. | (٧) أقمر: أضوأ. |
| (٨) مسمع: مذن. | (٨) منشودا: مطلوبها. |
| (٩) الذخيرة ٥٥٧/٣. | (٩) الأوار: حر النار. |
| (١٠) السرار: آخر ليلة فى الشهر. | (١٠) أحساء هنا: يتابع. |

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النف الأخرية، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضى في تصويرها قائلا^(١) :

«إني خططتُ والنوم مُغازل، والقرُ مُنازل، والرَّيحُ تلعب بالسَّراج، وتصول عليه صَوْلَةُ الحَبَّاج^(٢)، فَطَوْرًا تَسُدُّهُ سِنَانَا، وَتَارَةً تُحَرِّكُهُ لِسَانَا، وَأَوْنَةً تَطْوِيهِ حَبَابَةُ^(٣)، وَأُخْرَى تَنْشُرُهُ ذَوَابَّةٌ، وَتَقِيْمُهُ إِبْرَةُ نَهَبٍ، وَتَعَطِّفُهُ بُرَّةٌ دَهَبٍ، أَوْ حُمَّةٌ^(٤) عَقْرَبٍ، وَتَقَوِّسُهُ حَاجِبٌ فَتَاةٌ، ذَاتُ غَمَزَاتٍ، وَتَسْتَلُّ رُوحَهُ مِنْ ذُبَالِهِ، وَتَعِيْدُهُ إِلَى حَالِهِ، وَرَبْمَا نَصَبَتْ أذن جَوَادٍ أَوْ مَسَخَتْهُ حَذَقُ^(٥) جَرَادٍ.. فَلَا حِطُّ مِنْهُ لِلْعَيْنِ، وَلَا هُدَايَةُ فِي الطَّرْسِ لِلْيَدَيْنِ، وَاللَّيْلُ زَنْجِيٌّ^(٦) الْأَدِيمُ تَبْرِيٌّ^(٧) النُّجُومِ، قَدْ جَلَّلْنَا سَاجَهُ^(٨)، وَأَغْرَقْنَا أَمْوَاجَهُ، وَلَوْ نَظَرْتَ فِيهِ الزَّرْقَاءُ^(٩) لَا كَتَحَلَّتْ، أَوْ خُصِبَتْ بِهِ الشَّيْبَةُ لِمَا نَصَلَتْ^(١٠)، وَالْكَلْبُ قَدْ صَافَحَ خَيْشُومَهُ ذَنْبُهُ، وَأَنْكَرَ الْبَيْتَ وَطَنَهُ^(١١)، وَالتَّوَى التَّوَاءَ الْحُبَابِ^(١٢)، وَاسْتَدَارَ اسْتِدَارَةَ الْعَبَابِ، وَجَلَدَهُ الْجَلِيدِ، وَضَرَبَهُ الضَّرِيبَ^(١٣)، وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ الصَّعِيدِ^(١٤)، فَجَمَاءَ مَبَاحٍ، وَلَا هَرِيرَ وَلَا نَبَاحٍ، وَالنَّارُ كَالصَّدِيقِ أَوْ كَالرُّجِيقِ^(١٥)، كِلَاهُمَا عَنَقَاءُ مَغْرَبٍ^(١٦)، أَوْ نَجْمٍ مَغْرَبٍ».

والرسالة وصف شعري بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا فى الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطة، وقد يضىء ويستعرض، وقد يتضائل حتى يصبح إبرة أوبرة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبى الفتح فى وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخیلته الرائعة. وليستم صورة بردها الشديد وصف كلها مقرورا مدُّ عليه الثلج وراقه، حتى لم يعد يبصر ظنب بيته والتف ذنبه على خيشومه

السواد.

(١) الذخيرة ٧٩٢/٣.

(٢) يريد الحجاج الثقفى وقتكاته بأعدائه.

(٣) حبابة: فقاغة الماء.

(٤) البرَّة: الحلقة توضع فى أنف البعير، وبها شبه الكاتب لسان الشمعة. حمة: العقرب: إبرته.

(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثله. حلق جراد أى ضنبلا كقطعة مداد.

(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.

(٧) تبرى: ذهبى.

(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد

(٩) زرقاء الهامة: اشتهرت بحدة نظرها.

(١٠) نصلت: بهتت.

(١١) الطنب: العبال تشد بها الخيمة والغباء.

(١٢) الحباب بالضم: الأفى. وبالفتح: فقاغيع الماء.

(١٣) الضريب: الثلج.

(١٤) الصعد: وجه الأرض.

(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والجراثيم.

(١٦) عناق مغرب: طائر خرافى.

أَوْخَرُطُومِهِ، وَتَقَرُّصُ وَتَكْرُومُ كَالْأَفْعَوَانِ، وَكَادَ يَتَجَمَّدُ، فَحَسَّوُ الْجَوِّ مِنْ فَوْقِهِ إِبْرَ مِنْ
التَّلْجِ اللَّاسِعِ، وَأَرْضُهُ قَوَارِيرُ مِنَ الْجَلِيدِ اللَّاذِعِ، وَجَفُّ رَيْقِهِ فِي حَلْقِهِ فَلَا هَرِيرَ وَلَا نَبَاحَ،
وَلَا نَارَ لِمَصْطَلٍ، فَالرياحُ العاصفةُ لها بالمرصادُ حتى لكَأَنَّهَا الطائرُ الخِرَافِيُّ المسمى عَنقَاءَ
مَغْرَبٍ.

وَمُغْضَى فِي عَصْرِ المَوْحِدِينَ، وَنَلْتَقَى فِيهِ بِصَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ المَتَوَفَى سَنَةَ ٥٩٨ المَارِ
ذَكَرَهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ الْغَزْلِ والمَدَانِحِ النُّبَوِيَّةِ، وَلَهُ مِنْ رِسَالَةٍ يَهْنِئُ بِهَا أَبَا القَاسِمِ بْنِ بَقِيٍّ حِينَ
تَوَلَّى خُطَّةَ القَضَاةِ سَنَةَ ٥٩٢ وَفِيهَا يَقُولُ^(١):

«حُسْنُ الْأَيَّامِ وَجَمَالُهَا، وَمَالُ الْأَمَالِ وَثِمَالُهَا^(٢)، وَبَصَرُ المَعَارِفِ وَسَمْعُهَا، وَوَاحِدُ
الْفَضَائِلِ وَجَمْعُهَا، أَبُو القَاسِمِ بْنُ بَقِيٍّ بْنُ مَخْلَدٍ، يُورِكُ فِي وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ:

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا وَمِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ عَمُودًا
.. نَفَعَ الحَقُّ بِهِ عِلَّاهُ، وَنَفَعَ غُلَّاهُ^(٣).. عِمَادِي الْأَكْرَمِ، وَمَلَاذِي الَّذِي أَنْفَعُ مِنْ حَدِّهِ فِي
ضَرَمٍ^(٤)، وَأَحَلَّ مِنَ الْاِخْتِصَاصِ بِهِ مَحَلَّ الحَرَمِ، تَخَيَّرْتُ عُلَاهُ وَمَنْ أَخَصَّبَ تَخَيَّرُ وَمَا
كَنتُ إِلَّا كَالْفَرِيبِ ارْتَادَ الجَوَارِ، وَالمَحَلِّيِ انْتَقَى المِقْصَمِ حِينَ صَاغَ السَّوَارِ.. وَاللهُ -
تَعَالَى - يَدِيمُ مَدَّةَ قَاضِيِ الجَمَاعَةِ الْأَسْرَى^(٥)، وَكَلِمُ حَمْدِهِ أَشِيرُ مِنَ الْأَمْثَالِ وَأَسْرَى^(٦)،
وَنِعْمَ اللهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِ تَتَرَى، وَمَا يَرِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأُخْرَى». وَالتَّوْرِيَّةُ
وَأَضَاعَةُ بَيْنِ الْأَسْرَى وَأَسْرَى، وَهِيَ تَكْثُرُ فِي نَثْرِ الْأَنْدَلُسِ وَشِعْرِهَا مِنْذُ هَذَا التَّارِيخِ.

وَلِسَهْلُ بْنُ مَالِكٍ - بِأَخْرَةٍ مِنْ عَصْرِ المَوْحِدِينَ - رِسَائِلُ شَخْصِيَّةٍ بَدِيعَةٍ، وَسَنَخْصُهُ
بِكَلِمَةٍ، وَلَأَبَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْجَنَانِ المَتْرَجِمُ لَهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ المَدَانِحِ النُّبَوِيَّةِ مِنْ رِسَالَةٍ
يَعْزِي بِهَا أَبْنَاءَ سَهْلٍ حِينَ تَوَفَّى اسْتَهْلَهَا بِقَصِيدَةٍ أَوْ بِمَرْثِيَةٍ طَوِيلَةٍ وَفِيهَا يَقُولُ^(٧):

«يَا لَهُ حَادِثًا، جَمَعَ قَدِيمًا مِنَ الكُرُوبِ وَحَادِثًا، وَمُصَابَا، جَرَعَ أَوْصَابَا، وَأَضْحَى كُلَّ بِهِ
مُصَابَا، لَا جَرَمَ أَنِّي شَرِبْتُ مِنْ كَأْسِهِ مُسْتَفْظَمَهَا، وَشَرِقتُ^(٨) بِهَا وَبِدْمَعِي الَّذِي أَرْقُضِي^(٩)
مَعَهَا، فَقَالَتْ خَلْدِي، وَغَالِبَتْ جَلْدِي، حَتَّى غَبَتْ عَنِّي، وَلَمْ أَدْرِ بِأَلَامِي الَّتِي تَعْنِي.

(١) بَقِيَّةُ السَّفَرِ الرَّابِعِ مِنْ كِتَابِ الذَّيْلِ وَالتَّكْمِلَةِ

(٥) الْأَسْرَى: الْأَشْرَفُ.

تَحْفِيقُ د. إِحْسَانَ عَبَّاسٍ ص ١٤١.

(٦) أَسْرَى: أَسِيرٌ لَيْلًا.

(٢) ثِمَالُهَا: مِلْجَأُهَا.

(٧) بَقِيَّةُ السَّفَرِ الرَّابِعِ المَارِ آخِرًا ص ١١٥.

(٣) نَفَعَ غُلَّاهُ: شَفَاهُ.

(٨) شَرِقتُ: خَصِصْتُ.

(٤) ضَرَمٌ: وَقْعُ النَّارِ.

(٩) أَرْقُضُ: تَفَرِّقُ وَتَهْدِي.

وبكيت حتى خشيت البكاء أن يعشيني^(١)، وعُشيت^(٢) إذ غَشَيْتَنِي^(٣) من ذلك اليم^(٤) ما غَشَيْتَنِي، «وظَلَلْتُ لَقَى^(٥) أينما شاء الرَّحُّ يلقيني، فتارة يُقْنِي، وتارة يُبْقِي.. وبا ليت شعري إذ أفادوا الماء طهارة زائدة بفعل جلاله، هل حنطوه بغير ثنائه أو كفنوه في غير جلاله، وبا ليت شعري إذ استقل به نَعْشُه الأشرف، تُرْفُوف عليه الملائكة وظله الرُّفُوف، هل رأوا قبله حَمَلُ الأطواد^(٦)، على الأعواد، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب، ولم أثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مقربا لأنوار شمسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصِّفِيح صَرِيح الحب والولوع.. وهب الله لكم في مصابكم صبرا على قَدْره، وسكب دِيم مغفرته على مَنَوَى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكتاب في الأندلس منذ القرن السابع الهجري على لسان أبي المطرف بن عميرة الذي ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون في كتاباتهم بالملاعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبي المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسرا^(٧):

«باقه أئى نحو ننحو، أو مسطور نثبت أو ننحو، وقد حُذِف الأصل والزائد، وذُهِب الصَّلَة والعائد.. وذُهِب علامة الرفع، وفُقدت نون الجمع، والمعتل أعْدَى الصحيح، والمثلث أَرْدَى الفصيح.. ومالت قواعد الملة، وجِزْنَا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استفلا واسعا في التورية عما أراد من تصوير يؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم في حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابي الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضا وأشار معها إلى تغلب المسيحي على العربي بكلمتي المثلث والفصيح موربا بها عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البذل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإملاعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التي يحاكون بها قلمها

(١) يعشني: يعمي البكاء.

(٢) عُشيت: أغشى على.

(٣) غَشَيْتَنِي: غطاني وحواني.

(٤) اليم: البحر يريد بحر العزن.

(٥) لَقَى: مطروحا مهلا.

(٦) الأطواد: الجبال.

(٧) الإحاطة ١٧٣/٨.

أبا العلاء المعري في نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه في كتابنا عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع في الرسائل مع المحسنات البيديعة - وخاصة التورية - عقد يصعب بها الكتاب المرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشاركة من ذلك منذ الحريري صاحب المقامات، إذ كان يلتزم في بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة وكثر مثل ذلك عند المشاركة كما كثر أن يلتزم حرف بعينه في كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنيان إذ التزم في عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا^(١). والتزم في رسالة له العين في جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشي إنها «شاعت في الأندلس، وتوقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرعيبي برسالة مماثلة، ورد عليه ابن الجنيان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعيبي برسالة نونية ملتزما التون في جميع كلماتها^(٢). ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دانا من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دانا بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك مائلا في كتابات الكتاب بقرنائة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الفرناطيين وفي مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه في كتابه «التعريف» وفي إحداها يرحب بمقدمه إلى قرناطة قائلا^(٣):

«لو خُيِّرْتُ أيها الحبيب الذي زيارته الأمانةُ السنيةُ والعارفةُ الوارفةُ^(٤)، واللطيفة المُطيفة، بين رَجْعِ الشبابِ بقطر ماء، وِزْفِ نماء، وِغَاظِلِ عيونِ الكواكبِ فضلا عن الكواكبِ إشارة وإيماء.. وبين قدومك لما اخترتُ الشباب وإن شاقني زمنه وأجرتُ سحابَ دمعِي مِنه^(٥)، فالحمد لله الذي رَفَى جنونَ اغترابي، وملكني أزمَةَ آرابي» وكانت بينها مودة وثيقة، وأن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبي عبد الرحمن بن طاهر وأبي القاسم بن الجمد وسهل بن مالك.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(١) الإحاطة ٣٥٢/٢ - ٣٥٣.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٢) انظر في هذه الرسائل المراكشي (تحقيق د.

(٥) النمن: آثار الديار، والاستارة واضحة.

إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبي بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان شديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طُلُقُ^(٢) العمر، لسد طريق الصباح، وغبر في وجوه الرياح، إذ توفى ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفى شابا معتبطا بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حدائنه. وله كتاب البديع في وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة في الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال في فاتحته:

«فَصُلِّ الربيع آرَجُ وَأَهْجُ، وَأَنْسُ، وَأَنْفُسُ، وَأُبْدِعُ، وَأُرْفِعُ، من أن أُحْدُ حُسْنَ ذاته، وأَعْدُ بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسماته الشائقة، وآلانه الفائقة، لم يَحْنُ بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد».

وقد جمع حبيب في كتابه أروع ما للأندلسيين في وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبي الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هي الورد والترجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسائلته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسائلته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها في رسائلته، يقول:

«أَوَّلُ من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد في تفضيل الورد) وعاین الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن، وصحابته في الزمن، ولما قرأته

ببريس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع في السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.
(٢) طلق: شوط.

(١) انظر في ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والمجموعة ١٥٢ والنهاية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ٢٥٠/١. وراجع كتابه: «البديع في وصف الربيع بتحقيق هنري

أُنْكَرْتُ مَا فِيهِ، وَبَنَتْ عَلَى هَدْمِ مَبَانِيهِ، وَتَقَضَّ مَعَانِيهِ، وَعَرُفْتُ الْوَرْدَ بِمَا عَلَيْهِ، فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ.. وَكُتِبَتْ إِلَى الْأَقْحَوَانِ وَالْغَيْبِيِّ الْأَصْفَرِ كِتَابًا قَالَتْ فِيهِ: لَا نَدْرِي لِأَيِّ شَيْءٍ أُوجِبْتَ الْأَزْهَارَ تَقْدِيمَهُ، بِمَا غَيْرُهُ أَشْكَلُ لَهُ وَأَحَقُّ بِهِ وَهُوَ نَوْرُ الْبَهَارِ، الْبَادِي فَضْلُهُ بِدَوِّ النَّهَارِ، وَالَّذِي لَمْ يَزَلْ عِنْدَ عُلَمَاءِ الشُّعْرَاءِ، وَحُكَمَاءِ الْبُلَغَاءِ، مُشَبَّهًا بِالْعَيُونِ الَّتِي لَا يَحُولُ نَظَرُهَا، وَلَا يَحُولُ حَوْرُهَا، وَأَفْضَلُ تَشْبِيهِهُ لِلْوَرْدِ، بِنَضْرَةِ الْخَدِّ، عِنْدَ مَنْ تَشِيْعُ فِيهِ، وَأَشْرَفُ الْحَوَاسِّ الْعَيْنِ، إِذْ هِيَ عَلَى كُلِّ مَنْوَلٍ عَوْنٌ، وَلَيْسَ الْخَدُّ حَاسَةً، فَكَيْفَ تَبْلُغُهُ رِئَاسَةٌ:

أَيْنَ الْخُدُودُ مِنَ الْعَيُونِ نَفَاسَةً وَرِئَاسَةً لَوْلَا الْقِيَاسُ الْفَاسِدُ»

وَاسْتَمَرَ حَبِيبٌ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ طَوِيلًا، وَخَتَمَهَا بِمُبَايَعَةِ الْأَزْهَارِ لِلْبَهَارِ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى الْوَرْدِ، وَلَهُ مِنْ رِسَالَةٍ إِلَى أَبِيهِ:

«لَمَّا خُلِقَ الرَّبِيعُ مِنْ أَخْلَاقِكَ الْفَرِّ، وَسَرَقَ زَهْرَهُ مِنْ شَيْمِكَ الزُّهْرِ، حُسْنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْظَرُهُ، وَطَابَ فِي كُلِّ سَمْعٍ خَبْرُهُ، وَتَاقَتْ النَفُوسُ إِلَى الرَّاحَةِ فِيهِ، وَمَالَتْ إِلَى الْإِشْرَافِ عَلَى بَعْضٍ مَا يَحْتَوِيهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي كَسَا الْأَرْضَ حُلَلًا، لَا يَرَى النَّاظِرُ فِي أَتْنَائِهَا خِلَالَ، فَكَأَنَّهَا نَجُومٌ نَشِرَتْ عَلَى الثَّرَى، وَقَدْ مُلِئَتْ مِسْكًا وَغَنَمًا، إِنْ تَنَسَّمْتَهَا فَأَرْجَةٌ، أَوْ تَوَسَّمْتَهَا فَبِهْجَةٌ، تَرُوقُ الْعَيُونُ أَجْنَأُهَا، وَتُخَيِّى النَفُوسُ أَنْفَاسُهَا.. فَأَوْجَدُ لِي سَبِيلًا إِلَى إِعْمَالِ بَصَرِي فِيهَا، لِأَجْلَوْ بِصِيرَتِي بِمَحَاسِنِ نَوَاحِيهَا، فَالْنَفُوسُ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، وَمَنْ أَجْمَعُهَا^(١) فَهُوَ السُّدِيدُ الرَّشِيدُ».

وَوَاضَحَ فِي الرِّسَالَةِ لَطْفَ الْإِبْنِ لِأَبِيهِ، مَعَ حَسَنِ تَأْتِيهِ وَجَمَالِ وَصْفِهِ لِلرَّبِيعِ وَشُغْفِهِ بِمُشَاهَدَةِ نَوَازِيرِهِ الْبَدِيعَةِ، وَلَهُ مِنْ رِسَالَةٍ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ يَسْتَدْعِيهِ لِلْمُتَمَتَّةِ مَعَهُ وَالْأَنْسِ بِهِ فِي مَنْظَرِ فَاتِنٍ مِنْ مَنَاظِرِ الرَّبِيعِ، يَقُولُ:

«قَدْ عَلِمَ سَيِّدِي أَنَّ بَعْرَاءَ يَكْمَلُ جَذْلِي، وَيَدْنُو أَمْلِي، وَقَدْ حَلَلْتُ مَحَلًّا غَنَى الْجَوِّ بِتَحْسِينِهِ، وَانْفَرَدَ الرَّبِيعُ بِتَحْصِينِهِ، فَكَسَاهُ حُلَلًا مِنَ الْأَنْوَارِ، بِهَا يَنْجَلِي صَدَأُ الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ، فَمَنْ مَكْمُومٌ^(٢) يَبْقَى مِسْكُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَسْكُهُ، وَمَنْ يَادُ يَرُوقُ مُجْتَلَا، وَيَفُوقُ مُجْتَبَاهُ، فِي مَرَاءٍ وَرِيَاءٍ، فَتَفْضُلُ بِالْخُفُوفِ^(٣) نَحْوِي لِنَجِدُدَ مِنَ الْأَنْسِ مَقَانِي^(٤) دَرَسْتُ،

(١) أَجْمَعُهَا: أَرَاخَهَا.

(٢) الْخُفُوفُ: الْإِسْرَاعُ.

(٣) مَكْمُومٌ: أَيُّ زَهْرٍ مُسْتَوْرٍ فِي كُهُ.

(٤) مَقَانِي: مَنَاظِلُ. دَرَسْتُ: عَفْتُ وَذَهَبْتُ أَتَرَاهَا.

ونفك من السرور معاني أشككت وألبست^(١)، ونشكر للربيع، ما أراتنا من البديع»
والرسالة كسابقتها جمال صياغة وحسن أداء، وهي تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة
في أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهد
وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن^(٢) الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ
بسرْقسطة، وعمل بدواوينها وقربه المقنن بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح
من وزرائه، وأحسن منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل
بالمعتمد بن عباد في إشبيلية، فأجزل قراه، وخصه بحظ من دنياء، وجعله مكان سره
ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان يبأيرة.
وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه في وزارة المعتمد، وبلغه أنه قدح فيه بمجلس
المعتمد، وخشى مقبة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن
موطأ الكنف في العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبي عبادته بن
أين، واشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان الساء - كما يقول ابن
بسام - ارتفاعها، فكرر راجعا إلى سرقسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ
الظنون، فبنا به مقامه عند المقنن بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما
دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف
الناجين، وفيه يقول ابن بسام: «فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على
نبيله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها
غرر ودرر، وأكثرها في ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله في بعض
رسائله:

«كناهي وعندي من الدهر ما يهدئ أسره الرواسي، ويفتت الحجر القاسي.. ومن
أقلها قلب محاسني مساوي، وأوليائي أعادي، وقصدي باليقظة من جهة الحق^(٣)».

(١) أشككت وألبست: اشتبهت وانتهت.

(٢) انظر في ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٢٥١/٣ التونية ٣٨٧/٣

والفلاتة ص ١٠٦ والمغرب ٤٤٠/٢ والحريدة (٢) المقة: المحبة.

(٣) قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار

واعتمادى بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غُيِّرَ علَيَّ حتى شرايى، وأوحشنى حتى ثيابى،
 فها أنا أَنُهم عِيانى، وأُسْتَرِيبُ من بَيانى، وأجنى الإساءة من غُرسِ إحسانى..
 وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفك من نحوس..
 لست أشكو إلا زمانى وقُعوده بجَدَى^(١)، وقبيح آثاره عندي، يخصنى بمزية جرمان،
 ويتوخانى بفضلة عُدوان، ويجعلنى نَصَبَ سَعْيِهِ، وغرضَ رَمِيهِ، ومكان أذَابَتِهِ وبُغْيِهِ..
 ما أجد إلا من يَتَلَبَّ، ولا أمر إلا بمن يتجهَّم ويقطَبُ.. وسبحان من جعل الدنيا دارَ
 كُرب ومِحنة، لكل ذى لُبٍّ وفطنة، ومقام تنعم وترف، لكل ذى خِسةٍ ونُظفٍ^(٢).. وما أظن
 أن لُدجى حالى أنبلاجاً، ولا لَكُرىةٍ نفسى انفراجاً، ولا إخال غمرات الهم تتجلى،
 ولا مُددَ النحوس تنقضى، ومن كانت له من الدنيا حُظوةٌ يصطفِها، ومكانة يستقر فيها،
 فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتَبُها وتُناوَبُ، وتتنازع بُعُها وتتجادَبُ، وتفتنم
 فوائدها وتتناهَبُ، حتى كَأنى جنت على العدد زائداً، ولم أكن عند القسمة شاهداً،
 وما أقول هذا قول ساخط، ولا أبأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح
 العليل فى أَنَّةٍ، واستغاث المتوجع إلى رَنَّةٍ^(٣)، وخُفِّفَ عن المصدور نَفَثٌ^(٤)، ونَفَسٌ من
 وَجَدَ المكروب بَتَّ^(٥)..

وهو يبطِلُ فى مثل ذلك صادراً عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تغد
 عليه من كل صوب، وهو يختار أسلَسَ الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة
 ومصافحة الأسجاع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دأبنا بألفاظه ومعانيه
 الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنته:

«قد كنتُ - أعزَّكَ الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يُتمنى فى المَجلِ^(٦) صَوْبُ الغمام،
 ومنتظراً لظهورك فيها، كانتظار النفس أَعْدَبَ أمانيتها، ولما أطلعت طلائعها السعود،
 واستمرَّ بك الارتقاء والصعود، قلت لنفسى بُشْرًاكِ، أَسْعَفَكَ الدهرُ بمنّاكِ، وسرَّكِ فى
 بعضِ أعزَّتِكَ وأرضاكِ، وأذِنى فى الإصغاء، إلى ما يَطْرَأُ من الأنباء، وكلما قيل فَرَعٌ^(٧)
 من الجاه ذروة، واستجدَّ من المِرْ كُسوة، سَرَبَتِ العِزَّةُ فى خَلْدِي^(٨)، وطالت^(٩) على
 النوبِ يدى»

(٥) البت: ما بينه المكروب والمحزون تخفيفاً عنه.

(١) جدى: حظى.

(٦) المجل: الجذب.

(٢) نظف: عيب.

(٧) فرع: علا.

(٣) رنة: صيحة.

(٨) المجلد: الهال والفكر.

(٤) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره.

(٩) طالت: غلبت وتفرقت.

المريض.

وهذا البيان الخلاب لا تزال نقرأ في رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيقبله من أوصار تشاؤمه وعثرات يؤسه بما يُسدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبدل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محنته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَص الضُيْم والحُرمان في غير شفقة ولا رافة.

أبو^(١) عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية في شرقي الأندلس، وهو بيت كان ينتمي إلى قبيلة قيس بن عيلان في الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبه. ولما انتثرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدي أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه في بلده مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبي عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبُّ فأعان أباه في حكمه إلى أن توفى سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارح إذ عنى أبوه بترييته، وكان يتقدم أمراء الطوائف في بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به ساء «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له في الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذي مرت ترجمته بين الشعراء أيام خوله، فرحّب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنهارة، إذ عرف في مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زُين له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُقرّبه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدّ له جيشا جرارا لفتحها، وفي طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيّق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجّ به في سجن

والحلة السراء ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٩٠/٥ والحرية ٣٦٣/٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٢٢.

(١) انظر في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية المنتسب رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠.

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسُئِلَ له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسُلِّطَ عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبوبكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبعُلاً معزّزاً، وشهد معنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور في حربه - بأسره، واقتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومُدَّ له في البقاء إلى أن توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التي امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاماً أضى منها فترة معاوناً لأبيه في حكم مرسية وفترة ثانية في حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلاً ثم فترة طويلة ببلنسية معزّزاً موقراً. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أو يعزى أو يهنئ، وقد اهتزّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر في الشمال الشرقي لسرقطة سنة ٤٥٦ وأنزلوا بهم مذبحة - كما مرُّ بنا - تشمر لها الأبدان وسبوا منهم خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهم في الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحبت، وأخذ يكتب لأقرانه كي يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله في وصف هذا الحادث المروع:

«خَطَبُ أَطَارِ الْأَلْبَابِ، وَطَاطَأَ الرِقَابِ، وَقَطَعَ الْأَمَالَ وَالْهَمَّ، وَأَسْلَمَ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْقَلَّةِ إِلَى مَا قَصَمَ، فَمَا شَتَّ مِنْ دَمْعٍ مَسْفُوحٍ مُرَاقٍ، وَنَفْسٍ مَرْدُودَةٍ بَيْنَ لَهَائِهِ وَتَرَاقٍ^(١)، وَأَسَى قَدْ قَرَعَ حُصَيَّاتِ الْقُلُوبِ فَرَضُهَا^(٢)، وَعَدَلَ عَنِ الْمَضَاجِعِ بِالْجَنُوبِ فَأَقْضَاهَا^(٣)». ويقول من رسالة أخرى مستنقراً للجهاد:

«لِيُنْتَدِبَ الْإِسْلَامُ نَادِبٍ، وَلِيَبْكُ لَه شَاهِدٌ وَغَائِبٍ، فَقَدْ طُفِئَ مَصْبَاحُهُ، وَوُطِئَ سَاحُهُ، وَقُصِّ جَنَاحُهُ، وَهِيَضُ^(٤) عَصْدُهُ، وَغِيضُ نَمْدِهِ^(٥)، إِلَى اللَّهِ نَفْرَعُ، وَإِلَيْهِ نَضْرَعُ، فِي طَارِقِ الْخُطْبِ وَمُنْتَابِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ كَاشِفُ الْكُرُوبِ، وَنَاصِرُ الْمَحْرُوبِ».

(١) التراقي: جمع ترقة: أعلى الصدر. اللهاة: (٣) أقضاه: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.
(٤) هيض: تحطم.
(٥) غيض نمده: جفّ ماؤه القليل.
(٢) رضها: دقها.
(٣) أقصى سقف الحق.

وحين رُدَّت إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبي بكر بن عبد العزيز الوزير بيلنسية واستجاب إلى رغبته في المقام عنده كتب وهو في طريقه إليه رسالة يقول في فصل منها:

«كتابي وقد طَفَلَ^(١) العَشِيُّ، وسالَ بنا إليك الصَّطِيُّ^(٢)، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونُغتفر للزمان ما قد أساء، ونُرِدُّ ساحةَ الأمن، ونشكر عظيمَ ذلك المَنِّ، فهذه النفس أنت مُقِيلها^(٣)، وفي بَرْدِ ظِلِّكَ يكون مُقِيلها^(٤)، فله مجدُّك وما تأتبه، لازلت للوفاء تُعَيِّبه وتُحويه»

وكانت في ابن طاهر دعاية لم تفارقه حتى في أيام محنته بالاعتقال، وله في ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويرى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيقي كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما في اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملّق معه ويتصنع، فقال له ابن طاهر: خلاصي بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتني في لحيتك لتخلصت ولم يرنى أحد. وكتب إليه رجل يترهّد، وأطال الوعظ وردّد، وهو يعرف أنه على الضدّ من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكّر، ونصح فبُصّر، ونبه من سِنَةِ الغفلة، واغترار المُهْملة، وحذّر من يوم الندامة، وبعث يوم القيامة، فميرعك الله من هادٍ، وخائف معادٍ، ومبتغي إرشادٍ، وداعٍ إلى صلاح وسداد، لقد حرّكت أنفُسًا قاسية، وهزّزت جُنُدَلةً راسية، ومغولك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بظُفْرِ ولا نابٍ»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر في خفة ورشاقة وعذوبة، وفي الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود اللُرِّيَّة، وتُصنِّعُ^(٥) معه الليالي البُثْريَّة».

(٣) مُقِيلها: منَحَّها أى عا كانت فيه من اعتقال.

(٤) مقِيلها: مكان راحتها.

(٥) تمسّس: تظلم.

(١) طفل العشي: مال للغروب العشي وهو آخر النهار.

(٢) الصطى: الإبل.

أبو القاسم بن الجد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لبلة غربي إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفي كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكتب في نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه في إشبيلية، فاختره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولّاه مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، وظل معه حين ولّاه مدينة رُنْدَة غربي مالقة إلى أن استنزل منها المرابطون سنة ٤٨٤م وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلده: لبلة فولّوه خطّة الشورى ومقاليذ الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان براكش منذ سنة ٤٨٧م ليوسف بن تاشفين ثم لابنه علي. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه في هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨م أسندت إلى ابن الجد رئاسة الديوان براكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع^(١) وقتنا، وواحد عصرنا، ممن استمرى^(٢) أخلاف النظم والنثر، قدّرت له بالبيان أو بالسحر.. وروّيدك حتى ترى الصبح كيف يُسفر، وتبيح^(٣) البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر^(٤)». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين، ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قريك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خُلس الكرى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

(١) انظر في ترجمة أبى القاسم بن الجد الأخيرة ٢/٢٨٥، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للراكنى ٣٢٦/١ والمغرب ٣٤١/١ والمزجدة ٣/٣٩٣ وأحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخلاف النظم: احتلب ضرعه.

(٤) تبيح البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

خيالى نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلفائك غليلا.. ولئن أقعدتني بعواقبها عن لقاء حر، وقضاء برٍّ فما تحيَّفتُ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحَفَّتْ (استأصلت) أقلامي، وفى الكتاب بُلْفَة الوطر، وُستدَلَّ على العين بالأثر.. وإن فرغت للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ حديقًا، وبَلَلْتَ ريقًا، وأسديتَ يدا، وشفيتَ صدًى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولهايك أسعارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنيه أن يستدعيه صديقه للعمل معه في ذلك الديوان، ولا تخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بدعية، مع لطف الأخيصة ودقة المعاني ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة في وصف مطر بعد جذب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابت جياض الوهاد، بمهود العهد^(١)، وتأنَّبت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بأنمِد^(٢) التقعِ المثار، وتعلَّط الأنوار، من حُلَى الدِّيمة المِثْدار، أرسل الله تعالى بين يَدَي رحمة رِيحًا بليلة الجناح، سريعة الإلقاح، فنظمت عقود السحاب، نظم السحاب^(٣)، ولم تلبث أن انهكت رواقها^(٤)، وأنبتك^(٥) وشيكا نطاقتها، وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق، غداة الفراق، فاستغربت^(٦) الرياض ضحكا ببيكانها، واهترت رفات^(٧) النبات طربًا لتفريد مكانها^(٨)، فيا برِّد موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص ريقها إلى غُلل النفوس الصَّواد^(٩)، كأنما استعارت أنفاس الأحباب، أو ترشفت رُضابًا^(١٠) من الثنايا العذاب، أو تحمَّلت ماء الوصال، أو

(١) العهد: المطر.

(٢) إنمِد: كحل. التقع: الفبار.

(٣) السحاب: القلادة من الأزهار.

(٤) الرواق: مقدم البيت.

(٥) انتبتك: انقطع.

(٦) استغرب في الضحك: بالغ فيه.

(٧) رفات: حطام.

(٨) المكان: طائر له تفريد حسن.

(٩) ربا: شربا حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة.

شدة العطش الصَّوادى. العطشى.

(١٠) الرضاب: الرقيق المرشوف.

سَرَتْ عَلَى أُنْدَاءِ الْأَسْحَارِ وَرِيعَانِ الْأَصَالِ. فَالْحَمْدُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنْسَكَبَ قَطْرٌ،
وَأَنْصَدَعَ فَجْرٌ، وَتَوَقَّدَ قَبَسٌ، وَتَرَدَّدَ نَفْسٌ».

ولعل صوت ابن الجدد اتضح، فهو صوت يفيض بالهوان عذبة يأخذ بعضها بتلايب
بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد في تصاوير متتابعة،
فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخاطب فيها وداد أديب وأخوته:

«إِنْ كَانَتْ الْمَدَاخِلَةُ بَيْنَنَا لَمْ يُفْتَحْ لَهَا بَابٌ، وَلَا عُلِقَتْ بِهَا أَسْيَابٌ، وَلَا رُمِيَ لَنَا فِي
مَحْصَبِهَا^(١) جَارٌ، وَلَا عَطَفَ بِنَا نَحْوَ كَعْبَتِهَا اعْتِمَارٌ، فَقَدْ جَعَلْتَنَا فِي مَعْرِفٍ^(٢) الْمَعْرِفَةُ مَعَارِفٌ،
وَضُمُّنَا مِنْ مَعَالِمِ الْعِلْمِ مَعَاهِدٌ وَمَأَلَفٌ، وَوَشَّجَتْ^(٣) بَيْنَنَا مِنْ أَوَاصِرِ الْأَدَبِ أَنْسَابٌ،
وَضُرِبَتْ عَلَيْنَا فِي مَدَارِجِ الطَّلَبِ قِيَابٌ، وَلَا غُرُو مِنْ تَدَانِي الْقُلُوبِ عَلَى تَنَائِي الدِّيَارِ،
وَانْتِلَافِ النُّفُوسِ مَعَ اخْتِلَافِ النَّجَارِ^(٤)، فَرَبَّيَا أَلْفَ تَشَاكُلِ الشَّيْمِ وَالْأَخْلَاقِ، بَيْنَ مَسْتَوْنِ
الشَّامِ وَسَاكِنِ الْعِرَاقِ. عَلَى أَنِّي لَا أَدْعِي رَبَّتَكَ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ وَالْآدَابِ، وَمَنْ يُضَاهِي عَمَلِ
الْفَرْدِ^(٥)، بِمَنْبِتِ الْفَرْدِ، لَكُنِّي وَإِنْ لَمْ أَعُدْ فِي رَعِيلِكَ، فَعُنْدِي مِنْ بَضَائِعِ الْكَلَمِ مَا يَنْفَقُ فِي
سُوقِكَ، بَقِيَتْ حَلِيَّةٌ لِلدَّهْرِ قَائِمَةٌ، وَغُرَّةٌ فِي وَجْدِ الزَّمَنِ رَائِقَةٌ».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تفرق الآذان في
أنغامه مع ما يسوق من أطيايف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله
يعارض أبا الحسين بن سراج في رقعة التي مرت بنا والتي شفع فيها عند بعض ذوى
الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيراً له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش
والعش والتكبير والتحسير، وعلى غرار رقعة ابن سراج يقول في رقعة:

«لَنْ سُمِّيَ بِالزُّرْزِيرِ، لَقَدْ صُفِّرَ لِلتُّكْبِيرِ، وَلَمَّا طَارَ بِلَادَ الْغَرْبِ وَوَقَّعَ، وَرَقَا فِي
أُكُنَافِهَا وَصَقَّ^(٦)، وَعَايَنَ مَا اتَّفَقَ فِيهَا هَذَا الْعَامُ مِنْ عَدَمِ الزَّيْتُونِ، فِي تِلْكَ الْبَطُونِ،
وَالْمَتُونِ، وَلَمْ يَجِدْ بِهَا قَرَارًا، أَرْمَعَ عَنْهَا فِرَارًا. وَاسْتَخَفَّهَ هَانِجُ التَّذْكَارِ، نَحْوَ تِلْكَ الْأَوْكَارِ،

(٥) الفرد: النجم القطبي؛ الفرد شجر قصير

فروعه شائكة.

(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب في كل وجه.

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بنى.

(٢) المرف: الموقف بمرقات، والاستمارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسي.

حيث يكسى ريشه حريرا، ويحتشى جَوْفُهُ بِرَبْرٍ^(١)، ويحتسى قَرَا حَا نَمِيرًا^(٢)، فخذنه إليك، نازلا لديك، مانلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذباب فى الروضة الفناء. ولن يقدّم فى جنبك حَبًا نَمِيرًا، وَخَصْبًا كثيرا، وَعُشًا وَثِيرًا^(٣)».

والدعابة لطيفة والصياغة بدیعة، ويقول ابن بسام فى ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهى، وأسرى من النسيم وأسير» لما يشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل^(٤) بن مالك

هو سهل بن محمد بن مالك الأزدى، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثناء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان من أعیان مصره وأفاضل عصره تفننا فى العلوم وبراعة فى المنثور والمنظوم، محدثا مجودا للقرآن متقدما فى العربية، وافر النصب من الفقه وأصوله، كاتباً مجيد النظم فى معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد فى القدح الملى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها فى العلم والجد والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع فى العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنف فى العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفى فى الأصول للغزالي.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك ينتدر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله ففرّبه عن غرناطة ببلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفى ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب باق معه محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة فعاد إليها، وظل فى جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفى سنة ٦٣٩ للهجرة عن سنٍ عالية وثناء تلميذه ابن الجنان رثاه حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبدّ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح الملى لابن
سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون
والذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع)
ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

(١) البربر: ثمر الأراك.
(٢) يحشى: يتجرع. قراحا نميرا: ماء صافيا
زاكيا.
(٣) وثيرا: وطنيا.
(٤) انظر فى ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه

بأصباح الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفى سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا في عينيه وكأنما طُعن في كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى ابنه يعزيم - وقد حَزَّ في نفسه الجزع وعَضُّها الوجع - تعزية ملتحاً أضرمت اللوعة ناراً في فؤاده، وفيها يقول:

«لا أقول كفى ولا أستشعر صبراً، وقد أَسْكَنَ نورُ العِلْمِ قَبْرًا، بل أَغْرَقُ الأجفانَ بمائها، وأستوهبُ الأشجانَ غَمْرَةً^(١) غَمَانَهَا، وأتَهَالِكُ تَهَالِكَ المجنون، وأستجيرُ من الحياة بِرَيْبِ المُنُون، وأنا فَرُّ السُلُوِّ منافرةً اليقينِ لوساوسِ الظنون. وهو الخطْبُ الذي نَفَى الهُجُودَ^(٢)، وألْزَمَ أَعْيُنَ الثَّقَلَيْنِ أنْ نجود، وبه أعْظَمُ الدهرُ المصَابَ، وفيه أخطأ سَهْمُ المنية حينَ أصاب، والدهرُ يَسْتَرْجِعُ ما وهبَ، كان الصُّفْرُ^(٣) أو الذَّهَبُ، ولا غرو أنْ دَهَمَ^(٤) الرُّزْءُ، يؤودُ^(٥) الفلكُ الدائرُ منه الجُزْءُ.. وإنا لله لَقَطْةٌ أوليها، وأتبعها زَفَرَةٌ تليها، ولقد بحثت الأيامُ عن حَفَتِهَا بِظِلْفِهَا، وَسَعَتْ على قَدَمِهَا إلى رَغَمِ أنْفِهَا، حينَ أَتَلَفَتِ الواحدَ يزن مائةَ ألفِهَا، فَمَنْ لَبِثَ الوَصْلَ ولِرَغَى الوَسَائِلِ^(٦)؟ وإلى من يُلْجَأُ في مُشْكَلاتِ المسائلِ؟ ومن المَجِيبِ إذا لم يكنِ المسئولُ بأَعْلَمَ من السائلِ؟ اللهم صَبِّرْنَا على فَقْدِ الأُنْسِ بالعلم، وأدِلَّنَا^(٧) من خُفُوفِ الولهِ بوقارِ الحِلْمِ، وأخْلِفْهُ في بنيه وعامةِ أهْلِهِ بِشَيْبِهِ، ما أولَيْتَهُ في جِوَارِكِ المقدَّسِ وتُوبَلِهِ»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجَّعُ وتفجع لهذا الرزء الفادح الذي نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرنين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مَرْسِيَةِ وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأَخُ الجليلُ عَافِيَةً لا تَعْفُو^(٨) بِأَلْسِنِ الحُسَادِ، ولا تَقْفُو^(٩) مَوَادِّهَا أَعْيُنُ السَّعَاةِ البغاة الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصاد، وأتنبئُ على كرمِ طباعك بوصول رسالتك التي طلعت على ليلي البهيم^(١٠) صَبَاحًا، وأدارتُ عليَّ من التسلِّي والتعزِّي أَقْداحًا.. ويعلم الله أيها العَلَمُ علما وفهما، أني لولا مخاطبتك وميثالك^(١١)

(١) غمرة غائتها: شدة شدائدها.

(٢) الهجود: النوم.

(٣) الصفرة: النحاس.

(٤) دهم: فقياً. الرزء: المصيبة.

(٥) يؤود: ينقل ويجهد.

(٦) الوسائل: الصلات.

(٧) أدلنا: انصرنا.

(٨) تعفو: تنطمس.

(٩) تقفو هنا: تحيط بها.

(١٠) البهيم: المظلم.

(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبته وشخصه.

لَمْتُ أَسْفًا وَغَمًا، وَلَسْتُ - عَافَاكَ اللَّهُ - بِذِي سِجْنٍ وَلَا قَيْدٍ، وَلَكِنْ مَعَاشِرَةٌ مِنْ لَا يَشَاكُلُ عَقَبَةَ كَرْوَدٍ^(١)، وَلَعَلَّهَا ذَنْوَبٌ تَمَحَّصُ، وَسَبْكٌ يُصْفَى بِهِ الْإِنْسَانُ وَيُسْتَخْلَصُ، وَقَدْ شَكُونَا لَوْ أَنَّ الشَّكَاةَ تُسْمَعُ، وَدَعَوْنَا لَوْ أَنَّ الدَّعَاءَ - عِنْدَ مَنْ لَا يَقْبَلُهُ بِنْفَعِ.

وسهل يومئ في أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفي عن بلده، ويمبر عن ألمه وحزنه لهذا النفي مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التي أثلجت صدره وفتحت له من التسلي والتعزي أبوابا كانت مغلقة، فخففت من أسفه وغمه. ويقول المراكشي عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهممة حصيف الرأي وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصية، وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء إلى الانساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التي تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفي كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة في كل ذلك، وخاصة مع موقعي برُبَشْتَر سنة ٤٥٦ والزلاقة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألمنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبيب وأبي عمر الباجي، ومرُّ بنا أن لابن الجدد رسالة بارعة في وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبي الحवाल رسالة في وصف ليلة شديدة البرد نوه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة في وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة في وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعاية والفكاهة، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري وكان شاعرا يتصملك في شعره على

طريقة الأدبانية أصحاب الكُدَيَّة من يصفون في أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربي الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمدا من رسالته التريب والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا في ترجمته له^(١). ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة في وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله^(٢)، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوابع والزوابع وما فيها من سخرية وأيضاً بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذى ألمنا به طائفة من رسائله في الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبى الحسين سراج بن عبد الملك في الشفاعة التى بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا في وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارث شهرة الرسالة - كما أسلفنا - في الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بفرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع في الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والمجاهد والحرب. وحرى بكل جانب من هذه الجوانب أن تجتمع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

ابن شهيد^(٣) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعى القرطبي، فهو من أصل عربي، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا في الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له في سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبى عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيئا منها إلى ثرائه

ومعجم الأديباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١
والواقى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب
زكى بالقاهرة وشارل بلا في بيروت وللآخر
محاضرات عنه بجامعة عمان.

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.
(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.
(٣) انظر في ترجمة ابن شهيد البنية ٣٥/٢
والجنوة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ -
٣٣٦، ٤٣٧ والبنية رقم ٤٣٧ والمحرية ٥٥٥/٢

الموروث عن أبيه ثراء واسعاً، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشاراً وجليسا. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ في نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصره مختلطاً بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول في فواتح رسالة: التوايح والزوايح: «كنت أيام كُتِّب الهجاء أهن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فاهتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لي عِرْق الفهم، ودّر لي شِرْيَان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان إدراكا، وأعلقت رِجْل طيره أشراكا، فانتالت لي العجائب وانثالت على الرغائب». ويضيف إلى ذلك في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق في النعيم وفي تنقيف نفسه إذ النكبة تحمل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفي منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسمعت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفي سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه واهمك في الشرب والزندقة والظعن في الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التي قضت على الدولة الأموية وثمرت فيها قرطبة وأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة في نفس ابن شهيد فقد اندكت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بني أبي عامر، ولما رأى في أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكب على كثوس الخمر واللذات يفرق فيها هوميه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأتى له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه في الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يطبق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يقصر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة في رفته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته وأحط الناس في هوى نفسه وأهتكمهم لعرشه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انتال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبي، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأتراه من الشباب القرطبيين المتأبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمونه بسرقة الشعر كذبا وهتانا. وفكك بالمستعين قائده على بن حمود الحسنى واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكتابه أبى جعفر اللاتى، وفكك بابين حمود غلامه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلصه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبى عبد الله بن الفرضى وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزج به فى غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبى العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبى بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذى كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينهما مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شيء مثل اتهامه بالسرقة فى شعره ونثره، وبلغه أن أبى بكر محمد بن القاسم إشكيباط (فى كتاب المغرب: إشكيباط) يتهمه بالسرقة فى نثره، فكتب إليه محمقا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموى خليفة فى سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذ مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحس ابن شهيد أن الدنيا تبتم له بعد طول العيوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفى الأموى المستظهر، وعادت المهوم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة فى ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالية وكان قد أسس له إمارة فى دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه أوزر عنه فيها يبدو لاختلاف مسلكها فى الحياة، إذ لم يكن مجاهدا يأخذ نفسه بشيء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجدد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضى ظلّا يغلقان أبوابه فى وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموى هو الخليفة المعتد وظل بعيدا عنها يتنقل فى الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامرى أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألح عليه المؤمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجع لها وتوجع في أسى مرير. ويقرُّ به الخليفة المعتد ويتخذة جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفي سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبي - من فتيان بني عامر - قرطبة ومعه وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاء هجاء مقدعا. ويصاب في أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر في الانتحار كما ذكر في بعض شعره، ويلبى داعى ربه في جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكثرُ البكاء والعويل على قبره وتُنشد مرثيات متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملت، وكيف يجرى في البلاغة رسته، قلت عبد الحميد في أوانه، والمجاحظ في زمانه.. وله رسائل كثيرة في أنواع الترميض والأهزال قصار وطوال برز فيها شأوه، وأبقاها في الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق من در البيان وجمانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام، نظم كما اتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها من مخاطبة ابن شهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبي محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب في اسمه توفي سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى في الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوايح والزوايح التي سهاها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد في الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء في كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت في هذه السنة على الأقل أو بعدها في إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة ألفت قبل هذا التاريخ.

والتابع في الرسالة الجنى والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر في صدرها لصديقه أبي بكر بن حزم أنه أرتج عليه ذات يوم في شعر كان ينظمه، فترأى له تابعه من الجن على فرس آدم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نمير من قبيلة أشجع في الجن، وكان في الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع في الإنس، وتحادنا حيناً، ثم علمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أرتج عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تواء. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقي معه توايح الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجو فالجو والدو (الفلاة) فالدو حتى لمح ابن شهيد أرضاً لا كأرض الإنس متفرعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقي صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عنان الجواد إلى واد من الأودية به دوح تكسر أشجاره وتترنم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلاً: «يا عتيبة بن نوفل، يسقط اللوى فحومل (وها موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دارة جلجل (أيضا في المعلقة) إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحيا صاحبك أهدأ فتاهم؟ قال زهير هو هذا، وأى جمرة (يشيد بابن شهيد) يا عتيبة، فقال لابن شهيد: أنشد، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تحضر (تنب) طولا عنا، وكرر فاستقبلنا بالصعدة (القناة) هازلها، ثم ركزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشد، فهم إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيصة (النكول) ثم اشتدت قوى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس معجبا به، ثم قال له: اذهب فقد أجرتك وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفه، فقطع معه وادى عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غيضة. ويصف ابن شهيد الغيضة وأشجارها ولقائه فيها بمنتر بن العجلان تابع طرفه، ومحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصبح عنتر معجبا بقصيدته، ويحيزه، ويغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يثرب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويحيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسي. ويلتقى بصاحب أبي تمام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مراثيه للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحتري، ويتناشدان الشعر ويحيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبي نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل ماثلة لمنازل أبي نواس في دنيا الإنس، فهذا دَيْرُ حَنَّةَ الذي كان كثيرا ما يختلف إليه، وَيَشُقُّ سَمْعُ ابن شهيد قَرْعُ النواقيس، ويجتاب مع تابعه أديارا وكنانس وحانات حتى ينتهيا إلى دَيْرٍ عظيمٍ تعبق روائحه وتفرح نوافحه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصبح سلام على أهل دَيْرِ حَنَّةَ، ويسأله ابن شهيد هل صِرْنَا بِذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ (ساحة يخرج إليها الرهبان في أعيادهم وطالما تقف بها أبو نواس) ويحيزه: نعم، وتقبل نحوهما الرهايين وفي أوساطهم الزنابير المشدودة وقد قبضوا على الصكاكيز، يبيض الحواجب واللحى، وقالوا لصاحبه ما بَفَيْتَكَ؟ فقال حُسَيْنُ الدُّنَانِ تابع أبي نواس، فقالوا إنه في شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بآبن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفت دنانه وجولها غزلانه، وفي فُرَجَّتِهِ شَيْخٌ طويل الوجه واللحية افترش أضغاثَ (أغلاط) زهر، واتكأ على زِقِّ خمر، وبيده طاسٌ خمر كبير، فصاح به زهير: حَيَّاكَ اللهُ أَبَا الإحسان، فأجاب بجواب لا يَعْقُلُ لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: أَقْرَعُ أذنَ نَشْوَتِهِ. بإحدى خمر يأتك فإنه ربما تنه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبي نواس وسأله أأشجعي كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعي، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَأَحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه مِنْ حاله، وأنشده قصيدة أبي نواس:

يَا ذَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ مَنْ يَصْحُحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طَرَبًا، وسأله تابع أبي نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقصُ ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شيء لم تَلَهُمْ نحن وقبل بين عينيه وأجاره. وسأل زهير ابن شهيد مَنْ تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبي، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كتيب، وبهده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء، فحياء زهير، فأحسن الرد ناظرا من مقلة شوساء مضمومة أجفانها استعلاء قد ملئت تبيها وعجبا، واستند ابن شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شوط العمر فلا بد أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيختصر (يموت شابا) بين قريحة كالجمر وهمة تضع أخمصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبي يقرأ في صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يعظم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرا بعد لقائه بالمتنبي أن يلقاه بتوابع الكتاب - ويسميه المخطباء - وركضا الجواد طاعنين في مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم برج دهمان وإذا بناد عظيم جمعهم، والكُل منهم ناظر إلى شيخ أصْلَح جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيرا عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتبية، فقال ابن شهيد: بأبى هو ليس رغبتى سواء وغير صاحب عبد الحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جنبه. وعرف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مفرى بالسجع، فكلامك نظم لا نشر، فاعتذر له قائلا إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصة أسلوب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده فرسان الكلام. ويسوق حَمَلَة غنيقة على كُتَاب زمنه مستخدما أسلوبهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة في الحُلُوء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسناتها قائلين إن لَسَجِمِه موضعا من القلب ومكانا من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكر أن له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه مَنْ أشدهما فى الطُّعْن والإجحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبى محمد، إذ تكتئ بهذه الكنية لزمنه غير واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطانا يجرى على لسانه ما يخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكمياط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نشره الحسان من سابقه، وأما أبو القاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبو القاسم الإفليلي، ويهتف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنف الناقه بن مقعر، وينهض لهما جنئ أشمط (دب الشيب فى شعره) رُبعة واربم الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالم (يتعارج) فى مشيته كاسرا لطفه، وزاويا لأنفه.

وكان الإفليلى قد تصدّر في قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم في معاني الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكني في خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسن البيان والبلاغة. ويتهم تأبه أنف الناقة ابن شهيد بنقص اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلى بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلا إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له بُرغوثا وتعلبا وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بدیع الزمان زُبدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتليء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتفرج عن هوة غيب فيها. ويشد غيظ أنف الناقة تابع الإفليلى، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحديا له، وتصبح فتیان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتبع الإفليلى في دروسه لزلّة قد نمر به في شعره أو نثره، فيهدف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مغفرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تزل أحلامهم في النُدرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة، وما يلبث صاحب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر ونائر، وينفض الجمع، والكل ممتليء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بآبَن شهيد الكلام في باب التوابع والزوابع، ومدّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسي، وهي طرفة بديعة النسق في الصياغة والرونق في العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفواً.

وأضاف ابن شهيد في الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلفقائه لتوابع الكتاب والشعراء باباً تذاكر فيه مع زهير تأبه ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قَصّر فيه، ويعرض لبعض المعاني ومن تداولوها، ويتمثل له جنى يسمى فاتك بن الصُقْب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبي، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرا من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقره جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبي، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البدية وَهَرْتُهُ، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وَجَدَ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لا يعرض له أبداً، وشهد له بعراقته في الكلام، وكأنما ألجمه حجراً بشعره وشعر آباءه فتضامل وغاب عن بصره.

وَيَتَّبِع ابن بسام ذلك بفصل آخر من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أنان من حُر الجن وبعض بغالهم وتعرضت لابن شهيد الأتان تحكّمه في شُعرين لحبار وَيَقُل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيها، وتقدمت إليه بَغْلَةٌ شَهْبَاء عليها جُلُها (غطاؤها الصائن لها) وبرقعها، وأنشدته الشُعرَيْن ففَضَّل شعر البَغْل وقال: كان أنف الناقة أجدر مني بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفني؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى والحال على خدّها، فتباكيا طويلا، وأخذا في ذكر أيامها، وسألته: ما فعل الأُحبة بعدها؟ أم لا يزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتكرت الخُلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العهد، ونَسُوا أيام الودِّ. وكانت بقرهم إوَرَّة بيضاء شهلاء في مثل جثان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها متنيا عليها، فمرة تَشْبَحُ ومرة تطير، ومرة تنفّس في الماء ومرة تَخْرُج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ورغرت بمجدافها (بجناحها) واستقبلته مع صاحبه جائئة (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سألتها ماذا يُحْسِن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تنهمم بأنه لا يحسنها، ويعطيل الحوار معها واصفا لها بالحمق وأنها في حاجة إلى عقل التجربة إذ عدمت العقل الطبيعي، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتحميه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظرى حينئذ في الأدب. وكأن الإوَرَّة بذلك تأخذ صفة الإفليلي بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلي يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلي فيها بأنه هو الذي به ابن شهيد عَرَّض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به في بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض في الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب الناهيين مقارنته إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دأنا ويميزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلي له. ثم أخذ يعرض جانباً من

تداول المعاني بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذل الإقليل في انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعاني التي يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر في الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكل له في الشطر الثاني على صورة بعض الحيوانات والطير مستمدا في ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين^(١) هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبي العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذي تأثر بأبي العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيها وراء الواقع، لكنها بعد ذلك تتباينان في موضوعيهما، فرحلة أبي العلاء تدور على عقيدة إسلامية هي عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غفر لهم من الشعراء واللفويين في الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة في الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب في عصرهم الجاهلي الوثني من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنها لا يلتقيان أي التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداها في الأخرى. وذكرنا من قديم في كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر العربي» ثم في كتابنا «المقامة» أن الذي أوحى إلى ابن شهيد برحلته في أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه في مقامته الإبلية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن وتجاوزها وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجريز، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جريز، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أملت على جريز هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعت الأرض». وفي نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان في مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يمرض على تابهى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة في ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان في مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقي تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

للدكتور هيكل ص ٣٨١.

(١) راجع بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد صيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسي

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبلسية لبديع الزمان هي التي ألهمت ابن شهيد رسالة التوايع والزوايع وأوحت بها إليه. ويتردد في كتابي الجنوة للحميدى والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس في عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُرد^(١) الأصغر

ابن بُرد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبي حفص أحمد بن بُرد الأكبر الذي ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين، وترجم له ابن بسام في الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلا إنه «أسمع الصُّمَّ بيانا، واستنزل العُصْمَ إبداعا واستحسانا» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رَزَقَ ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجاة منذ نعومة أظفاره، ففنى بتربيته وتخريجيه في الأدب نثره وشعره، وفي ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سَنَمَها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإنى وافقت أول معالجتي لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسى مصابيح من وصاياه فيها، ووطأ لى مراكب من دلالاته إليها، وضرب لى صَوَى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعا». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك في جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفى بكاه - كما أسلفنا - بكاه حارا. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموى في سنة ٤١٤ ابن

وأخبارا متفرقة عنه في ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧
وراجع رسالته في تفضيل الورد على سائر الأزهار
في ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

(١) انظر في ترجمة ابن برد الأصغر الجنوة
للحميدى: ١٠٧. والمطبع: ٢٤. والبغية رقم ٣٥٤
والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة

شهيد وزيراً كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإنفيل كتب للخليفة المستكفي بعد ابن برد في نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر في الأشهر التي تولاها ثم كتب فترة للمستكفي بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حياً حتى توفي بسرقة عن ثمانين عاماً سنة ٤٦٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة في الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبي أميرها وهبته لقصاده أموالاً عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه في جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تنسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه في عهد جهور حين أصبح حاكمها المنتصر في شتونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله في دواوين الخليفين الأمويين: المستظهر والمستكفي. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلي أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبي الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومُرَّت بنا رسالته الهدية إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمرية عند أميرها معن بن صَاحِد (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذي عرف له فضله، فاتخذته وزيراً له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخريجيه كما مرُّ بنا، وأثنى ثناء غامراً على معن بن صَاحِد ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمن الكتاب رسائله السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته في ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى في الجنوة إنه رآه في المرية مراراً بعد الأربعين وأربعمئة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صَاحِد (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلاً:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث

فيها يسحره. وأقام من أودها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تجميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره في النسيب وغيره. وألحق أديب بترجمته في الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية في: السيف والقلم، والنخلة، وأهـب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائع العُـمـم (التي لا مثيل لها) المستنزلة للـمُـصـم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرى أن نلـم بها في إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معا فهما مثل جوادين سبقا في حلبة أو غصنين نسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، غير أنها جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينها الجدال والحصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الحصال. وبدأ القلم فقال:

«نَ. والقلم وما يسطرون» فجعل من مُقسَم وعزٌّ من قَسَم، لقد أخذت الفضل برُمته، وقُدَّت الفخر بأزمته. فقال السيف: عُذنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أبرّ ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يُحسِن، إن عاتقا حَمَل نيجادى (حمائل سيفي) لسعيد، وإن عُضْدا بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خَرِسَ، وأبتسم والأجل قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أبلج (مضى) والباطل لَجَلج (أعرج) أجلبُ الفنى من ضرّوعه، وأجتنبى الندى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأؤه (شوطه) يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يا لله! استنتت الفصال (أولاد النوق) حتى القرعى^(١)، وربّ صلفٍ تحت الرأعدة.^(٢) لقد تحاول امتدادا بهاع قصيرة، وانتفاضا بجناح كسيرة، أمستعرب (دخيل في العرب) والفلس ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى تزكى، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثنى على النسب، والتقالى في على الحسب، فتكَلننى (فتتوجنى) المرجان، وتعلمنى العيقان^(٣)، وتلحفنى بحمائل

والصلف: قلة المظر أى أنها تتوَع مع كثرة ما تحمل من المظر.

(٢) العيقان: الذهب. تتله هنا: تكسر غمده.

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستئذان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا حَذَّت حاكمها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للخبيل. والزاعدة: السحابة.

كخمائيل. فقال القلم: أَسْتَعِذُ بِاللهِ مِنْ خَطْلٍ أُرْعِيَتْ فِيهِ سَوَامَكَ (إِبلَك) وَزَلَلٍ افْتَحْتَحْتَ بِهِ كَلَامَكَ، إِنْ اِزْدَرَاكَ بِتَمَكَّنٍ وَجِدَانِي، وَبَخْسِ أُنْمَانِي، لِنَقْصٍ فِي طِبَاعِكَ، وَقِصْرٍ فِي بَاعِكَ، أَلَا وَإِنْ اِذْهَبَ مَعْدَنهُ فِي الْغَفْرِ (التراب) وَهُوَ أَنْفُسُ الْجَوَاهِرِ، وَالنَّارُ مَكْمَنُهَا فِي الْحَجَرِ، وَهِيَ إِحْدَى الْعُنَاصِرِ، وَإِنْ الْمَاءُ - وَهُوَ الْحَيَاةُ - أَكْثَرَ الْمَعَايِشِ وَجِدَانًا، وَأَقْلَهَا أُنْمَانًا، وَقَلَمًا تَلْقَى الْأَعْلَاقَ النَّفِيسَةَ إِلَّا فِي الْأَمَكْنَةِ الْخَفِيسَةِ. فَقَالَ السِّيفُ: جَمْعَةٌ رَحَى لَا يَتَّبِعُهَا طِغْنٌ (دَقِيقٌ) وَجَلْجَلَةٌ رَعْدٌ لَا يَلِيهَا مِزْنٌ، وَجِهَ لَثِيمٌ، وَجِسْمٌ سَقِيمٌ، وَدُمُوعٌ سِجَامٌ، كَانَهُنَّ سُخَامٌ (فَحْمٌ) فَهَبٌ مِنْ نَوْمِكَ، وَأَفْطِرٌ مِنْ صَوْمِكَ، إِنِّي لَوْ اِنْتَضَيْتُ (سَلَلْتُ) وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَمْ يَنْظُرْ وَقْتُ تَجَلُّيْهَا^(١)، أَوِ السُّنُونُ مَجْدِبَةٌ أُقَيِّنُ بِالْحَيَا (بِالْفَيْثِ) رَاعِيَهَا. أَكْرَعُ (أَشْرِبُ) يَوْمَ الْوَعَى فِي لَبَّةِ الْبَطْلِ (أَعْلَى صَدْرِهِ) فَأَعُودُ كَالْخُدِّ كُبْسَى صَبْنِ الْخَجَلِ».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَنْتَهِنِ أَحَدُهُمَا كِهَامَا (كَلِيلَا) يَادِرَا إِلَى السَّلْمِ يَمْقَدَانِ لَوَاهِ، قَانَتَيْنِ إِنْ مِنَ الْقَبِيحِ أَنْ تَتَشَتَّ أَهْوَاؤُنَا وَتَتَفَرَّقَ آرَاؤُنَا وَقَدْ جَمَعَنَا اللهُ فِي الْمَأْلَفِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ الْقَلَمُ إِنْ مِمَّا نَهْرَمُ بِهِ عَقْدُنَا، وَنَنْظُمُ عِقْدُنَا إِنْ حَالَتْ حَالُ، وَكَانَ لِلدَّهْرِ انْتِقَالُ، أَنْ نَخْطُ كِتَابَهَا مُصَيَّبًا، يَكُونُ لَنَا مَنَابَا وَعَلَيْنَا رَقِيْبًا، فَقَدْ يَدْبُ الدَّهْرُ بِقَارِبِهِ، بَيْنَ الْمَرَّةِ وَأَقَارِبِهِ، وَاخْتَارَ الْقَلَمُ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ شِعْرًا، لِأَنَّهُ شَدُوُّ الْعَادَى، وَزَادَ الرَّائِحِ وَالْعَادَى. وَسَجَلَهُ فِي قِطْعَةٍ شِعْرِيَّةٍ بَدِيعَةٍ. وَوَضَحَ مَا اِمْتَازَ بِهِ ابْنُ بَرْدٍ الْأَصْفَرُ فِي تِلْكَ الْمُنَاطَرَةِ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ مِنْ قُدْرَةِ عَلَى صَوْغِ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ فِي لِسَانِ الْخَصْمَيْنِ الْمُتَنَاطِرَيْنِ، إِذْ مَا زَالَ يُؤَلِّفُ لِكُلِّ مِنْهُمَا حُجَجًا يُدْلِي بِهَا مَعَ نَقْضِهِ لِحُجَجِ مَنَافِسِهِ. وَطَبِيعِي أَنْ لَا نَنْقُلَ تِلْكَ الْمُنَاطَرَةَ بِحَذَائِفِهَا، فَقَدْ اجْتَزَأْنَاهَا مَكْتَفِينَ بِمَا نَقَلْنَاهُ مِنْهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَةِ ابْنِ بَرْدٍ فِي تَوْلِيدِ الْأَفْكَارِ وَالْبَرَاهِينِ وَفِي صَوْغِ الْكَلَامِ وَحَوْكَةِ حَيَاكَةِ تَمُوجِ بِالْمَنْوِبَةِ، إِذْ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْطَفِي أَلْفَاظَهُ وَكَيْفَ يَلَانِمُ بَيْنَهَا مَلَاءِمَاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ بَدِيعَةٍ.

(ب) رسالة النخلة

هي رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه في العام الفارط على كتمانته لِرُطَبِ نخلة، وهي تُعَدُّ بِالْأَنْدَلُسِ إِحْدَى الْفَرَاثِبِ وَفَرِيدَةُ الْعَجَائِبِ، وَيَقُولُ إِنَّهُ سَأَلَهُ مِنْ جَنَاهَا قَلِيلًا، فَقَالَ لَهُ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ لَكُمْ بِهِ هَذَا الْكَلْفَ لَأَمْسَكْتَهُ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّهُ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ إِنْ شَاءَ

(١) يشير إلى كثرة الفجار في الحرب حين نزل السيف وتكر الخيل.

الله يكون غلتكم وعتاداً نفيساً لكم وذخراً حبیباً عليكم، ويمضی ابن بُرد قائلا له: «رسمنا تلك العدة فی سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفَظَةَ خواطرنا، أما أنت فِهَلْتَ عليها التراب، وأسلمتها إلى يد البلی، حتی إذا أخذت النخلة زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ زِينَتَهَا، وبلغت غایتها، وأشبع القمر صیفها، وأحكمَت الشمس نَضْجَهَا، جنيتها على حين نَامَ السُّمَارُ، وغفلت الجارة والجار، وَأَبَتْ بها إِيَابَةَ الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطْبِ فی الأسواق، والجبنی من بواكير النخيل على الأطباق، هُزَّتْ جوانحنا ذكری العدة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الدواب إلى حُرْمَتِكَ^(١)، وجعلنا نسرع طمعا فی لقائك»

ويذكر ابن بُرد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحَلَّتِهِ لقيهم فتی ظریف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا فی جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَرِ المشهورة على الخليج العربي بتمرها عن مثلها، ولا آوت قماری (حَمَام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرد:

«قال الفتي بالإخوانی فی الخيبة أنا ساكنٌ فی المحلة التي مَنَبْتُ هذه النخلة فی ساحتها وقد صَرَّمَهَا (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرْمِهَا أُمْنَحُهَا نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتْ الطيرُ وهي على سَعْفِهَا ما أوصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زَفَرَاتِي، رمتني بأفراد من رُطْبِهَا أُحْلَى من شفاء العذاري، وأنا اليوم أبكى رَبْعًا خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانة للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب فی النخل وبده نبأته والبلح وتلونُ حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولد عَقيم جوده، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النخلة» ويقول: «ليس من حقّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختتم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلِكَ نوالا، ويمطلك إعجالا». وهي رسالة طريفة بما فيها من فكاكة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة فی التعبير.

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحة أو حق.

(ج) رسالة أهب الشاء

سمى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة في تفضيل أهب (جلود) الشاء على ما يُفترش من الوطاء» وهو فيها يردُّ على من لأمه على استخدام أهب (جلود) الشاء في الجلوس شتاءً وصيفاً دون وِطْيِ الفُرْشِ ورافعها من قِطْعِ البُسْطِ والسجاجيد والحشايا. وهو في فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرفه بركة التواضع وينفقه من الكبير، ويطلب في المقدمة، ثم يقول للآئمه:

«عَيْتِي - أعزك الله - بارتخاص الأشياء في الشراء، وقلت لَمْ تؤثر ذلك إلا للزوم الخليفة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرُخيص.. وسأفسح للكلام مهدانا، وأثر عليك من الألفاظ مُرْجانا، وأعاطيك من سَلاف (خمر) المعاني أَكْوَاباً، وأشَمَّكَ من روضِ البيان آساً.. جَلَّ ماله عبثٌ وفيه قلت ورددت، وبه أبدأت وأعدت، من إيثاري في الصيف والشتاء أهب (جلود) الشاء، ومُراوحتي منها في البرد والحر، بين البُطْنِ والظَهر.. وأتَّى بساط مثله أدلَّ عليّ التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفاً في السَبْرَةِ (الغداة الباردة) واللين في السَّسِّ وأخف في الحَمَلِ وأمكن للنقْلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغني عن تكلف التَّطْبِيقِ ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خِيَاطٍ ينالُك في السُّوم (الثلث) ويُخْجَلِّك أمامَ القوم، ويُنْتِجُ جَبِينَك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذَلَّ التكرار عليه، وهو متبجِّح (متمكن) في دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتشمت العدو بنفسك، وتبدى ما كان مستوراً من حالكَ، وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوجنة، إن قَلَبْتَهَا لظهورها شتوت على وثارة^(١)، أو صرفتها لبطونها صَفَّتْ في لدونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها في الأضحية تقريباً إلى ربه وطلبها لكرم نوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المثونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وساء في تنزيله ذُبْحاً عظيماً. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النَّسَّاءِ والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمهما المعلمون لأنها الأرقف والأرخص والأَوْفَق. ويختم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائيه أن لا يستقبل

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطىء الناعم.

بالذم من يفرشها مغتبطا بها، إذ لا يفرشها إلا الشيوخ الجلّة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشا لها إلا شيخا رائح الوَسامة، أبيضَ الشُّفرة، أنسَ إخوانه، وجلسَ (ملازم) أسطوانه^(١)، قد حفظ المسائل وملا من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتقديه الجارات والجيران، ويُتنافَسُ في حضوره أَيَّامَ الرُّفاف، ويختصُّ بصدور المجالس وطبّيات الصحف، أو معلما.. قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقطعَ أُنكادها، يقعد عنده الوراقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطلال قَلَنَساته^(٢)، ووالى الزيارة بِمَنَساته^(٣)، وسار مُهَيَّنما^(٤) بتسبيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشَّ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عاتبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. وما يميزها دفة فروتها فى الشتاء القارس، وليونتها فى المسّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أو السجادة فى أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازَه لما يراود منه من تبطين أوترقيع، ويظل صاحب الحشية أو السجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقا من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعذوبة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يش بها على غنمه.
(٤) مهينها: هامسا.

(١) يريد أنه عالم يلازم عمودا فى المسجد يلتقى محاضراته عنده ويتعلق حوله الطلاب لشهرته.
(٢) قلنسات: جمع قلنسوة.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل في الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا في حياته، أولها تبادلته في شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي واتصال هذا الحب بينها فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغالته إحدى جوارها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلا، وكَلَفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنتَداها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثاني الذي كان له تأثير في حياته، هو سخط أبي الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزج به في غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبي الوليد، وفي استعطافه كتب رسالته الجدية، وحرى بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة^(١) الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في حبها متهمكا به ساخرا منه سخریات لازعة، وما يمضي القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدور، وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجبال وصوراً أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة وفي العلوم كيمياء وغير كيمياء وفي الحيوان والجهد وفي الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه في رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سياتها الخاصة لا في طريقة عرضه لأسماء الرجال فيها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون في ترجمته
بالفصل الماضي.

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها في كتابنا
عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح
ابن نهامة لما في كتاب: شرح العيون شرح رسالة

الآيات وجلب الأشتار، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المشورة، وتجرد لذلك ابن نهانة في شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطة، الفاحش غلطة، العائر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذهب على الشراب، المتهاقت تهافت الفراش في الشهاب (الضوء).. وإنك راسلتني مستهديا من صلتى ما صيرت (خلت) منه أيدي أمثالك، مرسلًا خليلتك مرتادة وقد أعذرت (جهدت) في السفارة لك، وما قصرت في النياحة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه (مادته) قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك (بارك في الحسن) ففضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت، وكسرى حمل غاشيتك (مظلتك) وقصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجذية الملك العربي الجاهل. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بوران فيه وفي حسنه، وكلينا إنما حمى جهاه بعزته، ومهللنا أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاقنا إنما جاد بأمواله والسلوك بن السلوك الجاهل إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظه، والمهلب القائد الأموى إنما ظفر بالخوراج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعدهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أعلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. يل هو الذى أقام البراهين ووضع القوانين وحد ما هية الأشياء وبين الكيفية والكمية وناظر في الجوهر والعرض وفرق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسيياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلية. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيئ الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تمتمة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتباط به ندم، والخبية منه ظفر والجنة معه سقر، وأين هو من ولادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويحفلها تهدده وتوعده بسوء العير حتى كأنما يطلب حنقه، ويقول له على لسانها مقارنا في سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نواحي الشباب الأفذاذ.

«النار، ولا العار، والمنية، ولا الدنية، والعرة تجوع ولا تأكل بتدبيرها، وما كنت لأتخطى المسك إلى انرماد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء.. ولعلك إنما غرك من علمت صيونى إليه وشهدت مساعفتى له من أعمار العصر، وربحان المصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم.. ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالو سيطرة (التتوه) فى العظم منهم. وإن كنت إنما عطرت أردانك (أكمامك) وجرت سروالك، واختلت فى مشيتك، وحذفت فضول لحيتك، وأصلحت شارتك، ومططت حاجبك، ورقعت خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننت عجزا، وأخطأت الغرض».

وتضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه برؤيته وحلته مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك القساسنة بالقرطين اللذين أهدتها إلى الكعبة، وقلده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خلتان سبتان: كأردا التمر وسوء كبله وهل يقترن عليها به إلا ما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقرنت غده فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سلوية. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرا دقيقا فلا يكلف نفسه ما لا يستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلية برأقش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلّتهم، وضرب العرب بها المثل فى الشؤم، فقالوا «دلّت على أهلها برأقش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلا على لسانها: «قد أعذرت إن أغثت شيئا، وأسمنت لو ناديت حيا، وإن بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يؤسّسك من مخدرة قول تغلظه وإن جرحا^(١)

فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه بعثت من يزعجك إلى الخضراء

(الريف) دفعا ويستحتك نحوها وَكَزَا (ضربا) وَصَفَا، فإذا صرَّت إليها عث أكاروها (فلاحوها) بك، وتسلط نواطيرها (متعهدو بساينها) عليك بما قَدِمَتْ يداك، لتنوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح في يده كلُّمة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حائق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو في كل ذلك يزدري عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيبته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق في السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامي وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربي، وكأنه هو الذي نفت فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر في الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجهة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة^(١) الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهوراً أمير قرطبة حين ألقى به في غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقاراً لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده في مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبج له هذه الرسالة الرائعة مستهلاً لها بقوله:

«يا مولائي وسيدى الذى ودادى له، واعتمادى عليه، واعتدأدى به، وامتدادى منه، أبهاك الله ماضى حَدِّ العَزَم، ثابت عَهْدِ النعمة، إن سلبتنى - أعزك الله - لباس إنعامك، وعطلتنى من حُلَى إيناسيك، وأظمتنى إلى برود (بارد) إسعافك، ونفقت بى كف حياطتك (رعابتك) وغضضت عني طُرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأملى لك، وسمع الأصم ثنائى عليك، وأحسن الجماد باستنادى إليك، فلا غرور قد يقص بالماء شاربته، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحيز من مآمنه.. وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لرئب الدهر لا أتضعض، فأقول: هل أنا إلا يد آدماء سوارها، وجبين عضة إكليله، ومشرقى ألقه بالأرض صاقله، وسمهرى^(٢) عرضه على النار متفقه..

كناه: «قام المتن شرح رسالة ابن زيدون».
(٢) المشرق: السف. السهرى: الرمح.

(١) انظر في هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا
عن ابن زيدون، وراجع شرح الصندى لها في

وهذه النكبة سحابة صَيفٍ عن قليل تَقْشَعُ، ولن يَرَيْنِي - من سيدى - أنْ أَبْطَأَ سَيِّئِهِ (عطالؤه).. فأبْطَأَ الدَّلاءُ فَيَضَا أَمْلُوهَا، وَأَتَقَلَّ السَّحَابُ مَشْيَا أَحْقَلَهَا (أَمْلُوهَا) وَأَنْفَعُ الْحَيَا (الغيث) ما صادف جَذْبًا، وَالَّذَ الشَّرَابِ ما أصاب غِلِيلًا».

وابن زيدون - في مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعطفا، فطالما أتني عليه وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمة، فإذا هو ينزل به عقابا أليها. ويتجلد للنكبة، ويحاول أن يَسْرِى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدماء سوارها أو جبين عَضَه تاجه أو سيف ركزه صاقله في الأرض أو رمح سَوَاه على النار صانعه، وعنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستنجلى ويعود إلى سماء الود الصَّخْو والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومدحجه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضًا أغزرها وأتقل السحاب مسيرةً في السماء أَمْلُوهَا، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدبة، والذ الشراب ما صادف نفسا ظامنة، ويستمر فيهبون من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«لَيْتَ شِعْرِي مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسْمَعْهُ غَفُوكَ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ جِلْمُكَ.. وما أرانى إلا أَمِرْتُ بالسُّجُود لَأَدَمَ فَأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ، وَقَالَ لِي نُوحٌ: ارْكَبْ مَعَنَا فَقُلْتُ: (سَأَوْيَ إِلَى جَبَلٍ يَغْصُنُنِي مِنَ الْمَاءِ)، وَأَمِرْتُ بِنَاءِ الصَّرْحِ (لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) وَعَكَفْتُ عَلَى الْعَجَلِ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ، وَتَعَاطَيْتُ فَفَقَرْتُ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ الَّذِي ابْتَلَى بِهِ جُنُودَ طَالُوتَ، وَعَاهَدْتُ قَرِيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ، وَانْخَذَلْتُ بَثَلَتِ النَّاسَ يَوْمَ أَحُدٍ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنَى قُرَيْظَةَ، وَجَنَّتِ الْإِفْكَ عَلَى السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ الصَّدِيقَةِ، وَأَنْفَتُ مِنْ إِمَارَةِ أَسَامَةَ، وَمَزَقْتُ الْأَدِيمَ^(١) الَّذِي هَارَكْتُ يَدُ أَهْلِهِ، وَضَعِيْتُ بِالْأَشْمَطِ^(٢)، وَرَجَعْتُ الْكَمْبَةَ».

وهو يقول كأنني اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لأدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه في السفينة فكان من المَفْرَقَيْنِ، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيره هامان أن يَبْنِي له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العِجْلَ وحين اعتدوا في يوم السبت فسادوا فيه، أو جريرة عاقر ناقة صالح (قدمدم عليهم ربه بذنوبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوت الذي حرّم عليهم الشرب من نهر فخالقوه، أو جريرة

(٣) راجع الكمبة المجاج في حربه لابن الزبير.

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

من تعهدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبي بن سلول حين انخدل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أحد، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول في بني قريظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا في حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابي الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجَمَ الحُجَّاجَ للكعبة، إلى عظام أخرى ذكرها لا يُعَدُّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشاء بنميم، وشهادة أنه ما غش جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح في عداد خاصته مما سؤل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم وغائهم الدينية، يقول:

«كيف لا تتضرَّمُ جَوَانِحُ الأكفَاءِ (النُّظَرَاءِ) حَسَدًا لى علي الخصوص بك، وتتقطع أنفاسُ النظراء منافسةً في الكرامة عليك؟ وكيف وقد زانتى رَسْمُ خدمتك، وزهاني رَسْمُ نعمتك، وأبليتُ البلاءَ الجميل في سِباطك (صَفِكَ) وقمتُ المقامَ المحمودَ علي بساطك.. وهل لَيْسَ الصباحُ إلا بُرْدًا طُرُزْتُه بفضائلك، وتقلَّدتِ الجوزاءُ إلا عِقْدًا فصلته بمآترك، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأته بمحاسنك، وبِت المسكُ إلا حديثا أذعته في محامدك؟ ما يومٌ حليلةٍ بسرٍّ، ولم أكنسُ سَلِيًّا، ولا حَلِيَّتكَ عَطْلًا، ولا وَسْمَتَكَ غَفْلًا بل وجدتُ أجْرًا وجِصًّا فَبَنَيْتُ، ومكانَ القولِ ذا سَمَةٍ فقلْتُ، حاشَ لك أنْ أعُدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضییء للناس وهي تحترق، فلک المثل الأعلى وهو بك، وبی فیک، أولى».

وهو يقول لجمهور إنه من الطبيعي أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلة منك وقد ازددت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل في صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك جُلْع مدانحي المضينة بفضائلك، وعقود ثنائي المنظومة بدرمآترك، ولكأنما عطر الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يُذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حليلة بسر أي أن ذلك كله مشهور، ويصبح إن جهورا لم يكن سَلِيًّا أو عاريا فكساء ولا عَطْلًا غير مزدان فحلًا ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد أجْرًا وجِصًّا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجمهور أن أعُدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تعلى نارا حامية﴾ وأيضًا حاش لجمهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتبرز على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأدب وإنه لا يجفنى في أى مكان ينزل به فأينما توجه ورد أعذب منهل وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبي على أهله. وكأنه يلّمح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتبدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبى الحزم جهور أى أمير، ويأخذ في استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحن إلى وطنه حنين النجيب (البعير) إلى عطنه (مبركه) والكريم لا يجفو أرضا فيها قوايلُه (داياته) ولا ينسى بلدا فيها مراضعه. هذا إلى مغالاتي بقدر جوارك، ومنافستي في الحظ من قربك، واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع (ذناة) والغنى من سواك غناء، والبدل منك عوز (فاقة) والموض لقاء (خسة). وما هذه البراءة ممن يتولاك؟ والميل عمن لا يميل عنك، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاء لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختتمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، ليتأتى لك الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل من طرقاته». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية في عهود الرسل وفي الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حل كثير منها، ومع رهاقة الشعور ودقة الحس وصفاء الذوق في انتخاب ذلك كله وفي اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما في الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدي، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» ووضح من كلمة المتون التي اختارها اسما لكتابه أنه شعر أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهي - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسي.

رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية^(١) هو أبو عامر أحمد بن غرسية، كان من أبناء نصارى البشكنس في شالي إسبانيا، سبى صغيراً - كما يقول ابن سعيد - وأدبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط شرقي الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبي عامر الصقالية الذين دان لهم شرقي الأندلس في أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسي في العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدنسيهر في مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان في خدمة المعتصم ابن صُباح التجيبى أمير المروية (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبي عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صُباح كما ظن جولدنسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبي جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد في ترجمته إذ هجاء بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتباً له لتركه مدح مجاهد (الصفلى أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صُباح التجيبى (العربى) الذى كان أميراً للمروية في حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ هـ وهو ممن بن صُباح مؤسس دولة الصادحية بالمروية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل في الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فقرها قوله:

«سلام عليك ذا الروى الروى الموقوف قريضة على حللة بجانة أرض اليمن^(٢)،
بزهيد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخبط فى الآل^(٣)، مه، مه^(٤)»

عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولدنسيهر المذكور. وراجع في أبي جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦. (٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهى بجوار المروية. أرض هنا: اقليم. (٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: السراب. (٤) مه: كُف.

(١) انظر في ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ وبعثنا لجولدنسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع ليهج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات للأستاذ

مَنْ أخرجك إلى ركوب المَهْمَةِ^(١) وإذا يَمُت بطن تَبَالَةً تَبَالَةً، وصرت خِفَتًا على إِبَالَةٍ^(٢).. وأحسبك أن أَرْزَيْتَ، وبهذا الجبل النجيب (يقصد مجاهد أو الصقالبة) ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْبُ ليسوا بعرب، ذوى أُنْيُقْ جُرْبٍ، بل هم القياصرة الأكاسرة، بِهِمْ لَا رَعَاةَ شُوَيْهَاتٍ وَلَا بِهِمْ^(٣)، شَغَلُوا بِالْمَادِي وَالْمُرَانِ، عَنِ رَعَى الْبَرَانِ^(٤)، وبجلب العِزِّ عن حَلَبِ الْمَعَزِ، جَبَابِرَةٌ قِيَاصِرَةٌ، صُقُورَةٌ غَلِبَتْ عَلَيْهِمْ شُقُورَةٌ، صُقُورَةُ الْخُرَّسَانِ^(٥)، لكنهم خَطْبَةٌ بِالْخُرَّصَانِ، أَرُومَةٌ رُومِيَّةٌ وَجَرْنُومَةٌ صُفْرِيَّةٌ.. فلا تهاجِرْ بنى هاجر، أنتم أرقاؤنا وَعَبْدَتْنَا، وَعَتَقَاؤُنَا وَحَفَدَتْنَا، مِنَّا عَلَيْكُمْ بِالْعَتَقِ، وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ رَبْقِ (كرب) الرق، وألحقناكم بالأحرار فغضبتم النعمة، فصفقناكم صفعا، يشارك صفعا، اضطركم إلى سُكْنَى الْحِجَازِ وَالْجَأْكُمْ إِلَى ذَاتِ الْمَجَازِ^(٦)، وإذا قامت الحرب على ساق، وأخذت في اتساق، وَقَرَعْتَ الظَّنَابِيَّ، وَأَشْرَعْتَ الْأَنْثَابِيَّ، وَقَلَصْتَ الشُّفَاهِ، وَفَرَّ الْهِدَانُ فَاهَ، وَوَلَّى قَفَاهَ، أَلْفَيْتَهُمْ ذَمْرَةَ النَّاسِ^(٧) عِنْدَ أَحْرَارِ الْبَاسِ، الطُّقْنُ بِالْأَسْلِ، أَحْلَى عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَسَلِ، تَزْدَانُ بِهِمُ الْمُحَافِلُ وَالْجَحَافِلُ، كَوَاكِبُ الْمَوَاكِبِ، قُبُولٌ، عَلِيَّ خِيُولٍ، كَأَنَّهُمْ قُبُولٌ، نَجُومُ الرَّجْمِ مِنَ الْعَجَمِ، ضِرَاعِمَةُ الْأَجَمِ، تَبَحَّجَتْ عَنْهُمْ سَارَةُ الْجِبَالِ وَالْكِبَالِ، رَبَّةُ الْإِيَاءِ^(٨).. دَوَّخُوا الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، فَاسْتَوَطَنُوا مِنَ الْمَجْدِ الذُّرَّةَ وَالْفَارِبَ غَنُّوا بِالْإِسْتَبْرِقِ (الحرير) عَنِ الْبَيْتِ (الكساء) الْمَجْمُوعِ مِنَ التَّعْيِجَاتِ طَعَامَهُمُ الْحَنِيذَ (اللحم المشوى) لَا الْهَيْدَ (المنظَّل) بَسْلُ (شجعان) لَا حُرَّاسَ

العرب. عهدة وحفدة: عبيد وخدم. صفعا: نطقا على الوجوه. ذات المجاز: سوق في المجاهلة كانت بقرب مكة.
(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنابيب وأشرعت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.
(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة. قُبُولٌ: جمع قبل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهى الشجرة المثقفة. تبجحت عنهم: ولذتهم في عزة وسارة زوجة النبي إبراهيم أم إسحق. الإيأة هنا: الحسن.

- (١) المهمة: الغلاة.
(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصادحة التجبية اليمنية. ضفت على إباله: مثل بضرب لليلة فوق الليلة.
(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بِهِمْ: بضم الباء فرسان حرب، وبفتحها صفار الفئم.
(٤) المادى: السيف. المران: الرماح. البران: جمع بهير.
(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالحرس لمعنة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أى الرماح.
(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبي إسماعيل أصل

مُسْلٍ (جريد النخل) ولا غُرَّاسُ فُسْلٍ (صغار النخل).. فَكُفَّ أُنْهَا الشَّانَ، فَلَهُمْ عَظِيمُ الشَّانِ وَالْيَدُ الطُّوْلُ إِذْ تَخْلُصُوكُمْ مِنْ يَدِ الْحُبْشَانِ.. رَسَخَتْ فِي الْمَجْدِ أَوْسُولُنَا وَفَرُوعُنَا، وَمَنْ يَطُولُنَا، وَكُلُّ الْوَرَى قَدْ شَمَلَهُ فَضْلُنَا وَطَوْلُنَا^(١)، ذَوُو الْآرَاءِ الْفَلَسْفِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْمُنَظَّقِيَّةِ حَمَلَةُ الْأَسْتَرَلُومِيَّةِ وَالْجُومَطَرِيَّةِ، وَالْعَلَمَةُ بِالْأَرْقَاطِيَّةِ وَأَنْوَلُوطِيَّةِ وَالْقَوْمَةُ بِالْمُوسِيَّةِ وَالْبُوطِيَّةِ^(٢)، وَالنُّهْضَةُ بِعِلْمِ الشَّرَائِعِ وَالطَّبَائِعِ، وَالْمَهْرَةُ فِي عِلْمِ الْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانِ، مَا شَسَتْ مِنْ تَدْقِيقٍ، وَتَحْقِيقٍ، حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ الدِّينِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ لَا عَلَى وَصْفِ النَّاقَةِ الْقَدْنِيَّةِ (الضَّخْمَةِ).. فَلَا فَخْرَ مَعَشَرِ الْعُرَبَانِ الْغُرَبَانِ، بِالْقَدِيمِ الْمَفْرُئِ الْأَدِيمِ^(٣)، لَكِنْ الْفَخْرُ بِابْنِ عَمَّنَا (يُرِيدُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، الَّذِي بِالْبَرَكَةِ عَمَّنَا، الْإِسْمَاعِيلِيُّ الْحَسْبِ، الْإِبْرَاهِيمِيُّ النَّسَبِ الَّذِي بِهِ إِنَّمَا انْتَشَلْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ وَالضَّالَّةِ، وَلَا غُرَّوْ أَنْ كَانَ مِنْكُمْ جِبْرَهُ وَسَبْرَهُ، فَفِي الرُّغَامِ يُلْفَى تَبْرَهُ^(٤)، وَيُنَوِّهُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَقَدْ بَرَّأَ صَفْوَةً وَصَفْوَةَ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ
وَصَفْوَةَ الصَّفْوَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ مُحَمَّدٌ النَّوْرُ أَبُو الْقَاسِمِ

بهذا النبي الأُمِّيُّ أَفَاخِرُ مَنْ يَفْخَرُ، وَأَكَاثِرُ جَمِيعٍ مَنْ تَقْدُمُ وَتَأَخَّرُ، الْمُنِيفُ (الرَفِيعُ) الْطَّرْفَيْنِ، الشَّرِيفُ السَّلَفَيْنِ، الْمُنْتَقَى بِالرَّسَالَةِ، وَالْمُنْتَقَى لِلْأَدَاءِ وَالِدَلَالَةِ، أَصْلَى عَلَيْهِ عَدَدُ الرَّقْمِ، وَمَتَدُّ النَّمْلِ، وَكَذَلِكَ أَصْلَى عَلَى وَاصِلِ جَنَاحِهِ، سَيُوفِهِ وَرِمَاحِهِ، صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ، عَلَيْهِمْ مِنْ اللَّهِ أَفْضَلُ السَّلَامِ».

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبي جعفر بن الجزار الذي يقف قريضة وشعره على نزلة بجاية والمرية بإقليم اليمن في شرقي الأندلس مختصاً به عرب الأسرة الصُّهَّادِيَّةِ أُمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصَّقْلَبِيِّ ذِي الْأَصْلِ الشَّرِيفِ وَالنَّسَبِ الرَّفِيعِ، وَيَأْخُذُ فِي التَّهْكُمِ بِابْنِ الْجَزَارِ وَالتَّهْجَمِ عَلَى الْعَرَبِ، فَهُوَ قَدْ تَعَلَّقَ بِأَلٍ أَوْ بِسَرَابٍ، وَيَعْمُ وَجْهَهُ نَحْوُ تَبَالَةِ الْيَمِينِيَّةِ، فَتَبَّأَ لَهُ لَقَدْ أَصَابَهُ الْبَلَةُ، وَأَصْبَحَتْ مَحْنَتُهُ مَحْنَتَيْنِ، وَيَعْجَبُ أَنْ

(١) الْغَارِبُ: الْكَاهِلُ يَرِيدُ مَادُونَ الذَّرْوَةِ، الشَّانُ

الْأَوَّلَى: الشَّانِيَّةُ: الْمَخْضُ الْحَاقِدُ، الطُّوْلُ: سَابِقَةُ

النَّصْبِ، وَيَسْبِرُ: بِالْحُبْشَانِ إِلَى حَكْمِهِمُ الْيَمَنِ فَرَّةً

قَبْلَ الْإِسْلَامِ، يَطُولُنَا: يَفُوقُنَا، الطُّوْلُ: الْفَضْلُ.

(٢) الْأَسْتَرَلُومِيَّةُ: عِلْمُ الْفَلَكَ، الْجُومَطَرِيَّةُ:

الْمُهَنْدِسَةُ، الْأَرْقَاطِيَّةُ: الرِّيَاضَةُ، أَنْوَلُوطِيَّةُ:

(٣) الْمَفْرُئُ الْأَدِيمُ: الْمَرْقُوعُ جُلْدُهُ.

(٤) الْغَوَايَةُ وَالضَّالَّةُ: الْجَبَلُ، جِبْرَهُ وَسَبْرَهُ:

حَسَنُهُ وَجَيِّدُهُ، الرُّغَامُ: الْقَرَابُ، التَّبَرُّ: فَتَاتُ

الذَّهَبِ.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاء، فأخذ يشيد به
 وبقومه الصهب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بحرب ذوى نوق جُرب. ويضم إليهم
 العجم قاطية، ويقول إنهم ملوك قباصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو
 زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغل ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت
 جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية،
 وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطلق في الحديث عن
 فروسية العجم وبطولتهم في الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهى وربات الأفرات
 أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الحنظل
 ولا الضب، وسكناتهم القصور لا الخيام وببوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس
 من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأن العجم سارة ويتغنى
 بجبالها وكماها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية
 والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق القذنية الضخمة. وابن
 غرسية في كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية في القرن الثانى والثالث بالعصر
 العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحناها في كتاب العصر العباسى
 الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة
 ولا مدنية ولا علوم. فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقيصرة؟ وأين هم من علوم
 الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصرون فى ذلك عن بغض للإسلام،
 ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية
 ابن غرسية فى رسالته لا تقتصر بالإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعبى ذميم يعلن فى نهاية
 رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة
 لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنِفَ قبلها سُمي: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر
 فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم
 تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على
 معاداة العرب والإسلام. ولم تذكر رسالة ابن غرسية تشعلها حتى انطفأت، بل لقد أطفأها
 هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من
 المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية،
 كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالمصر العباسي الثاني وإغا برسائل تنفض مزاعمه نقضا حمة للعرب والعروبة. وفي الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن من الله القروي، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبج في القرن السادس الهجري، منها رد لابن أبي الخصال باسم: «خطف البارقي وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسقي». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبي يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبي الحجاج يوسف البلوي المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجله في موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبي يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبي جعفر^(١) أحمد بن الدودين البلسني، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسبب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقدعا أشد الإقذاع رادا كل مثلبة للعرب في رسالة ابن غرسية إلى محمدة لهم وكل محمدة للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

«أَخْسَأُ أَيُّهَا الْجَهْلُ الْمَارِقُ، وَالْمَرْذُولُ الْمَنَاقِقُ، نَكَلْتُكَ أُمُكُ، حَبَّرْتُ بِحَبْرِكَ لَذَهَابَ خَبْرِكَ، وَمَشَقَّتُ^(٢) فِي قِرْطَاسِكَ لِمَشَقِّ رَأْسِكَ، وَمَا حَقِيقَةُ جَوَابِكَ عَلَى خَطَلِ خَطَايَاكَ إِلَّا سَلْبُكَ عَنْ إِهَابِكَ (جلدك) وَصَلْبُكَ عَلَى بَابِكَ، وَأَقْسَمُ بِبَارِي النُّسَمِ، وَنَاشِرِ الْأَتَمِّ مِنْ رُفَاتِ الرَّمَمِ.. لِأَخْلَدُنْكَ سَمًّا غَايِرًا، وَمَثَلًا سَائِرًا، أَوْ تَحْتَزِمُ بِرُزْنَارِكَ^(٣) وَتَلْحَقُ بِأَذْيَارِكَ، مَا لَكَ، وَمَقَرَّ آلِكَ، أَسْرَتِكَ الْأَزْدَلِينَ، وَعِزَّتِكَ الْأَنْزَلِينَ الصُّهْبِ (الحمر) أَكَلَةُ الْجَيْفِ.. وَأَمَّا فُخْرُكَ بِرَبِّهِ الْإِيَاءِ (سارة) فَيَالَيْتَهَا حِينَ وَلَدْتِكُمْ تَكَلَّتِكُمْ، فَلَقَدْ سَرَبَلْتُمُوهَا عَارًا مَجْدُودًا، وَعَصَبْتُمْ بِهَا شَنَارًا (عارًا) مَخْلُودًا، حِينَ جُمِئْتُمْ^(٤) عَنِ الْكَفَاحِ، حَذَرَ الصَّوَارِمِ وَالرَّمَامِ، فَأَسْلَمْتُمْ لِعُدَاتِهَا، مِنْ بَنَاتِهَا، كُلِّ طَفْلَةٍ رَدَّاحٍ^(٥)، جَائِلَةِ الْوِشَاحِ^(٦)، ذَاتِ ثَغْرِ

(١) انظر في ترجمة ابن الدودين ورسالته الذخيرة

٧٠٣/٣ وما بعدها وراجع ترجمته في المغرب

٣٢٢/٢ ورسالته في مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طمئت. مشق: طمن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى في

أوساطهم تميزا لهم.

(٤) ختم: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضغمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كتابة عن دقة الحصر.

كالأنعام، وغُرَّة كالصباح.. ووصفك قومك بأن ليسوا خَفَرَةً أَكْرَ^(١)، ولا خَفَرَةً عَكَرَ^(٢)،
الله أجل الأَكْرَ أن يَحْفَرُوا، والعَكَر أن يَحْفَزُوا، لكنهم خَفَرَةً جَحْشَان، وخَفَرَةً كَهَوَفٍ
وغيران^(٣)، اتخذوها مَخْبِئاً من قبائل الرُّبَّان، وَمَلْجَأاً من وَقْعِ الصَّوَارِمِ والرُّمَّان، فعل
الْخِزَان^(٤) والريابيع والجُرْدَان. وأما وصفك قومك أنهم مُجَدُّ نَجَدٌ، فهيها تلك صفات
قومنا العرب أولى اللِّسَن والبيان والإسهاب في الصواب، والحكمة وفصل الخطاب،
أَتَدَيْتَهُمْ عِرَاصُ الثَّمِينَةِ، وأَرَدَيْتَهُمْ بَيْضُ المِشْرِفَةِ، وَلْيُوسِهِمْ مِضَاعِفَةُ المَآذِيَةِ^(٥)،
مجالسهم السُّرُوج، وريحانهم الوَشِيح^(٦)، مُنَاهِم، تعجِّل مَنَايَاهِم، أَسُودُ الأَغْيَالِ^(٧)،
حُمَاة الأشبال».

والرسالة الثانية عند ابن بسام في الرد على ابن غرسية رسالة^(٨) أبي الطيب
عبد النعم بن من الله القروي، دخل الأندلس، ودُرِس الحديث في شرقها إلى أن توفي
سنة ٤٩٣، وكان أدبياً شاعراً، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستنارته، وكتب نقضا لها
رسالة سهاها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر
العربية ونشر المفاخر الإسلامية والردُّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» وهي
تتمد في الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له في مطالعها:

«أخبرني عنك أما كانت للعرب يدٌ تشكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرَتْ نَقِصَتَكَ؟
أما رفعتْ خَسِيسَتَكَ؟ ألم تُرَبِّكْ فينا وليدا؟ ألم تتخذك بها تليدا؟^(٩) ألم تُعِنْ بتخريجك
وتتريجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أَسْلَقْتُكَ^(١٠) عقب اللكنة، حتى إذا اشتدَّ
كاهلك، وقوى ساعدك، كبرت نعمتها لديك، وتثرت عصمتها من بين يديك.. وهات أرنا
مفاخرَك نُرَكِّمُ مسأخرك، أنت صاحبُ الشَّهْبِ الصُّهْبِ أين أنت عن السُّمْرِ القُمْرِ^(١١)،
البَيْضِ غُرَّارًا وصِفاحا^(١٢)، الدُّعُجِ عِيُونًا وِرْمَاحا، البُلُجِ^(١٣) وجوها وسماحا؟ سَفَرُوا

(١) أَكْرَ: حَفَر. ٧٢٢/٣ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر في

رسالته المجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات

لهرون.

(٩) تليدا- هنا: مقبلا.

(١٠) أَسْلَقْتُكَ: أتاحت لك السليقة العربية.

(١١) القمر جمع أَمْر: المشرق الوجه.

(١٢) الصِفاح: السيوف.

(١٣) البلج: المشرقون.

(١) أَكْرَ: حَفَر.

(٢) عَكَر: إبل.

(٣) جَحْشَان: جمع جَحْش. غيران: جمع غار.

(٤) الصَّوَارِم: السيوف. الرمان: الرماح. الخِزَان:

أولاد الأَرَاب. الجرْدَان: الفئران.

(٥) المِشْرِفَةِ: السيوف. المَآذِيَةِ: اللدروع.

(٦) الوَشِيح: الرماح.

(٧) الأَغْيَال: جمع غيل: بيت الأسد.

(٨) انظر في ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأتقى الجُرب، فكسروا أكاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحماءهم^(١)، وأخمدوا نارَ صولنهم، ومحو آتارَ دولتهم، وطهروا الأرضَ المقدسةَ من أنجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرجاسكم. ويحك بِمَ آثرتَ (فضلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحييتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزٌ عِزٌّ وذُخْرٌ فخر، وخبيثةٌ ذخرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صفيته، ويميزها ليميز منها حفيته. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتةً وطائفةً، فسيحةٌ خطوته، شديدةٌ سطوته، لبقاً بتصريف القناة بنائه، بصيرا بمهيج الدارعين سنائه.. أليس شعاركم: الهرب، الهرب، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يذبحون البر ذبيحا، ويسبحون البحر سبحا، حتى طرَقكم طارقهم^(٢) في هذا الطرف، ورشقكم راشقهم في هذا الهدف، وملكوا أرضكم بساحتها، وأحاطوا بها من ناحيتها، سلبوها بأقطارها وحلبوها من أشطارها».

ويطيل ابن من الله في الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسياتهم، وما يزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى في العلوم. وبنوه بعلم العرب في الفلك والطب وبراعتهم في الفناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذي به برزت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيهِ. والرد الثالث الذي ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب^(٣) لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا في الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم الصميم.

ومثل هذه الردود في الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة^(٤) أبي يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غثيث (لا خير فيه) أبى وقاح لئيم الجود. وبعد قرع صفاء، وصنع قفاء، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة الثلاث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أباً للعجم أو تكون سارة زوجته أمًا لهم

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) راجع في أبي يحيى بن مسعدة ورسالته المجموعة الثالثة من نواير المخطوطات لمعد السلام هرون.

(٣) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.

(٤) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشويه ويشوى العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية يهودج سيدتها، إذ العلوم التي ذكرها إنما هي علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهم على موسيقاهم التي يندبون بها في نواحهم ويقصفون عليها في أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم في القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدنان، كما يتمدح بشصف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بكان القرّة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن في العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيح هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويتأظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة في ختام الرسالة بأبن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

وواضح - بما تقدم - أن الشعبية في الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسى، وكأنها شيء عارض أو كأنها حجر ألقى في بحر لجي للعروبة، فلم تترك أثراً وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي كثرة تدل - دلالة بيّنة - على تصعق نزعة العروبة في الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائماً بقوة، أما ما نقرؤه أحياناً عن عالم أندلسي أو أديب هناك من أنه كان شعوبياً فإنما كان يوصف غالباً بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة في مناقب الرسول ﷺ، على شاکلة كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صور فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطار فبنوا شكاوهم إلى الرسول ﷺ في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وتوسل ضارع لشفاعته يوم المحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس أمليين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ في تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجدد المتوفى سنة ٥١٥ هـ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقاً إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملاً في شفاعته، والمحشر في عداد زمرة وجماعته، وفيها يقول ابن الجدد: ^(١)

«صلوات الله على خاتم الرُّسل وناهج السُّبل، وناسخ جميع الجليل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُرَبِّي على عدد النجوم، ويُرَبِّي باليسك المختوم، ويَقْتَضِي باتصاله رضا الحي القيوم.. ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صُدري، وغشيتني من نور برهانك ما بهَّر لُبي، وعمرَ قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودَّع جَوَانِحِي التهاها، وأوسَّع جَوَارِحِي اضطراباً، وأشعر أُملي عَوْدًا إلى محلِّكَ المعظم وإياها، وكيف لا أجنُّ إلى قربك، وأتهالك في حُبِّكَ، وأعفر خدِّي في مقدس تَرْبِكَ، وبك اقتديت فاهتديت، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعي، ويتأكَّد انقطاعي، وبك استشفاعِي، وإليك مَفْرَعِي يوم الداعي، فلا تنسَ لي - يا رسول الله - عِيَادِي بك وإِيَادِي، وأذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حَوْضِكَ المورود، وظِّلِّكَ الممدود، ومقامِكَ المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرب في قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتعلَّم بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرب شوقه من جديد لينعم بزيارته آملاً أن يكون له حظ في شفاعته صفى الرحمن وحببيه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسته أن لابن السيد البطليوسي عبداً لله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ هـ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبي الحصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلاً إلى قبر الرسول

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجدد في الذخيرة

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمى (المقدمين) آملاً في شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وبركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخسه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن^(١) الجياني على بن محمد الأنصارى الذى تولى القضاء ببعض نواحي إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفى سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول^(٢):

«إلى سَيِّدِ المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِداً وطُهوراً، وكان - ولم يزل - منتقلاً من صلب آدم نورا.. المصطفى المختار الذى انشَقَّ له القمر، ودان له الأسود والأخضر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأخبار قبل كونه بِسَماته، بُشِّرَى الكليم^(٣) الميمون النقية^(٤) والطليعة، المشير إلى الأصنام فخرت صَريمة.. من العبد المذنب الذى تُبْطِئُهُ الأقدار، وعاقه الفلك الدُّمار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادَى الأمل أَنْقَعُ دِمْية^(٥).. كَتَبْتُهُ، وأنا أَتَنَفَسُ الصَّعداء^(٦)، وَأَتَأَجِبُ بِلِ اغْطِ أَهْلَ زيارتك السعداء، ولِلزُّفَرَاتِ تَصْعَدُ وانحدار، ولِلْمَعْبَرَاتِ تَرُدُّ فى الجفن وانهمار، وكيف أَلَذَّ حَيَاةٍ ولم أعبر لِزيارتك سَبَباً^(٧) ولا لُجَّةً، ولا أَقْمَتِ على دَعْوَى الشوق إِلَيْكَ بُرْهَاناً ولا حُجَّةً، لَأَتَيْمُ مواطِنَ سَقَى فيها بالوحي الرُّوحَ الأمين، وتخطى عَرَصَاتِهَا^(٨) سَيِّدُ المرسلين كيف لى أَنْ أَمْرُغَ الخَدَّ فى عَبيْر نَرَاهَا، أو أَبْلُغَ الجَدَّ^(٩) الأعظم عندما أَرَاهَا، اللهم ياربُّ أَنْجِذْ عَبْدَكَ المَسِيءَ وأَعْنِهِ على أداء الفريضة، وطَيِّبْ قلبه بانتشاق رِيحِ طَيِّبة^(١٠)، ولا تجعل أَمْلَهُ فَيْكِ ورجاءه فى كَرَمِكَ إلى إخفاقٍ وخَيْبةٍ»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجياني طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفساً ممتداً.

(٧) السبب: القلاء.

(٨) عرصات: ساحاتها.

(٩) الجد: الحظ.

(١٠) طيبة: المدينة.

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجياني الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقية: الطبع والسجية.

(٥) صدى: عطشان. ديمة: سحابة هائلة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيح المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فزاده لوعة لا تنطفى وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طيب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تعادلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطلبلطة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير انتعق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان^(١) للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وابنه محمد الفنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أضنى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عباد كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلائقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة. ويفتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسول الحق، إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرقي، والحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء.. نبى الهدى الذى ختم به الرسالة ربّه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حبه، الشفيح المشفع يوم العرض، المحمود فى ملاء السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذى بهر سناه، من الأنوار من عنصر نوره مستمدة، والآثار تخلق^(٢) وأثاره مستجدة، من طوى بساط الوحي لفقده، وسد باب الرسالة والنبوة من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يفمها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

(١) انظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان) صبح الأعشى ٤٦٩/١٤.

٥٢٧/٤ وما بعدها. وراجع فى الرسالة الأولى (٢) تخلق: تلى.

التي رُدَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت في الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور في الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب في هذا التمجيد متحدنا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبي الهجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقي في هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبة الطاهرة، يقول:

«عاقنتني عن زيارتك العوائق إذ أصبحت بين عدو تتكاثف أفواجه، ويعجب الشمس عند الظهيرة عجاجه^(١)، في طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، واستعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بوسهم، يطربون من هبة^(٢) إلى أخرى، ويتلفتون والمخاوف يمتنى ويسرى، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعا كجموع قيصر وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، فباله من سرِّب مروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصيبة حمر الحواصل^(٣)، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل^(٤)، والصليب قد تمطى ومد ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقه القلوب حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أبلينا العثر، وأعملنا في سبيل الله وسبيلك البيض والسمر^(٥)، وأرغمنا الكفر».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التي كان يبذلها مسلمو الأندلس في جهاد حملة الصليب، وقد جاءهم - كالنمر عند انتشاره - من شالي إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متراحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هي العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا مادقت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتيها

(١) عجاجه: غباره.

(٢) هبة: صيحة.

(٣) حمر الحواصل: نشبه لأطفال غرناطة بصغار الطير حين تكون حمر الحواصل ولا تستطيع

الطيران.

(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٥) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

سنة ٧٧١ هـ بلسان السلطان الفنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تتكيله بحملة الصليب فى غير موقعة بمونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بهجاء الطغاة البغاة. وكانت توجه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامى رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه فى الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت فى الأندلس لبعده الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن الجنان^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان من أهل مرسية فى شرقى الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتباً بليغاً وشاعراً بارعاً» ويقول الغبريني: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيهاً وكاتباً بارعاً وأديباً». وكان مفرطاً فى القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أربولة شمالى مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبى دعوته، وأكرمه وحطى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبى نداء ربه فى عشر الخميس وستائة.

وكان ابن الجنان شاعراً مبدعاً كما كان كاتباً محسناً، ويقول ابن الخطيب «له فى الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظم فى المواعظ للمذكرين كثيراً» وأنشد المقرئ له فى الجزء السابع كثيراً من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثاً عن شئنا الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقديسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرئ مخمساً نبوياً طريفاً يستهله على هذا النحو:

الله زاد محمداً تكريماً وحباً فضلاً من لدنه عظيمًا
واختصه فى المرسلين كريماً ذا رافة بالمؤمنين رحيمًا
صلوا عليه وسلموا تسليماً

للغبريني ٢١٣ ونفع الطب ٤١٥/٧ وما بعدها.

(١) انظر فى ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية

ويضيف إلى هذا الدور في الخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليها». ولا تقل روعة عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواظبه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرئ كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التي لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ^(١)، والبركةُ التي أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرةِ الرِّسالةِ العامَّةِ الدعوةِ والنبوةِ، المؤيدةِ بالعِصمةِ والأيدِ والقوةِ، ومَنابِيةِ البرِّ والتقوى، فهي لقلوبِ الطَّيِّبينَ صَفًا ومَرْوَةً^(٢) مَقَرَّ الأنوارِ المحمديةِ، والبركاتِ السَّرمِديةِ، أُمَّتُكَ اللهُ الإسلامُ والمسلمينَ بحراسةِ أضوائِها، وكَلَامَةٍ^(٣) ظلالِها العليَّةُ وأفانِياها^(٤)، وأقرَّ عَيْنَ عَبْدِهَا بِلَثَمِ ثَرَاهَا، والانخراطِ في سَبِيلِكَ مَنْ يراها. السلامُ عليك يا محمد، السلامُ عليك يا أحمدُ، السلامُ عليك يا أبا القاسمِ سلامَ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْكَ يَدَ الْفَرِيقِ، ويرجو الإنقاذَ ببركتِكَ من نَكْدِ الْمُضِيقِ، ويتقطعُ أَسْفًا ويتنفسُ صُعْدًا^(٥) كلما ازدلف^(٦) إِلَيْكَ فَرِيقٌ، وعَمَرَتْ نحوكَ طريقٌ، ولا يَفْتَرُ صلاةَ عليك له لسانٌ ولا يجفُّ رِيقٌ: كتبته يارسولَ الله وقد رحل المجتدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبنيتُ وبين لَثَمِ ثَرَاكَ النَّبَوِيَّ، وَلِمَحْ سَنَاكَ المَحْمُودِيَّ مَفَاوِزُ وكلما رُمْتُ المَتَابَ رُدِدْتُ، وكلما يَتَمَتَّعُ البابُ حُصِدْتُ.. وحَقُّكَ وهو الحقُّ الأكيدُ والقسمُ الذي يبلغُ به المُقَسَّمُ ما يريد، ما وَخَدْتُ^(٧) إِلَيْكَ رَكَابُ، إلا وللقلبِ إثرُها التهابُ، وللدمعِ بعدها سَحٌّ وانسكابُ، وباليَتَنِي مَنْ يزورك معها ولو على الوَجْتَيْنِ، ويحييك بين رَكْبِهَا ولو على المُقَلَّتَيْنِ.. ثم السلامُ ورحمةُ الله تعالى وبركاته عليك ياسيدَ الخلقِ، وأقرَّبهم من الحقِّ، ومن طَهَّرَ الله تعالى مَنَواهُ وَقُدَّسَهُ، وبناه على التقوى والرضوانِ وأَسَّسَهُ، وآتاه من كلِّ فضلِ نبويٍّ أعلاه وأَسَنَاهُ وَأَنفَسَهُ.. كتبته عبدك المستمسكُ بِمُروِّتِكَ الوُثْقَى، اللانذَ بِحَرَمِكَ الأَمْتِ الأَوْقَى، المناخِرُ جَسْمًا المتقدمَ نطقًا، والسلامُ عليك يارسولَ الله ﷺ تسليما كثيرا ورحمةَ الله تعالى وبركاته».

والرسالة توجع بالعذوبة في اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواجع الشوق المضطرم في صدر ابن الجنان لزيارته قبر الرسول القدسي ولثم ثراه العطر والإمام بفنائه السنّي

(١) تريم: تخرج.

(٢) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.

(٣) ازدلف: دنا وقرب.

(٤) وخدت: أسرعت.

(٥) السعي بين الصفا والمروة من شوائر الحج وفروضة والتشبيه واضح.

(٦) كلامه: حفظ.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الهجاج الأندلسيين من دونه يسيرون في قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذى أرسله الله نورا وضاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاكها ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة في الحجاز. وينرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدي. وروى المقرئ له موعظة بديعة في فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكبر والدلالات الواضحة القرر، ويتلو المقرئ هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث في نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزهم الصبر، يقول: «وהל يسوغ الصبر الجميل في فقيده بكته الملائكة وجبريل، وكثر له في السموات السبع النحيب والعيول، وانقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمُ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا في الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب في الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم اسقنا من حَوْضِ المورود، وشرِّفنا بلوائه المعقود، وشفِّعنا فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللُّهود، وانفَعنا بمحبته ومحبته آله وصحابته الرُّكُم السُّجود، واجملنا معهم في الجنة دار السلام ودار الخلود».

وهذه اللغة الصافية التي تموج بالركة والعذوبة والتي تليد الألسنة حين تنطق بها والأسباع حين تنصتُ إليها كان ابن الجنان يتمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة في المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جلة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظمهم وخطاباتهم في كتابه البيان والتبيين، وكثير هم الأندلسيون الذين تُذكرُ في تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخسه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذي يبعث الحياة في الوديان والسهول والزرع، فكان الناس يجتمعون في المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا في الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفي الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يقاتون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة السيول التي تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا في ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستئزال الغيث، وبينما الخطباء يلحون بالدعاء كان الناس يكثر من الضجيج والابتهاال، وتشملهم رحمة الله فتتعد السحب وتبرق وتزعد ويطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبي وهب العباسي المعاصر ل منذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح في عصر أمراء الطوائف، ونلتقي فيه بوعاظ كتابية تحبر فيها رسائل بدعية. وهي رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحي والشوق إلى اللقاء الرباني والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحس كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا في رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه^(١):

«هَيَّاكَ بِدُ الْقَدْرَةِ هَيْئَةً رُوحَانِيَةً، وَأَحْيَاكَ رُوحَ الْقُدُسِ حَيَاةً إِلَهِيَةً، وَابْسُتِكَ الشَّرِيعَةَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَرَاسْتُكَ الطَّبِيعَةَ بِرَيْشِ النُّهَى^(٢)، حَتَّى تَطِيرَ مَعَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي مَجَالِ الصَّدِيقِينَ إِلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ، فَتَذُوقَ بَرْدَ عَيْشِ النَّعِيمِ، وَتَلْذَّذَ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْقَيُّومِ، وَتَشْتَاقَ إِلَى لِقَاءِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.. وَإِنْ قَدْ يَا أَخِي عِبَادًا أَقَامَ أَرْوَاحَهُمْ بِقِيُومِيَّتِهِ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَهَشَّتْ بِأَقْدَامِ الصَّدِيقِ إِلَى الْحَقِّ، فَدَنَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَلَى جَلَالِهِ، فِي اتِّسَاعِ كِمَالِهِ، فَضَعُفَتْ لِكِبَرِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ بِالإِسْلَامِ وَنَطَقَتْ بِالإِيمَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِالْقُرْآنِ، وَعَلِمَهَا فَفَازَتْ بِالْحِكْمَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَدَانَتْ لَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ،

(١) راجع في النص الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها. (٢) النهى: العقل.

فأواها إلى كَنَفه، ونُعمها بطرائف تُحَفِّه، وأطلع لها السُّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فحَبِيتْ بقربه، وشربت بكأس حُبّه».

والنزعة الصوفية ماثلة في الرسالة، وهي تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف في زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربي والشمشيري، وممرت لهم في الفصل الماضي ترجمات تُعرِّف بمنزعتهم الصوفي وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكي أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعاً قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبي الخصال الذي ترجمنا له في هذا الفصل أول من حاول محاكاته في هذا الاتجاه^(١)، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبي القاسم السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسُمي معارضته له باسم: «حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل^(٢)» وعارضه سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى شهيداً سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومناظرة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء في ملقى السبيل^(٣)» وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبي العلاء في وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجداول انبثق من نهر الوعظ الكبير. وتلتقى في عصر المرابطين بأبي بكر الطرطوشي وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد في رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزي ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكب عليها غير أديب أندلسي يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبي المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشي: «له فصول وعظيمة على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي» وله قوله من عظة^(٤):

«يا أَعْمَى الهوى غَابَ عنكَ وَضُحُ النّهار، طالَتْ غَيْبَتُكَ عَنَا فَأَيُّ يَوْمٍ تَكُونُ فِي الزَّوَارِ، العَمْرُ قد مَضَى ولم يبقَ إِلَّا القليل، وَأَنْتَ تَعِيشُ بِالْعَمَى والتَّعْلِيلِ.. أَيْنَ الإِخْوَانِ

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي بقية السفر الرابع ص ٨٦.

(٤) كتاب أبي المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة «ملقى».

والأتراب، طاحوا^(١) واقه وأكلهم التراب، بينما الليل يفرُّ إذ نَعَبَ الغراب وفجأتِ
الفجعةُ فما لُدَّ النومُ ولا ساعَ الشراب».

وكان نبعا فياضا في الوعظ مما جعل بعض الرعاظ يستمعون به فيما يعظون به
الناس، وملتقى بكثير من المواعظ في دولة بنى الأحمر بغرناطة، ومن كبار الرعاظ في
دولتهم ابن الزيات الكلاعي الماتقى المتوفى سنة ٧٢٨ وله في الوعظ كتاب «شذور
الذهب في ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته في الإحاطة عظة أنفى الألف
من حروفها وفيها يقول:

قد نصّحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتم لو كنتم تعلمون، ونصّرتكم لو كنتم تبصرون،
وذكّرتكم لو كنتم تذكرون، وظهرت لكم حقيقةً نشركم^(٢)، وبرزت لكم خبيثةً حشركم،
فليَمْ تَرْكُضُونَ في طَلْقٍ^(٣) غفلتكم، وتغفلون عن يوم يعثكم، وللموت عليكم سيفٌ
مسلول، وحكمٌ عزم غير مفلول^(٤)، فكيف بكم يوم يؤخذ كلُّ بذية، ويغير بجميع كسبه،
ويفرق بينه وبين صحبه، ويعدم نصرة جزبه، ويشغل بهمه وكربه، عن صديقه وزرّه».

ويسترسل في مثل هذا الوعظ البسيط الذي ينزلق عن اللسان لحفته ولعدوته، ولعله
من أجل ذلك كان مجلس وعظه يفض بالناس ويزدهمون عليه لساع مواعظه. وحرى بنا
الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

منذر بن سعيد البلوطي^(٥)

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع في نواحي قرطبة
يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية
واللغوية وبز فيها أقرانه بقرطبة، وفي سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن
علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابوري كتابه الإشراف المؤلف في
اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل
سمعه على أبي العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى في اللغة والفقه والحديث. وأهم

٣١٩ وابن الفرضي رقم ١٤٥٢ والنبية رقم ١٣٥٦

والجندوة ٣٢٦ والمسطح ٢٧ ومجمع

الأدباء ١٧٤/١٩ وإنباء الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار

الرياض ٢٧٢/٢ ونفع الطب (انظر الفهرس).

(١) طاحوا: هلكوا.

(٢) نشركم: بعثكم.

(٣) طلق: شوط.

(٤) مفلول: منثوم الحد.

(٥) انظر في ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزهبي

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهري وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا في بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيًا يلزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهري في نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذي استقر عليه العمل في الأندلس. وتوقف في رحلته الاعتزال كما توقف المذهب الظاهري، وكان يحتاج له كما يحتاج للمذهب الظاهري دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفي سنة ٢٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر في قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذي جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبي على القالي العالم اللغوي المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوت شهرته في الأندلس، فسأله أن يلقى خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهيأ للناصر من توطيد الحكم في بلده، فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وأرتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أبهة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلانه، والشكر لنعمانه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالا، وليس بعد الحق إلا الضلال، فافقهوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت.. وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التي كانت عمت آفاق الأندلس، وفصل القول في انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهد من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالترام الطاعة لخليفته وابن عم نبيه الناصر، ويختم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جنانته، وأعجب به الناصر إعجابا شديدا، فوله الصلاة والخطابة بمسجده الجامع في مدينته الزهراء التي بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضي القضاة في الأندلس جميعا، وظل على ذلك في حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفي سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى في بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنيق على نحو ما مرُّ بنا في غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله في خطبة الجمعة بالموعظة المحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتداً منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَيْنُونَ بِكُلِّ رَيْعٍ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سِوَاءَ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ﴿فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر في ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد في الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب في ذلك حتى تأثر المستمعون وضجوا بالبكاء، ودعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغضبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعرا، أما العظات فلعل واعظا في وطنه لم يبلغ فيها مبلغه في زمنه، وكانت له مجموعة ومندولة في الأندلس تحمل وعظا كثيرا، ومن عظاته قوله:

«حَتَّىٰ مَتَىٰ وَإِلَىٰ مَتَىٰ أُعْطِيَ غَيْرِي وَلَا أَتَعْطَىٰ وَأُزَجَّرُ وَلَا أُزَجَّرُ، أَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَبْدِلِينَ، وَأَبْقَىٰ مُقِيمًا مَعَ الْحَاثِرِينَ، كَلَّا إِنْ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. اللَّهُمَّ فَرِّغْنِي لِمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَلَا تَشْغَلْنِي بِمَا نَكَلْتَنِي لِي بِهِ، وَلَا تَحْرِمْ نِي وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَلَا تَعَذِّبْنِي وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

أبو^(٣) بكر الطُّرطُوشِي

هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الطُّرطُوشِي الأندلسي ولد في سنة ٤٥١ بطرطوشة في أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبي رندقة، ويبدو أنها كنية شهر بها فيها بعد، وقد تخرج على يد أبي الوليد الباجي بسرقسطة، أحد

٥١٧ وبغية المتنسى رقم ٢٩٥ والمغرب ٤٢٤/٢

وابن خلكان ٢٦٢/٤ والديباج المذهب ٢٧٦ وغير

الذهبي ٤٨/٤ وأزهار الرماض ١٦٢/٣ والشنرات

٦٢/٤ وحسن المحاضرة ١٩٢/١.

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.

(٢) مصانع: مبان من القصور والمصون.

(٣) انظر في ترجمة الطرطوشي ومواعظه الصلة

كبار المالكية في أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هـ وحج ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جلة الشيوخ في البلدين، وسكن الشام مدة ودُرس بها، ثم سكن مصر واستقر بنجر الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠. وكان ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجهمي وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به :

«إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك فاتق الله فيها خوْلُك من هذه الأئمة، فإن الله - عز وجل - سائلُك عن النِّقَرِ^(١) والقَطْمِيرِ^(٢) والفَنيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مُلْكَ الدنيا بعدَ أفيها فسخرَ له الإنسَ والجِنَّ والشياطينَ والطيرَ والوحشَ والبهائمَ، وسخرَ له الرِّيحَ تجري بأمره رُخاءً^(٣) حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عز من قائل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عدتها، ولا حَسِبها كرامة كما حَسِبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجل، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فافتح الباب، وسهل الحِجابَ وانصبر المظلوم».

وللطرطوشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبي وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذي ألفه للمأمون البطانحي وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجهمي (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم، ويبين في مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعتُ محاسنَ ما انطوى عليه سِيرُ مُلُوكِ بَيْتٍ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند، فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة والسَّير المستحسنة والكلمات اللطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رأيته وجمعته من سِيرِ الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى

(١) النِّقَر: مانقر في نواة النمر، والقَطْمِير: النواة والمراد أنه يُسأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

القشرة الرقيقة على النواة، الفَنيل: المحبط في شق

عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومقاص الجواهر المكتونات.. الهادى من الضلالة والهاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة.

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خص أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبر بمن مضى من الملوك والأقبال، وخلا من الأمم والأجيال، وكيف بسطت لهم الدنيا وإنست لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأيدوا بالآلات والعُد والأموال، كيف طعنهم بكلكلة المنون^(١)، واختدعهم بزخرفه الدهر الخثون، واسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيمة، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاعتنم غفوة الزمان، وانتهر فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يومك لعدك، ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم^(٢) ولكن انظر إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والمخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعباد والصالحين الأطهار إلا دونها فى كتابه مع ما ساقه فى تضايفه من عظاته التى تخرج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حبان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصه حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: (٢) الرياش: الأثبات الفاخر.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم^(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالى بنى أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم كبلّة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونصّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبني أمية قائلا:

سَمَا بِي سَاسَانُ وَدَارَا وَبَعْدَهُم قُرَيْشُ الْعَلَا أَعْيَاصُهَا وَالْعَنَابِسُ

وهو في الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفي الشطر الثاني ينتمى بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عبّ ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجع نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسيان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبني أمية، وظل مشايخا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولا أن يخفله من ولائه وولاء أبيه للأُمويين.

ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبى زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسي: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفي كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته في تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره في هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته في الأدب الإسباني. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة في دار المعارف) ص ٩٩ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى في الجذوة ص ٢٩٠ والخبرة ١٦٧/١ والمطبع ص ٥٥ والبيعة للضبي ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لمساعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطي في تاريخ الحكماء ص ٢٢٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وغير الذهبي ٢٣٩/٣ وابن شاعر في الفوات ٢٧١/٢ والفوات ٢٩٩/٣. وكتب عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسي لبالنشأ ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس في تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤

وكانت أسرة ابن حزم تعيش في قرية تملكها تسمى مُنت ليشم من قرى مدينة بَلْنة على بعد خمسين كيلو متراً غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكراً إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما ألمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذهُ وزيراً له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن في الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر وبجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر في كُور غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مضيه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكّل تربيته في صباه إلى جوارى قصره وكنّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثالهن من الجوارى في قرطبة ومدن الأندلس - وفي ذلك يقول ابن حزم في كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرة، لأنى رُبِّيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنّ علّمنى القرآن ورؤينى كثيراً من الأشعار ودربننى في الخط». وجعلته هذه النشأة يستشعر مبكراً عاطفة الحب لمن كن في سنه من الجوارى، ويقول في الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فما استحسّن بعدها سوداء الشعر أبداً. وظل يحتلّط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حدّ الشباب وحتى أصبح يافعا في سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطعبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتلمذ للشيخوخ وفي مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لا يزال في سن مبكرة. وكثيرا ما كان يرافق أباه في مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لا يزال يسكن الجانب الشرقى من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدث في هذا الجانب إلى دورهم القديمة في الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للثائرين ضده واعتقل وأُغرم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على في هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلَف بها تسمى نُمّا كانت غاية في الحسن خَلقا وخُلقا، ولم يلبث القدر أن فجع به فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرّد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دمة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تآدت في السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبي عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهراً ثم ردَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهراً وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامرين، إذ سمع أنها يشايان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليها، ولم يلبث أن زحف معها بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التي كانت قد أصبحت في قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامرين أصبحت أطلالا دائرة فبكاه طويلا، وتفرغ لالتحام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفي سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموي فاتخذَه وزيرا له مع خُذنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويُعتقل الخليفة الجديد المستكفي ابن حزم فترة، وتردَّ إليه سريعا حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضَّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال في كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعمائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالِكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فترة ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري، وتنقل في مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقي، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها في الفقه كتاب الإبطال في مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهي القياس والرأى والتحليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهب الظاهري، وكتاب الإيصال في فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين في مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأي،

وكتاب المحلى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب جبة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلائها وأدائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القوية (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيها بعد توماس الإكوينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرُّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشالية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفها أوروبا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداداة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والذائل الخلقية مضيافا إليها بعض اعترافات فى نواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكى أبى الوليد الباهى فى جزيرة مهورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لا يزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العنرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس فى الأجساد فى عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس اختلاف ومشاكلة فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة فى أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب فى النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا فى أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطى السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة فى المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضنا والموت. ومنها ستة أبواب فى آفات الحب، وهى أبواب العاذل والريب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان فى قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعَرِّضُ لا فى كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة تنتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائما مكشوفة كالشمس. وفى تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس فى الحب وترهاها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبها حبا نقياً بريئاً من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه فى الحب قوله فى باب السلو:

«وإنى لأخبرك عنى أنى أَلِفْتُ فى أيام صباى أَلْفَةَ المحبة جارية نشأت فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخُفْرها ودمايتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، فقيدة الدَّام^(١)، قليلة الكلام، غضبضة البصر، شديدة الحذر، نَقِيَّةٌ من العيوب، دائمة القطوب^(٢)»، حُلُوَّةُ الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرُس^(٣) للأمل لديها.. على أنها كانت تُحِبُّ العود إحسانا جيدا، فَجَنَحَتْ إليها، وأحببتها حبا مفرطا شديدا، فسمعتُ عامين أو نحوهما - أن تعجبنى بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلت إلى شىء من ذلك البتة فلعهدى بِمُصْطَنَع^(٤) كان فى دارنا.. تجمعتُ فيه دَخَلْتُنَا^(٥) ودَخَلْتُ أُخَى: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث^(٦) بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله، فلبثتُ صدرا من

(١) الدَّام: العيب. (٢) معرُس: مكان. (٣) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو

(٤) القطوب: العروس. (٥) مصطنع: ولبة. (٦) لاث: اخطط.

النهار ثم تنقلن إلى قَصَبَةٍ^(١) كانت في دارنا مُشرفة على بستان الدار. ويُطلع منها على قرطبة وفحوصها^(٢) مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراحيب^(٣) وأنا بينهن. وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسا بقربها، متعرضا للدنو منها، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها فترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لطف الحركة. فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال^(٤) إلى غيره. وكانت قد علمت كَلْفِي بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة^(٥) النساء فيمن يعيل إليهن أنفذ من قيافة مدلج^(٦) فى الآثار. ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيداتنا فى سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العود، وسوته بخفر وخجل لا عهد لى بمثله، وإن الشيء ليتضاعف حسنه فى عين مُستحسنه، ثم اندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكان المضراب كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساء إلى يوم مفارقتى الدنيا».

ويمضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات فى جنازة لبعض أهله باكية نادية، فأنارت فيه وجدا دفيناً وحركت ساكنا وذكرته عهدا قديما وحبا تليدا ودهرا ماضيا وجددت أحزانه، وما كان نسي، وزاد الشجا وتوقدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتها لفقدائها الصيانة التى كانت لها فى قصر أبيه وأيام عزه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقل وصل وأنست له بعض الأنس لجن طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاح له الصبر والسلوى مع ما ظل يطوى فى نفسه من عذاب حبه وآلامه.

وبمثل هذا التصوير الواقعى القصصى الصريح المرسل فى غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

(١) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة على الدار.

(٢) فحوص: قرطبة: ضواحيها.

(٣) شراحيب: قوائم.

(٤) الزوال: التحول.

(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التنبع.

(٦) مدلج فى الآثار هنا: متعمق فى تتبع الآثار.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى في شباكه. وفي حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجددة» ويقول الدكتور الطاهر مكى في هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتي الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس - كما ذكر بالنثيا - فى معرفة دانتي بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضاً فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «الفنوع من المحبوب بأى شيء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شاباً فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بُعد أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنثيا إن شاعرهم الإشباني المبدع «ماتياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان^(١) حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧ هـ. ورُزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعفى بتريبته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و ٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى
لبنثيا ص ٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى
الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد)
ص ١٠١.

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١
والجزء: ١٨٨ والبعة رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢
وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة
المقتبس الخاصة بمعد الرحمن بن الحكم الرضى

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل في دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبي الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لها الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتباً واسعاً. وذكر مترجموه أنه لُقّب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبق عليه رسمياً فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم في إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سبب التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستعج بالاعتماد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهاز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا في غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفي الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينها إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هي:

- ١ - أخبار الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
- ٢ - كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
- ٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو في خلع المعتمد بن عباد لأبي الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيخ في الجنوب الغربي للأندلس.

ونظن ظناً أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتاباً مستقلاً عن كتاب المتين، بل كانت أجزاءه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءاً من كتاب المتين، إذ يقال إنه كان في ستين مجلدة. وكان ابن حيان إنما كان له في رأينا كتابان في تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفي كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وشطراً من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مراراً في كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروفنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤ هـ) نشره الدكتور محمود مكى بيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكى. وجزء رابع نشر بمجريد باسم الجزء الخامس نشره شاليتا مستعينا بكورينطى وصبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) نشره بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرانى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبالرة فى بلاد البشكنس.

«فى سنة اثنى عشرة وثلاثمائة غزا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمرها الله - غزوته المعروفة ببَنبُلُونَة: بلد أعداء الله الكفرة البشكنس. وسلك فى سفره هذا طريق الشرق، وتمنع من النزول إليه والغزو معه محمد بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العسكر من أحواز^(١) بَنبَسِيَّة، فنازل حصونه ووطئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلاد المشركين ببَنبُلُونَة بأنفذ عزم وأؤكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرجاس^(٢) الكفرة واحتل من أول بلدهم حصن قلهره، وكان العليج شانجه^(٣) أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يعرف بقنطرة آلبه وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلفوا فى بساطها^(٤) جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أعجلوا عن انتقالها ولجأ علوج منهم بأهلهم وأولادهم إلى ثلاثة غيران^(٥) فى شفير جُرف^(٦) على النهر، فلم يزل المسلمون

(١) أحواز: نواحي.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القفر.

(٣) الطلج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم

البشكنس (٢٩٣-٣١٤ هـ).

(٤) بساطها: أراضيها البسيطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَقُولُونَ^(١) إِلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَسْأَرُونَ^(٢) عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِيهَا، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْقَبِيرَانَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا الْعُلُوجَ وَسَبَّوْا الذَّرَارَى وَغَنَمُوا الْأُمْتَةَ، وَهَدِمَتْ حِصُونُ الْكُفْرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الْجَهَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا صَخْرَةٌ قَائِمَةٌ. ثُمَّ تَنَقَّلَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَحَلَّةِ^(٣) بَعْدَ أَنْ أَقَامَ فِيهَا يَوْمًا إِلَى حِصْنٍ فَالْجَيْشُ فَاضْرَمَتْ نَارًا أَرْبَابَهُ^(٤) وَاسْتَقْصَيْتْ زُرُوعَهُ وَبَنِمَهُ بِالنِّسْفِ وَالِاسْتِخْصَالِ.. ثُمَّ اسْتَعَزَّ عَلَى الْإِيقَالِ فِي بِلَدِ الْكُفْرَةِ وَالِاتِّحَامِ لِسُرَوَاتِهِ^(٥) وَالتَّوَصَّلَ إِلَى مَوْضِعٍ قَرَارِهِمْ وَمَجْتَمَعِ كِفَارِهِمْ وَنِكَابَتِهِمْ فِي عَقْرِ^(٦) دَارِهِمْ وَمَكَانٍ أَمْنِهِمْ.. وَأَمَرَ بِتَبْعِيَةِ الْكُتَّابِ وَتَرْتِيبِ الْمَقَانِبِ^(٧) وَشَكَّ^(٨) الْعَسْكَرَ.. وَارْتَعَلَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ بَيْنَ أَجْبَلٍ^(٩) شَامِخَةٍ، وَشَوَاهِقٍ مُنْقَطِعَةٍ، وَالْجَبُوشِ لَا تَمُرُّ بِمَوْضِعٍ إِلَّا اضْطَلَمَتْهُ^(١٠) وَنَسَفَتْ زُرُوعَهُ، وَأَفْسَدَتْ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ أَكْلُهُ وَهَدِمَتْ قَرَاهُ وَحُصُونَهُ، إِلَى أَنْ بَلَغَ مَدِينَةَ بَنْيُلُونَةَ الَّتِي إِلَيْهَا يُنْسَبُ الْإِقْلِيمُ، فَأَصَابَهَا خَالِيَةٌ مُقْفِرَةٌ، فَدَخَلَهَا النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَجَالٍ فِي سَاحَاتِهَا وَأَمَرَ بِهَدْمِ جَمِيعِ مَبَانِيهَا وَتَخْرِيبِ كَنِيسَةِ الْكُفْرَةِ الْمُعْظَمَةِ وَمَوْضِعِ بَيْعَتِهِمْ^(١١) وَمَكَانٍ مَنَسَكِهِمْ فَجُمِعَتْ الْأَيْدِي عَلَيْهَا، حَتَّى جُعِلَتْ قَاعًا صَفْصَفًا^(١٢). وَتَنَقَّلَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ، وَكَانَ فِي مِرَّةٍ فَجَّ^(١٣) ضَيْقَ الْمَسَالِكِ وَغَرَّ الْمَجَازِ.. وَتَظَاهَرَ^(١٤) أَعْدَاءُ اللَّهِ لِأَهْلِ السَّاقَةِ^(١٥) مُتَسَنِّمِينَ^(١٦) فِي جَبَلٍ شَاهِقٍ، مُلْتَمِسِينَ الْفُرْصَةَ، فَتَهَضَّتِ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ سَرِيعًا، فَكَشَفْتَهُمْ وَهَزَمْتَهُمْ، وَقَتَلَتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ، فَانْقَشَعُوا^(١٧) مُذْبِرِينَ لَا ثَنِينَ لَا يُلَوُّونَ وَلَا يَعْرُجُونَ، وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةِ الْقَهْرِ وَسُورَةِ^(١٨) النَّصْرِ».

وهذا الأسلوب الأدبي الخافق بالحَيوية البارِع في تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان في المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوي وأدبي لا ينضب،

-
- | | |
|---|--|
| (١) يتوَقَّلون إِلَيْهِمْ: يَأْتُونَهُمْ مِنَ الْأَعَالِ. | (١٠) اضْطَلَمَتْهُ: اسْتَأْصَلَتْهُ. |
| (٢) يَسْأَرُونَ: يَتَسَلَّقُونَ. | (١١) يَجْمَعُهُمْ بِكسر الباء: مَجْمَعُهُمْ. |
| (٣) الْمَحَلَّةُ: الْمَوْضِعُ. | (١٢) صَفْصَفًا: لَا نَبَاتَ فِيهِ. |
| (٤) الْأَرْبَابُ جَمْعُ رِبْضٍ: مَا حَوْلَ الْحِصْنِ أَوْ الْمَدِينَةِ. | (١٣) فَجَّ: طَرِيقٌ. |
| (٥) سُرَوَاتُ الْبِلَادِ: أَوْسَاطُهَا وَأَعَالِيهَا. | (١٤) تَظَاهَرَ: تَجَمَّعَ. |
| (٦) عَقْرُ دَارِهِمْ: وَسْطُهَا. | (١٥) السَّاقَةُ: مُؤَخَّرَةُ الْمِيشِ. |
| (٧) الْمَقَانِبُ جَمْعُ مَقْنَبٍ: جَمَاعَةُ الْفَرَسَانِ. | (١٦) مُتَسَنِّمِينَ: مُتَحَلِّينَ وَمُخْتَفِئِينَ. |
| (٨) شَكَّ الْعَسْكَرَ: حَمَلَهُ لِلْسَّلَاحِ. | (١٧) انْقَشَعُوا: انْتَشَبُوا وَتَفَرَّقُوا. |
| (٩) أَجْبَلٌ: جَمْعُ جَبَلٍ. | (١٨) سُورَةُ هُنَا: مَجْدٌ. |

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التي يرصفها في يسر متلاحقة بجزالتها وورصاتها ونصاعتها وأى نصاعة؟ لكننا كانت الألفاظ مخبئة في أكامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حيان، فتفتحت له أكامها وانقادت إليه مهينة له هذه الروعة في اختيارها ونسج تعبيراتها مع الروق الذي يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشيء من تزاويق المحسنات البديعية التي أخذ يصطنعها بعض كتاب عصره، ولا شيء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله في ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط في السرد التاريخي ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدي المعاني بدقة، مع إحكام التصوير النفسي والاجتماعي لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والحواري. ودانها يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّلَ عليها من معائب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتم ملامح الشخصية أو تخفف عن القارئ جفاف التاريخ على نحو ما يلقانا في الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه في مطلعته عن خطبته مرجان أم ولي عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرّة وأوقعتها في شباك سُخْطه بدنانها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهى قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدِهِنَّ وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفي الحق أن كتابات ابن حيان في المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن علي^(١) بن بسام التغلبي الشنتريني من شَنَرَيْن في أقصى الغرب على نهر تاجه بالقرب من مصبه في المحيط الأطلسي عند أشبونة، وُلِدَ بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شيء من اليسار، وعُني بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه في صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء وَمَنْ يحيطون بالموكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

وفي أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و ٧٨٧/٣ و ٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعي (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة في ثمانية أجزاء.

(١) انظر في ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه الغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجعه في محاورته مع ابن عهدين ١٤٤/١ وفي لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفي عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفي ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أشبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدياء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثر نصارى الشمال من الإغارة على بلده، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر في مقدمته للذخيرة - مروّع السُرب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، مما اضطره إلى التقلب في البلاد. ولم ينتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد في كتابه الرايات إنه اتخذها موطناً له، ويذكر ابن بسام إنه خدم في بعض أعاليها السلطانية، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظهر فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاماً. ويشيد ابن بسام في مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدياء من العطاء الوفر، ولم يسمه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف في حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدم إلى حضرته الذخيرة مطرّزاً لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استغنى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفياً بما كان يفدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحفظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك في أن سير بن أبى بكر أعطاه في نسخته مبلغاً ضخماً من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس في ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتّابها ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصاحبها من مؤسسة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانِب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانِب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتباً أو شاعراً أو أميراً أو وزيراً لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعتمد إلى التفصيل. وذكر الدقائق مستعينا بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان في كتابه المتن وبقدرة تحليلية.

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافاً بيناً عن الثعالبي في يتيمته والعماد الأصهباني في خريدته، إذ لا يرصف حشوداً من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاماً، على الرغم من أنه يعتمد في كتابه على السجع مثلها، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها في ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثلاً، هو ترجمته للشاعر أبي عبد الله بن الحداد الذي مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة^(١):

«كان أبو عبد الله هذا شمسٌ ظهيرة، وبحرٌ خَبرٍ وسيرة، وديوانٌ تعاليمٌ مشهورة، وضَحٌ في طريق المعارف وضوح الصُّبح المتهلل، وضربٌ فيها بقدح ابن مقبل^(٢) إلى جلالَةِ مَقْطَعٍ، وأصالَةِ مَنزَعٍ، ترى العلم يَنُمُّ على أشعاره، ويتبين في منازعه وآثاره، وله في العروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخليلية، وردُّ فيه على السُّرْقُطِيِّ المنبوز بالحمار^(٣)، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأَشْطَار. وأصل أبي عبد الله من وادي آش إلا أنه استوطن المَريَّة أكثرَ عمره، وفي بني صُمداحٍ معظمُ شعره، ومع ذلك طُولِبَ عندهم هنالك، ولحقَ بشعر بني هود، وله فيهم أيضاً غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَريَّة من قطعة فلسفية:

لَزِمْتُ قَناعَتِي وقَدِمْتُ عَنْهُمْ فَلَسْتُ أَرَى الوَزيزَ ولا الأَسيرَا
وَكُنْتُ سَميرَ أَشعارِي سَفاهَا فَصَدْتُ لِفَلَسْفِيائِي سَميرَا

وكان قد مُنيَ في صباه بصبيبة نصرانية ذهبَ بلبه كُلُّ مذهب، وركبَ إليها أصعبَ مَرَكِب، فصرف نحوها وَجَهَ رِضا، وحكَّمها في رأيهِ وهَواه، وكان يسمِّيها نُويرَةَ كما فَعَلَ الشعراءُ الظرفاء قديماً في الكناية عن مَنْ أَحَبَّوه، وتغيَّر اسمُ مَنْ عَلاقَه. وقد كتبت في هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلَح، ورائق أوصافه ومِزَجِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملة الاحسان وتفصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائماً لا يبهيم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحاً تاماً على نحو ما نرى الآن في السجع

(٣) هو سعيد بن فتحون وانظره في الجفوة ٢١٦

والذيل والنكلة ٤٠/٤.

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام المهر.

الذى قدّم به ابنُ الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلّاه تاماً، فهو عربي الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتنم عن ذلك أشعاره، وله في علم العروض كتاب ردُّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضح هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهملة وقد ألمنا بذلك في ترجمة ابن الحداد. ويذكر أن مسقط رأسه مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صامح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأميرها المعتصم وسيذكر فيها بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولّى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيها بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بعدُ بها منّوا»، وأكرمه المعتصم وأجزل قراءه «وظل بالمرية إلى أن توفى بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا في الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنْويرةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقي جميلة، وكان أهلها سموها باسم عربي، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه في المعتصم بن صامح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبي في جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلى لنا قدرته النقدية إذ يرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعري، ويقول إن النابغة الذبياني سبق المعري إلى معناه وإن عبد الجليل بن وهبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبي وَجْزةَ السُّعْدَى الأُمَوِي بيتا يتعلق بالمعنى. وينشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمنتبى ويذكر أن المنتبى ألم في بيتيه بيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق في بيتيه بيتين للمعري. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية في الذخيرة مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد في مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين في الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء في سيرته وحبه في مطالع شبابه لنويرة أو في ثقافته أو في نثره أو في شعره وطرائفه وبدائعه في مديح المعتصم والمقتلر بن هود.

ويقول ابن بسام في القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطنبى (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مليح التعريض، وكأنه أراد به منحى أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى ديني إذ نراه في القسم الثاني بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفي المتأثر بمنزع المنتبى وأبي العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغي. وبحق حمل في القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشهاخ (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التي يجيها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كَيْسًا يَحُلُّ عُقْدَهُ، وَيَجْعَلُ شَاعِرَ تَانِ اللَّيْلَوَى بَرَّصًا وَيَجْعَلُ شَاعِرَ ثَالِثٍ لِلْمَهَابَةِ فَأَسَا. وكان له ذوق أدبي مصفى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يوج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولَمَعُ البديع الرائعة بل إنه يوج بفرائد لا تخصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يهلفون في الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملاً أدبياً أبداً فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره في مقدمة الكتاب من نفوق الأندلس في الأدب وأنها منه في الأفق الأعلى.

وفي الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسي بروائعه الباهرة شعراً ونثراً محجوباً عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام في بعض الصحف أنه ابتدأ تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة في قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر في بعض فصولها. إذ نراه في ترجمته للكاتب ابن أبي الخصال يذكر أنه لم يجد لديه في سنة ٥٠٣ شيئاً من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهوداً مفضية في سنين متطاولة، وهي جهود تنوء بها العصبه أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بُلْقَيْن

هو عبد الله^(١) بن بُلْقَيْن بن حَبُوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي القيرواني آخر أمراء بني زيري لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بفرنطة والبيرة زاوى بن زيري في زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بُلْقَيْن وهو في الثامنة من عمره، وحاز حظاً من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة في تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغهاراً غير مجربين مثل بساجة الصنهاجي، ويقول ابن الصيرفي المؤرخ إنه كان جباناً هيأة مغمد السيف، فكان طبيعياً أن ترتعد فرائضه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذاري. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف في القاهرة.

(١) انظر في عبد الله بن بُلْقَيْن المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروكسفال) وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبعهما أن يهمل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقته ألفونس في الزلافة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا ينز. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المناقشات فيما بينهم ومدّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كل يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرها يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيتون وخشي على الأندلس من الضياع، فعبّر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بلقين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفادس ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطعمه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلاصه أن يلقي ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقبه مترجلا مرحبا سائلا العفو، فأمنه على نفسه وأهله وطبيب خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه في الطريق ويتكفلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغاث، وأسفحه - كما يقول ابن الخطيب - في رغبانه، فعاش معيشة كريمة، ورزق ولدين وبنتا، وترك لهم - حين توفي - مالا جبا.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغاث كتابا باسم «البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروغنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكى مَقْدَم بني زيري الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوى بن زيري لإمارتهم في غرناطة وتدهير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودي ابن النخيلة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النخيلة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتزورها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلافة معه مجاهدا بجاله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه في اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعدادا لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنويا، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث في إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصل الحديث في عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للم شعثها ويصور مثول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسي والاجتماعي والأخلاقي في الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة في حصر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسي والحربي فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن في العصر الأموي، بل أصبح حكام الأندلس وأمرأؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط في حصره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس في الزلافة وردّه إلى وكره خاسئا مدحورا. ولا تصور المذكرات الانحلال الذي عمّ الأندلس فعسب، بل تصور أيضا غرناطة وجميع أحوالها في عهد بنى زيرى وخاصة في عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته في التواطؤ المزمى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبنا يحاول تبرير فساد سياسته التي أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عشت بها يد بروقتسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتلاّت بتصحيفات لا تكاد في أحوال كثيرة توجد بينها مسافات في السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقرب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والقلبان، يقول^(١):

«أما الجند من البربر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين في الزيادة على أيديهم

(١) المذكرات ص ٦٥ وصححنا النصّ في غير موضع.

للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بـ«جند»^(١) وقدموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، بعدهم بأن يبقوهم في أمكانهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نيّة أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نُحتمل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع، كما في غيرها. وأما الرعية فبيع بسخ، ذلك ما كانت تبقى طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها غيرُ الزكاة والعُشر. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة، حتى الخدم من النساء والخصيان كل طامع في إقبال الدنيا عليه والخروج عن يُقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصي منهم وليبب كانا زعيمى المداخله ورأسا الفتك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا نالد»^(٢) «فعلى أى شىء نصير»^(٣) إلى القتال؟ وما عسى نطمع إن نصير إليه؟ هل تحصل لنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة البغال، من سبق^(٤) استمتع بنا وكنا عنده من جملة الفئىء، نُرزق كسائر الكسب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدم لأنفسنا، ووردت عليهم كتبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويّة والمناقبيل والمراتب العالية، يمدّهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم^(٥) له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيمه وما كان من إنفاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يملنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقوهم في أمكانهم وزائدهم في رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يشغل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكفيا بزكاة العين وعشر الزرع، وانفض عن عبد الله سريما العبيد والصقالبة أملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين في إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خصيين كبيرين، قالوا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلوا لها وأضرابها الكتب إلى ابن تاشفين، وردّ عليهم بأنه

(٣) في الأصل: نصير.

(٤) يريد: انتصر.

(٥) في الأصل: وإسلامهم لنا.

(١) في الأصل: بجند. جند: نكران للمحق.

(٢) في الأصل: نلد، والتالد: القدم والموروث من المال.

سيمطيهم ما أملوه من مناقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تمضى على هذه الشاكلة في لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيقات، ويقول بحققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها بحقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسي.

قصة^(١) حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا في الفصل الثاني تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو في الذروة من الفكر الأندلسي، عاش في القرن السادس الهجري (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث في قصة أدبية فلسفية قيّمة له هي قصة حى بن يقظان، وهي قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشرعية أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته في جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف في تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تجمّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلئ بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بهجة أنه لا يجد لها زوجا كفتا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكتف سرها، فوضعت في تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به في تلك الجزيرة وسمعت صياحه طيبة فقادت وليدها، فعمطت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجا إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وسر سؤته ومعرفته الصيد، والنار واستخدامها في إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان في الحركة وارتفاع الهواء

وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر في قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجمتها بروكلمان وبالنشأ ص ٣٤٨ و ٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفي دمشق وآخر طبعتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعهما نفس القصة لابن سينا وللسهروردي وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل في ملكوت السموات والأرض، وهده تفكيره إلى أن كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحس حاجته إلى مشاهدته وما ينهض أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبّد لذلك في غار الأيام ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق في تأملاته منفصلا عن العالم الخارجي وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس في الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شيء واحد أو كأنما ذاته هي ذات الحق. وكان يفتيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهي البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحس أنها عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغناء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد في الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقبل عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يتحدث أهلها عن العالم الإلهى الذى يتحد فيه الإنسان بره ولا يرى في ذاته ولا في الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد في الحديث ازدادوا نبواً ونفارا، إذ تهاكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد ألهتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التفوق الروحى لا تمكن، فحسبهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهى والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لنعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. وتحتفظ من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا في مشاهدته، واستطاع بهجاده أن تغيب عنه جميع

النوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك في وضوح أن هذا الشعور شوب يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد في الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل واضمحَل وصار هباءً منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود، واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشر فإن كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يندر وصفها فكيف بأمر لا سبيل إلى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره.. ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير في الوجود إلا الواحد الحي القيوم وشاهد ما شاهد، ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسُّكر فخطر بهاله أنه لا ذات له يفاير بها ذات الحق تعالى وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المفايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذات الحق، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراها يظهر فيها، فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مفيبه لما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكرر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل في هذه القطعة من قصته يصور تصويراً رائعاً شعور المتصوفة بانمحاءهم في ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها في أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه مع نصها العربي سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكل إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة ١٧٨٢ وترجمها بونس بوميس إلى الأسبانية سنة ١٩٠٠ وترجمها بروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ وترجمها بالنشيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة ١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسباني المعاصر غرسيه غوميس في بحث نشره

عن القصة بمبريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوربال في مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي قصة بعنوان قصة الصنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين في الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقطان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت في منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجِرَتْ عن الناس في مخبئ لتنجو من طالع سيء، واستسلمت في مخبئها لابن الوزير وحملت منه ووضعت ولدها في صندوق من الخشب وألقت به في اليم، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلاً من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لها بأربعة قرون أوتريد زعم زعماً غريباً هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى بن يقطان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته في قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه في ترجمته المجددة لقصة حى بن يقطان سنة ١٩٣٦ قائلاً بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقطان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف في المحيط الإسباني إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية في القرن السابع عشر وكان ينبغي أن ينبه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة في القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى النطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقطان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة في القرن الثالث عشر الميلادي أو قبله أو لعلها ترجمت قديماً إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضاً كان جديراً بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتي ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل في مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقطان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أفسال وسلامان وحى بن يقطان عند ابن سينا هي نفس شخصيات قصة حى بن يقطان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل في مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا في نزعة الصوفية التي بثها في كتابه أسرار الحكمة المشرقية التي تقابل الحكمة اليونانية. وأيضاً فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا في مقدمة القصة - في كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه - كما مر بنا في الفصل الثانى - عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلاً بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل في مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالنشأ وغيره، وأيضاً لا علاقة بين يقظان في القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حتى ابن الله كما ظن بالنشأ ظناً مخبطاً، ومماذا الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعابير القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حرياً بفرسية وغيره أن يردوا عناصر الإطار في القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب في إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يشمر نساء. أما تصويره بأن طيناً تخمر وتخلق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والفيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر ففضلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفْئاً، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سرا وحملت منه ووضعت طفلاً، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت في تابوت أحكمت زِمَهُ (إغلاقه) وخرجت به في أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به في الهم فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما رددته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسية ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما، فقال لجمهر أزواجه لك ليحل لك النظر إليها ولا تقرها، فقال: نعم. فتزوجها منه، وكانا يحضران معاً، وكان الرشيد يتركها فحملت العباسية من جعفر، وخافت الرشيد فسبى ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى بيراً من أخت الملك وميلاد ابن العباسية سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منها تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل في وضع أم حى له في تابوت والقذف به في يَم نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء في القرآن الكريم عن أم موسى حين وضعت وخافت عليه من فرعون ومَلَنَّهُ أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء في سورة طه - ﴿أَنِ اقْذِيفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ونفس الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها في تابوت ثم قذفت به في الهم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى في قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربي، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيارين المسمين في عصره بالساسانيين المحترفين للكُذبة أو الشحادة الأدبية متخذاً له أدبياً شحاذاً، أو متسولاً كبيراً، هو أبو الفتح الإسكندري، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور جيل أبي الفتح في استغلاص الأموال والمطاعم من أيدي الناس بفصاحته وخطابه منطقة في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار. وطارَت شهرة مقامات البديع في العالم العربي ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهي المقامة الإبلسية، رسالته التوايح والزوايح التي بناها على لقائه في وادي الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرُّ بنا - يحاكيه في وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه في وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكذبة والشحادة الأدبية، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبي حفص^(١) عمر بن الشهيد الذي لقيه الحميدى في المربة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صراح (٤٣٩ - ٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة في عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفي أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصباح الديك في السحر، وفي فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صاحبه «فهبش البدوى وبش، وكَنَس منزله ورش، وصير عياله

الجنوة للحميدى ص ٢٨٣ والبقية ص ٣٩٤
والغرب ٢/٢٠٩.

(١) انظر في أبي حفص بن الشهيد ومقامته
الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع في ترجمته

إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ويتحدث عن أثاث بيته حديثاً فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانَه ليمسكوا بديكِ هَرَم، ويستغيث بهم الديك ويتشفع - في حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوه أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويرقون له. ويقدم إليهم البدوى بعض أطافه معتذراً ويقبلون عُذْرَه ويَحْلُون سَحْراً عنه، وينزل مع صحبه قرية مسيحية سمعوا فيها صَوْت الناقوس والموابدِير راعهم ما فيه من شمس وأقمار ولا سيوف إلا من مُقَل ولا تَرْوِس إلا من خَجَل، فنزلوا فيه وشربوا من الدنان ما أسكرهم ثم شَدُّوا الجياد عنه رَكْضاً فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيراً من طير البرك، وينقش على مرمرية بيضاء مقطوعة شعريّة يصور فيها البرك ومياهها وما صادوه من طيرها. ويستأنفون السِيرَ ليلاً، ويلقاهم شابٌ فارس ممتطيًا جوادًا ومُتَعَلِّدًا حُساماً، آبَى من أهل حصن لنصارى مَرَّوا به، معلنا إليهم أنه عَبْدُ الصَّليبِ وقرع الناقوس إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبى الوليد^(١) محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكُتَّابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولاً وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابَه حاملاً إليه كتاباً من أمير، فلبَّاه، حتى إذا مثل بين يديه أسفحه مدحة فيه ثم تلاها بنثر مُفْرَط في الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر^(٢)، والبحر الزاخر، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطرُ من العنبر، فى كل منبر، وأفوح من المسك الذكى، فى كل ندى» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحاً، وأزدهى مَرَحاً، وقام إليه فقيل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مدح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبى محمد^(٣) بن مالك القرطبي، وقد ساق في

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢
وراجع المجنونة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

(٢) الحاد: المقيم بهرينه.
(٣) انظر فى أبى محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُباح أمير المِرية ويُفرق في مديحه إغراقاً شديداً، ونراه يُطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب ووصف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهراً في هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جُدْبُ وربعٍ مُعْرِق، ليلٍ ونهارٍ مشرق، فيه الصَّابُ والسَّلُّ والسَّهْلُ والجَبَلُ، ثالثُ القمرين وسراج الخافقين^(١)، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عوز أهله وضيّق ذات يده، وأنه لولا ما يُقيّده من أفرخٍ كزُغبِ القَطَا لتقدم في صفوف جُنده تارة محارباً وتارة خطيباً محمّساً أو مُهادِئاً. وبذلك تنتهي المقامة، وهى أشبه بقصيدة مدح طويلة دُبجها في المعتصم بن صُباح

وعلى هذا النحو نقتقد المقامة التي تقوم على الكُذبة والشحاذة الأدبية في عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته في أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدوى شهرتها في العالم العربي ويؤمّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمه من الأندلس في فواتح القرن السادس الهجري أبو^(٢) القاسم عيسى بن جَهْور القرطبي وأحمد بن محمد بن خلف الشاطبي وأبو الحجاج يوسف القضاعي البُليسيّ والحسن بن علي البَطْلَيْوَيْسيّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرّد لشرحها، منهم عبد^(٣) الله بن ميمون الميُردى القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس^(٤) أحمد الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبع بمصر مراراً في جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريري تقوم - مثل مقامات بديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشحاذة الأدبية، وقد بلغ الحريري بفنها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريري وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار في القرن الخامس الهجري القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريري في مقاماته الساسانية القائمة على

(١) الحافظان: المشرق والمغرب، والتقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر في ترجمة أبي القاسم بن جهور وزملائه النكتة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة الميُردى في المغرب ١/١١١.

(٤) راجع في الشريشي النكتة ١١١ والنفع

١١٥/٢ والنهل الصافي ١/٣٥٤.

الكُذْبِيَّة والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدُّوْجِيَّة لمحمد^(١) بن عياض اللُّبْلِيّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها، والمقامة العِياضِيَّة لمحارب^(٢) بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعل^(٣) بن جامع الأوسى، والمقامة النُّخْلِيَّة لأبى الحسن النباهى المالمقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكُرْمَة. ولللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيها ينبى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهد المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعولوا فى كسبهم إلا على مغائهم كالجوارح لا تَطْمُ إلا من صيدها وما يقع فى مخاليلها، ويلم بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق وذخض الباطل، وكل ذلك على لسان شيخ فارسى ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعارة البلدان والتمسك بالشرعية. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. ولللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزُّجَّال، وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقائه فيه على السلطان مع نفى الوباء، ويقول إنه ينبى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بعدئذ مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبداقه بن أبى الحفص الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة^(٤) ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ٣٤٤/١

الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

والتكملة ص ٢٣٣.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الحفص تاريخ الأدب

الأندلسى: عصر الطوائف والمراطين للدكتور

إحسان عباس ص ٣١٦.

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم

يُنظر في الريف والناس متجمعون حول أبي زيد السروجي، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدرهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحته أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرءى، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركا له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة في وصف الخمر والشاربين ومن في الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئاً، وتنتهي المقامة بمقطوعة شعرية.

وتوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هي كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هي تستلهم الحيرى في مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التي استلهمته مقامة العيد لعبد^(١) اقة بن إبراهيم بن عبد اقة الأزدي المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بليش، وكانت مجاورة لمالقة، وهي مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكى قصة ساساني من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيتا من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتى بشيء. وأخذت تهون من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صفار الفغم من الذناب عذا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويحترق الأسواق، إلى أن مر بقصاب (جزأ) وبين يديه عنز، وسأله أن يبعه منه ويهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدكان موثق يكتب لها عقد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شرد، فأخذ ينادى في الأسواق والأزقة من رأى عنزاً، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقدر. وطلبه المحتسب (شرطى السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يشف عنه إلا بعد أن أدى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجه به مع الحمال إلى داره ولم يبق في الرقاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسأله يكمل اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خل ولا زيت، ومتى تفرج زوجتك، والعنز أضحيتك، واقلة سعدتها، واخلف وعديها، وما حبستك عن الكباش السنان» وتأخذ في وصف الكباش السمين الذي كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

(١) راجع في ترجمة عبد اقة الأزدي ومقامته وما بعدها.

الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٤٢١/٣

المعرفة، فنقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهى تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطى، تصوّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأزّرت به، وتصور القصاب في زيه وقد شدّ في وسطه مئزرة وقصر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصور جشمه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأئماء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهى مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسرقسطى

هو أبو الطاهر^(١) محمد بن يوسف التميمى السرقسطى الإشترونى نسبة إلى إشتروكونه: حصن من أعمال تطيلة في النفر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ النابيين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطلوسى بيلنسية وعن أبي بكر بن العربى بإشبيلية وعن أبى على الصدى بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبى محمد الرُّكلى بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطى وذكرت أنه توفى بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربى من أعمال أدبية.

الطوائف المراهطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققة الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

(١) انظر في أبى الطاهر السرقسطى الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأثير رقم ٥٥٤ ومجمعه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء

وقد وضع السرقسطى مقاماته في محاذاة مقامات الحريري وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحادة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب في محاذاة بطل مقامات الحريري: أبي زيد السروجي واتخذ له راوية هو السائب بن قنم في محاذاة راوية مقامات الحريري: الحارث بن همام. وذكر مع السائب في تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريري وبنائها مثله على عَرَضِ جَيْلٍ شحاذ أدبي كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريري في أنه لا يعطى لكل مقامة لقباً خاصاً بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هي التي ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيراً ما يظهر في ثياب خَلْفَةٍ وأسفال، منكراً لشخصه على طريقة الحريري. وهو دائماً واعظ يزهد الناس في الحياة ويحثهم على عَوْنِهِ لما يرون من سوء حاله، ويُلْقُونَ إليه بالدراهم والدنانير، أو يبذلون له المأكَل والطعام، متخذاً دائماً حيلة أو موقفاً به يستدرّ عطفهم. وكثيراً ما يشترك معه في الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنته حبيب أو ابنته التي يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حُرّة، فيظفر بالثمن، وتردّ إليها حرينتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى فيه بأبي العلاء المعرى فالتزم في نسجه مالا يلزم من تعدد قوافي السجع أو نهاياته مشترطاً على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصويب المرات إلى سجعاته في بعض مقاماته، إذ نراه في المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سهاها الثلاثة مفتتحاً لها بقوله: «أقمت في غَزَنَةٍ^(١)، فترشفت من مائها أى مزنة، وتوطأت من أكنافها كل سهلة وحزنة» وسمى تاليتها المرصعة لأنه لم يكتف في سجعاتها بالاتفاق في حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله في مطلعها: «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العطن^(٢) المشبوب، حيث مآرب الشباب وملعب الأحباب» وسمى الثامنة عشرة المدبجة، لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهاياتها وتتبادل، على شاكلة قوله في وعظها: «وسايك^(٣) الساء ورافعها، وماسك الدماء ودافعها، إنك في حَبَائِلِ الرُّزَابَا لمضطرب، ومن مناهل النايَا لمُتَقَرَّب». واشترط على نفسه في المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهزمة ولذلك سهاها

(٣) سامك: رافع.

(١) غزنة: مدينة في أفغانستان.

(٢) العطن: مبرك الإبل.

المهزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سهاها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجهم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع في السادسة والثلاثين فاختم سجعاتها بالتون وسهاها التونية. ونحس غير قليل من التكلف في هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن في المقامات الأربع التالية وأولها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن في الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيها عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض في أولهما على لسان البطل مميزات أنه الشعراء في الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار في النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا في هذه المقامة اسمه غريب، وبينها ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوثام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه في مقامته الأخيرة - أن يقوموا على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين في العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى في وصف الخمر وحاناتها. ودائما ينتقل الشيخ أبو حبيب في مقاماته من بلد إلى بلد في العالم الإسلامى منكرا لشخصه متحولا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفى كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل فى الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل فى المغرب طنجة والقيروان، ونزل فى مصر الإسكندرية ودمياط وفى الشام فلسطين وحلب. ونزل فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشَّحْر وظَفَار وزَبِيد والبحرين واليهامة، ونزل بالعراق فى بغداد وواسط والأنبار والرُّقَّة وحرَّان. ونزل بليزان فى الأهواز وأصْهَهان والرَّيِّ ومَرْو، وتوغل فى بلاد الترك إلى الكَرْج وصول وغَزَنَة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله فى البلدان الإسلامية والضرب فى الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا فى المقامة الرابعة والأربعين وسهاها العنقاوية نسبة إلى

العَنَقَاءُ أَنتَى الرُّخِّ، وَهِيَ طَائِرَانِ خِرَافِيَانِ ضَخْمَانِ يَتَرَدَّدُ ذِكْرُهُمَا فِي أَحَادِيثِ بَحَارَةِ الْعَرَبِ عَنْ رِحَالَتِهِمْ فِي أَعْمَاقِ الْبَحَارِ وَالْمَحِيطَاتِ مِهَالِفِينَ فِي وَصْفِ ضَخَامَتِهَا وَقُوَّتِهَا الْخَارِقَةِ وَجَمَلِهَا لَمَنْ تَحَطَّمَتْ سَفِينُهُمْ إِلَى الْبَرِّ وَالْبِلَادِ الْمَأْهُولَةِ، عَلَى نَحْوِ مَا نَقَرْنَا عِنْدَ الرَّبَّانِ بُزْرَكِ بْنِ شَهْرِبَارٍ مِنْ بَحَارَةِ الْقُرْنِ الرَّابِعِ الْمَهْجَرِيِّ فِي كِتَابِهِ: «عَجَانِبُ الْهِنْدِ: بَرُّهُ وَبَحْرُهُ وَجَزَائِرُهُ» إِذْ يَقُولُ إِنَّ الرُّخَّ أَنْقَذَ سَبْعَةَ غَرَقَتْ سَفِينَتُهُمْ فِي جَزِيرَةٍ بِقَرَبِ الْهِنْدِ وَيُرْوَى عَنْ بَعْضِ الْمَلَاحِينِ أَنَّهُ رَأَى رِيْشَةً مِنْ رِيْشِهِ تَسَعُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ قَرْبَةً مِنْ قَرَبِ الْمَاءِ كَمَا يَذْكُرُ أَنَّ بَحَارَةً وَقَعَ فِي سَفِينَتِهِمْ عَيْبٌ اضْطَرَّ لَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بِهَا إِلَى جَزِيرَةٍ صَغِيرَةٍ رَأَوْهَا فِي طَرِيقِهِمْ، فَزَلُّوا بِهَا وَأَصْلَحُوا. عَيْبُ سَفِينَتِهِمْ وَعَنْهُمْ أَنَّهُمْ أَنْ يَوْقِدُوا نَارًا لِبَعْضِ أَغْرَاضِهِمْ، فَأَحْسَوْا الْجَزِيرَةَ تَتَحَرَّكُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَسْرَعُوا بِالنَّزُولِ إِلَى سَفِينَتِهِمْ، وَتَوَلَّتْهُمْ الدَّهْشَةُ، إِذْ رَأَوْا الْجَزِيرَةَ تَفْوِصُ فِي الْمَاءِ وَعَرَفُوا أَنَّهَا سُلْحَفَةٌ كَانَتْ طَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَأَحْسَتْ النَّارَ فَنَاصَتْ. وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ السُّلْحَفَةَ الضَّخْمَةَ الْخِرَافِيَّةَ وَالرَّخَّ الْخِرَافِيَّ قَبْلُهَا لِأَنَّ مِنْ يَمْقُرَ مَقَامَةِ السَّرْقُطِيِّ الْعِنَقَاوِيَّةِ لَا يَشْكُ فِي أَنَّهُ قَرَأَ كِتَابَ مُتَذَكَّرِ بْنِ شَهْرِبَارٍ، وَأَنَّهُ اسْتَمَدَّ مِنْهُ حِينَ جَعَلَ يَطْلُ مَقَامَتِهِ وَرَاوِيَتَهُ يَلْجُجَانِ فِي رَحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ، «وَيَخْرُجَانِ إِلَى جَزِيرَةٍ غَرِيْبَةٍ وَأَرْضُ أَرِيْضَةٍ»^(١)، وَلَا أَلْبَابَ وَلَا أَفْكَارَ، وَلَا عُرْفَانَ وَلَا إِنْكَارَ، إِلَى أَنَّ اسْتَهْقَظَا مِنْ تِلْكَ الضَّرَاتِ، وَصَحَّوَا مِنْ تِلْكَ السُّكَرَاتِ، فَعَمِلَا أَنَّ الْجَزِيرَةَ حَيَوَانٌ بَحْرِيٌّ أَصْحَرُ^(٢)، ثُمَّ أَبْهَرَ، وَشَمَسَ، ثُمَّ قَمَسَ^(٣) فِي الْمَاءِ وَانْفَسَ» وَالسَّرْقُطِيُّ يَشِيرُ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلْحَيَوَانِ إِلَى أَنَّهُ سُلْحَفَةٌ، فَإِنَّهَا حَيَوَانٌ بَحْرِيٌّ يَرَى إِذَا نَزَلَ إِلَى الْمَاءِ قَصْدًا لِلِاسْتِرَاحَةِ مِنْ طَوْلِ الْمَقَامِ فِي الْبَرِّ طَافًا عَلَى وَجْهِهِ. وَمَا يَلِيْتُ السَّرْقُطِيَّ أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّ يَطْلُ الْمَقَامَةَ وَرَاوِيَتَهُ «أَظْلَمَتْهَا ظِلَّةٌ ظَلِيلَةٌ وَسَجَابَةٌ بَلِيلَةٌ»، وَتَهْبِطُ السَّحَابَةُ إِلَى الْأَرْضِ وَإِذَا هِيَ الرِّخُّ قَرْنُ الْعَنَقَاءِ، وَيَطْلُ السَّرْقُطِيُّ فِي وَصْفِهِ وَكَيْفِ تَعْلُقًا بِأَطْرَافِ رِيْشِهِ يَقُولُ السَّائِبُ الرَّائِي:

«ثُمَّ لَمَّا صَدَعَ الْفَجْرَ وَوَضَحَ، وَاخْضَلَّ^(٤) النَّدَى وَنَضَحَ، سَارَ فِي الْهَوَاءِ سَيْرًا رَفِيقًا^(٥)، وَجَعَلَ السَّحَابُ يَسَايِرُنَا رَفِيقًا، تَخْفُقُ تَحْتَنَا الْبُرُوقُ، وَتَنْتَطِلِعُ إِلَيْنَا الْمَغَارِبُ وَالشَّرُوقُ، إِلَى أَنَّ فَارَقْتُنَا الْبَحَارَ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ الْإِصْحَارُ^(٦)، وَلَمَّا يَجُنُّ مِنْ لَيْلِنَا

(٤) اخْضَلَّ: ابْتَلَّ.

(٥) رَفِيقًا: لَيْلًا مُتَدَا. رَفِيقًا: تَالِيَةً: صَاحِبًا.

(٦) الْإِصْحَارُ: يَرِيدُ الْأَرْضَ.

(١) أَرِيْضَةٌ: حَسَنَةُ الْمَرَأَى.

(٢) أَصْحَرُ: يَرُزُ فِي الصَّحْرَاءِ أَوْ الْأَرْضِ.

(٣) قَمَسَ: نَفَرَ. قَمَسَ فِي الْمَاءِ: غَاصَ.

الإسحار^(١). ثم أخذ في الانصباب إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض موقنة وأزهار، فغفرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلبنا بين أرضه وسمائه.

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويرقدوه بالصَّلَات الحَفِيَّة، والهبات الحَفِيَّة وهو دائما يضمن مقاماته مواعظ خلقية ويُنهي المقامة بشعر، وقد يُكثر منه في تضاعفها. ويعود السرقسطى في المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة في جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفصى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شيء من العجائب البحرية هناك إذ شغل عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل في مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعا على شيء من الغيب، إذ جعل البطل في المقامة الحادية والأربعين يتعمش من دُبُّ براقصه ويَزمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مَدرِد في عصرنا إنما هو الدب. وفي الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التي حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرية بأن يتجرد لها شارح مثل الشريشى مواطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح في الأدب الإسباني إذ نشأ على غرارها في منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشردين والمتسولين ويقوم على الشحاذة أو الكُذبة، سُميت أفاصيحه باسم «الأفاصيص البيكارسية» وسُمى بطلها باسم «البيكارو» ودائما نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسول حرفة له يكسب بها قوته مستخدما في ذلك حيلة وألاعيب شتى تماما كالشيخ أبى زيد السروجى في مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب في مقامات السرقسطى، مع صيغ كلامه مثلها بصيغة وعظمية خلقية^(٢).

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

والإسلام فى النهضة الأوروبية ص ٨٨ وما بعدها.

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب

بلدان وشعوب في آسيا وأوروبا وخاصة في أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما يديارهم من ظواهر كونية. وأيضاً فإن تعدد مراكز الثقافة في العالم العربي وفي الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّبَ الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد في عصرنا عند شبابتنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للترؤد منه في جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التي كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة في عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء في الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى في أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد^(١) بن مسلم الداني عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُباح أمير المريّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة في أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته في رسالة طويلة سبها «طَيّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفي فوائدها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقاءه، ويذكر دعوة إقبال الدولة لإخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكيامهم وجعلوا أصابعهم في أذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعاً بديعة في وصف الطبيعة، وأخرى في وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تقيثمهم طِساس^(٢) من التبر وأباريق رُصعت بالدر. وللشراب حجر خاصة وكان الأطباء فيها مُقل الجفون مُثلت من قُرّة العيون وكان الكتوس مرأشف الحور تُمزج بعباب الثفور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيراً ما كنت أقترحُ إتيانها. وإن كانت على هَرَم، وأنتمى وقفٌ فيها ولو على قَدَم،

(١) انظر في الداني الأخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب (٢) طساس: جمع طست.

وأرعب [فى] زيارتها ولو لِمَأمًا، وأودُّ رؤيتها ولو مِنَأمًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بيتَ الرئاسة، وجعلتُ أسلك فى منازل المدينة، وأنظر فى تلك المشابهة التَّهيئة، فإذا رُسموها قائمةُ الأعلام، ونصَّبها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المروانى وانتبذتُ إلى المُنتزَه القَبْد الرَّحمانى^(١)، فإذا الثلاثُ الأثافى^(٢) والديارُ البَلاقع^(٣)، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هى قبورهم، قد صارت معاقِلهم ترابًا، ومسكنهم يَبابًا^(٤)..

ويطيل فى تصوير مجد قرطبة أيام بنى أمية ويبيكها بكاء مؤثرًا ويصور جامعها وقبابه ومقصورتها الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثمانى بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختتم الدافى رسالته بزيارته للمعتضد فى إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمهم أبو حامد^(٥) الفرناطى (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شَفَّ بالرحلة وتحوَّل فى إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحوَّل إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغَّل فى بلاد الصَّقالبة والبُلغار وعلى ضفاف نهر القُوبجا، وصعد إلى أقصى الشمال فى روسيا، وسجل مشاهداته فى كتابه «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سَها «تحفة الكبار فى أسفار البحار» ونشر سيزاردوبلر بمَريد ما شاهده فى شرقى أوروبا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الجغرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الرُّحلوقة يتَّرحلق بها الناس على الثلج فى روسيا يقول:

«الطريق هناك فى أرض لا يفارقها الثلج أبدًا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحًا (رُّحلوقة) يَنَحْتونها، طولُ كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدمُ ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله، وفيه ثقب، وشُدوا فيه سيورا

فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيق قطعة من كتابه «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى تريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنسبة ص ٣١٢.

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموى بقرطبة.

(٢) الأثافى: جمع أثفة، والثلاث الأثافى: ثلاثة أحجار توضع عليها القُفَر، وكانت القبائل تركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البَلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر فى أبى حامد ورحلته مقدمة جبريل

من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. وقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رِجْلَيْهِ بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشال، وفي يده اليمنى عصاً بطوله، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب ممشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يفُوص في ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة. وهي صورة من الترحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة الترحلق الحديث الذي تُعقّد له المسابقات سنويا في البلاد الأوربية.

ولتلقى بعد أبي حامد الفرناطي من رحالة الأندلس باين جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الفرناطي القاضي أبو البقاء^(١) البلوي خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقي فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها في ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعيّن أميرها كاتبا في ديوانه زمنا يسيرا، ثم عاد إلى بلده فعين بها قاضيا. ويقول لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة إنه حجّ وقبّه عن العلماء، ورحلته في سفر وصف فيه البلاد ومَن لقي بفصول، جلب أكثرها من كتابات العاد الأصهباني وصفوان بن إدريس. ولا بن جابر الوادي أشى الذي مرت ترجمته في الفصل الماضي رحلة دون فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن^(٢) الحاج النميري المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عفى أبوه بتريته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عيّن كاتبا في ديوان أبي الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفي سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل في عودته بمقنطية سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المريني حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

ص ١٤ والنبل الصافي لابن تفرى بردي ٦٦/١
وجنوة الاقتباس لابن القاضي ص ٨٧ وتبر
فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفع الطيب
١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور
محمد بن شقرون ونشرها في الرباط.

(١) انظر في أبي البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١
ونبل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة
الكانة ص ١٣٤.

(٢) راجع في ابن الحاج النميري الإحاطة
٣٤٢/١ والكتيبة الكانة ص ٢٦٠ ونبل الابتهاج

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأجبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة ففُيِّن قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة «فيض الثُّباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهي في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريبى من فاس إلى سلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بن مرين لقسنطينة وعُتَابَة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي ألزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعة مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذي مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته^(١) مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سهاها: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبي الحجاج فيها تلقاء الشال الشرقي من العاصمة غرناطة إلى وادي آش فالبحيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بقرى المرية على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحمين الرجال ويحميهن الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سهاها «معيان الاختيار في ذكر الأحوال والديار» ويسميتها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وُصِف فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

(١) انظر في هذه الرحلة وتالياتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادي.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور في تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافي وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعاً مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلّة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سهاها «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» وكانت في أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقي الجزء^(١) الثاني وهو يفتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هنتانة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبي الحسن المربني ويفيض في الحديث عن أحوال قبيلة هنتانة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحييه بقصيدة ويلم براكش وغيرها من المدن في طريقه إلى مدينة سلا على المحيط، ويذكر كل ما في تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بني الأحمر في غرناطة بالقليصادي علي بن محمد القرشي البسطي (٨١٥ - ٨٩١ هـ) الذي مر ذكره في الفصل الثاني بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سهاها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - في وصف البلدان التي نزلها ذهاباً وإياباً في رحلته إلى الحجاز، بل يلم بها في إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة في تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخاً. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهي كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادي بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد^(١) بن أحمد بن جبير الكتاني البلسي المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببليسية سنة ٥٣٩ وُقيل سنة ٥٤٠ وسمع في نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكْبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل في الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرايه وعيَّنا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشرَب سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كتوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنائير سبع مرات وصَبَّ ذلك في حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بثلث الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزود به للحج، وفصل من غرناطة في شوال، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو في كل تلك البلدان يُمكث بعض الوقت ويدون ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وخرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألّت السفينة بصقلية فنزل فيها ونحوَّ في بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها في قرطاجنة بساحل الأندلس في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده في البلدان التي زارها ونزل بها في صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وكأن الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وآثر من نشرها في العصر الحديث

ص ٢٩٩ وبالشيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية في ابن جبير وكتابتها: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠-٩٤. والرحلة طبعت مرارا في لبنان والقاهرة.

(١) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٣٨٤/٢ والإحاطة ٢٣٠/٢ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتهما في لندن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حج في كل منها، والسبب في أولها أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلم الإسلام يرغف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسحاق الحديث النبوى وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبي جعفر الوقشى وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله في طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما في الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سباه: نتبهة وجد الموانع في تأبين القرن الصالح». ولكي يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته في نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرقت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشر في أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما في تصويره للإسكندرية حين نزها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذى يدرس عليه والراتب الذى يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبأ الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام في لوحة باهرة. ويطيل في وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرة كاملة الكسوة للرجال وما اتخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عيذاب على البحر الأحمر ويقول في بحرها جزائر بها مقاصد للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام في لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يخفى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترسيع والتجزيع وقباب بديعة وسوار وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا في المسجد ولا في ظاهره وسطحه إلا تقده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التى رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبه أبى بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلىة مما يلى الشرق.. وشكلها شكل عجب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعَتِها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبرا، وهى مؤزرة بالرخام البديع النعت، الرائع النعت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر قد علاه تَضْمِيحُ المسك والطيب، والذى يعلوه من الجدار شبايبك عود متصلة بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد. وإلى حيز إزار الرخام تنتهى الأستار، وهى لأزوردية اللون.. وفى الصفحة القبلىة أمام وجه النبى ﷺ مسمارُ فضة، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبى بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو عشرين قنديلا معلقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنان وأربعون خطوة، وهو مرخم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجة ثمانية، وله باب على هيئة الشباك مقل، يفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف والمنبر ممشى يعود الأبنوس، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طبّق عليه بلوح من الأبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيدخل الناس أيديهم إليه ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة، وبيارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ وفى وصف إحدى مواضعه يقول:

«أتى فيها برقأتى من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن الثائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفرائش على المصباح، فشهدنا هولا يلا

النفوس إنابةً وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم تركب ثبج البحر، ونعتسف مغازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراححة، والوجهة المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالها، ويفادها إلى الموصل فحلب، وتروعه مبانيها وقلعته وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها في الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعه بساكنيها المدقة بها إحدائق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء يحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسميتها (تقابلها) ونحاذيها». ويطل الوصف لمسجدها الأموي العظيم وما به من عمد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفسيفساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض في الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبي في الشام، كما أشاد بها في الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله في ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون في الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أى اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفتنتين والتجار في عافية. ويبحر من ميناء عكا مع التجار النصارى في إحدى سفنهم المعدة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسينة في صقلية، فنزل بها وتجوّل في بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة في مطالع القرن الثالث الهجرى وعربوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويرعون علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلية حينئذ أن تصبح مجازاً لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا وخاصة في عهد روجر الثانى وابنه غليوم اللذين طبعاً حياة الدولة في أيامها بالطوابع العربية الإسلامية، ويصور ذلك ابن جبير في حديثه - برحلته - عن غليوم الذى زار الجزيرة في عهده، فيقول عنه:

«هو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إلههم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (في أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حقّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه». وأما جواربه وحظاياه في قصره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدثنا به خديجه: يحيى بن فتيان الطراز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مُسلمة، تغذيها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكلم في ذلك كله، وهُنَّ في فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتيانه الذين هم عُيُون دولته وأهل عيالته في ملكه فهم مُسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً (طلباً للأجر) ويتصنقُ تقرباً إلى الله وتزلفاً، ولهم في فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيها كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين في أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقل ابن جبير في الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى في «الرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زِيِّ المسلمات ويتعجبُن مثلهن منتقباتٍ بالنقَب الملونة كما يتزيّن على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكس هناك وسيُصبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثراً بعد عين، وصدق حَدْسُهُ. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسي ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبي المرسل البليغ فحسب، بل أيضاً بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - في الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئاً يميزها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون في القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرُّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م واليهود التي بذلها موسى بن نُصير وطارق بن زياد في فتحها حتى خليج بسكاي وجمال البرنيه التي تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضي أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبها إلى شمالها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. وُسِّدَعى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسعوا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذاً من كلمة «قندالس» سكانها في الجنوب. وتدخل الأندلس في عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسناً في غزو غالة (فرنسا) وفرضون على إقليم سبتانية بجنوبيها ولاء للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفي اتجاه بواتيه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتذب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفُتِح العرب شطراً كبيراً من أوربا الغربية.

ويقيض لانتشال الأندلس من المصبيات المحتلثة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحر الرقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه في دمشق التي قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون في تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة في التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذي أنشأ للدولة أسطولا يحمي موانئها على المحيط الأطلسي

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحدة. وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة في المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذي فرض سلطانه على المسيحيين في الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهي بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء في الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتاب، وتنفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خانمين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع في قوس الصبر لا للفقه ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، فعمير إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس في الزلاقة سحقا ذريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيف، وتعود الأندلس في بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث في القرن السابع الهجري، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن في موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة في حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابي الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم في المجتمع الأندلسي من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا في الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبدية بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية في عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلى - أكبر الموسيقيين في عهد الرشيد - على قرطبة، ومكن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية في الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الفئانية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية في المأكّل وملبس الجنسين وتزيينها في الهيئة والمظهر، وأيضا في اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناءؤه يعنون ببناء القصور والتأنيق في أثاثها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هي مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام في وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرم لبنى ذى النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بقرنطة إلى اليوم يشهد بما بلغت الحضارة المادية في المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة في هذا المجتمع الأندلسي الحضارى مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها في المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصاحبات الصالونات بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير في الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألق فيها أساء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجرى وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربى وابن سبعين والششتري.

ولم يكن لإيبيريا دور علمى في العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعمل عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة في مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجرى، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع في الرياضة أساء مسلمة المجريطى والزرقالى والبطرّوجى والرقوطى، وتلمع في الطب أساء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفي الصيدلة أساء الغافقى وابن العوام وابن البيطار

وفي الفلسفة أسماه ابن هاجة وابن طفيل وابن رشد وفي الجغرافية أسماه الرازي وأبي عبيد البكري وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدي كتابا في طبقاتهم حتى زمنه في القرن الرابع الهجري، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوى ولفوى، ومن أشهرهم الرباحي راوى كتاب سيبويه عن أبي جعفر النحاس المصري ومنذر بن سعيد راوى معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصري، والزبيدي نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلي وابن سيده والشتنمرى وابن الطراوة وعيسى الجزولى وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكثافي المتطبب وحبيب والكلاعى والمواعينى وابن رشد وأبي البقاء الرندى، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجنى.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصرى قراءته وتشيع في الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعى والظلمنكى ومكى بن أبى طالب وأبو عمرو الدانى والشاطبى وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أسماء بقى بن مخلد وابن أبى زمنين وابن عطية والقرطبى وابن حيان. ويتكاثر المحدثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهاءهم وقضاةهم عليه وعلى حَمَلَة مذهبهم المصرين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطُون وعيسى بن دينار ويحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجى وابن رشد الجدل. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيل. وينشط المذهب الظاهرى هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط أقه. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإساعيل الرعنى، كما عرفت المذهب الأشعرى عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع في الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، ومنهم من كتب في التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب في تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازى وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفى وابن صاحب الصلاة وأبى الهجاج البهاسى وابن الخطيب. ومنهم من كتب في

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعي وابن سيد الناس. ومنهم من كتب في تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب في الأنساب مثل ابن حزم وفي تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب في التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبي وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب في تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والحشنى والنباهى، ويشتهر في الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثاً تحليلياً تاريخياً في نشاط الشعر والشعراء موضحاً كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلاً قوياً، وشركهم المسيحيون في هذا التمثيل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسراً ومتعجباً أشد العجب من هجران الشباب المسيحي للغة وطنه الرومانشية وتمثله للعربية معجباً بها وبأدائها أشد الإعجاب، محاولاً بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعاراً ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلاً بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتاباً في دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما يتقاض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في حياتهم اليومية لهجة رومانية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعاً من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعاً عاميات دخلتها في جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التي كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع في الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث في عامية الشام ومصر وغيرها من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها في ذلك نفس شأنها وازدهارها في جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيّنة كثرة الشعراء في كل بلد بالأندلس حتى في الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ في الانضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة في عصر أمراء الطوائف، إذ تعدد الأمراء الذين يقدون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون في اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعرى الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربى وبين بعض الأغاني الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس فى أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يشتموا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هى صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هى المسمطات، وكان أول من أحدثها عربى هو مقدم بن معاني، وأعطائها صورتها النهائية بعده عريبان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا أوأشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، وألمعنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا فى دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار المهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس فى تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما فى الحب العذرى العربى القديم من حنين ملثاع وحسب ظامئى لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا يعجب. ويشترك معهم فى الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل فى الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. وتلتقى بشعراء الطبيعة والحرر، وتبلغ الأندلس فى شعر الطبيعة ذروة لعل إقليميا عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقان وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفى مقدمتهم ابن وهبون وتآملاته البديعة فى حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة فى الأندلس وفى مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتفتح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارا عظيما على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة في القرن الخامس يستصرخ الشعراء العرب ومواطنيهم لاستنقاذ مدنها من أيدي حملة الصليب، ويتعالى الصراخ في القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبى البقاء الرندى.

وازدهر النثر فى الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك فى كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفى مقدمتهم البزريانى وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبى الحصال وابن الخطيب، كما يتضح فى كثرة كتاب الرسائل الشخصية وفى مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجدد. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوايح والزوايح لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهى فى تفضيل أهب (جلود) الشياه على البسط مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التى يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجديدة، وأولاهما مستوحاة من رسالة التبريع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواظ مؤثرة مثل مواظ منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى. ونلتقى بأعمال نثرية متنوعة وفى مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصره فى الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر فى الأندلس. ونلتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز فى الكتابة التاريخية لا نظير له فى كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية وعرض ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات أمير غرناطى هو عبد الله بن بلقين، كما تلقانا قصة حى بن يقظان لابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى به بعد مولده فى جزيرة مهجورة، فتنبته طيبة فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء فى أن كلا منها يؤدى إلى نفس الغاية وهى الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت نبوتنا بيننا أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت في الأدب الإسباني إذ استوحيت منها قصة موريسكية هي قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسباني اليسوعي جراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثارا مختلفة في الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزي دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات في الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريري في مقاماته القائمة على الكُذْبة والشحاذة والتفاسيح بالسجع والتعابير الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطي وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف في قوافي السجع محاكاة لأبي العلاء في لزومياته، وتغلغله بيطل مقاماته في أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذكر - في إجمال - ما أثر به فن المقامات في الأدب الأندلسي إذ نشأت على غرارها في القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبتلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلا إلى ما يكتسبه عن طريقها بجيل وخدعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة في المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى في الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة في الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب في رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية في آسيا وشرقي أوروبا واكتشاف المجهول في تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبي حامد الفرناطي إلى بلاد البلغار والصقالية وروسيا، ورحلة ابن جبير في البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول السياسة والمجتمع

- ١ - التكوين الجغرافى والبشرى ١٣
- ٢ - الفتح - عصر الولاة ١٦
- (أ) الفتح ١٦
- (ب) عصر الولاة ٢٠
- ٣ - الدولة الأموية ٢٣
- ٤ - أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر فى غرناطة ٣٥
- (أ) أمراء الطوائف ٣٥
- (ب) المرابطون ٣٩
- (ج) الموحدون ٤٢
- (د) بنو الأحمر فى غرناطة ٤٤
- ٥ - المجتمع ٤٦
- الحضارة ٤٧
- الفناء ٥١
- المرأة ٥٢
- ٦ - التشيع - الزهد والتصوف ٥٤
- (أ) التشيع ٥٤
- (ب) الزهد والتصوف ٥٥

الفصل الثاني

الثقافة

- ١ - الحركة العلمية ٥٩
- ٢ - علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا ٧٢
- (أ) علوم الأوائل ٧٢
- (ب) الفلسفة ٨٢
- (ج) علم الجغرافيا ٨٨
- ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ٩١
- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ١٠٦
- ٥ - التاريخ ١٢٣

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

- ١ - تعرب الأندلس - كثرة الشعراء ١٢٧
- (أ) تعرب الأندلس ١٢٧
- (ب) كثرة الشعراء ١٣٧
- ٢ - الموشحات والأزجال ١٤٦
- (أ) الموشحات ١٤٦
- ابن عبادة القرظار ١٥٥
- يحيى بن يقى ١٥٧
- أبو بكر بن زُهر ١٦٠
- (ب) الأزجال ١٦٣
- ابن قزمان ١٦٨
- ٣ - شعراء المديح ١٧٢
- ابن عبد ربه ١٨٨

١٩٠	ابن دراج القسطلی
١٩٤	ابن عمار
١٩٧	ابن الحداد القهسي
٢٠٠	الأعمى التطيلي القيسي
٢٠٤	الرُّصافي محمد بن غالب
٢٠٧	ابن زَمْرَك
٢١٠	٤ - شعراء الفخر والهجاء
٢١٠	(أ) شعراء الفخر
٢١٦	سعيد بن جودي السعدي
٢١٨	عبد الملك بن هذيل
٢٢٠	يوسف الثالث
٢٢٢	(ب) شعراء الهجاء
٢٣٠	يحيى الغزال
٢٣٣	السُّمَيْسِر
٢٣٤	اليَكُوتِي
٢٣٦	علي بن حَزْمُون
٢٣٨	٥ - الشعراء والشعر التعليمي
٢٤٥	أبو طالب عبد الجبار
٢٤٩	حازم القرطاجني

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

٢٥٦	٦ - شعراء الغزل
٢٧٧	الرمادي الكندي
٢٨٠	الشريف الطليق المرواني
٢٨٥	ابن الزقاق اللُخَمِي
٢٨٨	أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية

صفحة

٢٩١	ابن خاتمة
٢٩٣	٢ - شعراء الطبيعة والخمر
٣٠٨	عبادة بن ماء السماء الأنصاري
٣١٠	عبد الرحمن بن مقانا
٣١٢	علي بن جصن
٣١٤	أمية بن أبي الصلت
٣١٧	ابن خفاجة
٣٢٢	محمد بن سفر
٣٢٣	٣ - شعراء الرثاء
٣٢٣	(أ) رثاء الأفراد
٣٣٥	محمد بن سوار
٣٣٦	ابن وهيون
٣٣٨	(ب) رثاء الدول
٣٣٩	المعتمد بن عباد
٣٤٢	ابن اللبانة
٣٤٤	ابن عبدون
٣٤٧	٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية
٣٤٧	(أ) شعراء الزهد
٣٥٣	أبو إسحق الإلييري
٣٥٦	(ب) شعراء التصوف
٣٦١	ابن العريف
٣٦٣	ابن عربي
٣٦٧	الششتري
٣٧٠	(ج) شعراء المدائح النبوية
٣٧٣	أبو زيد الفازازي
٣٧٦	ابن جابر الأندلسي
٣٧٨	٥ - شعراء الاستغفار والاستصراخ
٣٨٥	ابن الأبار

الفصل الخامس النثر وكتابه

- الرسائل الديوانية ٢٩٢
- اليزيداني ٢٩٨
- أبو محمد بن عبد البر ٤٠١
- أبو بكر بن القصيرة ٤٠٥
- ابن أبي الحصال ٤٠٩
- ابن عَميرة المخزومي ٤١٤
- لسان الدين بن الخطيب ٤١٧
- ٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٢
- حبيب ٤٣٥
- ابن الدباغ ٤٣٧
- أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٣٩
- أبو القاسم بن الجدد ٤٤٢
- سهل بن مآلك ٤٤٥
- ٣ - الرسائل الأدبية ٤٤٧
- رسالة التواضع والزواجر لابن شهيد ٤٤٨
- رسائل ابن بُرد الأصغر ٤٥٨
- (أ) رسالة السيف والقلم ٤٦٠
- (ب) رسالة النخلة ٤٦١
- (ج) رسالة أهب الشاء ٤٦٣
- رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجديدة ٤٦٥
- (أ) الرسالة الهزلية ٤٦٥
- (ب) الرسالة الجديدة ٤٦٨
- رسالة ابن غرسبة في الشعوبية والردود عليها ٤٧٢

صفحة

٤٧٩	رسائل نهوية ومواعظ
٤٧٩	(أ) رسائل نهوية
٤٨٤	ابن الجنان
٤٨٦	(ب) مواعظ
٤٨٩	منذر بن سعيد البلوطي
٤٩١	أبو بكر الطرطوشي
٤٩٣	٤ - أعمال نثرية
٤٩٤	طوق الحمامة لابن حزم
٥٠٠	كتابة التاريخ والتراجم الأدبية
٥٠٠	(أ) المقتبس لابن حيان
٥٠٤	(ب) الذخيرة لابن يسام
٥٠٨	مذكرات عبد الله بن يلقين
٥١٢	قصة حي بن يقظان لابن طفيل
٥١٧	٥ - المقامات والرحلات
٥١٧	(أ) المقامات
٥٢٢	المقامات الزومية للسرقي
٥٢٦	(ب) الرحلات
٥٣٢	رحلة ابن جبير
٥٣٧	خاتمة